آلِخو كاربنتييه

أُسلوب المنهَج

رواية

مكتبة

ترجمة
بسّام البزّاز

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

أسلوب المنهج

أسلوب المنهج - رواية

Recurso del Método

تأليف: آلِخو كاربنتييه

Alejo Carpentier

ترجمها عن الإسبانية: بسّام البزّاز

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 3 - 28 - 641 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2021

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

هاتف-فاكس: 6133856 11 963+

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

© Alejo Carpentier, 1974 and Fundación Alejo Carpentier

آلِخو كاربنتييه

مكتبة
t.me/soramnqraa

أسلوب المنهج

رواية

ترجمها عن الإسبانية:

بسّام البزّاز

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» الذي أطلقه معرض أبو ظبي الدولي للكتاب ودائرة الثقافة والسياحة - أبو ظبي دون تحمّلهم أي مسؤولية عن محتوى الكتاب أو الترجمة.

ABU DHABI معرض ابوظبي
INTERNATIONAL الدولي
BOOK FAIR للكتاب

دائرة الثقافة والسياحة
DEPARTMENT OF CULTURE
AND TOURISM

إلى ليليا!

مقدّمة المُترجِم

مكتبة
t.me/soramnqraa

تظهر هذه الرواية، في الإشارات العربية القليلة التي كُتبت عنها، تحت عنوان «أسباب الدولة». ولا شكّ أنّها ترجمة حرفيّة للعنوان الذي وضعه «فرانسيس پارتردج Frances Partridge» لترجمته الإنكليزيّة: «Reasons of State».

فكّرتُ، وأنا أطالع بعض ما كُتب حول الرواية ومحتواها، أن أُعَنونها «مصلحة الدولة العليا»، جرياً على عباراتٍ درجنا على سماعها من قبيل «مقتضيات المصلحة العامة» و«متطلّبات الأمن القومي»... ثمّ ما لبث رأيي أن استقرّ على «أسلوب المنهج»، وهو ترجمة حرفيّة للعنوان الأصلي «Recurso del método»، ثمّ لأنّ هذه الترجمة تلبّي ما أراده المؤلّف من تناظر وتوازٍ بين عنوان روايته وعنوان كتاب الفيلسوف الفرنسي ديكارت «خطاب المنهج» الذي منه استلهم روحها:

Discours de la méthode
Recurso del método

وما أبعد ما «خطّط» ديكارت عمّا «اختطّ» الدكتاتور!

في ثنايا الرواية يشير الدكتاتور إلى مفهومه عن «المنهج»، بعد قضائه على محاولة انقلابيّة قام بها أحد جنرالاته:

«إنّ عليه مطاردة الجنرال هوفْمان في تلك المسالك، محاصرته، تطويقه، عزله، ثمّ وضعه على جدار دير أو كنيسة أو مقبرة وقتله. "أطلِقوا النار!". ما من سبيلٍ آخر. إنّها قواعد اللعبة. إنّه أسلوب المنهج».

صحيح أنّ كارپنتييه يقدّم لكلّ واحدٍ من فصول روايته بفقرةٍ مأخوذة من أدبيات ديكارت، تلخّص فحوى ذلك الفصل، لكنّ الفرق بين فقرة ديكارت الموجزة والحدث الذي تلخّصه هو أنّ الفيلسوف يضع القاعدة ويداه في الماء البارد، بينما يظهر تطبيقها ساخناً ملتهباً مسوّماً بالحديد والدم والنار. فهو الواقع، والتطبيق، والتبرير، والحجّة. واقعُ الفرد وتطبيقُ الواحد وتبريرُ الأفق الضيّق وحجّة الرأس المربّع.

وهكذا تسير الرواية، بين «خطاب» ديكارتي و«أسلوب» دكتاتوري.

بين منهج method ونظام الحكم regime.

بين علميّة methodology وتجريبيّة empiricism، لتُرينا في النهاية عواقبَ التجريب والتطبيق:

«توقّفوا وتأمّلوا هذه الفوضى!».

فـ«المنهج» في هذه الرواية هو «الدولة». «الدولة» بمعنى الـ System أو الـ Regime، الدولة التي لها «أسلوب»، هو، في الواقع، «منهج» ثابت مضطرد.

ولأنّ الدكتاتورية واحدة في كلّ مكان، لم يضع كارپنتييه لدولتها مكاناً على الخريطة، ولا لعُهدتها زماناً على الروزنامة. مكانٌ عامّ ورمزيّ: أميركا اللاتينية. وزمان نخمّنه تخميناً ونستنتجه استنتاجاً. أمّا اسم الدولة المزعومة فهو «الجمهورية» مرّةً، و«البلد» مرّة أخرى، و«هنا» مرّة ثالثة. أمّا اسم الدكتاتور فهو منصبه: المستشار الأوّل. أيّ دكتاتور:

تماثيل حضرتك ستستقرّ في أعماق البحر؛ سيصبغها الملح بالخضرة، وسيحيط بها المرجان، وتغطّيها الرمال. وسيعثر عليها، في عام 2500 أو 3000 رفشُ كاسحةٍ، فيُعيدها إلى دائرة الضوء. وسيتساءل الناس حينئذٍ: ومَن كان ذلك الرجل؟ وقد لا يجدون من يردّ على سؤالهم. هذا ما حدث للمنحوتات الرومانية الكثيرة التي تشاهدها في المتاحف: لا يُعرف عنّها إلا أنّها لمُجالدٍ أو خطيب أو قائد. أمّا الأسماء فقد ضاعت. أمّا في حالة حضرتك فسيقولون: «تمثالٌ نصفيّ. تمثال دكتاتور. وما أكثر من مرَّ منهم على نصف الكرة الجنوبي هذا، وما أكثر من سيمرّ، حتى لا تعود الأسماء تهمّ في شيء!».

فالقصة خيالية لكنّها محتملة الوقوع.

والحكاية مصنوعة لكنّها ملء العين والواقع؛ لأنّ التاريخ القريب أرانا ما يشبهها تماماً وقدّم لنا منها النموذج والمثال.

وهكذا هي القصّة: حقٌّ أو باطلٌ مصنوعٌ على غِرار حقّ.

يقول الدارسون إنّ شخصية المستشار هنا خليطٌ من شخصيات فُلان الفُلاني في كوبا وعِلان العِلاني في المكسيك أو كولومبيا. لذلك فهي خيالٌ مبنيٌّ على واقع، ووَهْمٌ مبنيٌّ على حقيقة.

يرسم كارپنتييه للمستشار صورة الدكتاتور «المثقّف»، المتفرنس، المتنوّر، الذي يصادق أكاديمياً وشاعراً وأديباً هناك، والذي يزور، حين يكون هناك، المتاحف ويحضر عروض الأوبرا ويزيّن قصره باللوحات. والذي يشيّد هنا مبنى الكابيتول، على غرار ما ينهض منه في حواضر العالم وعواصمه.

ويرسمه خطيباً مفوّهاً ديماغوجياً، سلاحه الكلام وأسطوانته هي الحديث عن:

«حرية. إخلاص. استقلال. سيادة. كرامة وطنية. مبادئ مقدّسة. حقوق مشروعة. وعي مجتمعي. ولاء لتقاليدنا. مهمّة تاريخيّة. مسؤولياتنا تجاه الوطن».

لكنّه، على «ثقافته»، دكتاتورٌ فاسدٌ مفسِدٌ، يتلقّى «الكومشنات» عن طريق سكرتيره، ويتغاضى عمّا يبتدعه المحيطون به من مشاريع وهمية يكسبون منها السّحت الحرام، وعمّا تعقده ابنته من صداقات، وما يبرمه ولده، سفيره في واشنطن، من صفقات.

أمّا وحشية الدكتاتور فتظهر في قمعه لأيّ معارضة وإخماده لأيّ ثورة، وإن كلّف القمعُ أرواحاً وصوامعَ وكنائس وقدّيسين.

يفعل كلّ شيء للبقاء على كرسيّه: يحوك المؤامرات ويرسم المسرحيات: انتخابات مزوّرة ومواقف مؤثرة وابتزاز ومساومات وشراء ذمم، لأنّه يعرف أنه من دون الكرسي لا يساوي شيئاً:

«إن نزعتِ الصليبَ عنّي فماذا سيتبقّى منّي؟ من سأكون؟».

وكما ينتهي كلّ دكتاتور فقد انتهى هو مطروداً مطارداً، بعد أن رفع عرّابوه وصانعوه أيديَهم عنه:

«الشيءُ الوحيد الذي يمكنني عمله هو أن أمنحك لجوءاً في قنصليّتنا. هناك ستكون حضرتك في حماية رجالنا من المارينز. وقد حصلتُ على موافقة حكومتي»... في تلك اللحظة أدركتُ أني خُدِعت: «وأنا الذي كنتُ دائماً على علاقة جيدة بكم... وما أكثر ما قدّمتُ لكم من خدمات!». ابتسم الآخر، من وراء نظاراته، وقال: «ومن دوننا... كيف كنتَ ستظلّ كلّ هذا الوقت في الحكم؟ أمّا الخدمات فسيقدّمها لنا سواك!».

ارحلْ!

ارحلْ!

مطروداً، ثم لاجئاً، ثمّ ميّتاً في منفاه سائراً على آثار أمثاله:

> إنّه لا يريد أن تكون نهايته كنهاية الطاغية روساس، الذي مات ميتةً غامضة، منسيّاً - نسيته حتّى ابنتُه. ولا يريد أن يكون مثل پورفيريو دياث، زعيم المكسيك، الذي مات وهو حيّ، فكان يطوف بجثّته، ببدلته وقفازيه وقبّعته المهيبة، في جادات «البوا»، بين مشمّع أسود، كثياب الحداد تقريباً، في عربة تجرّها خيول، تفصح طريقة سيرها عن خطوات موزونة بطيئة لمواكب جنائزيّة قادمة.

لقد خانه جنرالاته، وخانه سكرتيره، وتخلّت عن دعمه القوة العظمى التي كانت تسنده.

خيانة من كلّ جهة وطرف.

حتّى أنتَ يا پروتس!

حتّى أنتِ يا أوفيليا!

أوفيليا ابنته، التي طردته من بيته الباريسي، وودّعته مع «شلّتها» بنشيدٍ ساخر:

> «إن لم يعجبك أصدقائي، فاحمل حقائبكَ واذهب إلى "الكريلون" أو إلى "الريتز"! هناك لديهم غرف فاخرة. رووم سيرڤيس وأجواء ممتازة».
>
> العجوز الأحمق ذاهب إلى الحرب
>
> انظر إليه، انظر، انظر!
>
> العجوز الأحمق ذاهب إلى الحرب
>
> ولن يعود!

بل لقد انتظرَت بفارغ الصبر أن يلفظ أنفاسه الأخيرة لتخفّ إلى كرنڤال يعدّه أصدقاؤها.

أمّا وصيّته فقد نفّذتها «بالحرف»، حين لم تضع على قبره حفنة التراب، تراب الوطن الطاهر المقدّس، التي أمر بها، بل جاءت له بحفنة من ترابٍ أخذته من حديقة «لكسمبورغ» الباريسية.

***

لطالما قُرنت هذه الرواية بغيرها من تلك التي عُرفت بـ«روايات الدكتاتور»: «خريف البطريرك» لغابرييل غارثيا ماركيث، و«أنا الأعلى» لروا باستوس. فخلافاً لروايات الدكتاتور الكلاسيكية: «فاكوندو» لسارمينتو، و«بانديراس الطاغية» لبايّه إنكلان، و«السيد الرئيس» لأستورياس - فإنّ هذه الروايات، الأقرب عهداً من تلك، عالجت شخصيّة الدكتاتور من الداخل. تأمّلتْ نفسيّته وأصدرت عليه حكماً ذاتيّاً لا موضوعياً.

أمّا اللغة التي كُتبت بها الرواية فهي التي تُعرف بالباروكيّة الأميركية اللاتينيّة barroquismo americano. وهي لغة معقّدة، متكلّفة، مجدّدة، مصطنعة، تُكثر من الوصف ومن الإشارات الثقافية والرموز المتصلة بشعوب وبلدان متحضرة ومتأخرة. إنّها لغة «التجديد والتغيير» التي تظهر حين ينوء الفنّ بفراغ لا تستطيع اللغة الكلاسيكية المعهودة ملأه.

***

أمّا آلِخو كارپنتييه (1904-1980) فهو واحد من أبرز أدباء كوبا وكتّابها. ولد في لوزان بسويسرا لأبٍ فرنسي وأمٍّ من أصلٍ روسي. في أحضان تلك الأسرة الأوروبية نشأ، ومن ينابيع الثقافة الأوروبية نهل. اهتمّ بالموسيقا وبالنحت. ودرس الهندسة المعمارية ثمّ الصحافة وعمل فيها وفي الإذاعة، ومنها انطلق إلى الكتابة الأدبيّة، بعد أن ترأّس تحرير العديد من المجلّات الأدبيّة. أقام في فنزويلا سنواتٍ طويلة، وفي باريس سنوات أطول، فضلاً عن زيارت تطول وتقصر إلى العديد من بلدان العالم. تأثّر بأفكار الشيوعية

وهو في العشرينات من عمره، وسُجن بسبب تلك الميول والأفكار ونُفي. عاد إلى كوبا من فنزويلا بعد انتصار الثورة في كوبا وتولّى مسؤوليّة دار النشر الوطنية الكوبية. ثمّ عُيِّن وزيراً مفوّضاً في السفارة الكوبية بباريس. سار إنتاجه الأدبي جنباً إلى جنب مع عمله الوظيفي، فأصدر رواية «مملكة هذا العالم» عام 1949، ورواية «الخطوات الضائعة» عام 1953، ومجموعة «حرب الزمن» القصصية عام 1958، ورواية «عصر التنوير» عام 1962. في عام 1974 صدرت له روايتان هما «كونشيرتو باروكو» و«أسلوب المنهج».

عُرف كاربنتييه بلغته المنمّقة الصعبة، التي تهتمّ بالصناعة اللفظية والوصف، وتزخر بالإشارات الثقافية والفلكلوريّة والفنية. وُصف بأنّه الكاتب اللاتيني الأكثر ولعاً بالرسم والنحت. أمّا هو فقد وصف نفسه بأنّه «مزيجٌ أوروبي - أميركي، عابرٌ للثقافات، ومفترقُ طريق لاتيني يشعّ بالصور نحو ضفتي الأطلسي بعفويّة وطلاقة».

***

استعنّا في كتابة هذه المقدّمة والعديد من الملاحظات الهامشيّة بعدد من المقالات التي كُتبت حول هذه الرواية وحول روايات الدكتاتور عموماً. وقد أشرنا إلى ذلك في الهوامش:

- Campuzano, Luisa: «Notas sobre el código clásico de A. Carpentier». *Thesaurus*, t. LII, № 1,2,3 (1997), pp. 284-298.

- Dellepiane, Angela, B.: «Tres novelas de la Dictadura: *El recurso del método, El otoño del patriarca, Yo, el supremo». Cahiers du monde hispanique et luso-brésilien.* №29, 1977, pp. 65-87.

(تقدِّم هذه الباحثة سرداً بـ 20 من روايات «الدكتاتور». ص65، هامش 1).

- Díaz Castañón, Carmen: «El «Discurso» de Alejo Carpentier», OA, XXV, pp. 217-260. [CDC]

- Eyzaguirre, Luis B.: Sobre tiranía y «Métodos» de «supremos» y «patrircas». *Revista de Literatura Hispánica*, Vol.1, Nº3, 1976.

- García Castro, Ramón: «Notas sobre la pintura en tres obras de Alejo Carpentier». *Revista Ibero Américana*, XLVI, 1980, pp, 67-84. [RGC]

- Jones, Julie: «The Picaroon in Power: Alejo Carpeniers's El recurso del método». *Revista Canadiense de Estudios Hispánicos,* Vol. 7 (1983), pp. 263-271.

- Ortiz, Mª. Salvadora: «La parodia al *Discurso del método* de Rene Descartes, en el *Recurso del método* de Alejo Carpentier», *Filología y Lingüística*, XI (2): 29-44, 1985.

***

بقي أن أشير أخيراً إلى أن حواشي الرواية جميعها من وضع المترجم. وتشير الأرقام الواردة ضمن [ ] في المتن إلى رقم حاشية سابقة.

بسام البزاز

الجزائر، 2020

الفصل الأول

ليس غرضي أن أعلّمَ المنهجَ الذي يجبُ على كلّ فردٍ اتباعُه لكي يحكمَ قيادةَ عقلِه، ولكنّ غرضي هو أن أبيّنَ على أيّ وجهٍ حاولتُ أن أقودَ عقلي[1].

ديكارت، «مقال عن المنهج»

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) «مقال عن المنهج» Discours de la méthode، ترجمة: محمود محمّد الخضيري، ص112.

واحد

... رقدتُ للتوّ وها هو ذا المنبّه يرنّ. السادسة والربع. غير ممكن، ربّما. أقرب. الثامنة والربع. قد يقال إنّ هذا المنبّه أعجوبة من أعاجيب صناعة الساعات السويسريّة، لكنّي أكاد لا أرى عقاربه من فرط دِقّتها. التاسعة والربع. ولا التاسعة والربع. النظّارات. العاشرة والربع. نعم، العاشرة والربع. ثمّ إنّ النهار يبدو مصبوغاً بلون الضحى من فوق صفرة الستائر. وهو ما أراه دائماً حين عودتي إلى هذا البيت: أفتح عيني فيلفّني شعورُ مَن يكون هناك، على شبكة النوم هذه التي ترافقني أنّى ذهبتُ -البيتُ، الفندقُ، الحصنُ الإنكليزي، قصرُنا...- إذ لم أجد يوماً راحتي على سرير قاسٍ بمرتبة ومخدّة. ما أريده هو سريرٌ هزّاز أتكوّر فيه وأتأرجح في حضن حباله. هزّة أخرى وتثاؤب، ثمّ هزّة أخرى وأُخرجُ ساقيّ لأطأ الأرض بقدميّ وأبحث عن الخُفّين اللذين ضاعا منّي بين ألوان السجادة الفارسيّة. (لو كنّا هناك، لألبستني لامايورالا إلميرا[2] إيّاهما، وهي التي ترقب صحوتي دائماً. لا بدّ أنّها تنام الآن، كما تقتضي طقوسها وعاداتها، على سريرها الميداني، بنهدين سائبين وقميصٍ داخليّ قصير على الوركين، في ليل نصف الكرة الأرضيّة الآخر). خطوات نحو الضياء. حبلٌ يُسحب

(2) La Mayorala هي مدبّرة المنزل والوصيفة.

من جهة اليمين ليظهر، مع صوت الحلقات، من فوق، مسرحُ النافذة. لكنّ ما يقترب منّي هو قوس النصر، بدلاً من بركان -جليدي، مهيب، بعيد، بيت آلهة عتيق- قوسُ النصر الذي خلفه يقع بيتُ صديقي الكبير ليمانتور، وزير دون پورفيريو السابق[3]، الذي يتعلّم المرء منه الكثير وهو يسمعه يتكلّم عن الاقتصاد وعن أزماتنا الخانقة. صوت خافتٌ في الباب. يظهر سلفستري، بصدريّته المخطّطة، وهو يحمل صينيّة الفضّة الثقيلة الرائعة - المعمولة من فضّة مناجمي: «قهوة السيّد: ثقيلة كما يفضّلها هو. على طريقة تلك النواحي... سيّدي، هل نمت جيداً؟ [بالفرنسيّة]»... تنزاح ستائر الديباج المزركشة الثلاث، الواحدة تلو الأخرى، لتكشف، في يومٍ مشمس، مناسب لركوب الخيل، عن تماثيل من عمل رود[4]. الطفل - البطل الذي بانت خصيتاه، يحمله إلى المعركة قائدٌ أشعثُ الشعر قويّ الجنان، ينتقل، حين تهتزّ الصفوف وتضطرب، من مقدّمة الجيش إلى مؤخرته، محمّساً جنوده، هاتفاً لهم بأناشيد النصر. لو جورنال، الآن. لو إكسلسوار، التي توشك صفحاتها أن تصبح، من كثرة ما فيها من الصور، مصوّراً سينمائياً للوقائع. لاكسيون فرانسيز، بأطباق «پامپييه» التي تؤشّر عليها ابنتي كلّ يوم بالقلم الأحمر لتنبّه طبّاخنا الماهر إليها، وافتتاحية اللعن التي يكتبها ليون دوديه[5]، والتي تحرّك، بشتائمها الذكية التهويليّة -وفي ذلك أسمى تعبير عن حرية الصحافة- صدامات وعمليات خطف واغتيال وإطلاق نار يوميّة في بلداننا. لو پتيت پاريزيان: تتواصل الانتفاضة في «أولستر» الإيرلنديّة، مصحوبة برشق رشاشات وعزف قيثارات: سخطٌ عالمي سببه الحملة

(3) Porfirio Díaz (1830–1915): رئيس المكسيك لسبع فترات رئاسيّة (1877–1911). أُجبر على التنحّي، ونُفي إلى فرنسا حيث مات.

(4) François Rude (1784–1855): نحّات فرنسي.

(5) León Daudet (1867–1942): صحفي وكاتب فرنسي ملكيّ الهوى.

الثانية لجمع كلابٍ من القسطنطينيّة، حُكم عليها بأن يفترس بعضها بعضاً على أرض جزيرةٍ مقفرة[6]، تجدُّد أحداث العنف في البلقان، عشّ دبابير أبديّ، برميل بارود دائم، فهي تشبه، في ما أرى، محافظاتنا في الأنديز. ما زلتُ أذكر -كان ذلك في رحلتي الماضية- مراسم استقبال ملك بلغاريا. مرَّ من هنا، مع الرئيس ڤالبير[7]، مستعرضاً هيبته وجلالته، بقنزعة الريش على رأسه والبدلة الموشّاة بالذهب والفضّة (خِلتُه، للحظة، الكولونيل هوڤمان)، في عربة فخمة، بينما فرقة الحرس الجمهوري، المصطفّة عند النصب النابليوني، تعزف پلاتشا ديفيتزا وتشوما ماريتزدا، بمجموعة ضخمة من الترومبيتات والكلارينيتات والأبواق، تدعمها توليفةٌ من النايات والمثلّثات. عاش الملك! عاش الملك! [بالفرنسيّة]، يهتف حشدٌ من الجمهوريين، وفي دواخلهم شوقٌ إلى عروش وتيجان وصولجانات وملوك، نعم، ملوك حلَّ محلّهم رؤساء يرتدون بدلات «الفراك» ويزيّنون صدورهم بوشاحٍ قرمزيّ، ويحرّكون قبّعاتهم بين الرأس والركبة، في إيماءة تحيّة كالتي يؤدّيها العميان الذين يطلبون صدقة وهم يحاولون البحث عن نغمة الساق الخشبيّة[8] في ثقوب الأكرينة السود[9]. الحادية عشرة إلا عشرين دقيقة. شعور بالسعادة مبعثُه أجندة مغلقة، ملقاة على الطاولة القريبة من شبكة النوم، بلا مواعيد مقابلات ولا زياراتٍ رسميّة، ولا تقديم أوراق اعتماد ولا عسكريين يأتون لزيارتك فجأة، خارج البرنامج والبروتوكول، ويدخلون على وقع الأحذية والمهاميز. لكنّي

(6) إشارة إلى إبادة 50.000 من الكلاب السائبة عام 1910 في جزيرة «سيفريادا»، ببحر مرمرة.

(7) Armand Fallières (1841-1930): رئيس فرنسا بين عامي 1906 و1913.

(8) La jambe en bois: عنوان أغنية.

(9) كان من عادة المتسوّلين أن يعزفوا على آلة الأكرينة، وهي من آلات النفخ الموسيقية متعددة الثقوب.

نمتُ أكثرَ من المعتاد، لأنّي نمتُ البارحة، طبعاً، الليلة البارحة، وكان الوقت متأخراً جداً، مع راهبة من راهبات إخوانيّة «سان بيثنته دي پول»، كانت ترتدي ثوباً أزرق غامقاً، وتعتمر غطاءً منشّى من طرفَيه، وتقطع ثدييها بوشاح، وتعلّق سوطاً من جلدٍ روسيّ على خاصرتها. كانت صومعتها مكتملة اللوازم: كتابُ قدّاسٍ ذو غلافٍ جلديّ موضوع على طاولة خشبيّة بدائيّة، بالقرب من الشمعدان الفضّي والجمجمة الرماديّة -لم ألمسها- التي قد تكون من الشمع أو، ربّما، من الكاوتشوك. مع ذلك فقد كان السرير وثيراً، على الرغم من طرازه الذي يذكّر بأسرّة الأديرة والسجون، بوسائده التي حُشيت بنسيج من صوف اصطناعي، وريشها الذي حُشر في أغلفة بدت معمولة من الخيش، وهيكله الذي تتناغم نوابضه المرنة وتستجيب لحركات الأكواع والرُّكب التي تتشابك فوقه. كان السرير مريحاً، كما كانت أريكة حجرة الخُلفاء أو مقعد عربة - المنام المخمليّ في قطار فاغون لتس كوك (باريس-ليون-البحر المتوسط) المتوقف دائماً، بعجلتيه وسلّمه، في الممرّ الذي -أجهل عن طريق أيّ آليّة عبقريّة- تنبعث منه دائماً رائحة تنفّس محرّكات القطار. لم أعاين بعدُ تشكيلة الوسائد والحُصُر في البيت الياباني؛ ولا قُمرة التايتانيك، التي أُعيدَ بناؤها استناداً إلى ما ورد في الوثائق، والتي تستحضر لحظة وقوع الكارثة. (هيّا بسرعة، عزيزي، قبل أن نرتطم بجبل الجليد... ها هو ذا... ها هو ذا... بسرعة، عزيزي! السفينة تغرق... إنّنا نغرق... نغرق... هيّا!)؛ أريكة المزرعة النورمانديّة، التي تضوع رائحة التفّاح من زجاجات عصيره الدانية، وحجرة العرس، حيث تسمح غابي، وهي بثياب العرس، وعلى رأسها تاج أزهار البرتقال، بأن تُفتضّ بكارتها أربع مرّات أو خمساً، كلّ ليلة، حين لا تعمل في الصباح -يدعون ذلك «الخفارة»- لأنّ بعض

الزبائن، على الرغم من الشيب الذي يغطّي رؤوسهم، وعلى الرغم من نيشان جوقة الشرف الذي يحملونه، ما زالوا يستمتعون، بين الحين والحين، بأمجاد استيقاظ فيكتور هوغو المنتصر[10]. أمّا قصر المرايا، فلطالما عكس لي شكلي مُطوّلاً ومُقصّراً، في اختراعات وتخطيطات، حتى جمع كلّ أحوالي الفيزياويّة في ذاكرتي كما يجمع ألبوم الصور العائليّة كلّ الإيماءات والمواقف والوقفات والملابس التي أشّرتْ أجمل أيام الحياة. أفهمُ الدافع الذي جعل الملك إدوارد السابع يأمر ببناء حمّام خاص به، بل أمر بأن يصنع له نجّارٌ ماهر يحظى بثقته مقعداً -هو الآن قطعة أثريّة محفوظة في حجرة خاصة- يسمح له بمداعبات حميمة يحولُ كرشُه الكبير، في العادة، دون أن يمارسها. كم استمتعتُ بعربدة الليلة البارحة. مع ذلك فقد شعرتُ، وقد زال تأثير ما عببتُ من الشراب، بخوف من أن تكون عواقب متعتي المحرّمة مع راهبة سان بيثنته دي پول وخيمة (في مرّةٍ سابقة، كانت پوليت قد قدّمت لي نفسها على أنّها تلميذة إنكليزيّة تحمل مضرب تنس وسوط ركوب؛ وقبلها، رأيتها مصبوغةً، كأنّها مومس ميناء، ترتدي جوارب سوداً وأربطة حُمراً وحذاءَين من الجلد عاليين). (ثمّ إنّ تلك الجمجمة، بعد التفكير فيها مليّاً، تبدو لي بالغة الشؤم، سواء أكانت من كاوتشوك أم من شمع...) كان في مقدور راعية قرطبة الجديدة الإلهيّة، شفيعة وطني وحاميته، وصاحبة الأعاجيب والمعجزات، أن تسمع بانحرافاتي وهي في رابيتها، حيث ينهض ديرها القديم بين صخور ومقالع. لكنّي شعرتُ بالاطمئنان إذ رأيتُ أنّهن غير مكتملات الإيمان ولا كاملات التقوى، فلم يكلّفن أنفسهنّ أن يعلّقن في الصومعة المزيّفة، حيث أتيتُ نزوتي ومعصيتي، صليباً. الواقع هو أنّ مدام إيڤون، بفستانها

(10) يشير إلى مغامرات الأديب الفرنسي الكبير العاطفية وعلاقاته الكثيرة مع النساء.

الأسود، وعقد اللؤلؤ، وأسلوبها الراقي، ولغتها التي تتنقل، بحسب الأحوال وبحسب الزبون، بين أسلوب پورت - رويال وأسلوب برون[11] -والشبيهة، في ذلك، بفرنسيتي، التي هي خليط من مونتسيكيو ومن نيني جلد الكلب [11]- كانت تتصرّف وفق أخيلة كلّ زبون ونزواته، وتعرف أين عليها أن تتوقّف. ما كان لها أن تعلّق صورة الملكة فيكتوريا في حجرة التلميذ الإنكليزي، ولا أن تضع أيقونة في حجرة البوليار العظيم، ولا تمثال إلهٍ رومانيّ في حجرة عجائب بومبي. كانت، حين يزورها زبائن معيّنون، تبدي حرصاً على أن تتخذ «فتياتها» الحالة التي تناسب دورهنّ، كما يقول الممثّلون: أي أن يركّزن على أداء الدور -عروسٌ تضطرم رغبةً، راهبة ركبها الشيطان، قرويّة متعطّشة لممارسة الفاحشة، امرأة نبيلة تخفي شخصيتها، سيدة عظيمة ساءت حالها وتردّت، أجنبية-عابرة-متعطشة-لتجربة-أحاسيس-جديدة، إلخ، إلخ-، المهمّ، يتصرّفنَ تصرّفَ ممثّلات تخرّجنَ في معهد عالٍ للتمثيل، شرط ألّا يوافقن على الإمساك بالنقود الموضوعة على الطاولة بشفتي عضوهنّ الأنثوي، كما تفعل أخريات، ذوات أسلوب آخر، في صالون العروض في الطابق السفلي -«الديكنّ حقّ الاختيار، سيداتي...» [بالفرنسيّة]-، حين يرتدين مع كلّ فستان سترة من الدانتيل الإسباني، وطوقاً من هاييتي، أو تنّورة اسكتلنديّة حُشر ذيلُ ثعلب في مشبك حزامها. يأتيني سلفستري بالحلّاق، الذي يوافيني، وهو يحلق لي، بآخر بطولات الأباتشي، الذين باتوا يعملون في صناعة السيارات والسلاح الثقيل. وحين وضع مسحوق البودرة على خدّيّ، فرّجني على صورة حديثة لابنه، وقد بدا عسكرياً كاملاً -قلتُ له ذلك-

---

(11) Aristide Braunt (1851-1925): مؤلّف ومغنٍّ واقعيّ فرنسي. وهو صاحب أغنيّة Nini-peau-de-chien المشار إليها والتي تحكي قصة مومس كانت تدعى هكذا.

بريشات طائر الشابنام التي تزيّن قبّعته. وأثنيتُ على روحيّة الشعب وانضباطه، حيث يستطيع شاب من أسرة بسيطة، أن ينال، بجدّه واجتهاده، خبرة العسكريين الذين يستطيعون، بالتقدير وبالحساب، ومن دون أن يطلقوا طلقة واحدة، مسار القذيفة ومداها. (يفعل رجال مدفعيّتي، عموماً، الأعاجيب حين يستطيعون تحديد ارتفاع المدفع وزاويته بالأسلوب الاختباري التجريبي -وهو فعّال في بعض الحالات، يجب الإقرار بذلك- الذي يتلخّص في «ثلاثة أشبار إلى الأعلى واثنان إلى اليمين، مع إصبع ونصف من هامش التصحيح، سدّدوا صوب ذلك البيت ذي السقف الأحمر... أطلقوا النار!»... واللطيف أنّهم يصيبون الهدف...). خلف صورة طالب كليّة «سان سير» العسكرية، عرض الحلّاق صورة حديثة لفتاة شابّة، تتدثّر بثوب شفّاف، تبدو مهتمّة بفائدة السندات الروسية الجديدة[12] البالغة 6.4%، حتى لتبدو مستعدّة لـ... -سرّاً طبعاً- من أجل شراء أسهم إنقاذ ثروة كانت تعود إلى أسماء أسرٍ عريقة وشعارات نبلاء حمرٍ وبيضٍ، باتت على شفا الإفلاس والانهيار؛ تلك الشابّة -أو، كما يقال «خبرتها»، لا بأس بها-، المهمّ، تلك الشابّة... (سأرسلُ بيرلاتا ليُعاين ويتفحّص ويوافيني بالأخبار...). يؤكّد الصيف الجديد حضوره ووصوله، من خلف الزجاج، في خضرة أشجار الكستناء البرّاقة. يأخذ الترزي الآن لي القياسات ويعاود أخذها، يكسوني بقطعٍ من ستر أميركيّة، جاكيتات رسميّة طويلة، يضبطها، يسوّيها، يرتّبها، يرسم عليها، بقطعة طباشير مسطّحة، أشكالاً تجريديّة افتراضيّة في كسوة مجزّأة معمولة من أصواف داكنة اللون. ألتفُّ حول نفسي، كعارضة الأزياء، وأتوقّف في زوايا تساعد على إلقاء إضاءة جيدة على جسمي. أتأمّل، بحسب الاتجاه

---

(12) يشير إلى سندات حكوميّة طرحها الاتحاد السوڤييتي لمواجهة متطلبات الحرب، وأسماها سندات الحريّة.

المفروض عليّ، اللوحات والمنحوتات التي تحيط بي والتي تبدو وكأنّها تولد من جديد من حولي، فما عدتُ أنظر إليها إلا قليلاً من كثرة ما تطلّعتُ إليها. ها هي ذي، كالعادة، لوحة جان-پول لورانس، سانتا راديغوندا، ميروفينية وثابتة، وهي تتلقّى البقايا المقدّسة التي جاء بها من أورشليم مبعوثون يعتمرون القلنسوات: قطعة من صليب الربّ موضوعة في صندوق فاخر من العاج[13]. وهناك، في منحوتة ملحميّة، يظهر مجالدو جيروم[14]، وقد سقط حامل الشبكة فيهم والتفّ بشبكته وراح يتلوّى تحت قدم المقاتل الشجاع حامل الزرد والقناع، الذي هزمه، والذي بدا، ورمحه في يده، ينتظر إشارة القيصر. («Macte = أحسنت» - هو ما أقوله دائماً، حين أشاهد هذه اللوحة، ثمّ أنزلُ إبهامَ يدي اليمنى نحوالأسفل...). أستديرُ ربعَ استدارة وأتأمّل لوحة مارينا دي ألستير التي تفتتح زرقتها القلقة بالقوارب الشراعية في المقدمة، بين زبد يلامس الغيوم، بالقرب من تمثال فون صغير معمول من رخامٍ ورديّ حاز على الميدالية الذهبيّة في مسابقة الفنّانين الفرنسيين الأخيرة. «استدِرْ قليلاً إلى اليمين!» قال لي الترزي. وها أنا ذا أرى التعرّي الشهواني في حوريّة جيرفكس[15] النائمة. «الكُمّ الآن»، قال الترزي. وأجدني أمام ذئب غوبيو من رسم لوك أوليفيه ميرسون[16]،

---

(13) يشير هنا إلى لوحة تمثّل سانتا راديغوندا للرسّام الفرنسي Jean-Paul Laurens (1838-1921). أمّا صفة «ميروفينية» فتشير إلى أسرة من الفرنجة حكمت بين القرنين الخامس والثامن.

(14) Jean León Gerôme (1824-1904): رسّام فرنسي. ومن لوحاته مارينا دي ألستير المذكورة لاحقاً.

(15) Henri Gervex (1852-1929): رسّام فرنسي.

(16) Luc Olivier Merson (1846-1920): رسّام ومصوّر فرنسي. واللوحة التي يشير إليها هي لوحة ذئب غوبيو التي يظهر فيها القديس فرنسيس الأسيزي وهو يتوجّه إلى الذئب المفترس فيُحيله وديعاً مطيعاً.

حيث يظهر الحيوان المفترس، الذي عاد وديعاً طيباً بعد الكلمات التي تلقّاها من الراهب، فراح يلعب مع الأطفال المشاكسين، وراح هؤلاء يجرّونه من أذنيه. ربع استدارة أخرى، وها هو ذا عشاء الكرادلة لدومون[17] (أيُّ وجوهٍ وضيئة راضية وجوههم! وما أصدقَ تعابيرها! وذاك، ذاك الواقف إلى اليسار، الذي شفّ جسمه حتى بدت أوردتُه على جبهته!) إلى جنب منظّف المداخن الصغير لشكران - مورو، وحفلة استقبال روتينيّة لبيرو[18]، حيث الخلفيّة الحمراء تبرز روعة فساتين النسوة، فساتين فاتحة الألوان، مدلوعة الصدور، بإزاء سواد الفراك وخضرة النخيل وبريق أواني الكريستال. والآن، مقابل الضوء تقريباً، يستقرّ نظري على مشهد قرطبة الجديدة، الذي رسمه أحد رسّامينا المتأثرين برسومات إغناثيو ثولواغا[19] لطليطلة - فتدرّج الأصفر الضارب إلى البرتقالي تلاحظه في البيوت، هنا وهناك، بينما انقلب جسر «مابوتشه» إلى جسر «الكانتارا»... أُيمّم وجهي الآن إلى النافذة. يحدّثني الترزي عن بعض زبائنه الذين ترفع ألقابُهم من سمعتهم المهنيّة؛ ففي إنكلترا، على سبيل المثال، يتباهى صانع البسكوت أو المربّيات، فيكتب على البطاقات الموضوعة على منتجاته، عبارة «مُجهّز الملك». ومن حلّاقي علمتُ أنّ غابرييل دانونزيو[20]، المسرف، المسوّف، كلّفه بأن يعمل له اثنتي عشرة صدرية فنطازيّة وقطعَ ملابس أخرى لم أسمع منه بتفاصيلها، لأنّ مجرّد سماع اسم غابرييل دانونزيو يذكّرني بذلك الفناء الغامض الفخم المرصوف بالحجر، المخفيّ وراء واجهة بيت بائس

---

(17) Maurice Dumont (1869–1899): رسّام وشاعر فرنسي.

(18) Chocrane-Moreau (1855–1930) و Jean Béraud (1849–1935): رسّامان فرنسيّان.

(19) Ignacio Zuloaga (1870–1945): رسّام إسباني.

(20) Gabriele D'Annunzio (1863–1938): شاعر وكاتب وصحفي إيطالي.

واقع في شارع «جيوفروي لاسنييه»، حيث ينهض، في نهاية ممرّ تنبعث منه رائحة حساء الكرّاث، سرادقٌ له واجهة كلاسيكيّة من تماثيل وقضبان، تشبه تلك التي تزيّن الأوبرا، وقد كان لي شرف تناول العشاء فيه أكثر من مرّة، مع الشاعر العظيم في خلوته. كان لذلك المعتكف، الفخم السرّي، حكاية وأسطورة: يقال إنّ غابرييل، حين يكون وحيداً، تقوم على خدمته غارسونات حسناوات لهنّ أسماء ساحرات، وبينما تراقب حارسة تحظى بثقته دائنيه الكثيرين، داخل البيت المزيّن بالجبصين الأبيض والمرمر القديم وورق البرشمان وأوشحة العصور الوسطى، كانت تنبعث، من المباخر، أصواتٌ رخيمة تنطلق من حناجر جوقة من الأطفال، تتناوب في غناء دينيّ، من وراء حجُبٍ تستر عري النساء، نساء كثيرات -منهنّ الخطيرات والشهيرات والنبيلات- مستسلماتٍ لرغبات غابرييل ومزاجه. («لا أعرف ما الذي يحبّبهنّ فيه» -قال پيرلاتا- «دميم وأصلع ومكوّر!»... «الله أعلم!»، قلتُ، وأنا أرى أنّ ذلك أجدى، لمن استطاعه، من التردّد على ماخور شابانيه، الذي ما زال مسكوناً بشبح إدوارد السابع). يدخل پيرلاتا، في هذه اللحظة، وهو يحمل رزمة من الكتب تعلوها نسخة صفراء من طفل المتعة -وهي النسخة الفرنسية من إل پياشيري[21]- حيث لم يجد سكرتيري، بالمناسبة، ذلك العمق الذي يعدُ به العنوان... «كانت في غرفتي، ولم أتمّ قراءتها». ترك الكتب على المنضدة بينما حمل الترزي أقمشته، بعد أن خلع عنّي الجلود الثمينة والبدلات غير المكتملة والسراويل التي لم تستقرّ بعدُ بين الساقين. «أعطني شراباً!». فتح الدكتور پيرلاتا مكتبي الصغير وأخرج زجاجة من رون «سانتا إينيس» تحمل بطاقتها التي كُتب عليها الاسم بحروف قوطيّة فوق منظر طبيعي يصوّر حقولاً لقصب

(21) Il Piacere. وهي أولى روايات الإيطالي دانونزيو. نُشرت عام 1889 وترجمت إلى الإنكليزية تحت عنوان The child of Pleasure.

السكر. «هذا يهب الحياة». «وخصوصاً، بعد ليلة البارحة». «السيّد مفتون بالمتديّنات». «وأنت مفتون بالسوداوات». «حضرتك تعرف، يا صديقي، أنّي بنزين!». «كلّنا بنزين هناك!» قلتُ، ضاحكاً، بينما بدأت أوفيليا في الأعلى، وقد علمتْ أنّي استيقظتُ، بعزف من أجل إليزا\[22]... «أداؤها يتحسّن، يوماً بعد يوم» -قال سكرتيري، وترك كأسه مرفوعة- «رقّةً وإحساساً»... هذه المعزوفة التي طالما ترددتْ أنغامها العذبة في شقّة ابنتي، تذكِّرني اليوم، على الرغم من الأخطاء المفهومة في الإيقاع، بالقطعة الأخرى التي طالما عزفتها دونيا ايرمنخيلدا، أمّها المضحّية المتفانية -كانت ترتكب الخطأ نفسه في مقياس الإيقاع-، حين كانت هناك، في مرفأ «لا بيرونيكا» -أيام الشباب والشوق والعواصف، أيام العاصفة والعنفوان[23]، أيام الشقاوة والمجون-، تنتقل، بعد أن تهديني مقطوعة ڤالس لخوبنتينو روساس أو ليردو دي تيخادا[24]، إلى قائمة الأصمّ الكبير (من أجل إليزا\وافتتاحية ضوء القمر، التي لم تكن تتجاوزها)[25]، ورومانسيّة تيودور لاك[26]، وعدة مقطوعات من موسيقا غودراد وشاميناد[27]، يضمّها ألبوم عنوانه موسيقا\البيت. أتنهّدُ وأنا أتذكّر أنّنا من ثلاث سنوات مضت

---

(22) Für Elise قطعة موسيقية لبيتهوڤن.

(23) Sturm und Drang حركة أدبيّة ألمانية رومانتيكية ظهرت أواخر القرن الثامن عشر ردّاً على حركة التنوير الفكريّة الفلسفيّة.

(24) Juventino Rosas (1868–1894) و Miguel Lerdo de Tejada (1869–1941): مؤلّفان موسيقيان مكسيكيان.

(25) Clair de Lune مقطوعة على البيانو للفرنسي كلود ديبوسي Claude Debussy (1862–1918).

(26) Théodore Lack (1846–1921): مؤلّف موسيقي فرنسي. ومقطوعته المذكورة هي Idilio.

(27) Benjamin Godard (1849–1895): مؤلّف موسيقي وعازف كمان فرنسيّ.
Cécile Chaminade (1857–1944): مؤلّفة موسيقية وعازفة بيانو فرنسيّة.

أقمنا لها جنازة تليق بملكة، وضعنا تابوتها تحت سرادق، وسار خلف جنازتها موكبٌ من وزراء وجنرالات وسفراء وكبار رجال الدولة، مع جوقة موسيقيّة عسكريّة ترافقها ثلاثٌ أخرى جُلبت من المحافظة -مئة وأربعون عازفاً في المجمل-، لعزف المسيرة الجنائزيّة من السيمفونية البطوليّة، وتلك الأخرى التي لا بدّ منها، لشوبان[28]. أشاد كاهننا الأكبر في صلاة الجنازة (التي استلهم جزءاً كبيراً منها، بطلب منّي، من تلك التي ألقاها «بوسويه» في ذكرى الأميرة هنربيت الفرنسيّة[29]: «ذاك الذي يحكم في السماوات»...) بمناقب الفقيدة، التي قال إنّ فيها من الفضل والسموّ ما يؤهّلها لمرتبة القديسة. كانت دونيا ايرمنخيلدا متزوّجة ووالدة، بالطبع، أولادها هم «أوفيليا» و«آرييل» و«ماركو أنطونيو» و«راداميس»، لكنّ الأسقف ذكّر مستمعيه بالفضائل الزوجية المباركة لسانتا إيزابيل، والدة يوحنّا المعمدان، ومونيكا، والدة أغسطين. أنا، بعد ذلك الكلام المهم، لم أجد سبباً للاستعجال في رفع طلب إلى سلطات الفاتيكان العليا، فنحن، أنا وهي، كنّا نعيش زواجاً عرفيّاً، وهي كانت محظيّتي طوال سنوات، قبل أن تقودني دوامة السياسة وظروفها المفاجئة العاصفة إلى حيث أنا. ما يهمّ هو أنّ صورة حبيبتي ايرمنخيلدا، التي طُبعت بالألوان في «دريسدن»، بمبادرة من وزير التربية، ظلّت محطّ احترام وتوقير في طول البلاد وعرضها. قيل إنّ جثمان المرحومة تحدّى فعل الدود وحافظ على ابتسامتها الأخيرة، الهادئة الطيّبة، مرسومة على وجهها. وأكّدت النساء أنّ لصورتها فعلاً إعجازياً لتسكين آلام البطن ومشكلات الولادات

(28) يشير إلى الموسيقا الجنائزية المعروفة بالمارش الجنائزي لشوبان.

(29) Jacques-Bénigne Bossuet (1627–1704): هو أسقف فرنسي عُرف بفصاحته وخطابته. Henrietta Maria (Enriqueta María de Francia) (1727–1752): أميرة فرنسية وهي إحدى بنات لويس الخامس عشر.

الأولى، وأنّ نذور الفتيات الباحثات عن أزواج تجد فيها مردوداً أنجع وأسرع من تلك الممارسة الشائعة في إدخال تمثال سان أنطونيو النصفي في بئر ورأسه موجّه نحو الأسفل. حشرتُ للتو وردة غاردينيا في عروة صدر سترتي، بعد أن أبلغني سلفستري عن زيارة الأكاديمي البارز - انتُخب مؤخراً، ورحّبوا به تحت القبّة، ولا أدري كيف رحّبوا به وهو الذي وصف الخالدين الأربعين[30]، قبل بضع سنوات، بأنّهم «مومياءات فجّة مزدوجة القرون، وقابلات عفا عليهنّ الزمن، مولّدات قاموس يقف عاجزاً عن فهم تطوّر اللغة، أمام أصغر «لاروس» وضع للاستعمال المنزلي». (مع ذلك، فبعد انتخابه -وافقتُ من أجل أن أستمتع [بالفرنسيّة]-، حرصَ على أن يعهد بتصميم مقبض سيفه إلى صديقه الشهير ماكسنس، الذي استطاع، بعد أن ترك فنّ التصوير وتحوّل إلى فنّ الصياغة، أن يعكس روح عمل قريب من أجواء الكتاب المقدس وأساطير العصور الوسطى، في أسلوب وجدتُه يجمع جماليّة أفعوانيّة مدينة العجائب مع أرقّ ما في حقبة ما قبل الرافائيليّة[31] من روح). أخفى پيرلاتا زجاجة «سانتا إينيس»، ورحّبنا بالعبقري الرقيق الذي يجلس الآن في مكان تسقط فيه على ميدالية جوقة الشرف الأحمر المعلّقة على صدره حزمةٌ من أشعّة الشمس، مليئة بغبار متصاعد. أوليفيا ما زالت في الطابق العلوي مشغولة بمعالجة مقطع من أجل إليزا الذي طالما بدا لها نشازاً مما به من البيمولات غير المناسبة. «بيتهوڤن»، قال الأكاديمي البارز، وهو يؤشّر إلى الأعلى، وكأنّه يعلن لنا عن خبر مهم. وبعثر، بيد من اعتاد أن يجد أبواب بيتي مفتوحة له، الكتب التي كان سكرتيري جاءني بها قبل

(30) يشير إلى أعضاء الأكاديمية الفرنسية للّغة.

(31) ما قبل الرافائيليّة: رابطة للرسّامين والشعراء البريطانيين تشكّلت عام 1848 في ردّة فعل على تدنّي الفن آنذاك.

قليل. الإلحاد كتاب لو دانتك[32]. حسناً. كتاب ثقيل. التلميذ لبورجيه[33]. لا بأس به، ولكن ليس علينا أن نقلّد الألمان الثقلاء في هوسهم بخلط الرواية بالفلسفة. أناتول فرانس: عبقرية لا يختلف عليها اثنان، لكنّه يحظى ببالغ الاحترام خارج فرنسا. ثم إنّ ارتيابيته الممنهجة لا تقود إلى شيء... شانكلير: شيء غريب. نجاح وفشل. جرأة عبقريّة وغير موفقة في آن معاً، لكنّها تظلّ محاولة يتيمة في تاريخ المسرح[34]. وراح ينشد:

أيّتها الشمس!
أنتِ التي من دونك
لن تكون الأشياءُ أشياءً...

(يجهل الأكاديمي أنّ عشرة آلاف من الدكاكين وبيوت الدعارة في أميركا صارت، من عشرة أعوام، تحمل اسم شانكلير...). يهمهمُ، ساخراً وموافقاً، بعد أن رأى منشوراً معادياً للكنيسة من تأليف ليو تاكسيل[35]، لكنّه رسم على فمه إيماءة استياء، اعتراض واضح وصريح، حين وقع بصره على رواية مسيو فوكاس لجان لورين[36] وقلّبها، ربّما من دون أن يعرف أنّ الناشر أولندورف، ناشر كتبه، أغرق مكتبات قارّتنا بطبعة إسبانية من تلك الرواية، وقدّمها على أنّها نموذج للعبقريّة الفرنسيّة، وما زالت عشتروت العارية، التي تظهر على غلافها الملوّن الذي رسمه جيو دبوي[37]، مصدر

---

(32) Le Dantec (1869–1917): عالم أحياء وفيلسوف فرنسي.

(33) Paul Bourget (1852–1935): كاتب وروائي ومسرحي فرنسي، عضو الأكاديمية الفرنسيّة.

(34) Chantclear: مسرحية خيالية للفرنسي أدموند روستان (1868–1918) عن عالم الطيور والحيوانات.

(35) Leó Taxil (1854–1907): كاتب وصحفي فرنسي ذو ميول ماسونيّة.

(36) Jean Lorrain (1855–1906): روائي وكاتب مسرحي وشاعر فرنسي.

(37) Géo Dupuis (1874–1932): رسّام ونحّات فرنسي.

أحلام وإلهام لطلابنا... ها هو ذا يضحك، الخبيث، إذ يقع نظره على المئة ألف ياردة وعلى حياة روبنسن كروزو الجنسيّة وعلى بريق ليسبوس، وجميعها لكتّاب مجهولين «ثلاث نجوم» لكنّها مليئة بالرسوم، وقد اشتريتُها أمس من مكتبة تقع في شارع «دو لا لون». «هذه من مطالعات مسيو پير لاتا»، قلتُ، جبان. تجهّم وجه صاحبنا فجأة، وراح يتكلّم عن الأدب بطريقته الأكاديمية المقصودة التي عهدناها فيه، أنا وپير لاتا، ليبرهن لنا أنّ أدبنا، أدب هذه الأرض، الحقيقي العظيم، أدبٌ مجهول في بلداننا. صحيح أنّنا كلّنا معجبون ببودلير -الذي يقبع مدفوناً تحت حجر حزين في مقبرة «مونپارناس»-، ولكن يجب أيضاً قراءة «ليون ديركس» و«ألبير سامن» و«هنري دو رينييه» و«موريس رولينا» و«رينيه ڤيڤيان». وخصوصاً «موريّاس»[38]. (لزمتُ الصمت لكيلا أحكي له كيف أنّ موريّاس اتهمني، حين قدّموني إليه في مقهى «ڤاشيت»، قبل سنوات، بإعدام ماكسمليانو[39]، مع أنّي حاولتُ أن أثبتَ له أنّ من المستحيل أن أكون، يوم أُعدم ماكسمليانو، في «ثيرّو دي لاس كامپاناس» بالنظر إلى سنّي.. «ما أنتم إلا متوحشون!» [بالفرنسيّة]، ردّ الشاعر حينئذٍ عليّ وحريق ما شرب يتأجّج في صوته...). يأسف صديقنا أنّ هوغو، هوغو القديم، ما زال يحظى بشعبيّة في بلداننا. يعرف أنّ لدى عمّال التبغ هناك -الذين يتعاقدون مع قرّاء عموميين تخلّصاً من رتابة عملهم- شغفاً خاصاً برواية البؤساء وأحدب نوتردام، بينما تتردّد قصائد صلاة من أجل الجميع («وهي هراء في هراء»، يقول) في الأمسيات

---

(38) León Dierx (1838–1912). Albert Samain (1858–1900). Henri de Régnier (1864–1936). Maurice Rollinat (1846–1903). Renée Vivien (1877–1909): شعراء فرنسيون، أما Jean Moréas (1856–1910) فهو يوناني.

(39) يشير إلى إمبراطور المكسيك مكسمليان الذي حكم بين عامي (1864–1867)، أُعدم بعد أن رفض التخلّي عن الحكم.

الشعريّة. وذلك يعود، في رأيه، إلى أنّنا مولعون بالبلاغة الفضفاضة، بالعواطف، باللغة الطنانة التي لها وقع الثرثرة الرومانسيّة...، وهي حالة نعاني منها بسبب حاجتنا إلى الروح الديكارتيّة (صحيح: ففي مقال عن المنهج لا تنمو نباتات آكلة لحوم ولا تطير طوقانات ولا تهبّ أعاصير...). شعرتُ بالانزعاج -لا ينتبه إليه- من رأيٍ يسفّه مفهومي عمّا يجب أن يكون عليه فنّ الخطابة (فعّالة بقدر ما فيها من امتداد وصوت وتشابك وأسلوب ششروني وسرعة في التصوير وجزالة في الوصف واندفاع في الصعود...)، فتناولتُ، محاولاً تغيير الموضوع، طبعة أنيقة نادرة من الصلاة على المقبرة لرينان[40]، تضمّ رسوماً من عمل كابانيل[41]. «ما أفظع هذا!» [بالفرنسيّة] - هتف الأكاديمي البارز وأصدر إيماءة تنمّ عن إدانة. نبّهتُه إلى أنّ هذا الجزء يظهر في الكثير من كتب الأدب المخصصة للطلبة الفرنسيين. «فظاعة مصدرها المدرسة العلمانيّة»، أكّد الزائر، الذي وصف ذلك النثر بالهذر - طنّان، متورّم، يضجّ بالصناعة اللفظية والتعابير الهلنستيّة المتكلّفة. لا. يجب على الناس في بلداننا أن يبحثوا عن عظمة اللغة الفرنسيّة في كتب أخرى، في نصوص أخرى. سيكتشفون، حينئذٍ، رشاقة الأسلوب والبراعة والذكاء الحاد الذي وظّفه موريس باريّه، مؤلف عدوّ القوانين[42]، ليبيّن لنا، في ثلاث صفحات واضحة، مغالطات الماركسية وأخطاءها -التي تقوم على «عبادة البطن»-، أو ليزوّدنا برؤية رائعة عن حصون ملك بافاريا، لودفيغ الثاني، صيغت بعبارات من تأليف فنّان حقيقي، بعيداً عن تصنّع رينان اللفظي. أو علينا أن نعود إلى القرن الماضي،

---

(40) Ernest Renan (1823–1892): مؤرّخ وكاتب فرنسي.

(41) Alexandre Cabanel (1823–1889): رسّام فرنسي.

(42) Maurice Barrès (1862–1923): روائي وصحفي وسياسي فرنسي. روايته هي L'ennemi des lois.

إن شئنا العودة إليه، لنقرأ، مرة واثنتين، مؤلّفات غوبينو[43]، أرستقراطي التعبير وأستاذ العبارة الفذّة المُحْكمة البناء، التي مجّدت «الرجلَ النابه» و«رجال النخبة»، أمراء الروح (هم، قال، ثلاثة آلاف في كلّ أنحاء أوروبا)، مصرِّحاً بعجزه عن إبداء أيّ اهتمام بتلك «الشرذمة التي يدعونها رجالاً»، لأنّهم في نظره حفنة من الحشرات الحقيرة المستهترة المخرّبة والمجرّدة من الروح. هنا، آثر أن يصمت وألّا يخوض في أيّ جدال، لأنّ ذلك سيستدعي توضيحاً يحسن تجنّبه: أثناء الاحتفالات بمناسبة مرور مئة عام على استقلال المكسيك، اتخذت السلطاتُ الإجراءات اللازمة للحيلولة دون أن يقترب أصحاب الصنادل والمناديل، أصحاب المارياتشي والمقعدين، من مكان الاحتفالات الكبرى، فليس من المناسب أن يرى الزوارُ الأجانب وضيوفُ الحكومة هؤلاء الذين يدعوهم صديقنا يڤيس ليمانتور[44] بـ«المشعوذين». أمّا في بلدي، الذي يعجّ -أكثر من اللازم!- بالهنود والزنوج والزامبوس والتشولوس والخلاسيين[45]، فمن الصعب إخفاء «المشعوذين». وما أسوأ نظرتي أنا إلى مشعوذينا، مشعوذي الطبقة المثقّفة، الكثيرين جداً، الذين سبّبت لهم قراءة مقالة الكونت دي غوبينو عن التفاوت بين الأجناس البشريّة عُقَداً وأيّ عقد! قد يكون من المناسب تغيير مجرى الحديث. عادت أنغام من أجل إليزا تصدح في الأعلى. وأعرب الأكاديمي، وهو يشير إلى فوق، عن حزنه لضحالة الموسيقا الحديثة -أو التي يسمّونها «حديثة»- التي انحرفت عن مبادئ موسيقا

---

(43) Joseph Arthur de Gobineau (1816-1882): أديب ودبلوماسي وفيلسوف فرنسي. صاحب النظرية القائلة بتفوق العنصر الآري.

(44) Yves Limantour (1854-1935): سياسي مكسيكي.

(45) الزامبو والزامبا Zambo هو المولود من أسود وهندية حمراء. التشولو Cholo هو المولود من أبيض وهندية حمراء. والخلاسي Mulato هو المولود من أبيض وسوداء.

الإغريق القديمة الخالدة، حتّى باتت فنّاً عقلياً، مجرّداً من المشاعر الإنسانيّة، حساباً وجبراً للنوتات، بعيداً عن كلّ ما يعني شعوراً ومشاعر (استمعْ حضرتك إلى ما يؤلّفه فريق شولا كونتوروم في شارع سان-جاك). مع ذلك، فهناك استثناءات: «سان-صانز»[46] و«فوريه» و«ڤانتويل»، وعلى نحو خاص عزيزنا رينالدو هان[47] - المولود في ميناء «بويرتو كابايّو»، الذي يشبه كثيراً مرفأ «لا بيرونيكا». أعلمُ أنّ «ابن بلدي» (حين نلتقي في مكان ما، يدعوني دائماً «ابن بلدي»، بإسبانيته اللذيذة المشوبة بلكنة الكريول[48])، قدّم قبل سنوات، أي قبل أن يكتب تراتيله الرفيعة لمسرحيّة «إستير» لراسين[49]، وللمرة الأولى، أوبّرا رقيقة تقطر حنيناً إلى مرابع طفولته، لأنّ أحداثها تستحضر شاطئ فنزويلا، الذي عرفه في طفولته، وإن وصفها برنامج العرض بأنّها «قصيدة رعويّة بولينيزيّة»: جزيرة الحلم، المستوحاة من زواج لوتي[50] - لوتي، لوتي، ها هو ذا اسمك [بالفرنسيّة]، تغنّي راراهو في حكاية المغامرات العاطفية التي تشبه كثيراً، حسب بعض النقّاد الخبثاء، الخبراء بالهدم، حكاية لاكميه[51]. ولكن، إذا كانت الأمور تقاس على هذا النحو، فمن الممكن أن نقول الشيء نفسه عن سيّدة الفراشة[52]، وهو عمل متأخر بسنوات عن عمل رينالدو. ولمّا كانت

(46) Camille Saint-Saëns (1835-1921): مؤلّف موسيقي فرنسي رومانسي.

(47) Reynaldo Hahn (1874-1947): ملحّن وعازف بيانو فنزويلي.

(48) الكريول Criollos في أميركا هم أبناء المهاجرين من ذوي الأصول الأوروبية.

(49) Jean Racine (1639-1699): مسرحي فرنسي كبير. و«إستير» هي واحدة من أشهر مسرحياته.

(50) Le mariage de Loti رواية تحكي السيرة الذاتية للأديب الفرنسي Pierre Loti (1850-1923). أمّا «راراهو» فتاةٌ تاهيتيّة وقع المؤلّف في حبّها أثناء إقامته هناك.

(51) Lakmé أوبرا تستوحي رواية پيير لوتي المذكورة. من تأليف Léo Delibes (1836-1891).

(52) Madame Butterfly: أوبرا لجاكومو بوتشيني (1858-1924)، ألّفها عام 1904.

أغانيه الرماديّة قد تردّدتْ، قبل أيام، في أحد محلّات «كاي كونتي» الموسيقية المعروفة، فقد تطرّقنا للحديث عن أشخاص مثل الكونت أرجنكور، القائم بالأعمال البلجيكي، الذي كان يتخذ أصدقاءه من المثليين، وإن لم يكن هو نفسه مثليّاً، لكيلا تتعرّض حبيبته الشابة لمضايقات الرجال من الرجال؛ ولوغراندان، الذي كان يتباهى، كمن يتباهى بارتداء ثياب جديدة، بلقب «كونت الكنائس» الذي اختلقه، («لو أنّه ولد في تشولولا لسمّي كونت الـ365 كنيسة»، علّق پيرلاتا). ويستعرض ميول السنوب[53] في تفضيل كلّ ما يأتي من خارج الحدود، في عالم صارت السنوبيّة فيه تفرض نفسها باعتبارها ترسيخاً لبدعة تهدف إلى «تحديث» كلّ شيء و«مواكبة» كلّ جديد. صارت باريس، بحسب الأكاديمي البارز، مثل روما على عهد أيّل جبل[54]، حين فتحت أبوابها لكلّ شاذّ وغريب وسرياني وبربري وبدائي. ما عاد النحّاتون الحديثون يستلهمون النماذج العظيمة والأساليب الفخمة، بل صاروا يقفون مذهولين أمام ما هو موكيتني وما هو سابق للهلنستيّ وما هو سكوثيوني وما هو سهبي. في أيامنا هذه، هناك ناسٌ مغرمون بجمع أقنعة إفريقيّة مرعبة وأشكال مليئة بمسامير النذور وآلهة في صورة حيوانات - من عمل آكلي لحوم البشر. من الولايات المتحدة الأميركيّة تأتينا موسيقا السود. بل لقد وصل الأمر بشاعر إيطالي فاضح ومحرّض أن نشر بياناً يدعو فيه إلى تدمير ڤينيسيا وإحراق اللوفر. هكذا سنصل إلى تمجيد أتيلا الهوني ومشعلي الحرائق ومحطّمي الأيقونات، واستسهال الأمور والمطبخ الإنكليزي واعتداءات الفوضويين، تحت حكم ساحرات سيرس الجديدات اللائي يسمّين الآن «ليان دو

(53) يدل مصطلح snob والـ snobismo على ميل الفرد إلى كلّ ما هو أجنبي أو مباهاته به.

(54) Elagabalus هو لقب ماركوس أوليوس أنطونيوس، إمبراطور روما الذي حكم بين 218 م و 222 م.

بوجي» و«إمليان دالينسون» و«كليوباترا دو ميرود»[55] («بسببهنّ سمحت لنفسي أن أتحوّل إلى خنزير»، همهم بيرلاتا). أمّا الآن، قلتُ، للتخفيف عن الضيف الزائر، فما من مدينة كبيرة إلا وعانت من حُمّى عابرة وحماس طائش وصرعة مجنونة وتصنّع ثقيل وغرابة غريبة، مع ذلك، فلم تؤثّر تلك الحالات في عبقريّة جنس من الأجناس. كان جوفنال[56] يشكو، في وقته، من الملابس والعطور والعبادات والاعتقاد بالخرافات، في مجتمع روماني مفتون بكلّ ما يأتيه من الخارج. وهكذا فليس الميل إلى ما هو غريب أجنبي ببدعة. وإذا ما نظرنا إلى الصورة جيداً فسنرى أنّ نساء موليير المتعالمات[57] لم يكنّ غير سنوبيّات «سابقات لعصرهنّ». فإمّا أن توجد عاصمة كبرى أو لا توجد. وعلى الرغم ممّا قيل ويقال فإنّ باريس ما زالت قِبلة الذوق الرفيع وأيقونة حسّ القياس والنظام والتناسب، فهي التي تُملي على العالم كلّه قواعد التحضّر والأناقة ونمط الحياة. أمّا صفة الكوزموبوليتانيّة أو العالمية التي تحظى بها، والتي حظيت بها من قبلُ أثينا، فلا تضير العبقرية الفرنسية الحقيقيّة في شيء. «كلّ ما لا يتّسم بالوضوح فهو ليس فرنسياً» [بالفرنسيّة]، أقول، وأنا مزهوٌّ بأنّي ما زلتُ أحفظ شيئاً من ريڤارول[58]، ممّا قرّأني إياه الرهبان المريميون في مرفأ «لا

(55) ثلاث راقصات فرنسيات شهيرات من فترة «الزمن الجميل» (بين نهاية الحرب الفرنسية – البروسية 1871 واندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914) التي تميّزت بازدهار على الأصعدة كافة.

(56) Juvenal شاعر روماني قديم عاش في القرنين الأوّل والثاني الميلاديين.

(57) Les précieuses ridicules مسرحية لموليير تحكي عن فتاتين رفضتا الزواج من شابّين وجدتا أنهما «بسيطان متواضعان»، ثمّ وقعتا في غرام آخرين مثّلا دور الشابّين «المودرن». ثمّ تبيّن أنّ هذين الأخيرين خادمان يعملان عند الشابّين «المتواضعين».

(58) Antoine de Rivarol (1753–1801): صحفي وأديب فرنسي.

بيرونيكا». «بالفعل»، قال الأكاديمي: لكنّ السياسة، السافلة المنحطّة، بضجيجها وتناحر الأحزاب فيها، بمعاركها الشرسة التي تتخذ من البرلمان ساحة لها، هي ما يجلب الفوضى والاضطراب إلى هذا البلد المعتدل في جوهره. ما كان لأحداث مثل فضيحة پنما وقضيّة دريفوس أن تحدث في عهد لويس الرابع عشر[59]. هذا إذا تجنّبنا الحديث عن «الوحل الاشتراكي» الذي، كما قال صديقنا غابرييل دانونزيو، «غطّى على كلّ شيء»، فلطّخ كلّ جميل وممتع من حضاراتنا القديمة. الاشتراكيّة... (تنهّد، وهو ينظر إلى مقدمة حذائه اللمّاع). أربعون ملكاً هم من صنعوا عظمة فرنسا. انظرْ، إنكلترا! تطلّعْ إلى البلدان الإسكندنافيّة! إنّها أمثلة على النظام والتقدّم، حيث يعمل عمّال الشحن وهم في صدرياتهم، وحيث يضع أيّ عامل بناء ساعة الجيب تحت بلوزه. وعرفت البرازيلُ العظمة حين حكمها إمبراطور مثل بطرس الثاني، صديق فيكتور هيجو ونديمه والمعجب به، كما تعجبون أنتم به. وكذلك كانت المكسيك حين كان يدير شؤونها پورفيريو ديّاث[3] في رئاسة لا تفتأ تتجدّد. ولئن نعمت بلادي بالسلام والازدهار فلأنّ شعبي، الأذكى، ربّما، من سواه من شعوب القارّة، أعاد انتخابي ثلاث مرات أو أربع -كم مرّة؟-، وهو عالمٌ أنّ ضمان الرفاهية المادّية والتوازن السياسي مرهونان بدوام الحاكم وبقائه. بفضل حكومتي... قاطعتُه بأسلوب من يحاول أن يخفّف من حدّة إطراء متوقّع يضع أرضنا، أرض البراكين والزلازل والأعاصير، على قدم المساواة مع غازلات الدانتيل الفلامنكيات أو مع أنوار الشفق القطبي. «ما زال أمامي الكثير لأنجزه» [بالفرنسيّة]، قلتُ. على الرغم من أنّني أفخر بأنّ زمن الثورات في بلادي،

(59) رافقت إنشاء قناة پنما أكبر فضيحة فساد في القرن التاسع عشر. أمّا قضيّة الضابط اليهودي دريفوس فقد حدثت عام 1894 وقسمت المجتمع الفرنسي بعد اتهامه بالتجسس لصالح ألمانيا ومعاداة الساميّة.

وبعد قرن من الفوضى والانقلابات، قد ولّى إلى غير رجعة - الثورات في أميركا لا تعدو عن أن تكون أزمات مراهقة، نوبات حمّى قرمزيّة أو حصبة تصيب شعوباً فتيّة مندفعة متحمّسة تجري في عروقها دماء حارة ويلزم أحياناً فرضُ نوعٍ من الانضباط والنظام عليها. القانون صارم، لكنّه القانون![60] الشدّة في بعض الأحيان ضروريّة - قال الأكاديمي. وقد قال ديكارت ذلك وأصاب القول: [«للملوك الحق في تغيير العادات بعض الشيء...»]. انتهت أوليفيا من تمرينها الطويل على من أجل إليزا، ودخلت إلى المكتبة، ولم نكن انتبهنا إلى أنّ البيانو صمت منذ برهة. دخلت علينا فاتنة، رائعة، ترتدي فستاناً من الموسلين الفاتح، وتلفّ عنقها بأفعى من الريش، وتغطي رأسها بقبعة مزيّنة بزهور اتخذ طائرٌ عشّه بينها، قفّازان مطرّزان ومظلّة لها مقبض من العاج المنقوش - معطّرة، هسهسة من بين الطيّات، أريج من خلل الملابس، شذا تسريحة، أناقة معزّزة بشرائط، وقياسات مشدودة ضيقة، تأتينا من طلعة مندفعة متحمّسة، فرقاطة في مهبّ الريح، لملهمة من ملهمات بولديني[61]. «إنّه يوم من أيام الدراغ»[62]، قالت لي، فتذكّرتُ، فعلاً، أنّي رأيتُ قبل لحظات، وأنا أتكلّم مع الأكاديمي البارز، عربات تحمل بصمة إنكليزية قديمة -أبواب كبيرة مزدوجة ومقعد فخم لجلوس الحوذي- تجرّها أربعة خيول، انطلقت بهم لاحقاً، بين ضجيج المظلّات والسياط الملتهبة وأبواق الحوذي، إلى حيث ينتظرهم رئيس جمعيّة سباقات الخيول، يحفّ به صيّادان يرتديان بزّة لحميّة اللون. «لم أرَكِ بهذا الجمال!» [بالفرنسيّة]، قال الأكاديمي البارز، ثمّ صاغ عبارة

(60) Dura lex, sed lex: تعبير لاتيني معروف.
(61) Giovanni Boldini (1842-1931): رسّام ومصوّر إيطالي.
(62) أو الدراغ كوين. مهرجان يتشبّه فيه الرجالُ بالنساء ويتصرّفون مثلهنّ قصد الترفيه والاستعراض.

مجاملة معقّدة كادت أن تصوّر ابنتي في لوحة رائعة من لوحات غوغان[63] بين أمواج فجر صيفي مزبدة. «يا له من ظريف!»، همس پيرلاتا. تجهّم وجهي: فما قاله عن غوغان يجعلنا تقريباً في خانة الأجانب.. لكنّ أوفيليا تقبّلت مقاله بأريحيّة وقالت: «آوه! إنّها نوانو الدائرة 16!» [بالفرنسيّة][64]... الحقيقة هي أنّ ابنتي، ببشرة الهندية الأقرب إلى البياض، كانت رائعة الجمال. لم ترث شيئاً من استدارة وجه أمّها المباركة ولا ضخامة فخذيها أو اتساع وركيها - إنّها أكثر التصاقاً بأرضها لوناً وصورة. إنّها امرأة طويلة الساقين، صغيرة النهدين، نحيفة القامة -عِرق جديدٌ يولد بيننا هناك- ولا صلة لشعرها السرح، الذي جعّدته جرياً على الموضة، بالشعر الملفوف في حلقات، الذي يعالجه الكثيرون من ناسنا بلوشن «والكر» الشهير، ذلك الاختراع الذي تقدّم به صيدليّ من نيو أورليانز. تقرّبت أوفيليا مني لتغمرني بغنجٍ لطيف، ولتطلب منّي إذناً بالسفر في تلك الليلة، بعد تناول وجبة العصر في نادي الفروسيّة. إنّها راغبة بحضور مهرجان فاغنر الذي سيبدأ في «بايروت»[65] الثلاثاء القادم، بعرض تريستان و إيزولده[66]. «عمل فخم!» [بالفرنسيّة] هتف الأكاديمي، وراح يدندن بالمطلع، بحركات من يقود أوركسترا غير منظورة. تحدّث بعد ذلك عن الشهوانية الجارفة في الفصل الثاني، عن عزف البوق المنفرد في الفصل الثالث، عن التدرّج في الألوان، والتسارع في النوبات، العنيف في صعوده، عن الموت عشقاً، وسأل ابنتي

---

(63) Paul Gauguin (1848-1903): رسّام فرنسي انطباعي.

(64) تشير إلى محلّات نوا نوا الراقية الكائنة في الدائرة 16 من باريس، وهي دائرة الطبقة البرجوازية.

(65) مهرجان سنوي للأوبرا أسسه ريتشارد فاغنر عام 1876 لعرض أعماله ومسرحياته الموسيقية.

(66) من أعمال فاغنر وتروي حكاية حبّ تنتهي بموت البطلين عشقاً.

ما إن كان يروق لها أن تزور ڤيلّا ڤاهنفريد[67]. استمتعَ الأكاديمي بالتأثّر المصطنع الذي أبدته أوفيليا، إذ قالت إنّ في السكن الفخم من العظمة والقدسيّة ما يمنعها من دخوله، فاقترب من المكتب الصغير، وتناول ورقة. طلب منها أن تسلّم تلك الرسالة التعريفيّة إلى صديقه سيجفريد، المؤلّف الموسيقي البارز، وإن لم تحظَ موسيقاه بالذيوع.. فكيف له أن يؤلّف موسيقا وهو ابن ريتشارد فاغنر؟ أنهت الريشة انسيابها الذي زيّنته سينات إيونيّة ولامات مرتفعة شامخة: «تفضّلي، آنستي!» [بالفرنسيّة]. وطلب منها أن تنقل تحياته القلبية إلى كوسيما[68]. نبّهها إلى أنّ مقاعد مسرح «فيستپيلهوس» غير مريحة. لكنّ الحجّ إلى «بايروت» فرضٌ على كلّ مثقّف، ولو لمرّة واحدة في حياته - كما يحجّ المسلمون إلى مكّة، أو كما يصعد اليابانيون إلى جبل «فوجياما». أخذت أوفيليا الرسالة، التي زيّنها توقيعٌ يذكّر بعصر النهضة، رُسم بحروف كبيرة خُطّت بعناية، ثمّ انسحبت وهي تبدي علامات مودّة إضافية نحو أبيها الطيّب، الذي ما كان ليرفض طلباً تطلبه ولم يمتنع عن تحقيق أمنية تتمنّاها - وإن كنتُ، في الواقع، غير موافق على فكرة سفرها المفاجئ بعد أن كنتُ خطّطتُ لأن تكون السيدة الأولى في حفل استقبالٍ فكّرتُ في إقامته على شرف رئيس تحرير «لا غيڤيو دي دو موند»، المهتمّ بنشر مقالة مطوّلة عن ازدهار البلد والاستقرار السياسي الذي يعيشه. طبعتْ قبلاتٍ على جبهتي في أداءٍ تمثيليّ بارع لم تقصد منه إلا كسبَ إعجاب الزائر، فهي لم تحسب يوماً حساباً لرأيي، ولم تنتظر يوماً إذناً لفعل ما ترغب هي في فعله. كانت تستغلّ الخوف الذي تثيره في نفسي نوبات الغضب التي تنتابها حين أحاول معارضة رغباتها -

---

(67) حيث منزل فاغنر.

(68) سيجفريد Siegfried هو ابن فاغنر، وكوسيما Cosima هي أخته، ابنة الموسيقي الألماني الشهير.

غضب تترجمه ركلاً وإشاراتٍ بذيئة وكلماتٍ نابية، حتّى لتبدو وكأنّها جاءت من ماخور أو عادت من حفلة عربدة ومجون. في تلك المواقف، تبلغ العبارات البذيئة والشتائم الجنسيّة، كما يسمّيها سكرتيري، مستوى الرمز الذي يمثّله قوس النصر. وحين تنتهي العاصفة بنيل ما أرادت، تعود أوفيليا إلى لغتها المهذّبة التي فيها من المعاني الدقيقة المنتقاة ما يجعلني أحياناً أرجع، بعد سماعها، إلى القاموس للتحقّق من المراد من هذه الصفة أو من ذاك الظرف، فلربّما أفادتني مستقبلاً في خطاباتي. حين بقينا وحدنا، استذكر الأكاديمي، بوجه متجهّم، سنوات فقر ريتشارد فاغنر، والازدراء الذي كان يلقاه، آنذاك، الفنّانون الحقيقيون. ما كان حينذاك من وجودٍ لأناس كرماء رائعين متنوّرين من أمثال «مايكيناس» أو «لورينزو دي ميديشي» أو «بورجيا»[69] أو لويس الرابع عشر أو ملك باڤاريا. ربّما لويسات موائد القمار الخضر. هو نفسه، وعلى الرغم من مسيرة عطائه الأدبيّ الرائعة، لم يكن قادراً على تأمين متطلبات حياته - حتّى إنّه اضطر، وقد ضيّق عليه رجال القضاء، الذين لن يلبثوا أن يطرقوا باب بيته بقبضة عصاهم العاجيّة المعروفة (هل كان ذلك ممكناً في القرن العظيم؟)[70]، إلى بيع مخطوطة عملين من تأليفه: روبرت جيسكارد (دراما تاريخيّة شخصياتها الرئيسة زعيم المرتزقة النورماندي المذكور وأخوه روخريو والمجنونة جوديث دي إيفرو. وقد لقيت، على الرغم من أداء لي بارغي الرائع فيها، فشلاً ذريعاً)، ودراما الغائب (دراما الضمير: ديفيد وبيتسابيه، اللذان عكّر طيفُ أوريّاس صفو ليالي حبّهما...) التي قُدّمت أكثر من مئتي مرّة على

(69) Mecenas (قرن 1.ق.م). شاعر وسياسي روماني. Lorenzo de Medici حاكم فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. Borgia أسرة بابويّة من أصل إسباني، عُرفوا كلّهم برعايتهم الفنون والآداب.

(70) Le Gran Siècle يشير إلى القرن السابع عشر الفرنسي (عهدا لويس الثالث عشر والرابع عشر)، الذي ازدهرت فيه الآداب والفنون.

مسرح ميناء سان مارتين، فأثارت حفيظة الخنزير اليهودي بيرنشتاين، الذي كان فكّر في تأليف عمل حول الموضوع نفسه.. لكنّ المكتبات هنا مفلسة حالياً ومواعيد التسليم لا تقبل التأجيل: غداً، رجال القبعة ذات القرنين والعصا ذات المقبض العاجي.. ولكن، ربّما المكتبة الوطنيّة عندنا، ربّما.. لم أضف على كلامي كلاماً، بل بادرتُ إلى تحرير شيك - تسلّمه بإيماءة سيد عظيم شاردة، من دون أن ينظر إلى المبلغ الذي سجّلتُه، وإن كنتُ أظنّ أنّه عرفه، لأنّه كان يراقب حركة يدي حين كتبتُ الأرقام. «إنّها جيدة جداً» [بالفرنسيّة]، قال: صفحات عريضة من ورق هولندا، موضوعة في محافظ جلديّة عليها وسمٌ حديدي يشير إلى مكتبته الخاصّة. «سترى حضرتك!» [بالفرنسية]. أتى سلفستري بالطرد المتروك تحت. فككتُ الخيوط، تحسّستُ الغطاء الذي نُقشتْ عليه بلونين رسوم تشير إلى النص، قلّبتُ الصفحات ببطء من يحاول إظهار اهتمامه وتقديره، وشكرتُ الصديق النابه الذي فكّر في مكتبة بلدي مكاناً لحفظ تلك الكتب الثمينة - المكتبة التي تضمّ، على الرغم من تواضع حجمها، كتباً نفيسة وخرائط فلورنسيّة ومخطوطات تعود إلى مرحلة الغزو. وحين لاحظتُ أنّ إيماءاته بدأت تنمّ عن رغبة مبهمة في الانصراف، نهضتُ، وكأني أريدُ التطلّع إلى قوس النصر، وأنشدتُ: «أنتَ يا من يمتلئ انحناؤه، في البعد| بالزرقة| أيّها القوس المتطاول»[71] [بالفرنسيّة]. رأى الأكاديمي أن من واجبه تقديم الشكر لي، فتناول قبعته العالية وقفازيه الأبيضين، وقال -وهو يعلم أنّ ما سيقوله سيلقى هوىً في نفسي- إنّ هوغو لم يكن، على أيّ حال، شاعراً سيّئاً، وإنّ من المفهوم أنّنا، جرياً على كرمنا في ما يتّصل بالثقافة الفرنسيّة، ما زلنا نحفظ له مكانته وفضله بوصفه شاعراً غنائياً

(71) من ديوان ڤيكتور هوغو Les voix intérieures «الأصوات الداخليّة»، الذي نُشر عام 1837.

كبيراً. لكنّ من الواجب علينا أن نتعرّف على غوبينو؛ لا بدّ من قراءة غوبينو. نزلتُ معه درجات السلّم المفروش بالسجّاد الأحمر، ورافقته حتّى الباب. وكنتُ أوشك أن أقترح على الدكتور پيرلاتا أن نذهب إلى شارع «أكاسيا»، إلى بوا-شاربون مسيو موزارد، حين توقفت أمامنا سيارة أجرة نزل منها التشولو[45] مندوثا وقد بدا عليه الاضطراب واضحاً. لا بدّ أنّ أمراً خطيراً وقع، فقد بدا سفيري في باريس سابحاً في عرقه -هو يبدو كذلك دائماً، ولكن ليس إلى هذا الحد-، وغطّى شعرُه مفرق شعره، وانحرفتْ ربطة عنقه عن عنقه، ولم يزرّر لبّادة جزمته الرمادية. وكنتُ على وشك أن أطلق نكتة عن حالات اختفائه لأيام -هناك في «پاسي»، أو في «أوتويل»، أو الله أعلم أين- مع إحدى شقراواته، حين مدَّ لي يده وناولني، وقد بدا على وجهه الاضطراب، نسخةً واضحة لقائمة من عدة برقيات مشفّرة: إنّها من الكولونيل والتر هوڤمان، رئيس مجلس وزرائي. «اقرأ... اقرأ!» أعلمكم أنّ الجنرال أتاولفو غالبان، وتحت إمرته فرق المشاة 4 و7 و9 و11 و13 «أشراف الوطن» وثلاثة أفواج من الفرسان، بضمنها سريّة «الاستقلال أو الموت»، وخمس وحدات مدفعيّة، قد أعلن العصيان في «سان فليپي دل پالمار» على صرخة «عاش الدستور، عاشت الشرعيّة».

-يا لك من وغد! الويل لك يا بن القحبة!- صاح المستشار الأوّل ورمى بالبرقيات إلى الأرض. «أواصلُ القراءة لك»، قال التشولو مندوثا، وهو يتناول الأوراق. لقد امتدت الحركة إلى ثلاث محافظات شماليّة وهي تهدّد جبهة الباسفيك. لكنّ الحاميات والضباط ما زالوا على ولائهم للحكومة - أكّد هوڤمان. قرطبة الجديدة لم تتحرّك. القوات تقوم بدوريات في شوارع «پويرتو أراغواتو». أُعلنت حالة منع التجوّل وعُلّق العملُ بالدستور. أغلقت صحيفة پروغريسو [التقدّم]. معنويات القوّات الحكوميّة عالية، لكنّ تسليحها غير كافٍ، خصوصاً المدفعيّة الخفيفة

ورشاشات «ماكسيم». ويعلم صاحب الفخامة مدى ولاء العاصمة له. بانتظار تعليمات جديدة. «يا لكَ من وغد! الويل لكَ يا بن القحبة!»، راح المستشار الأوّل يكرّر، وكأنّه ما عاد يجيد غير تينك العبارتين، وهو يفكّر في خيانة ذاك الذي أخرجه بنفسه من قذارة أحد معسكرات المحافظات، وكان في المعسكر نكرة حقيراً، جندياً مستجداً من المرتبة الثانية، فحماه ورعاه وأغناه وعلّمه كيف يستعمل الشوكة والسكين وكيف يسحب سلسلة المرحاض، وجعله من البشر ومنحه الأشرطة والأربطة، ثمّ عيّنه وزيراً للحرب، وها هو ذا يستغلّ غيابه لكي... هل من المعقول أنّ ذاك الذي ربّما ناداه، في حفلات القصر، غارقاً بين الكؤوس، بوليّ النعمة وعناية الإله والأب والصديق وإشبين الأولاد ولحم اللحم، يتمرّد عليه هكذا، على طريقة بوليفيا، نافخاً الروح في حركات عصيان بائسة تعود إلى عهودٍ ولّت، منادياً باحترام دستور لم يعد يحترمه أحد، منذ حرب الاستقلال، بدعوى ما نردّده دائماً من أنّ «النظرية تسقط دائماً أمام الواقع العملي» وأنّ «الزعيم الجريء لا يسير على ما يقوله الورق»؟ «يا لكَ من وغد! الويلُ لكَ يا ابن القحبة»، كرّر المستشار الشتيمة وهو يعود إلى القاعة الكبرى، ليعبّ من رون «سانتا إينيس» - إنّه ليس الرون ذاته الذي كان يذكّره بالوطن أيام العزّ بباريس، بل لقد بات، فجأة، عرقاً رخيصاً، من ذلك الساخن القويّ، المنبئ بكرّ وفرّ وشيكٍ مرهق عنيد، تفوح منه روائح الخيل والأبدان والبارود. وفجأة، وأمام لوحة سانتا راديغوندا لجان-پول لورانس[13] ولوحتي مارينا دي أستير والمجالدين لجيروم[14]، عقد مجلس الحرب. لقد نسي مراهق قوس النصر - البطل، الذي كتب على أسواره اسم ميراندا، رائد حركات الاستقلال الأميركيّة[72]، الذي رفض أن

(72) Francisco de Miranda (1750–1816): قائد عسكري وثوري فنزويلي. سابق لسيمون بوليفار.

يفعل ما فعله النذل دومورييه[73] -الذي كان من شاكلة أتاولفو غالبان- من خيانة وتآمر؛ ونسي بوا-شاربون مسيو موزارد، حيث كان هو والدكتور بيرلاتا يتناولان موسكاديت الصباح وآبرتيف الضحى وبيرمود العصر، لأنّ رائحة الحطب والمشرب المتواضع، المقام في موازاة حائط مزيّن بروزنامات سنوات ماضية، واللوحة التي ترمز إلى ازدهار العصور وتدهورها، والإعلانات عن حبوب «جيروديل» للسعال وعن نبيذ «مارياني»، كانت تذكّرهما بدكاكين المشروبات والحوانيت والحانات هناك، المشابهة من حيث الأجواء والإعلانات والزبائن المستعدّين دائماً، بعد أن عبّوا ما عبّوا، للجدل حول كلّ ما يخطر على البال من سباقات دراجات وأفلام ونساء وسياسة وملاكمة ومرور نيزك واكتشاف قطب... مجلس حرب. على الحائط وفي اللوحات، بدت ظلال ثلاثة أجسام، عكسها مصباح المكتب: كما يحدث في السينما، ظلّ دوّار متحرك مضطرب، هو التشولو مندوثا؛ ظلّ صغير يتحرّك بين أوراق وأحبار، هو الدكتور بيرلاتا؛ وظلّ عريض، مثقل بالأكتاف، بطيء، نزق، لا يكفّ عن تحريك يديه، وإن كان جالساً على أريكته، وهو المستشار الأوّل. أملى جملة من البرقيات والقرارات على بيرلاتا: برقيّة إلى آرييل، ولده وسفيره في واشنطن، ليرتّب لشراء أسلحة ومعدات ومواد لوجستيّة ومناطيد مراقبة كتلك التي اقتناها الجيش الفرنسي مؤخراً (سيكون لها وقع رهيب، هناك، حيث لم يُرَ لها نظير من قبل)، وقرّر، مقابل ذلك، التنازل عن منطقة مزارع الموز في الباسيفيك لصالح «شركة الفواكه المتحدة»[74]، لأنّ الحرب، أيّ

---

(73) Dumouriez (1739-1823): جنرال فرنسي، خسر معركة «نيروندن» أمام الجيش النمساوي ثمّ زحف على باريس لإسقاط الحكومة الثورية هناك، وحين فشلت محاولته التجأ إلى أعداء الأمس النمساويين.

(74) United Fruit Company: شركة أميركية تتاجر بالفواكه الاستوائية والموز في دول أميركا الوسطى والجنوبية. أسِّست عام 1899.

حرب، مكلفة والخزينة الوطنية في أسوأ حال، ثمّ إنّ عملية التنازل تلك كانت مقرّرة منذ وقت طويل، لكنّها تأخرت بسبب تردّد الأكاديميين وممانعة المثقفين، وهم الذين لا يحسنون غير الكلام في تفاهات ويدينون مطامع الإمبريالية الأميركية - هي محتّمة بإرادة الربّ ومقدّرة بمشيئته، شئنا أم أبينا، لأسباب جغرافيّة، ولدواعٍ تاريخيّة. وأملى على التشولو مندوثا برقيّة موجهة إلى هوفمان يأمره فيها بحماية طرق الاتصال بين «پويرتو آراغواتو» والعاصمة. إعدام كلّ من يجب إعدامه. ثمّ أملى على پيرلاتا، مرّة أخرى: برقيّة-رسالة-إلى-الأمّة، يؤكّد فيها على إرادة لا تقبل المهادنة في الدفاع عن الحرية، سيراً على خُطا بناة الوطن، الذين... («حسناً. أنتّ تعرف البقيّة...»). كان التشولو مندوثا قد اتصل بوكالة كوك: باخرة سريعة «يورك تاون»، تخرج منتصف الليل من سان-نازير. يجب أخذ قطار الساعة الخامسة. برقيّة أخرى إلى آرييل، لإبلاغه بالرحلة: طلب فيها منه أن يبحث عن طريقة لوصولنا إلى هناك على جناح السرعة: في باخرة شحن. في ناقلة نفط. في أيّ شيء كان... «إلى سلفستري: لكي يجهّز حقائبَ سفري». تناول جرعة كبيرة بعد أن امتطى صهوة حصانه، حصان القرارات المهمة: «إلى أوفيليا، ألّا تقلق. لدينا الكثير من المسكوكات في سويسرا. لتسافر إلى بايروث وكأنّ شيئاً لم يحصل ولتستمتع بصحبة أصدقائها الأقزام... المسألة مسألة أسابيع. لقد قضيتُ على من هم أشجع من هذا الجنرال القذر». وحين بدأ سلفستري بإنزال الحقائب، فكّر المستشار الأوّل في أنّ ما وقع له البارحة مع راهبة دير «سان بيثنته دي پول» قد يكون ما جلب له النحس. غطاء الرأس المنشّى. الوشاح. لا يبدو أنّ تلك الجمجمة المطاطيّة التي جاؤوه بها من دكّان لوازم الحفلات التنكرية، الكائن في جادة الراهبات الكابوشيات -تتراكم مصادفات النحس- وفّر له الحماية الجيدة. لكنّ الراعية الإلهية لقرطبة

الجديدة ستتقبّل، ومن جديد، ندمه وستقبل توبته. سيضيف زمرّدات أخرى على تاجها؛ سينثر الكثير من المال على دثارها. باحتفاء وخشوع. أضواء. الكثير من الأضواء. راية قداستها، بين الشموع والمنابر. تلامذة المدرسة العسكرية الجاثون. رهبة منح الرتبة. تضاء الكنيسة بإشراقة تقليد أوسمة جديدة... وفي الخارج، يهتف نصب رود، لا مارسيّيز[75]، بصوته الخارج -صوت من دون صوت- من فمٍ حجريّ عميق، ليس هو غير حفرة من حفره، كُتبت عليه أسماء جنرالاتِ الإمبراطوريّة الستمئة والاثنين والخمسين، مضمّخة بالمجد. «ستمئة واثنان وخمسون جنرالاً فقط؟!» -همهم المستشار، وهو يستعرض جيشه في خياله- «لا شكّ أنّ الدليل أخطأ العدّ».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(75) La Marseillaise هو النشيد الوطني الفرنسي. وهو أيضاً الاسم الثاني للنصب المعروف بـ«رحيل المتطوّعين»، من عمل النحّات رود[4] وهو واحد من أربع منحوتات ملحقة بقوس النصر في باريس.

الفصل الثاني

... كلّ إنسان يكتفي بعقله، بحيث كان يمكن أن يكون مصلحون على عدد الرؤوس[76].

ديكارت

(76) «مقال عن المنهج» Discours de la méthode، ترجمة الخضيري، ص190.

اثنان

بعد ساعتين من وصول المسافرين إلى جناحهم في (ولدورف أستوريا)، تمّت مراسم التوقيع على الوثائق الأخيرة من المفاوضات مع شركة الفواكه المتحدة[74]، فحملها آرييل بسرعة، بينما كان أبوه والدكتور پيرلاتا يطوفان في أعالي البحار. وثائق لا تقبل ردّاً ولا نقاشاً، لأنّها تحمل توقيع من كان واقعاً وقانوناً، ومن سيكون، ولوقت طويل، استناداً إلى تنبؤات المختصين في سياسة نصف الكرة الأرضية هذا، رئيس الجمهوريّة الدستوري. ثمّ إنّ الشركة المذكورة لا تجازف بأيّ شيء، مهما كان مسار الأحداث، لأنّ الجنرال المتمرّد أتاولفو غالبان، كان قد صرّح لوكالات الأنباء وللصحافة، بأنّ أصول الشركات الأميركية وممتلكاتها ووكلاءها واحتكاراتها ستحظى بالحماية، حاضراً ومستقبلاً، اليوم وغداً، هنا والآن، في زمن النضال المسلّح وبعد «النصر المؤكّد» - يا لشجاعتكَ، يا أخي! ويا لحركتك الذكيّة! فُهم من البرقيّة أنّ الثائرين عزّزوا مواقعهم في شاطئ الأطلسي، وصاروا يُحكمون قبضتهم على أربع محافظات من تسع -تلك هي الحقيقة الدراماتيكيّة-، لكنّ المقاومة العنيدة أجهضت محاولاتهم في الزحف على «پويرتو أراغواتو» وقطع الاتصال بين العاصمة وشاطئ المحيط. كانت إحدى قطع الأسطول الحربي تنتظر

المستشار في إحدى جزر الكاريبي الصغيرة، حيث ترسو سفينة شحن هولنديّة ستتجه إلى «رسيفي». أمّا السلاح، الذي اشتروه من أحد عملاء السير باسيل زاهروف[77]، فسيُشحن في ميناء «لا فلوريدا»، على ظهر سفينة يونانيّة، بعث بها قرصان اعتاد أن يرفع على سفنه أعلام پنما أو السلڤادور، بعد مغادرة مياه الولايات المتحدة الإقليميّة، ليمارس تجارته الاعتيادية -نقل رجال وسلاح وعبيد أو أيّ بضاعة وحمل...- مع أميركا التحتانية التي يعرف خلجانها وشواطئها أكثر مما يعرفها أشطر المهرّبين المحليين. وشاء المستشار الأوّل، وهو المغرم بعروض الأوبرا الكبيرة، أن يشهد عرض پلياس ومليزاند في «ميتروپوليتان أوبرا هاوس»، وكأنّ لا شيء يشغل باله في تلك الليلة، ففي تلك الأوبرا تؤدي ماري غاردن دور البطولة[78]، ثمّ إنّ صديقه الأكاديمي البارز كثيراً ما حدّثه عن ذلك العمل الأوبرالي الرائع الذي حظي في باريس، بعد أخذ وردّ، بمعجبين متعصبين وصفهم السافل جان لورين[36] بالپلياسيين.

جلسوا، إذاً، في الصفّ الأول. رفع القائد عصاه وبدأت أوركسترا ضخمة تجلس هناك، عند قدميه، تعزف من دون عزف. من دون عزف، لأنّ ما كان يُسمع لم يكن إلا همساً، اهتزازاً، طقطقة نوتة هنا أو نوتة هناك، شيئاً لا يبلغ مرتبة الموسيقا. «أما من افتتاحيّة؟»، سأل المستشار. «ستبدأ حالاً»، قال پيرلاتا، وهو ينتظر أن يبدأ شيء، أن ينهض، أن يتحدد، ليصبّ في فورتيسيمو: «فاوستو وعايدة يبدأان هكذا أيضاً، من دون شيء، وهدفهم (أظنّ أنّهم يسمّون ذلك سوردينا) التحضير جيداً لما سيأتي من

---

(77) باسيل زاهروف (1849–1936): تاجر ومصنّع أسلحة يوناني - روسي. كان يُعرف بـ«تاجر الموت».

(78) أوبرا Pelléas et Mélisande هي أحد أعمال كلود ديبوسي[25]. أمّا Mary Garden (1874–1967) فهي سوبرانو بريطانية شهيرة عملت في فرنسا والولايات المتحدة وعرفت بسارة برنار الأوبرا.

بعد». ثمّ تُرفع الستارة، لكنّ الأمور ظلّت على ما هي عليه. أولئك العازفون -هناك، مستعدّون، عديدون، عيونهم على النوتات- لا يفعلون شيئاً. يجرّبون ريشات آلاتهم، يخرجون لعاب أبواقهم بعد أن يديروا الأداة نصف دورة، يلعبون بالأوتار، يمرّرون أصابعهم على أوتار القيثارة، من دون أن يبلغوا حدود العزف الواضح الأكيد. نبرة خفيفة هنا، أنّة طفيفة هناك، مراجعة سريعة للبدايات، بدايات تموت ما إن تولد، وهناك، في الأعلى، على الخشبة، شخصيتان تتكلّمان وتتكلّمان من دون أن تشرعا بالغناء. وتظهر الآن -يتغيّر الديكور- سيدة قادمة من العصر الوسيط ترطن بلكنة «كنساس سيتي» وتقرأ رسالة. عجوز يستمع. يتمايل رأسٌ تعب من الانتظار وأصابه الضجر، وحانت فترة الاستراحة. راح المستشار الأوّل يستعرض الشرفات والرواقات، التي أثارت فيه ملاحظات طريفة حول زيف أرستقراطية نيويورك، في السلوك والملابس، بالمقارنة مع أرستقراطية باريس. فمهما بلغت بدلة فراك موضوعة على ظهر اليانكي الأميركي من إتقان، فلن تبدو إلا مثل بدلة ساحر من سحرة خفة اليد. يُحيّي، فيبدو، بصدرية قميصه الكبيرة وشريطه الأبيض، وكأنّ أرنباً يوشك أن ينطّ من قبعته أو حمامة أن تطير. أمّا سيدات الذكرى المئوية الرابعة[79] فعليهنّ أكداس من الفراء وأغطية الرأس ومنتجات تيفاني[80]. في الخلف عمارات سكنيّة فاخرة، بمداخن قوطية، مستوردة من «فلاندرس»، وأعمدة ديريّة كلونيّة، مجلوبة من عنابر السفن العابرة للمحيطات، لوحات لروبنس أو لروزا بونهور[81]، وعدد من التماثيل الخزفيّة التي لم تحسن ضبط حركاتها

(79) يشير إلى الذكرى المئوية الرابعة لتأسيس مدينة نيويورك.

(80) Tiffany اسم شركة أميركية مختصة بتجارة الحلي والجواهر.

(81) Rubens (1577-1640): رسّام فلامنكي. Rosa Bonheur (1822-1899): رسّامة ونحّاتة فرنسيّة.

الراقصة على إيقاعات أغنية فرقة الإسكندر[82] التي كانت تبلغ مسامعهم من نوافذ زجاجيّة من طراز عهد النهضة. ومع أن ألقاباً لأسر عريقة، هولندية أو بريطانية، تعود بهم إلى القرن السابع عشر، فقد كانت تكتسي، حين تتردّد عند أطراف السنترال پارك، صبغةَ لا أدري أيّ منتوج مستورد ومزيّف وغريب، مثل تلك الألقاب الغريبة العامة من قبيل «مركيز المبايعة الملكيّة» أو «مركيز الاستحقاق» أو «مركيز الجائزة الملكيّة»، التي طالما شغفنا بها في أميركا اللاتينيّة. أرستقراطية خياليّة مزيّفة كأجواء مسرحية تلك الليلة، بزمانها الوسيط العائم، وأقواسها المجهولة المصدر، وأثاثها المشكوك في عراقته، وشرفاتها غير المنتمية، المنتشلة من ضباب دائم، على مزاج مهندس الديكور وكيفه. عاودوا رفع الستارة، تتابعت المشاهد ثم حانت فترة استراحة أخرى؛ رُفعت الستارة مرّة أخرى وتوالت مشاهد أخرى، كلّ ذلك بين ضباب وبخار وأنصاف ألوان وفجوات وظلال وموسيقا حالمة وأصوات منشدين غير منظورين وحمائم لا تطير وثلاثة متسوّلين موتى وقطعان بعيدة وأشياء يراها آخرون ولا نراها. وحين حانت فترة الاستراحة الأخيرة، انفجر المستشار الأوّل: «ما من أحد هنا يغنّي؛ ما من جهير أوّل ولا تينور ولا باس! ما من آريا.. ما من باليه.. ما من مشهد جماعي! وهذه القذارة، أميركية عظيمة المؤخرة ترتدي ثياب طفل، تتطلع من النافذة إلى ما يحدث في الحجرة حيث، حدّث ولا حرج، الفتى الشاب والشقراء طويلة الشعر مستغرقان في شأنهما.. والتيس الذي فقد صبره تحت. وهذا العجوز الذي يشبه تشارلز داروين، والذي يقول إنّه لو كان ربّاً لرحم قلوب الرجال. اسمع: حتى لو قال لي صديقنا الأكاديمي، والآخر، دانونزيو، إنّ هذه من العجائب، فإني لأفضّل عليها «مانون» و«لا ترافياتا»

(82) Alexander's Ragtime Band أول أعمال الموسيقي الأميركي البيلاروسي إيرفنغ برلين (1888–1989) ألّفها عام 1911.

و «كارمن».. وبما أنّنا وصلنا إلى ذكر المومسات، فاحملوني إلى ماخور!». والتقى الثلاثة، بعد ذلك، في شقّة في شارع (42)، حيث عُرضت عليهم شقراواتٌ تزوّقن وصفّفن شعورهنّ على طريقة نجمات السينما، وقُدِّم لهم مزيج من المشروبات -كان شائعاً مزج أنواع من المشروبات- جعلهم يعقدون مقارنات طريفة بين الشراب هنا وشراب «مينيول بيراكروث» الذي يُقدّم في فندق «دليخنتياس»، بين «پونچ» الأنتيل الوردي و«الموخيتو» الكوبي بأوراق النعناع الباردة، بين ندى الديك، خليط المرّ والجن، «زهومير» الجرجير أو الليمون، وشراب «چيچا» و «پولكي» المُعتّق، الذي تنتجه أراضينا الساخنة. ودُهشت النساء إذ رأين المستشار الأوّل، وهو بهذه السنّ، يعبّ كلّ تلك الكؤوس -دائماً في حركات استعراضيّة وبطيئة- فلا يضطرب كلامه ولا يختلّ توازنه ولا رزانته. إنّه اليوم، على خلاف العادة، يشرب على مرأى من ابنه آرييل -«علقة تفوت ولا حدّ يموت!»، قال پير لاتا- لأنّ الرئيس، وهو في القصر، يشرب، حين يشرب، أنخاباً من مياه معدنية، فيشيد بمياه نبع «پرغرينو» -كان اشترى معمل تعبئتها-، علامة الاعتدال. أمّا في الحفلات والمناسبات، فما كان يرفع كأس الشمبانيا أكثر من مرّة أو مرّتين، ويشير، في أحاديثه الجادة، إلى ازدياد عدد محلّات الشراب وانتشار الحانات، وهي واحدة من أخطر الآفات الاجتماعيّة التي ابتليت بها الأمّة، آفة نجد أصلها في طبيعة الهندي الميّالة إلى الرذيلة، وفي الاحتكار الذي كانت المشروبات الحكوليّة تخضع له أثناء الكولونياليّة الإسبانيّة. لكنّ الناس يجهلون أنّ في الحقيبة التي لا تفارق الدكتور پيرلاتا -يظنّ من يراها أنّها تضمّ وثائق بالغة الأهمية-، عشر قارورات مسطّحة، مصمّمة لتوافق جيوب الحقيبة، كتلك المصنوعة في إنكلترا، ولا تصدر ضجيجاً حين اصطدامها في ما بينها،

لأنّها مكسوّة بجلد خنزير، وقد كان اشتراها من هيرميس[83]. وهكذا كانت لامايورالا إلميرا، في المكتب الرئاسي، أو في غرفة الانتظار في قاعة المجلس، أو في غرفة النوم، هي المطّلعة على السرّ، طبعاً، أمّا في القطار، أو في أثناء الرحلات برّاً، فقد كان يكفي أن يرفع المستشار الأول أحد إبهاميه إلى أذنه اليسرى لكي تظهر واحدة من القارورات من حقيبة السكرتير البيروقراطيّة. أمّا ما عدا ذلك، فقد كان الشارب المتجهّم دائماً، العبوس أبداً -رجل ما قبل الإفطار، الذي تعدّ له إلميرا الطيبة شراب التمرهندي، في وقت مبكّر، ليبرّد «كبده»، كما تقول هي- يبالغ في إخفاء هوسه القديم برون «سانتا إينيس» الذي -يجب الإقرار بذلك- ما كان يؤثّر في توازن مشيته، ولا في رجاحة قراراته، ولا في تصبّب العرق المألوف فيه: لطالما كلّم الناس -وقد أدار وجهه وراح يقيس إيقاع تنفّسه- وقد جعل بينه وبينهم طاولة، أو ترك مسافة محسوبة ترفع، قدر الإمكان، من مكانته وشخصيته الأبويّة البطريركيّة، فضلاً عن غسول الفم وأقراص النعناع وعلكة المسك وعرق السوس، وفضلاً عن ماء الكولونيا أو روح اللفاندر، اللذين يفوحان من ملابسه الغامقة وقمصانه المنشّاة التي تناسب مقام رئيس دولة. في تلك الليلة، استغرب آرييل من قدرة أبيه على الشرب قياساً إلى قدرته هو. «ما زال جسمه بِكراً» -قال الدكتور پيرلاتا- «ليس مثلنا، نحن الذين نحمل في بطوننا روحَ الخمر؛ العُكارة التي لا يوقظها شيء». في اليوم التالي، وبعد أن اشترى طبعة ثمينة من فاكوندو[84] من مكتبة «بيرتانو» -هذا الكتاب جعله يدلي بآراء متشائمة حول مصير شعوب

---

(83) Hermes: علامة تجارية لمنتجات جلديّة ألمانية شهيرة.

(84) فاكوندو: الحضارة والبربرية Facundo: Civilización y Barbarie كتاب من تأليف دومنغو فاوستينو سارمينتو (1811–1888)، رئيس الأرجنتين بين عامي 1868 و1874. ويروي سيرة القائد العسكري والسياسي الأرجنتيني خوان فاكوندو كيروغا (1788–1835).

أميركا اللاتينيّة، المنشغلة دائماً في معارك مانويّة ثنويّة بين حضارة وبربريّة، بين تقدّم واستبداد- صعد المستشار الأوّل على ظهر الباخرة الهولندية التي ستتوقف لوقت قصير في هافانا. راح البحر يتخدّد، واصطبغت صفائح الكاريبي العريضة الصفر من فوق مشهد باروكي رسمته طحالب السرجس وأسماك طائرة. «رائحة الهواء باتت مختلفة»، قال المستشار الأوّل وهو يستنشق نسمة ذكّرته برائحة أشجار المنغروف البعيدة... وأبلغهم القنصل، وهم في هافانا، أنّ الكولونيل هوفمان صامد في مواقعه الدفاعية، على الرغم من قلّة ما لديه من سلاح خفيف، وأنّ المتمردين لا يحقّقون تقدّماً يُذكر. الوضع مستقرّ ساعة أرسل برقيّته إلى باريس. ولمّا كانت الأخبار جيدة والوقت وقت كرنڤالات، فقد حضر المستشار الأوّل استعراض الأقنعة والجوقات، وشهد مسابقة التنكّر، وألقى بالأشرطة الورقيّة باحتفال وابتهاج. وذهب، بعد أن استأجر برنساً أسود بقناع، إلى مركز لتعليم الرقص بالكعب العالي، حيث علّمته خلاسيّة، ترتدي ملابس ماركيزات من عهد لويس الخامس عشر والسادس عشر -بتنّورة فضفاضة لحميّة اللون، وباروكة مغبرّة، وشامات على الخد، ومروحة حمراء على خضراء ونظارات من البلاستيك- أسلوب الرقص من دون رقص، رقص من دون الخروج من حدود بلاطة، حركة عموديّة، من دون حركة تقريباً، دوران يزداد ضيقاً وبطئاً، دوران يقود إلى جمود مشترك، عطر ساتان شفّ حتّى عاد أقرب إلى الجلد من الجلد - كلّ ذلك في غمرة صخب أبواق ونايات وطبول، تؤدّيه أوركسترا «بالنثويلا» و«كورباتشو». حين بدأت الأقنعة تتفرّق، وراحت أضواء المسرح تنطفئ من دور إلى دور، دعت الخلاسية المستشار الأوّل إلى أن ينام معها في غرفة تملكها، بالقرب من «آركو دي بيلين»، في بيت «متواضع لكنّه محتشم» -قالت- له فناء مزروع بأشجار الرمّان والريحان والبرشاوشان. صعدا في عربة مستأجرة، يجرّها

حصان هزيل كان الحوذيّ يهمزه همزاً -كان كالنائم- بمهماز وُضع في رأس عصا، ومرّا ببيوت كبيرة تشجّعك على الشعور بالنعاس، تنبعث منها روائح اللحم المقدّد والدبس ودخان التحميص، وتنثر هنا وهناك، حسب اتجاه نسيم الميناء، أبخرة سُكّر أسمر وفرن حارّ وقهوة خضراء، في جوّ تخيّم عليه رائحة إسطبلات ومعامل جلود وعفن عالق بأسوار عتيقة ما زالت رطبة من ندى ليليّ وأملاح وطحالب. «احرسني في أثناء نومي، صديقي!»، قال لي المستشار الأوّل. «لا عليك، صديقي، فلديّ كلّ ما يلزم!»، قلتُ، وأخرجتُ مسدس «البراوننغ» من جيب الصدر. وبينما بقي المستشار الأوّل والخلاسية مختبئين، لا أدري كم من الوقت، وراء باب أزرق، جلستُ أنا على طابوريّة من جلد البقر والسلاح محشور بين فخذيّ. ما من أحد كان يعلم أنّ رئيسي في المدينة. نزل بجواز سفر مزوّر، لكيلا يشيع خبر رحلته ولضمان أن يكون لوصوله وقع المفاجأة. بزغ الفجر، وتبادلت العتمة والضوء الأدوار، وعلا، في لحظةٍ، الضجيج المعتاد: عربات تخفّ، وأخرى تجاهد، بسمفونيات جلاجلها الصاعدة النازلة؛ ستائر تزاح، نوافذ تُرفع، فرقعات صحون، طقطقات نحاس: وروووود؛ مكاااااااانس، يانصيييييب: الرقم الرابح؛ دلّال ينادي ببضاعته من الخبز المُحلّى بالعسل، آخر يروّج لحصاده من الأفوكاتو، وثالث يحبّب الناس في معموله من عجينة الذرة بالموز، يرفعون جميعهم عقيرتهم بتراتيل غريغوريّة؛ وآخر يعرض مقايضة مخروطات حلواه من اليپرولي بما لدى الناس من قناني الزجاج، أمّا أخبار ذلك النهار التي كان ينادي بها بائعو الصحف فكانت: الطيار الكوبي روسيّو يتفوّق أمس في ميدان عذراء الظهور على الفرنسي بيجو في أداء حركات الشقلبة في الجو؛ ينتحر بحرق نفسه؛ إلقاء القبض على لصوص في «كاماغوي»؛ موجة برد في مرتفعات «پلاثيتاس» - أكثر من 13 درجة، بحسب مرصد الأنواء الجويّة؛ الوضع

غامض في المكسيك -وقوع ثورة حقيقيّة: سمعنا بها عن طريق روايات مرعبة زوّدنا بها دون پورفيريو-، وفي بلدنا، نعم، في بلدنا، رنّ اسمه على لسان بائع الجرائد، انتصار أتاولفو غالبان (نعم، «انتصار»، أظنّه قال) في مقاطعة قرطبة الجديدة. أيقظتُ المستشار الأوّل مدفوعاً بالخبر. كان ينام وقد وضع فخذه العظيم والثقيل فوق فخذ الخلاسية، وهو عظيم أيضاً، وإن كان أطول. ذهبنا معاً، بعد أن رتّب نفسه وعدّل هيئته، راجلين، إلى ميناء «سان فرانثيسكو»، حيث كانت السفينة بانتظارنا، مستعدة للإبحار. وفجأةً تنبعث من أورغن، مزيّن بكريّات الصوف وصور «لا شاليتو» و«غادة الكاميليا»، موسيقا «پاسودوبلي» من تلك التي تُعزف في حفلات مصارعة الثيران. «يا لها من مدينة صاخبة!» -قال الرئيس- «وما عاصمتنا، بالقياس إليها، إلّا دير للراهبات».

وها نحن هنا، في «پويرتو أراغواتو»، حيث كان بانتظارنا الكولونيل هوڤمان، متوتراً، تعلو وجهه نظّارة العين الواحدة، المخصّصة للمناسبات المهمّة، يبشّرنا بأنّ كلّ شيء على ما يرام. حركة التمرّد لا تلقى الدعم إلا في المحافظات الشماليّة، التي طالما ناصب أهلها السلطة المركزيّة العداء، لشعورهم بأنّهم مهمَّشون محتقَرون مهملون، على الرغم من خصوبة أراضيهم وغناها. من بين الثلاثة والخمسين انقلاباً التي شهدها البلد خلال قرن من الزمان، كان أربعون منها بقيادة عسكريين من الشمال. لا أحد يعرف إلى الآن، باستثناء الوزراء وكبار ضبّاط الجيش، أنّ رئيس الدولة سيصل اليوم. هكذا سيكون وقع المفاجأة أكبر... (كنتُ قد تأمّلتُ -يزداد شعوري بالحزن لأنّ الخيانة أتتني من أقرب الرجال إليّ- منظر الميناء من على ظهر سفينة خفر السواحل التي جاءت بي، وشعرتُ فجأة بالتأثّر، وفاضت عيناي دمعاً فيه من الغزارة قدر ما فيه من التكلّف، إذ تطلعتُ إلى هندسة معماريّة قوامها بيوت وأكواخ، كُدِّست على جانبي التلّة، مثل

أوراق قمار رُكِّبت لعمل قلعة هشّة واهية. لاحظتُ، في لحظة إلهام، وقد أنهكني توتّر لقائي بأجوائي، أنّ هواءها هو هوائي؛ وأنّ ماءها، وهو مثل كلّ ماء، يذكّرني بمذاقات نُسيت، ترتبط بوجوه رحلت، بأشياء صوّرتْها نظراتي وحفظتْها ذاكرتي. تنفّستُ بعمق. تجرّعتُ الماء. عودة إلى الوراء. وهم بسبق الرؤية. وها هو ذا القطار يصعد، ويصعد، بين انعطاف عند العطفات وولوج عند الأنفاق، يتوقف برهة، أحياناً، بين انخفاض الأراضي الساخنة ووعورتها، أرى، بعين أنفي، رسمَ الأوراق التي تنمو في قُدّاس الظلمات؛ تتمثّل لي هندسة الشجرة في انثناءة غصن شكّاءة؛ أحسّ بطحلب اللحاء المخملي في حركة أنفاسه التي استعادها. أنظر إلى الأحداث بحقدٍ وانفعال، كالعاري، كالمنزوع سلاحه، كمن هدأ طبعه ولانَ خلقه، ومال إلى التسامح، إلى ما يريح وما يناسب، إلى المصالحة الممكنة، أشياء ما زلتُ أحملها، والفضل في ذلك يعود إلى هناك، إلى أسفل قوس النصر، لكنّ هناك صار يبتعد عنّي وأنا أصعد إلى كرسيّ الرئاسة، صرتُ أكثر عدوانية، ربّما لقرب لقائي بالنباتات القريبة، المتشابكة، المشتبكة في صراع لا هوادة فيه من أجل بلوغ الفسحة الخالية من السكة التي كانت مقطورتنا تنساب عليها. كنتُ أزداد سطوة وقامة مع كلّ مئتي متر تقطعها القاطرة صعوداً، بعد أن يدخل رئتيّ هواء عليلٌ مقوٍّ آتٍ من قمم الجبال. الشدّة واجبة. والصرامة أيضاً: فهذا هو ما تطلبه القوى التي لا تعرف هوادةً ولا رحمة، القوى التي ما زالت تمثّل علّة الوجود -الدافعيّة الغريزيّة- الغامضة والقويّة لعالمه الذي هو قيد التكوّن، عالمه الذي ما زال بين أخذ وردّ في أشكاله وإراداته ودوافعه وحدوده. لأنّ هناك -وقد بات أبعد من هناك- ما زال هو ميناء «بازل» البحري على «الراين» في العام الألف، بينما يظلّ «السين»، نهر المراكب النهريّة، يُقاس بخطوات «بون-نف» المشلولة، خطوات تجّار الروبابيكيا وبهاليل عصر النهضة، أمّا

هنا، في الوقت الراهن، فتتسلّق الغابات على الغابات، وتُجنّ المصبّات، ويغيّر النهر مجراه، ويترك، بين عشيّة وضحاها، مساره، بينما تنهار عشرون مدينة، شُيّدت في يوم واحد، وتنتقل من ركام إلى رخام، ومن زريبة إلى قصر، ومن غيتار بلديّ إلى إنريكو كاروزو[85]، فتعود، فجأةً، أطلالًا خرِبة، مجرّد رطوبة وملح رخيص لا يهتّم لها أحد، ذروق طيور بحرية -من تلك التي تمطر الصخور والشُّعب برذاذ حليبي- من ذاك الذي لا قيمة له ولا سعر في أسواق الأوراق المالية الكبرى، التي تعلو فيها اللوحات والصيحات، المزايدات والمزايدات على المزايدات، الذي أتوا بدلاً منه باختراع يخضع لتجارب الكيمياويين الألمان.. ومع انتفاخي بهواء هوائي، راحت الرئاسة تنمو فيّ وتعظم...). وكنتُ رئيساً حقيقياً، أعتلي منصّة عربة القطار، مشدودَ القامة، متجهّمَ الملامح، ممسكاً بالعصا، عابسَ الوجه، حين بدأنا الدخول إلى العاصمة، المشاهد هي ذاتها المألوفة في ضواحي المدن وأطرافها: مصنع صابون ومعمل نجارة ومحطة توليد كهرباء؛ وعلى اليمين، قصر تماثيل العذارى والأطالس المتداعي، بمنائر الموزاييك الخربة؛ وعلى اليسار، إعلان كبير عن مستحلب «سكوت»، وآخر عن لوشن «پومپي». مَروخ «سلون»، النافع لكلّ شيء؛ المُركّب النباتي «ليديا بنكهام» -التي تظهر في الصورة بفستان ذي عنق مكشكش ومجوهرات منقوشة- العلاج الأنسب لمشاكل الدورة الشهريّة. ولا بدّ من الوقوف على نحو خاص -على نحو خاص- عند إعلان طحين «آنت جيميما» - تلك العلامة التجارية التي تحظى بشعبيّة في الحواري والأحياء والصوامع والمزارع الصغيرة الفقيرة، بفضل الصورة التي تزيّنها، صورة المرأة السوداء الجنوبيّة التي تضع على رأسها منديلاً مربّعاً، كما تفعل

---

(85) Enrico Caruso (1873–1921): مغنّي أوبرا إيطالي، حظي بشهرة واسعة في أوروبا والأميركيّتين.

الجنوبيات هنا. («إنّها كثيرة الشبه بجدّة هوڤمان البروسي»، كما يقول الساخرون، وهم يتذكّرون أنّ العجوز، المركونة في ناحية من نواحي البيت، ما كانت تُشاهد في مآدب الجنرال وحفلاته، بل في الشوارع، وهي في طريقها إلى الكنيسة لتناول القربان في قدّاس الساعة السادسة، أو حين يطلع في رأسها أن تساوم بصوت عالٍ على باقة من الزعتر أو رأسٍ من الخس مع باعة خضار الفجر من المزارعين القادمين، بجحاشهم المرهقة ببراذعها، من الجبال القريبة، قبيل بزوغ شمس كلّ يوم). سكك تتقاطع، إشارات تظهر في مواجهتنا، وعند الثانية بعد منتصف الليل دخلنا في محطة سكة حديد الشرق الكبرى المقفرة، كومة الحديد والزجاج المضبّب -الكثير منه مكسور- التي بناها الفرنسي «بالتار»[86]. كان الملحق العسكري في سفارة الولايات المتحدة في انتظارنا عند رصيف المحطة، صحبة أعضاء الحكومة. اجتاز موكب من ست سيّارات المدينة، الهادئة والمقفرة، بسبب منع التجوّل الذي كان تقرّر أن يبدأ في الثامنة مساءً لكنّهم قدّموه ساعتين، ثمّ قدّموه اليوم ساعة ونصف أخرى ليبدأ في الرابعة والنصف. على الأرصفة العالية تغفو البيوت الرمادية والحمرُ والصفرُ، وهي مغلقة الأبواب مسدودة الشبابيك، وقد برزت من أسطحها المآزيبُ صدئة. تمثال مؤسّس الأمّة، على ظهر فرسه، تراه كئيباً وحيداً، على الرغم من صُحبة أبطال البرونز الواقفين في الساحة البلديّة، على مرمى حجر منه. أمّا بناية المسرح الكبير، بأعمدته الكلاسيكية الشاهقة، فتكتسي، مع غياب أيّ قامة بشريّة، مظهرَ نصبٍ تذكاريّ فخم. أضوية القصر مضاءة كلّها، بانتظار الجلسة الطارئة التي يُتوقّع أن تستمر حتّى ساعة الإفطار. وفي الساعة العاشرة، سيجتمع، بدعوة روّجت لها طبعة خاصة من صحف

---

(86) Victor Baltard (1805–1874): مهندس فرنسي، صمّم وشيّد الكثير من المباني والمعالم المعمارية.

الصباح، حشدٌ كبير عند واجهة الحجر البركاني والبورسلان التي شيّدها، أيام الغزو، مهندسٌ يهودي ملهم، فرَّ من ملاحقة محاكم التفتيش، ندين له بأجمل كنائس البلد في عهد الاستعمار - وفي مقدمتها معبدُ الراعية الإلهيّة الوطني في قرطبة الجديدة. حين خرج المستشار الأوّل إلى شرفة القصر، علت الحناجر بالهتاف، فطارت رفوفُ الحمام من سقوف المنازل وسطوح المباني التي تقطّع المدينة إلى رقعة شطرنج ملوّنة بالأبيض والأحمر، بين أبراج نواقيسها الاثنين والثلاثين، المتفاوتة في حجمها، صغراً وكبراً، بما يناسب طموحاتها وتطلعاتها. صمت الجمهور وهدأت الحناجر فبدأ الرئيس خطابه، كما اعتاد أن يبدأ: بطيئاً، يزن توقفاته، ويراعي نطقه، وينغّم صوته بما يقرب من درجة الصادح. كان دقيقاً في توجهاته، وإن بالغ في تزويقها -كان ذلك رأي الكثيرين- بتعابير مثل «متغرّب» و«باهر» و«دخيل» و«جدالي» و«لا غَناء عنه»، قبل أن يُحمل، بعد أن رفع من نبرة صوته، في حشد متألّق من إشارات ملحميّة وسيوف ديموقلسيّة وقفز فوق النار وأبواق أريحا وسيرانو وتارتاران وكلابيلينيو[87]، ممزوجة بكلام عن أشجار نخيل باسقات وكندورات فريدات وبجعات بيض وطيور أطيش بحريّ، على «انكشاريي المحسوبيّة» و«الديماغوجيّين المقلّدين» و«المرتزقة المتأنقين»، المستعدّين دائماً لتوظيف سيوفهم في مهمّات رعناء، صنّاع شقاق في الوقت الذي يجب أن يضمّنا العمل والكفاح، وهو سرّ الحياة الأبوي، أعضاء في عائلة كبيرة - عائلة كبيرة كانت على الدوام متعقّلة ومتّحدة، لكنّها كانت أيضاً صارمة مع أبنائها العاقّين الذين يسعون، بدلاً من التراجع وإبداء الندم على ما بدر منهم من أخطاء، كما في أمثال الكتاب المقدّس، إلى إحراق البيت المجيد، إلى تخريبه، البيت الذي ترعرعوا فيه حتّى باتوا رجالاً، يحملون النياشين

(87) إشارات تاريخيّة وأدبيّة إلى مواقع وأحداث وشخصيات مسرحيّة هزلية.

والرتب. ما أكثر ما يجلب المستشار الأوّل لنفسه من سخرية، بسبب صرخاته المفتعلة ونبرته الخطابية المصطنعة. لكنّه -وهكذا كان پيرلاتا يفهمه- ما كان يلجأ إليها لميل خالص إلى الأساليب البلاغيّة القديمة؛ بل لأنّه يريد، بتلك الطريقة، أن يخلق أسلوباً يحمل بصْمته، ولأنّه يعلم أنّ استعمال الكلمات والصفات الغريبة، التي لا يفهمها السامعون، يحرّك فيهم طقساً قديماً من طقوس عبادة التكلّف والتزويق، وهكذا يكتسب أسلوبه سمواً يفضح ضحالة خطاب خصمه المليء بالشعارات المكرّرة المتشنّجة الرديئة. بعد انتهائه من خطابه، بدعوة مؤثّرة إلى الرصانة والتوافق والوحدة بين جميع المواطنين من ذوي الإرادة الخيّرة، الجديرين بإرث بنّائي الأمّة وآباء الوطن، الذين تصطفّ قبورهم الجليلة في رواق الضريح القريب («... التفتوا وتأملوا بعيون أرواحكم البرج البابلي المنتصب الذي...» إلخ، إلخ)، وانسحب الخطيب، بعد سماع الهتافات الأخيرة، إلى بهو المجلس، حيث بُسطت خرائط على منضدة من خشب الكابلي. قدّم الكولونيل والتر هوڤمان، رئيس المجلس، الذي بات وزيراً للحرب، عن الحزب الاشتراكي الثوري، شرحاً موجزاً للوضع الميداني، استعمل فيه أعلاماً صغيرة -بعضها وطنية، وبعضها حمر- ثُبّتت بالدبابيس. في ذلك الخط من الجبهة يتمركز الأنذال وأبناء القحبة؛ هنا، هنا، وهنا، حماة شرف الوطن والمدافعون عن حياضه. لقد تلقّى القوّادون وأبناء القحبة في الأسابيع الأخيرة الدعم من قوّادين وأبناء قحبة آخرين: كان ذلك واضحاً. لكنّ قدرتهم على إدخال العتاد عن طريق «باهيا دل نيغرو» باتت معدومة بسبب تسليم منطقة الباسيفيك إلى «شركة الفواكه المتحدة»[74]. أوقف الموالون تقدّم المتمرّدين في القاطع الشمالي الشرقي: «لو كان لدينا السلاح الكافي، لاستطعنا أن نحقّق ما هو أكثر». «سنحصل خلال أسبوع على ما يلزمنا»، قال المستشار الأوّل وهو يفصّل، والفواتير أمامه،

الشحنة التي وصلت إلى «لا فلوريدا». في هذه الأثناء، يجب رفع معنويات القوات المحاربة واستعدادها القتالي. أمّا عن نفسه، فسينطلق هذه الليلة إلى منطقة العمليات. فالوضع في مجمله، على الرغم من خطورته، يبعث على التفاؤل. مع ذلك فقد سأل: «وماذا عن قرطبة الجديدة؟»، وهو يفكّر في تلك المدينة الغريبة، العامرة بالأطلال، الغنيّة بالمناجم، الهندية أكثر من اللازم ربّما، المحيّرة برذائلها، المهدّدة بمشاكلها؛ المدينة التي طالما شكّلت بؤرة لحركات تمرّد خطيرة. «لا شيء» -ردّ هوفمان- «أتاولفو لا يحظى هناك بشعبيّة. لذلك، فقد خلّفها وراء ظهره. بل لقد تعهّد بعدم المساس بالمصالح الإنكليزيّة والأميركيّة الكثيرة فيها، لذلك فهو يريد أن يثبت أنّه يحترم تعهّده بإبعاد الحرب عن تلك المنطقة». شعر المستشار الأوّل بالنعاس. وبعد أن طلب من لامايورالا إلميرا أن تحضّر له بدلة الميدان وتلمّع بوطَه وتمسح خوذته برأسها المدبّب، أمسك بها فجأة، مدفوعاً بنزوة طارئة، ورفع تنّورتها، بينما ظلّت هي متكئة على رخامة الكومودينو، مضطربة من «المزاج الرائق» لسيّدها الواصل من باريس -باريس المرعبة تلك، التي يفقد فيها الرجال حتى أرواحهم- قبل أن يستلقي في شبكة نومه لينام طوال ساعات. حين انتهى من استراحته، وجد الدكتور پيرلاتا هذه المرة متجهّماً وقلقاً. لقد تجرّأ طلبة جامعة «سان لوكاس» العلمانيّة على توزيع منشور وقح، قرأه الرئيس فبدا على وجهه غضب متدرّج الشدة. يقول المنشور عنه إنّه وصل إلى السلطة عن طريق انقلاب؛ وإنّه ثبت في منصبه في انتخابات مزوّرة؛ وإنّ سلطاته مُدّدت بتعديل غير دستوري على الدستور؛ وإنّ انتخابه المكرر... - المهم، ما يقال في العادة في تلك الحالات: وها قد حان الوقت لإنهاء سلطة لا اتجاه لها ولا منهج، تفصح عن نفسها عن طريق أوامر ومراسيم، من طاغية تسيّره، في مسألة الحكومة، رسائل مشفّرة مصدرها ابنه آرييل. لكن الخطير

الآن -والجديد- هو أنّ الطلبة يجاهرون بالقول إنه ما عاد من فرق بين البدلة العسكرية والبدلة الرسمية، وبأنّ قضيّة الحكومة وقضيّة من يسمّون بالثوريين ما عادت تعنيهم. فقد تبادل اللاعبون الأدوار على الرقعة ذاتها، والبلد يشهد لعبة لا تعرف نهاية منذ أكثر من مئة عام... وللعودة بالحكم إلى نظام دستوري ديمقراطي، فإنّهم يدعمون الدكتور لويس ليونثيو مارتينث، وهو أستاذ فلسفة جادّ وصارم، ترجم أفلوطين، ويعرفه پيرلاتا حقّ المعرفة، لأنّه كان زميله في الدراسة. كان رجلاً ذا جبهة عالية، ضيّقة، مخدّدة بالعروق وجرداء، رجلاً ناشف العبارة موجزها، لا يشرب، ويبكّر في الاستيقاظ، نباتياً ملتزماً، أباً لتسعة أولاد، يحبّ «پرودهون» و«باكونين» و«كروپوتكين»[88] وكان قد تراسل قبل سنين مع فرانثيسكو فرّير[89]، المعلّم الفوضوي المقيم في برشلونة، الذي سبّب خبرُ إعدامه رمياً بالرصاص في «مونجويك» خروجَ مظاهرة كبيرة في المدينة - مظاهرة أجازها المستشار الأوّل لأنّ الاحتجاج حقّ مشروع عالمياً، وبما أنّ فرّير مات وما عادت له من قيامة، فإنّ السماح بموكب، يبدأ ساعة الغسق وينتهي بعجاجة الساعة التاسعة (ثلاث ساعات من الصراخ غير الموجّه إلى الحكومة) سيكون بمنزلة برهان على احترامنا للحرّيات وتسامحنا مع الأفكار.. ثمّ إنّ الدكتور لويس ليونثيو كان يمزج قناعاته التحررية بنوع من تصوّف مستمدّ من

---

(88) Pierre-Joseph Proudhon (1809–1865): سياسي وفيلسوف فرنسي. مؤسّس فلسفة التشاركية الفوضويّة.

Mikhail Bakunin (1814–1876): ثوري فوضوي روسي ومؤسس الفوضويّة الجمعويّة.

Peter Kropotkin (1842–1921): اقتصادي روسي ومن أوائل المنظّرين للحركة التحررية الفوضويّة.

(89) Francisco Ferrer (1859–1909): مفكّر ليبرالي فوضوي كتلاني. حُكم عليه بالإعدام بتهمة التحريض الذي أدى إلى أحداث «الأسبوع المأساوي» التي وقعت في تمّوز 1909.

أوبانيشاد وباهاغافاد-غيتا[90] ومن «آني بيزنت» و«مدام بلافاتسكي» و«كاميلو فلاماريون»[91] - يهتمّ بظواهر ما وراء النفس التي كانت تصل، في جلسات خاصة لتحريك الطاولات والسلاسل المغناطيسيّة والتركيز الروحيّ، إلى تحضير أرواح «سفيدنبوري» و«الكونت دي سان جيرمان» و«كاتي كنغ»[92]، في هيئة ضربات أو استرفاع، أو إلى استحضار روح كائن ما زال حياً لكنّه بعيد من مثل «يوزابيا بالادينو»[93]. والآن، يظهر ذلك الحالم، ذلك الطوباوي المثالي الشاحب، في قرطبة الجديدة فجأة، ليحرّض عمّال مناجم النحاس والقصدير، تدعمه حفنةٌ من قادة الحركة الطلابيّة. مع ذلك فإنّ المهمّة صعبة عليه، صحيح أنّه حظي بتأييد بعض أبناء بلده، لكنّه لم يجد الدعم السياسي في بقيّة الأنحاء. عاد إلى هدوئه بعد كأس قُدّمت له في الوقت المناسب، وفكّر الرئيس، وهو يحلّل الأمور تكتيكيّاً، أنّ نشاط عدوّ مشترك، في المواقع الخلفيّة للجنرال أتاولفو غالبان، لا بدّ أن يصبّ في مصلحته، لأنّه سيحدّ من التمرّد ويقصره على اثنتين من محافظات الشمال الشرقي. أمّا إذا اتسعت أحداث قرطبة الجديدة، ففي مقدوره أن يستعين، في إجراء أخير، بالولايات المتحدة، لأنّ البيت الأبيض يعارض ظهور أيّ حركة تميل إلى الفوضويّة أو تُشمّ

---

(90) نصوص هندوسية مقدسة.

(91) Annie Besant (1847–1933): بريطانية ثيوصوفيّة.

Madame Blavatzky (1831–1891): روحانية ثيوصوفية ورحالة روسيّة.

Camilo Falmmarion (1842–1925): كاتب وفلكي فرنسي.

(92) Emanuel Swedenborg (1688–1772): عالم وفيلسوف متصوّف سويدي.

El conde de Saint Germain (1693–1784): شخصيّة روحانية متعددة المواهب، فرنسي من أصل هنغاري.

Katie King: هو الاسم الذي اتخذته الوسيطة الروحانية الإنكليزية فلورنس كوك (1856–1904) بعد ادعائها بأنّ بلازما خارجية لامرأة تدعى «كاتي كنغ» حلّت فيها.

(93) Eusapia Paladino (1854–1918): وسيطة أرواح إيطالية ذات شهرة عالميّة.

منها رائحة الاشتراكيّة في هذه الأميركا التحتانيّة، المضطربة، اللاتينيّة. كان المستشار الأول يوشك أن يتداول مع الكولونيل هوڤمان بشأن الوضع حين عادت ورقة ثانية، كُتبت بأسلوبٍ فكاهيّ ساخر، فأشعلت نار غضبه، وبقدر أكبر. فكاتب تلك الورقة يستهزئ من بلاغته، ويحوّر كلماته إلى نثر كريولي، ويسخر منه فيصفه بأنّه «بهلول ثارثويلا» و«طاغية الأراضي الساخنة» و«مولوخ الخزانة العامّة»[94] و«مونت كريستو حديث النعمة»، يحمل في حقيبته، أثناء رحلاته إلى أوروبا، مليون بيزو. ويقول عن صعوده إلى السلطة إنّه «انقلاب زعيم الحراميّة»[95]. ويصف وزارته بأنّها «حمّى ذهب» و«بلاط معجزات» و«مجلس متآمرين». حيث ما من عفو لأحد. الكولونيل هوڤمان هو، حسب وصفه، «بروسيّ الأصل وجدته سوداء في الباحة الخلفيّة»؛ أمّا الجنرال أتاولفو غالبان فهو «خنزير مشاغب، وقوطي شرقيّ من حملة السيف والقراب»، بينما رتّب العديد من الموظّفين ومسؤولي الأمن، بحسب ما يؤدّونه من دور تراجيدي أو كوميدي، على شاكلة محاكم التفتيش أو مسرح البوفو الهزلي. أمّا الأمر الأدهى فهو وصفه أوفيليا بأنّها «أميرة الملك ميداس»[96]، مذكّراً بأنّ النساء الفقيرات هنا لا يجدن مستشفيات يضعن فيها، بينما تبرّعت الخلاسيّة المحظوظة، جامعة الأحجار الكريمة القديمة، وعُلب الموسيقا الصغيرة الثمينة، وخيول السباق، بأموال طائلة (بسعر صرف قدره 2.27 بيزو مقابل الدولار)

(94) إله كنعاني شرير كان يُقدَّم إليه الأطفال قرابين. يُطلق الآن على كلّ ما يتطلب تضحيات كبيرة.

(95) يصفه بالثامن عشر من شهر برومير، وهو الشهر الثاني في تقويم الثورة الفرنسية، الذي وقع فيه الانقلاب الذي استحوذ لويس نابليون بونابارت من خلاله، عام 1815، على سلطات دكتاتورية مطلقة.

(96) كان الملك ميداس، بحسب الميثولوجيا الإغريقية، قادراً على تحويل أيّ شيء يلمسه إلى ذهب.

إلى شركات ومنظّمات من مثل «العمل التبشيري في الصين» و«رابطة حماية الفن القوطي» و«مؤسسة قطرة الحليب»، التي ترأسها دوقة أوروبية. لكنّ النكتة هنا ليست نكتة، والمستشار الأوّل لم يكن في وارد سماع نكات. خصوصاً الآن، حين جاءه الكولونيل هوفْمان يخبره أنّ الطلبة، المعتصمين في الجامعة، يقيمون اجتماعاً مناهضاً للحكومة. «أدخِلوا الخيّالة عليهم في البناية!»، قال الرئيس. «ولكن... ماذا عن قانون الذكرى المئويّة؟ وماذا عن الحكم الذاتي؟!». «لا وقت لديّ للتفكير في هذه الحماقات. يكفيهم ما خرّبوا بالحكم الذاتي. نحن في حالة طوارئ!». «وماذا لو قاوموا؟ وماذا لو ألقوا بالحجارة من السطوح؟ وماذا لو أنهكوا الخيل، كما فعلوا عام 1908؟». «في هذه الحالة... الرصاص! أكرّر: إنّنا في حالة طوارئ ولا يمكن أن نتساهل مع الاضطرابات والفوضى!»... بعد نصف ساعة بدأ إطلاق النار في باحات جامعة «سان لوكاس». «وإذا سقط قتلى» -قال المستشار الأوّل، وهو ينتهي من زرّ سترته العسكريّة- «فلا مواكب دفن مهيبة، ولا نعوش محمولة على الأكتاف، ولا خطابات في المقبرة، فهي مظاهرات أخرى تتستر وراء الحِداد. تسلّمون الجثة إلى العائلة لتقوم بدفنها، بلا عويل ولا رعونة، وإلا فستودع العائلة كلّها السجن، مع الأمّ والجدّين والأطفال». في الخارج كان إطلاق النار مستمرّاً. ثمانية قتلى واثنان وعشرون جريحاً. «لكي يتعلّموا» -قال المستشار الأوّل، وهو يصعد في سيارة الرينو السوداء الطويلة التي حملته إلى محطة القطار- «هل سقط أحدٌ من جنودنا؟». «اثنان، فقد كان أحد الطلبة وأحد المستخدمين مسلّحين». «لتُقَم لهما مراسم دفن وطنيّة، وتُطلق المدفعية وتُعدّ لهما مسيرة جنائزيّة ويسجّى جثماناهما في بهو الأبطال، لأنهما سقطا في أثناء الواجب». حُضّر لسفرة المستشار الأوّل

إلى الجبهة، عند رصيف محطة القطار، باستعراض كبير من خيول وعربات، أشرطة قبعات ومهاميز، نواظير وسياط، في ذهاب وإياب، رواح ومجيء، رقباء يذكّرون بجنود الفيلدفيبل الألمان، مكلّفون بتأمين صعود الجنود في عربات القطار وعربات الأغنام وعربات البضائع والأمتعة. صعد أولاً جنود النخبة والقنّاصة والخيّالة، بجزماتهم البرّاقة وهيئاتهم العسكريّة. سيسافرون في العربة الرئاسيّة. أمّا بقيّة القطارات فقد خُصّصت للجنود الأدنى مرتبة، من أصحاب السترات المكرمشة والجزم الرديئة، ثمّ يأتي بعدهم الجنود من المرتبة الثالثة، أصحاب الفؤوس وأحزمة الخراطيش والبنادق القديمة والأحذية المتنافرة الأحجام والأرقام. أمّا النساء المقاتلات، بأفرانهنّ وأدوات الطبخ المحمّلة في الأكياس والحقائب، فقد رحن ينحشرن بين المجموعات والصفوف، يتسلّلن من النوافذ ويتسلّقن السقوف. رُكِّب مدفعان من نوع «كروپ» فوق منصات وُضعت على سطح عربات القطار في سكّة نصف دائريّة، لتسير وفق آليّة قوامها عجلات مسنّنة وعتلات وذراع تدوير. «وهل سنحتاج إلى كلّ هذا؟»، سأل المستشار الأوّل. «ثبت بالتجربة» -قال هوفمان- «أنّ في الإمكان حملها في عربات نقل القصب التي تجرّها أربعة أزواج من الثيران». «شيء عملي جداً في حالة العمليات السريعة»، قال الرئيس، الذي عدّلت الاستعدادت للحرب مزاجه. وأخيراً، وبعد ثلاث ساعات من التأخير -أمضوها بين إدخال عربات وتحريك عربات وتعديل عربات، والتحقّق من صلاحية هذه وتلف تلك، إن كانت التي هناك معطوبة الكوابح، إن كان الماء في عربة الخزّان صالحاً للاستعمال، إن كانت المقطورة مناسبة، ثمّ ساعتين أخريين، في إخراج العربات المحوريّة من السكك الميتة وإعادة ترتيب صفوف العجلات وتقديمها وإرجاعها بين

صفير المقطورات ونفير جوقات الموسيقا العسكريّة- انطلقت قطعات الجيش، يرافقها النشيد المعتاد:

وداعاً. وداعاً.

يا نجمة حياتي،

قال جندي

يقف عند أسفل نافذة[97]

انسحب المستشار الأوّل، مع پيرلاتا، إلى حجرته الخاصة من القطار الرئاسي، ليشرب ممّا تحمله الحقيبة-هيرميس، بعيداً عن نظرات القادة والكولونيلات الذين راحوا يحتفلون، في عربة النوم، بانطلاقهم نحو الجبهة، بين ما لديهم من زجاجات الشراب الفاخر. جلس المستشار الأوّل على حافة سريره وراح ينظر مهموماً إلى أطراف جزمته اللمّاعة ونطاق الميدان المعلّق في إحدى الحمّالات والمسدس المحشور في قرابه - وهو أثقل وأكبر عياراً من مسدسه المفضّل، «البرونغ» الخفيف، الذي هو للاستعمال الشخصي. «جنرال».. «سيدي».. «سيدي الجنرال»... وراحت روابط السكّة تردّد بانتظام مهووس رتيب، مع مرور العجلات عليها: «جن- رال... جن- رال... جن- رال... جن- رال... جن- رال...». ربّما كان هو الجنرال الوحيد في هذا العالم الفسيح الذي لا يعجبه لقب الجنرال - لا يستعمله إلا حين يكون مع عسكريين، أو حين يجب عليه أن يشترك، كما يحدث له الآن، في قيادة عملية من العمليات. لأنّه، في الواقع، هو من منح نفسه هذا اللقب قبل سنوات طويلة، حين ذهب على رأس مجموعة مسلحة قوامها ستّون رجلاً تقريباً، إلى مرفأ «لا بيرونيكا»، لمهاجمة موقع تحصّن فيه متمرّدون ثائرون من أعداء الحكومة التي

---

(97) مقطع من أغنية فولكلوريّة مكسيكيّة عنوانها: «وداع الجندي» El Adiós del soldado.

كان آنذاك موالياً لها، والتي لم يلبث أن أطاح بها، فقد تحرّك لاحقاً، مع جنرالات حقيقيين، وانتهى به الأمر حاكماً في القصر الجمهوري. أمّا الآن، فسيعاود، لوقت ما -مدة ما تتطلبه العمليات العسكرية- سماع «جنرال»، «سيدي»، «سيدي الجنرال». ونظر من جديد إلى طرف جزمتيه ومهمازيه ونطاقه. وفكّر، وهو يسخر من نفسه، في شخص يظهر في كوميديا لموليير، يغيّر دوره فيضع على رأسه طاقيّة حين يكون طبّاخاً، وحين يكون حوذياً يرتدي بدلة. «أعطني شراباً» -قال موجّهاً كلامه إلى پيرلاتا- «وناولني ذلك المجلّد!». راح يقلّب صفحاته، بانتظار أن ينام، حتى بلغ جزءه السادس، وكان قد ترك قراءته قبل أسابيع. الفصل الحادي عشر: «بعد أن بلغنا هذا الجزء من الحكاية، يبدو مناسباً أن نسهب في الكلام عن عادات بلاد الغال وبلاد الجرمان وتقاليدهم، وعن الفوارق التي تميّز تينك الأمّتين. ففي بلاد الغال، ولا نقصد بها ولاياتها، بل كلّ مقاطعة صغيرة وجزء من مقاطعاتها، كلّ بيت من بيوتها، هناك أحزاب». هناك أحزاب. «وهذا هو السبب في أنّهم عاثوا بها كما عاثوا»، علّق المستشار الأوّل بين نوبتين من التثاؤب. في الخارج، استمرّ الغناء:

كانت روسيتا، ليلة قتلوها، محظوظة.
فمن بين الرصاصات الستّ التي أطلقوها عليها،
لم تُصبها إلا واحدة... قاتلة[98]

(98) Rosita Alvirez: أغنية شعبيّة مكسيكيّة.

ثلاثة

حين عبر الجنرال أتاولفو غالبان النهر الأخضر، بعد هزيمته في أوّل معركة مفتوحة، وراح يسير في مؤخرة قواته المندحرة المشتّتة، مخلّفاً، عند الضفة، رفيقتَي حملته: «ميسيا أولاّيا» و«خاثنتا لا نيغرا» -تخلّفتا لحرصهما على حمل رُزَم القمصان والمعاطف والأشرطة التي سرقتاها من محلّات البلدة المنهوبة-، ومضَ برقٌ شقّ السماء من أعلاها إلى أدناها، ودوّى رعدٌ تبعته رعود، فكان ذلك إيذاناً بهطول مطر سيدوم أشهراً، مطر مدرار، لا يعرف هدنة ولا هدوءاً، يبعث على الجزع من شدّته وتواصله، وهكذا هي حال المطر في بقاع الخشب تلك. تلك الأراضي الواقعة عند أطراف جبال مغمورة بالضباب، مخفيّةٍ بين سُحبٍ تنقشع هنا حين تتوقع أن تنقشع هناك، لتفسح للشمس بالتسلّل من خُرمٍ تصنعه في السماء، دقائق هنا ودقائق هناك، لتنير كبرياء أزهار شامخة، في أعالي أشجارٍ مغلقة، لا يُعرف لها اسم، أو لتعظّم، عبثاً، ولادة زهور الأوركيديا في سقف الغابة، وأقول عبثاً لأنّ أحداً لا يشهد ذلك التعظيم. وتسقط الأمطار على أراضي الخشب تلك، حيث الماهونات والإهليلجيات وأشجار السدر والكبيبات، وأنواع هي من الوفرة والغرابة أنّها تستعصي على كلّ تبويب وتصنيف -بل

لقد استعصت على هومبولت[99]- فلا يشعر الرجال باقترابها إلا من رائحة تأتيهم من بعيد، ويتملّكهم إحساس بأنّهم داخلون في سنة أمدها سبعة أشهر محشورة في سنة أخرى من اثني عشر شهراً، سنة تتجاهل الفصول الأربعة لتنقضي في فصلين اثنين: فصل قصير، صدئ وسريع، وآخر طويل، مبلّل ومملّ. وحين تقصف آخر رعود الفصل، تبدأ حياة جديدة -مرحلة جديدة، خطوة جديدة- في خضرة رطبة مغمورة في رطوبتها، حتى لتبدو وكأنّها خرجت من بطن البحيرات والمستنقعات، المأهولة بالضفادع ذوات النقيق والعلاجيم ذوي الجلد المترهل، المتقزّحة بفقاعات شاردة من عفن غارق منغمر. كان العديد من خيم الميدان قد نُصبت لقادة الجيش: خيمة المستشار الأوّل في الوسط، وقد رُبطت حبالها إلى أعمدة لتسند مثلث الواجهة المتوّج بعلم الجمهوريّة. دعا القائد المنتصر ضبّاطه، بعد عشاء أكلوا فيه الساردين ولحم البقر المعلّب والموز المشوي وحلوى الحليب ونبيذ الراين، إلى أن يأخذوا قسطاً مستحقّاً من الراحة، بعد معركة ذلك اليوم الحامية، استعداداً لمجلس الأركان المقرّر لليوم التالي. لم يبقَ معه غير الكولونيل هوڤمان والدكتور پيرلاتا، اللذين شاركاه لعب الدومينو في دست باهت على ضوء مصابيح الكيروسين المصفرّة. وسقطت في تلك الأثناء خمس صواعق، عشر، عشرون، على الغابات، أعقبتها رعودٌ توالت وتواصلت فتوالى دويّها وتواصل قصفها، وهبّت رياح عاصفة على إثر إعصار مائي -«الدوّارة-الفرّارة» كما يصفها سكّان المنطقة- اقتلعت، في رمشة عين، المعسكر كلّه. وبينما راح الجنود يبذلون ما في وسعهم، لجأ الكولونيل هوڤمان والمستشار الأوّل، يقودهما الدكتور پيرلاتا، إلى جبل اكتشفوا، حين بزغ الصباح، أنّ له فتحة مظلمة هي مدخل مغارة

(99) Von Humboldt (1769-1859): جغرافي ومستكشف ألماني ومؤسّس علم الجغرافيا الحيويّة.

جبليّة. توجّهوا إلى المغارة منزلقين متعثّرين مبلّلين يرتجفون، يشقّون طريقهم على ضوء مصابيح يدويّة. هاجت الخفافيش، ثمّ حلَّ السكون. شعروا بالأمان جنب الجدران الرطبة، تحت القبّة الطينيّة، المزخرفة بالهوابط الكلسيّة، حيث لم يبقَ من صوت المطر غير صدى شلّالٍ بعيد. لكنّ البرد قارسٌ؛ برد صلصال في ظلّ تسقط عليه بانتظام وهدوء قطراتُ ماء تأتي من صدوع الجبل وشقوقه. ولدت في رأس المستشار الأوّل، الذي افترش عباءة، رغبة شديدة في الشرب. (ضرورة تتصل بالبطن، بالأحشاء، تسبّب في الجسم شعوراً بالفراغ، بخلوّ في الأمعاء، بتشنّج ناتج عن ضيق يصعد نحو الحنجرة، نحو الفم، وهو ذاكرة الشفتين والشمّ). فهم الدكتور پيرلاتا الأمر (إشارة مكرّرة بالإبهام نحو الأذن)، فقال بنبرة ساخرة، بعد أن أمسك بحقيبة-هيرميس، إنّه حمل معه العرق تحوّطاً لنزلات البرد المحتملة أثناء الحملة، فهو -ولِمَ الإنكار؟- مفتون بشربه. «يعرف الجميع أنّك رئيس دير سانتا إينيس»[100]، قال الكولونيل هوفمان، وقد سرت فيه فرحة مفاجئة، بينما كان يفكّ أزرار معطفه. وضمّ توسلاته إلى توسّلات السكرتير ليقنعا المستشار الأوّل بتناول شيء من الشراب للحفاظ على صحته -وهي الآن أغلى من ذي قبل وأهمّ- من الضرر الناشئ عن أحوال الطقس. «ولكن لمرّة واحدة»، قال المستشار الأوّل، وهو يرفع إلى فمه القارورة الأولى، التي شمّ في بطانتها المعمولة من جلد الخنزير، المساميّ الصفيق، رائحة الحانوت الباريسي الذي كانت أوفيليا تشتري منه السروج والأعنّة والشكائم والأطقم لمدرسة ترويض الخيل. «لا تكتفِ، سيدي الرئيس، بجرعة واحدة، إنّه شراب مفيد، وهذه فرصة لا تتكرر كلّ يوم. يا له من يوم مجيد!». «فعلاً، كان يوماً مجيداً!»، ثنّى

---

(100) Santa Inés: اسم المشروب المفضّل للمستشار، وهو اسم قديسة. ومن هنا جاءت إشارته إلى الدير.

الدكتور پيرلاتا. وجاءه الردّ من الخارج رعداً زاد في الداخل من شعورهم بالأمان. لقد مزج شراب المغارة القويّ عطورَ القصب، وهو ما زال طريّاً، برطوبة الطين والطحالب، في استرجاع بعيد لأقبية النبيذ المعتّق، حيث يرقد عصير العنب في العنابر العميقة، تحت رعايتها وعنايتها. ومع عودة الروح إلى روحه، تذكّر المستشار الأوّل نصّاً كلاسيكياً كان ذكره، على سبيل الطُّرفة، في مجلس الوزراء -حيث اعتاد أن يتباهى بأنّه قارئ نهم، فيورد أبياتاً شعريّة وحِكماً بليغة وأقوالاً مناسبة للمقام والحال- بمناسبة شجارٍ سياسيّ شابه هرجٌ ومرج عسكري: «هبّي أيتها الرياح، ومزّقي الأوداج منك! هيجي واعصفي! وأنتِ، أيتها الشلّالات والزوابع المعصرات، أفيضي ماءك حتى تغرقي قُللَ البروج والصوى! وأنتِ أيّتها النيران الكبريتية المجفلة إجفال الخاطر، منذرةً بالصواعق الشاطرة جذوع السنديان، عَصفِري هامتي البيضاء!»[101]... فيردّ عليه الدكتور پيرلاتا، وهو أقرب إلى ثوريّا[102] منه إلى شكسبير، بمقطع من «خنجر القوطي»، لطالما ورد في مسرحنا الوطني على لسان الإسباني المأسوي ريكاردو كالفو[103]، وهو يقلّد ساخراً طريقة نطقه الفصيحة:

أيّ عاصفة تتوعّدنا!
أيّ ليلة، يا للسماء!
هل الدويّ المرعبُ أعمى،

---

(101) من مسرحية الملك لير. الترجمة لإبراهيم رمزي، الفصل الثالث، المنظر الثاني، ص61.

(102) يشير إلى الكاتب المسرحي الإسباني الشهير José Zorilla (1817-1893)، مؤلّف مسرحية «دون خوان تنوريو». من أعماله أيضاً مسرحية «خنجر القوطي El puñal del godo» المذكورة هنا.

(103) Ricardo Calvo Agostñi (1875-1966): ممثّل ومخرج مسرحي إسباني.

وهل البرقُ الذي يومض،
حين تهبّ الريح غاضبة
وحين يبرق سمتُ السماء؟

فُتحت حقيبة القارورات ثانيةً للاحتفال بـ«نبرة القصيدة المرعبة» وبمن زمجر بتلك النبرة. وبعد أن أحسّوا بدفء كافٍ، فكّوا أزرار ستراتهم العسكريّة، بدأ الكولونيل هوفْمان يراجع سير الحملة ورسم مخططاً لمجرياتها: حتى أمس، صدامات مسلّحة بسيطة، مناوشات، إطلاق نار، تعرّض للدوريّات؛ أمّا من طرفنا، فالأخطر كان القطار الذي فُجّر عند خروجه من نفق «روكيرو»، وفقدنا فيه خيولاً وعتاداً، وسقط لنا من الرجال سبعة عشر قتيلاً واثنان وخمسون جريحاً، تتراوح جراحهم بين الخطيرة والطفيفة. لكنّ العدوّ -ووجّه ضوء مصباحه اليدويّ إلى خريطة مفروشة فوق ذروق الخفافيش التي تغطّي الأرض- تراجع صوب النهر الأخضر، من دون أن يبادر إلى قتالنا. أمّا نحن، فقد خضنا مواجهة كبيرة: معركة حقيقيّة، لم نخضها منذ حرب الاستقلال. كان ضرورياً أن نستعدّ لها استعداداً جيداً. فقد كان العدوّ تلقّى الكثير من الدعم في الرجال والدواب والأغنام والأكياس المعبّأة بالذرة والمعلومات التي نقلها، بسرعة البرق، من قرية إلى قرية، ساكنو الجبل السفَلة، المناصرون الأبديون لكلّ شغب وانقلاب. لم يكن الصراع وليد اليوم. فمنذ نصف قرن وسكان الأنديز هؤلاء يختبرون صبرنا بهجماتهم على العاصمة، منذ نصف قرن وزعماؤهم يفقدون صوابهم حين يرون، لدى زيارتهم القصر الجمهوري، طبّاخات الغاز والحمّامات وحنفيّة الماء الساخن والتلفون بين حجرة وحجرة. لذلك كان من الضروري، قبل أن نخوض المعركة، الشروع في عمليّة تنظيف واسعة: حرق بيوت وضياع، إعدامات ميدانية

في حقّ كل مشتبه به، فكلّ إطلاقات أثناء حفلات الرقص أو أعياد الميلاد أو التعميد، ما هي إلا مناسبة لدعاية هادئة، لنقل الأخبار، لكسب الناس وتحشيدهم من أجل الثورة - فضلاً عن طقوس السهر على جثمان الميت، حين يكون النعش فارغاً من أيّ جثمان. غريب عجيب! «ولكنّك أفرطتَ في يوم القدّيس توماس دل أنكون وبالغتَ»، قال المستشار الأوّل. أمر حزين. حزين جداً، بلا شك، لكنّ الحرب حرب، وليست مناسبة لقفّازات بيض أو تأملات. من الضروري دائماً مراعاة مبدأين لا غبار عليهما قال بهما مولتكه[104]: «ليس أفضل من حرب تنتهي منها بسرعة.. ولكي تنتهي منها بسرعة فكلّ الوسائل مشروعة، حتّى المستنكرة منها». ورد في قاعدة عسكريّة نشرتها رئاسة الأركان الألمانية عام 1912 ما يلي: «ليست الحرب الناجحة هي الموجّهة لقتال العدو الذي يجابهك في ميدان المعركة وحسب، بل هي التي تتسع لتشمل تدمير جميع موارده الماديّة والمعنويّة. أمّا الاعتبارات الإنسانيّة فتؤخذ بالحسبان شرط ألّا تؤثّر على أهداف الحرب». وكان ڤون شليفن[105] قال قبل ذلك... «كفاك من مأثور كلام الألمان»، قال المستشار الأوّل. كان ڤون شليفن يرى أن تدار المعركة من على شطرنج الخرائط، عن بُعد، باتصالات تلفونيّة، سيارات ودراجات ناريّة. لكنّ الاتصالات في هذه البلدان التعبانة، التي لا تتوفر على طرق خارجية واسعة، والتي تكثر فيها الغابات والمستنقعات وسلاسل الجبال، لا بدّ أن تتم على ظهور البغال أو الحمير -الحصان

(104) Helmoth von Moltke (1848-1916): رئيس أركان الجيش الألماني بين عامي 1906 و1914.

(105) Alfres von Schleiffen (1833-1913): رئيس أركان الجيش الألماني حتى عام 1906. صاحب الخطة المعروفة بخطة شليفن التي وضعها عام 1905 لهزيمة الإمبراطورية الروسية.

لا ينفع في الجبال المكسوّة بالأحراج- أو عن طريق السعاة، شرط أن يكونوا قادرين على الجري والزوغان، مثل سعاة أتاوالبا[106]. تلك المعارك الخياليّة، التي تقوم على نواظير مفردة ومزدوجة، مع خرائط مربّعة وأجهزة تدقيق، تجعل بعض الجنرالات، من ذوي الشوارب القيصريّة ومعاقري الكونياك، يعيشون دويّ القصف ومشاهد القتل في منامهم، وهم يحملون زجاجات الكونياك في أيديهم. أمّا المعارك التي نخوضها، مثل معركة اليوم، فميدانها القلوب والدماء، معارك لا مكان فيها للنظريات التي تدرّس في المعاهد العسكرية والأكاديميّات. الفعل هنا هو فعل المدفعجيّة المحنّكين، مدفعجيّة «الثلاثة أشبار إلى الأعلى واثنين إلى اليمين وإصبع ونصف تصحيح»، القادرين على إصابة مركز حجر الرحى الذي تستعمله النساء المقاتلات، وهو ما لا يحسنه الضباط الجدد الذين أفسدتهم الرياضيات والنظريات البالستيّة، حتّى اعتاد جنودهم استعمال الورقة والقلم ليوجّهوا قذيفة تسقط، في النهاية، إمّا قبل الهدف أو بعيداً عنه. «في أميركا اللاتينيّة، وعلى الرغم من المدفعية والرشاشات وجميع الأسلحة الحديثة التي نشتريها من اليانكي الأميركان، فما زلنا نتحارب وكأننا نشهد الحروب البونيّة[107] -قال المستشار الأوّل-: لو كانت لدينا فيلة، لعبرنا بها الأنديز». «مع ذلك، ڤون شليفن...». «صاحبك شليفن هذا بنى كلّ استراتيجيته على معركة "كاناي"، التي كسبها هنيبعل». وفاجأهم الرئيس، الذي قاد عمليات اليوم، بأن كشف لهم -ربّما أراد أن يوحي لهم...- أنّه سار بهديٍ من تعليقات يوليوس قيصر حول قيادة

(106) Atahualpa (1497-1533): آخر ملوك الأنكا. أسره الغازي الإسباني پيثارو وحكم عليه بالموت.

(107) هي الحروب الثلاث التي دارت رحاها بين روما وقرطاج في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

المعركة[108]. ثلاثة خطوط من المشاة إلى الوسط؛ اثنان للهجوم والثالث في الخنادق، للاحتياط. وحدتان من الفرسان: في الميمنة، بقيادة هوفمان؛ وعلى الميسرة، بقيادته. الهدف: تدمير جناحي العدو وحصره في نقطة واحدة، في مركز واحد، بحيث تكون مؤخرة قواته مشلولة، ومنع تراجعه صوب النهر. حين وجد أتاولفو غالبان نفسه مطوّقاً تقريباً، وكان قد عبر إلى الضفة الثانية وعسكر فيها، بعد أن ترك وصيفتيه وحارستيه، «ميسيا أولاّيا» و«خاثنتا لا نيغرا»، اللتين مرّتا، وأيّ شكّ في ذلك، خلال ساعات، بفتحات سراويل نصف كتيبة فرسان الوطن، تستعرضان من بين فخذيهما الواحد تلو الآخر. كانت المعركة، في الواقع، هي معركة قيصر ضد أريوفستس[109]، فقد بدأت بهجوم بالمشاة على الهنود والسود، ضعيفي التسليح، الذين انضمّوا إلى المتمرّدين -هؤلاء في حالة قيصر هم «الفنيتا» و«الماركومان» و«الهيروليون» و«التريبوكس»...؛ وهم، في حالتنا، «غواهيبوس» و«غواجينانغوس» و«بوجوس» و«ماندينغاس»- إلى أن اضطر القائد المتمرّد، وقد رأى أنصاره يُسحقون، إلى عبور النهر الأخضر. أتاولفو غالبان هو، بالنسبة إلينا، أريوفستس، الذي انهزم تاركاً على إحدى ضفّتي الراين مجنّدتَيه: مجنّدة من «سويفيا» ومجنّدة من «نوريكوم». أمّا قيصر، فليس علينا أن ننسى أنّه اضطرّ إلى محاربة بعض \الأنديز الذين لا أدري لماذا يبدون لي يشبهون جماعتنا الأنديين. «آه، ما أروعك! سيدي الرئيس!»، هتف الدكتور بيرلاتا، مستغرباً من غزارة معلومات المستشار الأوّل في تاريخ الحروب القديمة. «ما أعرفه هو أنّنا اليوم حطّمنا أريوفستس

---

(108) يشير إلى تعليقات يوليوس قيصر على الحرب الغاليّة Commentarii de Bello Gallico.

(109) أحد قادة القبائل الجرمانية التي حاربت يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد.

غالبان»، قال هوفمان، وهو يشعر بشيء من الألم لاستهانة المستشار الأوّل بالقائدين «مولتكه» و«شليفن». عادت القارورات تنتقل من فمٍ إلى فم. كان ومض البرق ينفذ أحياناً من فتحة المغارة. تذكّر الرئيس الأوبرا المملّة التي شاهدها في نيويورك، إذ تظهر، في أحد مشاهدها، مغارة غامضة، ضائعة تحت الأرض، لها قبابٌ علتها خضرةٌ فسفوريّة. حاول الكولونيل هوفمان، وهو صاحب صوت جهوري يمكن وصفه بأنّه من درجة الصادح البطولي، أن ينشد، وهو يستحضر مغارات «ميمي» و«ألبريش»[110]، بعض مقطوعات فاغنر، مشدّداً على النصّ في ألمانيّة مبحوحة، وإن لم يفلح في تلفّظ الكلمات الصحيحة التي تصاحب موسيقا «سيغفريد». التقط، وقد ساءه أن تخونه ذاكرته بعد ما عبّ من الشراب، حجراً ثقيلاً وألقى به إلى قاع المغارة. لكنّ ما دوّى، ردّاً على الحجر، لم يكن صوت حجر يصطدم بحجر، ولا ضجيجَ حجر يسقط في الوحل أو في الماء، بل كان صوت كوزٍ من الفخار أصيب في وسطه، فتكسّر قطعاً. رفع العسكري مصباحه فوجد أنّ فوق قطع الفخار هيكلاً بشريّاً -ما عاد فيه من صفة البشر إلا القليل- مُفزعاً، قوامه عظامٌ ملفوفة بأنسجة ممزقة، جلدٌ يابس، مثقّب، مأروض، يحمل جمجمة مربوطة بشريط مطرّز؛ جمجمة بتجويفين علاهما تعبيرٌ مرعب، وأنفٍ محفور غاضب، على الرغم من غيابه، وفمٍ كبير، محشوّ بأسنان صفر، كأنه مثبّت على وضعيّة صراخ غير مسموع، فوق خرابة من سلاميات سائبة وأضلاع نافرة وعظام متقاطعة، ما زال يتدلّى منها خفّان ألفيان - بدوَا، مع ذلك، جديدين، إذ ما زالت خيوطهما الحمر والسود والصفر موجودة. كان ذلك من قبيل جنين عملاق منزوع اللحم، مرَّ بجميع مراحل النمو والنضج والشيخوخة والموت -عاد إلى

---

(110) Mime و Alberich قزمان ساحران يرد ذكرهما في الأساطير الألمانية.

الحالة الجنينيّة بتكرار الزمن-، جالس هناك، أبعد من موته، أقرب إلى موته، شيء هو تقريباً شيء، أطلال بدنٍ تنظر من خلال تجويفين، تحت خصل غامقة من شعر مقرف، مغبرّة متهدلة على خدّين ناشفين. كان ذلك الملك أو القاضي أو الراهب أو القائد ينظر بغضب، من زمن قرونه الكثيرة السحيقة، إلى أولئك الذين تجرّؤوا على كسر آخر ملاذاته الفخاريّة. ستّ جرار أخرى ترتفع يميناً ويساراً، بمحاذاة جدران تلمع بسبب الماء المترشّح من الجبل. أخذ هوڤمان حفنة من الحصى وراح يرجم تلك الجرار، الواحدة تلو الأخرى. وكان ما ظهر ست مومياوات، مقرفصات، متقاطعات عظام الذراعين -مسلوخة الجلد تقريباً، مهشّمة تقريباً في منطقة عظمي الفخذ والسلاميات، وقد بدا ما يشبه الاتهام والشكوى في سواد وجوهها- ملتئمات في اجتماع مخيف، في جلسة محاكمة تنظر في قضيّة تدنيس للمقدسات. «يا لطيف! يا لطيف! حابس! حابس!»، صاح الثلاثة، وقد رأوا رفوف الخفافيش تحلّق فوق رؤوسهم. حين جنّ الليل، خرجوا ومشهد ما خلّفوه وراءهم يلاحقهم. خرجوا تحت المطر، واتجهوا إلى المعسكر حيث كانت بقايا الخيام المنهارة تطفو فوق سطح الماء الموحل. تدثّروا بذلك النسيج -وهو يقطر ماء- وجلسوا أسفل شجرة غليظة بانتظار سماع بوق الفجر. ولمّا كان البرد شديداً، فقد أفرغوا في أجوافهم آخر ما في قارورات حقيبة-هيرميس. حين استعاد المستشار الأوّل السكينة التي جاءه بها الشراب، كلّف سكرتيره أن يرفع تقريراً إلى أكاديميّة العلوم الوطنيّة، حول اكتشاف المومياوات، مع الإشارة إلى إحداثيات المغارة واتجاه مدخلها بالنسبة إلى مطلع الشمس، والمكان الدقيق للجرار، إلخ، كما يفعل علماء الآثار في العادة. وأمر أيضاً بأن تهدى المومياء الكبيرة، الموجودة في الوسط، إلى متحف «تروكاديرو» في باريس، لتحتلّ مكانها

المناسب في إحدى زجاجات العرض فيه، فوق قاعدة من الخشب، وعليه لوحة من النحاس تقول: حضارة ما قبل كولومبوس. ثقافة النهر الأخضر. أمّا مسألة تحديد عمر تلك اللُّقى فسيُعهد بها إلى خبراء من هناك، لأنّهم دقيقون وعلميون، وليسوا كجماعتنا، الذين لا يصفون عروة الجرّة القديمة أو التعويذة الفخاريّة التي يُعثر عليها إلا بأنّها أقدم تقنيّة مما صنعه قدماء المصريين أو السومريون. على أيّ حال، فكلّما زاد عدد القرون المكتوبة على لوحة النحاس، صبّ ذلك في سمعة البلد ووجاهة الوطن، واستطعنا أن نبلغ، بعراقة آثارنا، ما بلغته المكسيك أو البيرو، التي تنهض أهراماتها ومعابدها ومقابرها شواهد على حضارتنا، وتثبت للعالم أنّ من الخطأ أن توصف أرضنا بأنّها عالم جديد، فقد اعتمر أباطرتنا تيجان الذهب، وتزيّنوا بالأحجار الكريمة وريش الكيتزل، حين كان أجداد الكولونيل هوفمان ضائعين في غابات سود، تكسو أبدانَهم جلودُ الدببة ورؤوسَهم قرونُ البقر، وحين لم يكن الفرنسيون، بعد أن شبعت بوّابة الشمس في «تيواناكو» قِدماً وزمناً، قد تجاوزوا مرحلة بناء الشواهد القائمة -كتلة الحجر العمودية تلك، المجرّدة من أيّ فنٍّ وجمال- في شواطئ بروتاني.

أربعة

أقصد بالجسم كلّ ما يمكن أن يُحدّ بشكل وما يمكن أن يحتويه مكانٌ ويشغل حيّزاً بحيث يقصي عنه أيَّ جسم آخر[111].

ديكارت

أراد المستشار الأوّل، بعد دحر العدو، أن يمنح جنوده استراحة قصيرة، يتفرّغون أثناءها لإخلاء الجرحى الذين أصيبوا بطلق ناري أو بحربة أو بفأس أو بمطواة، لكنّه عدل عمّا أراد وقرّر عبور النهر الأخضر في ذلك اليوم، فمنسوب مياهه سيرتفع مع أمطار الليل، ومع ما كان يهطل في تلك الساعة. فاستغلّ الخيّالة، وكان ذلك في مقدورهم آنذاك، مخاضة من النهر قريبة للعبور؛ واستعمل المشاة القوارب والعبّارات والزوارق، كما استعانوا بناقلة صدئة متروكة بين الأسل، عمدوا إلى إصلاحها على جناح

(111) «التأملات في الفلسفة الأولى» Méditations Métaphysiques، ترجمة: عثمان أمين، ص98-99.

ترى باحثة أنّ المراد هنا بالجسم هو «الجسم العسكري» أو القوات المسلّحة. فمن غير الممكن أن تكون هناك سلطتان في البلد الواحد. [Ortiz, 34]. الفصل يروي تمرّد الضابط غالبان ومحاولته قلب نظام الحكم.

السرعة، لاجتياز المانع ونقل مدافع «الكروب» وستّ قطع من المدفعية الخفيفية ومعدّات ومواد حدادة ومعلّبات ومشروبات، من جنّ وكونياك، مخصصة للضبّاط، فضلاً عن عدد المطبخ، من قلّايات وأفران وطبّاخات صغيرة، تستعملها المجنّدات - وقد أطلق الجنرال هوڤمان على ذلك كلّه مصطلح «اللوجستيّة»، إرضاءً للمستشار الأوّل، وما هي في الواقع، بحسب الدكتور پيرلاتا، إلا كراكيب و دراقيع وخمور رخيصة. وسارت العمليات بسرعة، فما من عائق يعيقك ولا من عدو يواجهك، بعد أن تراجع الخونة المتمرّدون صوب البحر، محاولين، في ما يبدو، الاحتماء بالتلال المحيطة بمرفأ «لا بيرونيكا»، قاعدة أسطول الأطلسي، حيث يرسو طرّادان صغيران مزوّدان بمدكّ متروك ومدافع محدودة المدى، إضافةً إلى عدد من قوارب خفر السواحل من طراز أحدث، راسية في فرضة لتصليح السفن، خلف ترسانة القوّة البحريّة. ومع أنّ رجال أتاولفو غالبان نهبوا القرى والضِياع أثناء انسحابهم، فقد اجتهد الجنود والمجنّدات في البحث عن خنازير وعجول ودجاج، قد تكون مخبأة في المغارات والأقبية، أو في سراديب المقابر، فعثروا على زجاجات من عرق «الكاچاثا»، وقوارير من شراب «الچاراندا» وجرار من عصير «الغواراپو» و«الثيرويلون»، مدفونة في باحات المنازل وحدائق الكنيسة، وحتّى تحت التراب في المقابر. وهكذا أحيوا حفلاتٍ رقصوا فيها «الميتوته» على أنغام موسيقا «الپارّاندا»، واستمتعوا بمجالس «الفارّا»، بين لهوٍ وقصف، وأمضوا ليالي معسكرهم، الذي أقاموه هناك، بين شرب وشعر وزمر ونقر وطبل، بينما الخلاسيّات والزامبات[45]، البيضاوات والسمراوت، يجارين بكعوب أقدامهنّ الإيقاع ويرقصن «البامبا» و«الخرابي» و«المارينيرا»[112]، قبل أن يبتعدن عن

(112) Bamba و Jarabe و Marinera: أنواع من الرقص الشائعة في أميركا الجنوبية أو في بعض بلدانها.

النار ليندسسن مع رجالهنّ في بقعة من البقاع المشجرة ليُرِحن أبدانهنّ. في نيسان وقعت أولى الهجمات على طلائع المرسى، فأجبرت قواتُ العدوّ على التحصّن في أطراف المدينة. «ها هي ذي مقولة فوش[113] الشهيرة تتحقق» -قال المستشار الأوّل، متعمّداً ذكر اسم الشخصيّة العسكريّة الفرنسيّة ليثير حفيظة هوفمان- «حين يقرر أحدُ طرفي الحرب التوقف عن الهجوم، فعليه أن يستعدّ لحفر الخنادق وطمر نفسه في التراب». وراح يتأمّل بحنين، وهو يقف على قمّة واحد من التلال الثلاثة التي تشرف على البلدة، القباب الأسطوانيّة، بأبراج نواقيسها الباروكيّة، وأسوارها القديمة، التي تعود إلى عهد الاستعمار. فهناك ولد وهناك تعلّم أولى الحروف على يد الإخوة المريميين[114] (في ذلك البناء ذي الطابقين والعقود القوطيّة المدبّبة بين الأعمدة الأسمنتيّة المربّعة) في كتب جميلة مصوّرة تتكلّم عن فيضان النيل وترويض بوسيفالوس[115] وأسد أندروكلس[116] واختراع المطبعة وكيف دافع الراهب بارتولوميه دي لاس كاساس[117] عن حقوق الهنود، وكيف يبني سكان الأسكيمو بيوتهم من الثلج، وكيف أنّ الراهب ألكوين[118]،

---

(113) Ferdinand Foch (1851-1929): عسكري فرنسي. قاد جيوش الحلفاء في الحرب الأولى.

(114) رهبانية كاثوليكيّة أُسِّست في فرنسا في القرن التاسع عشر.

(115) هو حصان الإسكندر الأكبر، روّضه ليقدّمه هديّة لوليّ عهده ولده فيليب. وكان حصاناً صعب المراس.

(116) عبد من روما آبق. لجأ إلى مغارة فيها أسدٌ دخلت شوكة في كفّه. عالج الأسد ثمّ التقاه في حلبة المبارزة.

(117) Bartolomé de las Casas (1474-1566): راهب إسباني، عمل أسقفاً في المكسيك وعُرف بـ«رسول الهنود» لدفاعه عنهم في وجه المستعمر الإسباني هناك.

(118) Alcuinus: عالم لاهوت وشاعر ومعلّم إنكليزي عاش في القرن الثامن الميلادي، ويعدّ من أبرز العاملين على النهضة في الإمبراطوريّة الكارولنجيّة.

منشئ المدارس الكارولنجيّة، كان يفضّل التلاميذ الشطّار، وإن كانوا فقراء، على أبناء النبلاء، الكسالى البلداء. ثمّ تلقّى دراسة ذكيّة تجمع بين التاريخ واللغة الفرنسيّة، عن طريق نصوص يحتلّ فيها الباسو دي سواسون -وكان ذلك طبيعيّاً- حيّزاً أكبر ممّا تحتله موقعة آياكوچو[119]، وحيث يحظى قفص الكاردينال دي لا بالو[120] باهتمام يفوق ذلك الذي يحظى به غزو بلاد الپيرو، وحيث توجّه العناية إلى القديس لويس دي لاس كروثاداس[121] أكثر من توجيهها إلى سيمون بوليفار في موقعة كارابوبو[122] - وإن أُشير إلى أنّ اسمه صار يطلق على قبعة عالية يرتديها المتأنقون في باريس مطلع القرن الماضي. ولكنّ طفل الكتب المقررة البسيطة -طفل الرياضيّات التي لم يتقن تعلّمها والكلاسيكيين الذين لم يُحسِن تذكّرهم- نما وكبر. واستحضر المستشار الأوّل مغامرات المراهق وجولاته في شوارع الميناء، الغاصّة بالبحّارة والصيادين والباعة المتجوّلين والمومسات، بحاناتها البهيجة التي تحمل أسماء غريبة: «انتصارات فينوس الميلوسيّة» أو «الحكماء من دون دراسة» أو «الأولاد المتردّدون» أو «قارب على اليابسة» أو «مكتبي» - بدكاكين بيع السنارات والسِّلال والشِّباك، ودكاكين بيع الحِبال، وعربات بيع المحار والحبّار وأسماك القدقود، على امتداد الأرصفة حيث تمتزج رائحة القطران وماء الملح وسمك الأنشوا، مفروشاً على الألواح، برائحة الياسمين والمسك التي تضوع من بنات الهوى...

---

(119) هي المعركة الأخيرة من معارك استقلال الپيرو (1824).

(120) Jean de la Balue (1421-1491): كاردينال فرنسي ووزير لويس الحادي عشر. اتهم بالخيانة فاعتُقل ونقل في قفص حديدي إلى منفاه.

(121) يشير إلى لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبيّة السابعة عام 1249 فدعي بها.

(122) Carabobo: معركة فاصلة خاضها سيمون بوليفار ضمن معارك الاستقلال في فنزويلا (1821).

هناك كانت، أسفلها، ڤيلّا «بيرونيكا»، الشبيهة باللوحة المحفورة بالنحاس التي صوّرها فيها فنّان إنكليزي قبل ذلك الوقت بمئة سنة، وتظهر في مقدمتها صور عبيد وسادة فرسان؛ هناك كانت، بقصر ديوان التفتيش المقدّس الفخم، الذي شهدت ساحته جلدَ بعض الهنود والزنوج وسبّهم ورميهم بالقاذورات وبالقمامة، بعد أن اتُهموا بممارسة السحر في أزمنة بعيدة. هناك كانت ڤيلّا «بيرونيكا»، بدارها الكبيرة المؤلّفة من ثلاثة طوابق وسقفين -موانع صواعق، برج حمام أزرق سماوي ودوّارة ريح تصرّ حين تدور- حيث ولد أولاده، حين لم يكن يستطيع، إبّان عمله صحفيّاً محليّاً بائساً، أن يقدّم لعياله، في بعض الأيام، أكثر من شرابٍ معمول من قصب السكر أو ضربٍ من البسكويت أو حلوى السكّر، لتحلية مغليّ الموز المخلوط بالخبز، وكان الطبق الممكن الوحيد قبل النوم. هناك، في تلك الباحة المكلّسة، بدأت ذرّيّته القفزة الأولى في لعبة الحجلة التي حملتهما، النطّة تلو النطّة، على خطا نطّات الأب السياسية، من مربّع إلى مربّع، ومن رقم إلى رقم، في دوّامة متواصلة على رقعة لعبة الإوزة[123] من المرسى إلى العاصمة، ومن العاصمة إلى عواصم العواصم، صعوداً، من ضيق أجواء الميناء إلى العالم المطلق، العالم القديم اللامحدود، العالم الجديد في نظرهم وبالنسبة إليهم، وإن شاب انطلاقتهم تلك مأساة وقعت بين أفراح وأنوار. أوفيليا ظلّت كما هي -أنا هو الذي هو[124] منذ صغرها ولن تكون سواها-، وستستمر، خُلُقاً وخِلقة، طبعاً وصورة، تلك الفتاة الشكسة الشرسة، العنيدة المثابرة المتقلّبة، ستظلّ كما هي منذ أن اكتشفت العالم على مقياس «الدجاجة العمياء» و«أنطون پيروليرو» و«عجلة الرز والحليب»

(123) Juego de la Oca أو Goose game: لعبة للأطفال.

(124) sum qui sum: عبارة وردت في سِفر الخروج على لسان الربّ موجّهاً خطابه إلى موسى.

و«صبّارات الفطائر الواقفة» و«مامبرو الذاهب إلى الحرب» و«عصفورة الليمون الأخضر الملوّنة»[125]. لا شكوى لديه من آرييل: فقد وُلد هذا ليكون دبلوماسياً، يخدع القساوسة وهو طفل صغير، ويردّ على السؤال بسؤال، ويجد في الكذب متعته وراحته، ويرقص على الحبل الرخو بصدر تملؤه الأوسمة والنياشين، ويلجأ -إن أحرجته وطلبتَ منه إيضاحاً لحدثٍ مزعج- إلى استخدام مجموعة من المعميات، كما كان سيفعل شاتوبريان أيّام عمله في السلك الدبلوماسي في مواقف محرجة مشابهة. أمّا مع راداميس، فقد كانت المصيبة، في غمرة نجاحاته، قاسية وشديدة، ولم يبقَ شاهداً عليها إلا صور فوتوغرافيّة ظهرت في صحف العالم أجمع: لقد أدّى به إصراره على منافسة «رالف دي پالما» في سباق السيارات في «أندياپوليس» إلى أن يطير في السماء، على زفت ساخن بعد الميل السادس، وبعد أن صبّ الكثير من الكحول على البنزين، ليكون أخفّ وزناً وأشدّ تفجّراً وديناميكيّة. (رسب في امتحان أكاديمية ويست-پوينت العسكريّة، وحاول تصحيح فشله فانساق وراء عربدة السرعة). وهناك كان يرى ماركو أنطونيو، يتعثّر بين مربعات الحجلة، ببنطاله القصير. إنّه ولده الأصغر، شبح العائلة الخفيّ، الذي ضاع بين أغصان أشجار ليست من هذه الأرض، بل من غابة جينيّة وراثيّة استقرّ فيها - ربّما لأنّه كان الأقلّ «بياضاً» بين أفراد العائلة، والأغرب شكلاً، من حيث الملامح والعينين. واسع الخيال -مجنون، نقول هنا-، منقاد لردود فعل آنيّة، عانى من أزمة زهد في مراهقته، حين رأى، ذات يوم، وهو أمام مرآة خزانة زجاجيّة، إفرازات تخرج من عضوه، سيلاناً من ذاك الذي يدعونه أبيض، العضال العصيّ على العلاج والشفاء. أصرّ على السفر إلى روما ليقبّل نعال الحبر الأعظم ويتعالج بالبرمنغنات الكاردنالية، لكنّه لم يجتز صالة الحاجب،

(125) عناوين أغانٍ وألعاب للأطفال.

فقد التقى بالمصادفة باحثاً في السلالات، وصارت لديه قناعة بأنّه سليل أباطرة بيزنطة، من خط وراثي شديد الاعوجاج، موازٍ وغير مباشر ومتقاطع. أباطرة بيزنطة، الذين مات آخر عالم من علمائهم في اللغات القديمة في جزيرة «باربادا»، مع أفراد من ذرّيته عبروا إلى بلدنا. بعد أن تخلّى عن تطلعاته الزهديّة، وبعد أن دفع أموالاً طائلة لشراء لقب حدودي (كذا: انظر قانون جوستنيان)[126]، كونت دالماثيا، وهذا هو ما فعله، راح يجوب بأرستقراطيته الساطعة أنحاء أوروبا، لقباً بين الألقاب، غيوراً على الألقاب، خبيراً في الألقاب، زير نساء يحملن ألقاباً - ويعرفن الكثير عن فحولةٍ شاع خبرها عن طريق من تحقّقوا من مزايا، نعرفها نحن حقّ المعرفة، لنبتة «المُتسلّق الفحل»، التي يستعملها المسنّون الشبِقون عندنا. بتلك الامتيازات عاش حياةً حملته من مراعي الأندلس إلى عقارات «پينياراندا»، من قصور ڤينيسيا الفخمة إلى رحلات صيد الطيهوج الإسكتلنديّ، من رحلات القنص الملكيّة في «كولوج» إلى سباقات الزوارق الألفونسيّة في «سان سيباستيان»، يتدحرج على خريطة أرستقراطيّات مريبة وباهتة وسقيمة، خريطة بدأت سلالاتُ «آرمر» و«سويفت» الأميركية الشمالية وأرستقراطياتُ «ليبي» الكتشبيّة تكتسب فيها قوّة وسمعة. وكان يتلقى المشورة في مسيرته الظافرة من غوتا (ظلَّ اسمه دائماً للطبعة القادمة) الذي درسه وفهمه وشرحه باجتهاد حاخام يشرح التلمود، وعناية سان سيران يترجم الكتاب المقدّس ثلاث مرّات لبلوغ معاني مفرداته ومنعرجات تفسيراته[127]. كان ماركو أنطونيو عبقريّاً وعديم الفائدة، في آنٍ معاً، نزقاً ومتسلّقاً، كأبيه، مع

(126) مجموعة من القوانين التي أمر الإمبراطور البيزنطي جوستنيان الأوّل (527–565) رجالَ الدين المسيحي بانتقائها من القانون الروماني لتنظيم شؤون الدولة.

(127) Jean du Vergier de Hauranne (1581–1643): كان جان دو فيرجيه رئيس دير سان سيران.

ذلك، فقد كان مبتعداً عن همومه، لحم من لحم غريب عليه، يردّد إنّه حيوان مترف، أيقونة ثقافتنا، عامل مهمّ لوجاهتنا وسمعتنا العالميّة، مجنون، غندوري، متأنّق، جامع قفازات وعصيّ، يرفض ارتداء القمصان ما لم تكن مكويّة في لندن، يعاقب فنانين مشهورين، ويبحث عن وريثات سلسلة محلّات «وول وورث» (كان يحلم بالزواج من آن غولد التي أهدت طليقها بوني دي كاستيلان قصراً من الرخام)[128]، طلّق خمس مرّات، طيّار أحياناً، صديق سانتوس دومونت، بطل البولو، متزلّج في «شاموني»، قام بالتحكيم في نزالات خاضها آثوس دي سان-مالاتو والكوبي لابيرديسكي[129]، الذي يصارع بالرمح، من فوق صهوة فرسه، في نزالات العجول التجريبيّة، يدّعي المعجزات في الروليت والباكاراه، وإن كان بالغ الشرود، وهاملتيّ، أحياناً، في مسألة التوقيع على صكوك من دون رصيد، ينتهي بها المطاف قضائياً في سفاراتنا المحتاطة المجرّبة. وهناك كان مرفأ «لا بيرونيكا» ذاك، عند قدمي المستشار الأوّل، حيث نقش تاريخ ولادته في لوحة وُضعت بالقرب من أحد الأبواب، وحيث أطلقت السيدة ايرمنيخيلدا صرخات ولاداتها الأربع تحت تول ناموسيّة زرقاء تشبه برج الحمام الموجود في الخارج. تلك كانت الفيلّا، التي سقطت لاحقاً في يد القوات الحكوميّة، سليمة بلا ضرر، ولم تصب بأيّ قذيفة، بعد أن استسلم جميع الضبّاط المتمردين تقريباً، في يوم تاريخي هو الرابع عشر من نيسان. وحين وجد الجنرال أتاولفو غالبان نفسه وحيداً، بعد أن تخلّى عنه رجاله

---

(128) Anna Gould (1875-1961): نجمة اجتماعية أميركية وابنة الثري الأميركي جاي غولد. و Boni de Castellane (1867-1932): صحفي فرنسي، زوجها وطليقها.مكتبة سُر مَن قرأ

(129) أسماء مصارعين ومبارزين بالسيف من نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

المقرّبون، ممّن كانوا يحظون بثقته، ولم يظفر بصاحب قارب أو مركب شراعي يوافق على حمله معه، لجأ إلى قلعة «سان لورينثو» القديمة، التي شُيِّدت بأمر من فيليب الثاني على جبل من صخور وحجارة كلسيّة يضيّق مدخل الميناء. هناك نزل المستشار الأوّل عصر يوم الاستسلام، يتبعه الكولونيل هوفمان والدكتور پيرلاتا ودزينة من الجنود. كان المهزوم بالانتظار صامتاً وسط باحة الشرف. كانت شفتاه تتحرّكان بطريقة غريبة، فما كان الصوت يتطابق مع حركتهما، وكأنّه كان يريد النطق بكلمات لا صوت لها. كان يحاول تجفيف عرقٍ نازل من قبّعته العسكريّة بمنديل خطوط مربّعة - كان من الغزارة أنّ قطراتٍ منه كانت تلطّخ قماش سترته. توقّف الرئيس، ونظر إليه مطوّلاً، فكأنّه يقيس طوله. وفجأةً، قال بصوتٍ حادّ وناشف: «أعدِموه!». برك أتاولفو غالبان على ركبتيه: «لا! لا! هذا، لا! رصاص، لا! رحمة على روح أمّك.. لا! رحمة على روح السيدة الطيبة ايرمنيخيلدا، التي كانت تحبّني، من غير الممكن أن تقتلني. لقد كنتَ لي بمثابة الأب الوالد.. بل أكثر من الوالد.. دعني أتكلّم! ستفهمني.. لقد خدعوني.. استمع إليّ.. رحمة على روح أمّك!». «أعدِموه!». جَرّوه، سحبوه سحباً، وهو يبكي ويولول ويتوسّل، إلى الحائط في قاع الغرفة. شكّل هوفمان فرقة الإعدام. لم يستطع المهزوم الوقوف على قدميه، فاعتمد على الحائط؛ انزلق ظهره ببطء على الحجر، حتى جلس، مدّ قدميه وقد مال بوز جزمته، وأسند يديه على الأرض. واصلت فوهات البنادق نزولها ثمّ توقفت عند الزاوية المطلوبة. «سدِّدوا!». أكّد الأمرُ حالةَ إطلاق النار القائمة. «لا... لا! أريد قسيساً.. أريد أن أعترف.. أنا مسيحي!». «أطلِقوا النار!». وُضعت أعقاب البنادق على الأرض. طلقة الرحمة، إجراء أصولي. ضجيج النوارس. صمت قصير. «ألقوا بجثّته إلى البحر» -قال المستشار الأوّل- «ستتكفّل القروش بالباقي».

هكذا أُسدل الستار على هذا الموضوع. ولكن بقي موضوع آخر، ربّما أجلُّ وأخطر، كنّا قلّلنا من أهميته وفعاليته بسبب انشغالنا في عمل عسكري عاجل: فقد أعلن الدكتور لويس ليونثيو مارتينيث التمرّد، بعد أن أُطلق سراحه وعاد إلى ممارسة نشاطه في قرطبة الجديدة، وراح يصدر، من قصر البلديّة، الإعلان تلو الإعلان ضد الحكومة، وقد انضمّ إليه الطلاب والصحفيون والسياسيون القدامى والمحامون القادمون من المحافظات والأرواح التشاركيّة، إضافةً إلى عدد من الضباط الشباب الذين تخرجوا حديثاً في مدرسة الفرسان في «ساومور»، والذين يشكّلون النخبة المثقفة في الجيش - المعارضة لجماعة والتر هوفمان، والذين تلقّوا، كما تلقّى هو، إعداداً وتدريباً ألمانياً، وكانوا يحبّون، كما يحبّ هو، قبعة الرأس المدببة. في قرطبة الجديدة، إذاً، اجتمع مثيرو الشغب، في جلساتٍ متواصلة، ساهرين عراة الصدور، يحرقون السجائر بالجملة، وينتشون من عبّ قهوة سوداء وتدخين سيجار رديء مستهلك، يتحاججون ويتجادلون وينتقدون ويلعنون، وبهم حرصٌ على نقاء يناسب حرص لجنة صحة عموميّة. اجتمعوا لكتابة مشروع إصلاحي يزداد راديكالية مع مرور الساعات، مشروع يبدأ بفتح ملفّات قضايا الاختلاس وعمليات الإثراء غير المشروع، وصولاً إلى مشروع ينطوي على مجازفة كبيرة تتمثّل في تقليص الإقطاعيات بإعادة تقسيمها إلى حقول مشاعة مشتركة للزراعة والرعي. كان المستشار الأوّل قد اطّلع، عن طريق بريد تلقّاه ذلك الصباح، على الحجم الحقيقي للحدث، وأبدى فيه رأياً أولياً، ووصفه بنبرةٍ ساخرة قائلاً: «هذه أشياء وضعها حالم نباتي». لكنّ ما يجري الآن، في قرطبة الجديدة، بين تجمّعات واجتماعات وشعارات وبيانات، هو تدريب عسكري للطلبة والعمّال، تحت إشراف نقيب غامض مجهول اسمه بيثيرّا -عالم بالحشرات في أوقات فراغه- سُمِّي قائداً عسكرياً للمنطقة. وحين

رأى سفير الولايات المتحدة أنّ الحركة بدأت تكتسب حجماً واتساعاً، مع انضمام حركة نقابيّة تستلهم أفكارها من مبادئ خارجيّة غريبة غير وطنية، غير مقبولة في بلداننا، عرض تدخّلاً سريعاً لقواتٍ أميركيّة لحماية المؤسّسات الديمقراطيّة. وبالفعل، فقد بدأت بوارج أميركية مناورات في الكاريبي. «سيمثّل ذلك انتهاكاً لسيادتنا» -قال المستشار الأوّل- «لن تكون العمليّة صعبة. وعلينا أن نبيّن لهؤلاء الغرينغو[130] القذرين أنّ في مقدورنا أن نحلّ مشاكلنا بمفردنا. ألا ترون أنّهم يأتون لثلاثة أسابيع ثمّ يبقون سنتين يمضونها في التجارة وعقد الصفقات الكبيرة. يصلون وهم يلبسون الكاكي ويخرجون وهم مبطّنون بالذهب. انظُروا ما فعل الجنرال وود في كوبا!». أمضوا ثلاثة أيام في فحص خطوط سكك حديد الشرق وإصلاحها، وبعد قدّاس ميداني كبير ابتهلوا فيه إلى الراعية الإلهية أن تنصرهم، شقّت الطوابير طريقها نحو الجبهة الجديدة، بين هتافات مدوّية وضحكات تحت رايات الكتائب وأعلامها الصغيرة. كان الوقت منتصف الليل تقريباً حين خرج القطار الأخير، بين صفير وبخار. فوق أسطح العربات وفي الدرجة الثالثة راح رجال يرتدون معاطف الفلّاحين ونساء يرتدين الأُزُر يغنّون وينشدون، بينما كانت زجاجات الرون الأبيض تنتقل، على ضوء المصابيح والقناديل، من مقطورة التموين إلى العيون المتوهّجة في عربة المؤخرة: إن هربت أدليتا منّي ورحلت مع آخر، فسأتبعها برّاً وبحراً؛ بحراً، على ظهر سفينة حربية؛ وبرّاً، على متن قطار عسكري! ومن خلفهم، ليل الضفادع في مستنقعات المرسى المظلمة، المرسى الذي أُعيد إليه سلامُ روتينه والحوارات في محلّات الحلّاقين والدردشات في

(130) Gringos: هو تعبير يطلق في أميركا اللاتينية على الأجانب انتقاصاً منهم واستخفافاً بهم. في المكسيك يطلق على الأميركان من مواطني الولايات المتحدة الأميركية حصراً.

حلقات العجائز، عند أبواب منازلهنّ، وألعاب اليانصيب والمراهنات بين الشباب، بعد صلاة المسبحة الوردية، حين يكون الرأس مشغولاً بأسرار العذراء ماريا الخمسة عشر[131].

(131) تشتمل صلاة المسبحة الوردية على خمسة عشر سرّاً: خمسة منها تتأمّل في الفرح، وخمسة في الحزن، وخمسة في المجد.

مكتبة خمسة
t.me/soramnqraa

للملوك الحقّ في تغيير العادات بعض الشيء[132].

ديكارت

تبرز قرطبة الجديدة، التي أسّسها المستشار سانتشو دي المنيادا، بين القفار المحيطة بها -رمال زعفران، تلالٌ مكسوّة بحشائش فقيرة الدم، صبّاراتٌ، أشواكٌ، نباتاتُ سنط العنبر برائحة عَرَق مريض- بيضاء مثل بيت مراكشيّ كبير يعمي الأبصار. تقع المدينة على حافة نهر جافّ طوال عشرة أشهر من السنة، يحفر مساره المتعرّج بين حجارة أرض مزروعة بعظام وقرون وقحوف وأظلاف حيوانات ماتت عطشاً. تحت سماء خالية من الغيوم، ومنذ لحظات الفجر السريعة حتى لحظات الغروب المضرّجة بلون الدم، تحلّق نسورٌ وقشاعمُ وزمّاحاتٌ ملكيّة. تحوم فوق جبال متموّجة حبلى بالمناجم، مقطوعةٍ محزوزةٍ مدرّجةٍ حُفرت بالفؤوس والأزاميل والمطارق، بعد أن عمل فيها رجالٌ يستخرجون، منذ قرنين من

(132) مناسبة هذا النص الديكارتي هو مذبحة قرطبة الجديدة التي يروي هذا الفصل تفاصيلها وما فعله الجيش من قصف الكنيسة فيها والتجاوز على حرمتها، ثمّ الانتخابات المزوّرة التي نظّمها وفاز فيها بأغلبية ساحقة [CDC, 222]. لم نعثر على هذا النص في أيّ من أعمال ديكارت.

الزمان، يرقات المعادن المحشورة في أحشائها، حتّى حوّلوا شكلها الدائري المكوّر إلى أشكال هندسية شتّى. كانت الأشكال التي صنعتها أيدي عمّال دو پونتماينغ، الخشنة المسودّة الناتئة العظام، في الصخور، تشبه المقاعد والمتكآت وسروج العمالقة، وتشكّل كتلاً كبيرة، بإزاء منظر غير متجانس قوامه منحدراتٌ ورواب وتلالٌ من الأنقاض وركام المعادن والحصى والكتل الحجريّة، يضيف إلى بؤسها بؤساً. هناك، في أشدّ مناطق البلاد حرّاً وجفافاً، تنهض قرطبة الجديدة هذه، المتمردة العقائديّة المقاتلة، التي تتحدّى الآن قوات المستشار الأوّل، المنتصرة في الشرق. آلاف من أعداء النظام، الملتفّين حول أستاذٍ جامعيّ فظّ، شكّلوا فيلقاً مقدّساً. أمّا مهمّة الدفاع عن تخوم المدينة فقد أُوكِلَت إلى قوات من باتَ يُدعى الجنرال بيثيرّا، بعد أن نالت الوقت الكافي لتنظيم خط دفاعي قوي، مزوّد بشبكة كاملة من الخنادق والدشم الحصينة المحاطة بالأسيجة ومنظومات الأوتاد المعمولة من قضبان كانت مخصّصة لخطّ السكك الحديديّة. تأمّل المستشار الأوّل بمنظاره تلك الإنشاءات العسكريّة، وهمهم بكلمات مازحة لم تحسن التمويه على استيائه: «لطالما قلتُ إنّ هذه البلاد لا تعرف إلا نوعين من الاستراتيجيات: استراتيجيات يوليوس قيصر، واستراتيجيات بوفالو بيل»[133]. في مجلس الأركان الأعلى، كان قد تقرّر أنّ أنسب طريقة للتعامل مع الحالة هي فرض حصار كلاسيكي يُقطع فيه على المتمردين كلّ اتصال بالقرى الشمالية، المنتفضة أيضاً، التي تزوّدهم بالغذاء والعتاد: «حتى الماء عليهم أن يجلبوه من مكان آخر! الطقس هنا يعمل لصالحنا». وبعد أن نُصبت الخيام على بعد مسافات معقولة من الخطوط الدفاعيّة، التي لم تكن تخرج منها إلا طلقات متفرقة، لأنّ العدو لا يستطيع تبديد

(133) Buffalo-Bill (1846–1917): جندي أميركي خدم في جيش الاتحاد، ثمّ عمل مستكشفاً وصيّاداً ورجل استعراضات.

عتاده في ما لا ينفع، بدأ الانتظار. مرّت أيام بين لعب ورق ودومينو وشطرنج؛ وراح البعض يلعب البولنغ بالزجاجات الفارغة؛ بينما تسابق آخرون برمي الحجر على قحف ثور أقاموه على وتد. أمّا المستشار الأوّل فقد راح يتسلّى بتصفّح الكتب الكلاسيكيّة، كتب التكتيك العسكري التي كان الكولونيل هوڤمان يحملها دائماً معه. كان لا يكفّ عن مضايقة «البروسي ذي الجدّة السوداء المركونة في الباحة الخلفيّة»، كما كان يقول ظرفاء المعارضة، فيُسمِعه، بقهقهاتٍ خبيثة هازئة، أتفهَ ما يمرّ به من أقوال: «اسمع، اسمع!»، يقول. ثمّ يضخّم صوته: «النصر ثمرة كسب المعركة» (شارنهورست). «بين جيشين متساويين في القوّة وفي الشجاعة ينتصر الأكثر عدداً» (شارنهورست). «من يتخذ حالة الدفاع يمكنه الانتقال إلى حالة الهجوم» (لاساو). «المعركة وحدها هي التي تقرّر النتيجة» (لاساو). «ضروري أن يمتلك الرأسُ القيادة، لأنّ الرأس هو ما يقود التفكير» (كلاوشويتز). «على القائد أن يدرك مدى الحرب ومفاجآتها» (مولتكه). «من الضروري أن يعرف القائد ما يريد وأن يمتلك إرادة مصمّمة على النصر» (ڤون شليفن). «مسرح العمليات العام يقدّم ثلاث مناطق: ميمنة وميسرة وقلب» (جوميني). «حين لا يكون هناك قلب، فلا ميمنة ولا ميسرة» -علّق المستشار الأوّل ضاحكاً- «أهذا هو ما يعلّمونكم إياه في المدرسة الحربيّة؟!». ومرّت الأيام في خمول زاد الحرُّ والبعوض في ثقله. حتّى ظهر في المعسكر ذات صباح السيد سفير الولايات المتحدة، وهو يرتدي ملابس مستكشف: سترة من الفلّين، غطاءَ عنق من الشاش، بنطلوناً قصيراً، على طريقة ستانلي في «البحث عن لِڤنغستون»[134]. الأخبار

(134) يشير إلى الصحفي والمستكشف الويلزي هنري مورتون ستانلي Henry Morton Stanley (1841-1904) وكتابه عن رحلته للبحث عن المستكشف الآخر ديفيد لِڤنغستون David Livingstone، مكتشف شلّالات ڤيكتوريا في وسط إفريقيا.

خطيرة: هاجمت عصابات مسلّحة، تحت قيادة عناصر من أتباع قائد قرطبة الجديدة، منطقة مزارع الموز في الباسيفيك، واستولت على مئتي ألف دولار كانت محفوظة في أحد مكاتب شركة الفواكه المتحدة[74]. أعمال دو پونت ماينغ متوقفة. والسفن في «پويرتو نيغرو»، راسية بلا حركة، والخسائر المادية فادحة. ثم إنّ من اللازم القضاء على التصوّف التشاركي الذي جاء به الدكتور لويس ليونثيو مارتينيث. لن نسمح لماديرو آخر بالظهور في أميركا الجنوبية هذه[135]. إن لم يعد البلد بسرعة إلى حالته من الهدوء واحترام الممتلكات الأجنبيّة، فلا مفرّ من التدخّل العسكري الأميركي. لم يسَع المستشار الأوّل، حيال ذلك الضغط، إلّا أن يعده بأنّ عملية الحسم ستبدأ خلال ثمان وأربعين ساعة. وفي اليوم اللاحق، وجّهت دعوة عسكريّة إلى الضابط المتمرّد الشاب بيثيّرا للحضور إلى المعسكر، بعد أن قدّمت له كلّ الضمانات اللازمة بسلامته. عرض عليه، من دون ضجّة ولا حركة قد تجرح كرامته، مبلغ مئة ألف بيزو مع مبلغ إضافي من عدة أصفار للملازمين اللذين كانا يرافقانه. عند الغروب، رُفعت الأعلام البيض فوق الخنادق والدشم، وصدر بيانٌ يعلن لسكّان قرطبة الجديدة أنّ القوات الحكوميّة، المتفوّقة عدداً وعدةً، وافقت على وثيقة الاستسلام التي قدّمتها المدينة، لدواعٍ إنسانيّة وحقناً للدماء. ولكن، انبرى فجأة ميغيل أستاتوا، وكانوا يدعونه «أستاتوا = تمثال» لقوّته وصرامته في عمله ومسيره، ولطول قامته وعرض منكبيه، المفتوحين في زاويتين قائمتين على خصر نحيف يطبق عليه حزام بزنّار فضّي زُيِّن بحروف أوليّة - هو الترف الوحيد البادي عليه. كان ذلك الرجل الأسود، الخبير بثقب الصخور، الخبير

---

(135) يشير إلى Ignacio Madero González (1873–1913): رئيس المكسيك الذي فاز بالرئاسة عام 1910 واغتيل عام 1913. عُرفت عنه أفكاره المدافعة عن العدالة الاجتماعية والديمقراطيّة.

بالديناميت -كان يحمل أصابع الديناميت في فمه حين يُكلّف بتفجير جانب من المقلع- قد ازداد شهرة، قبل أشهر، حين اكتشف أنّ في الإمكان استخراج حيوانات من الحجر. نعم. وهكذا كان. كان يعلم، بالطبع، أنّ أشجار الجبل كائنات حيّة، يمكن الحديث إليها والكلام معها، توجّه لها الكلمات المناسبة، فتردّ عليك بصرير وتحرّك فروعها. لكنّه عثر ذات يوم، هناك في الأعالي، في تلك التلّة، على حجارة كبيرة، فيها شيء شبيه بالعينين وآخر شبيه بالأنف وآخر صغير كالفم. «أخرِجني من هنا!»، بدا أنّه سمعها تقول له. بدأ ميغيل، بعد أن تناول مثقبه ومطرقته، بالحفر هنا وبالنبش هناك، فحرّر قدمين أماميتين ثمّ قدمين خلفيتين ثمّ ظهراً محدّباً في وسطه، حتّى وجد أمامه ضفدعة كبيرة، تدين ليديه بالحياة، بل لقد بدا وكأنّها تشكره. حملها على كتفيه، وسار بها إلى بيته، وهناك انتهى من الحفر باستعمال مثقب أصغر. نظف الضفدعة وجلى جسمها بورق السنفرة ووضعها في جرّار خشبي، نظر إليها فبدت له جيدة. بدأ ميغيل، مدفوعاً باكتشافه، بالتطلّع إلى الصخور المتفرقة، صخور الشيست الرسوبيّة والمواد الصلبة المحيطة به، بعينين جديدتين. فتلك الصخرة تخفي خفّاشاً، وهذان هما طرفا جناحيه ظاهرين. وهناك بجعة، وقد تهدّل منقارها على حوصلتها في منظرٍ يبعث على الأسى. ثمّة أيل يريد الهرب من تلك الأرض المتحجّرة، بعد أن ظلَّ متروكاً بانتظار أن يطلق أحدٌ سراحه. «الجبل سجن ينغلق على الحيوانات» -يقول ميغيل- «الحيوانات في الداخل: المشكلة هي أنّها لا تستطيع الخروج منه حتى يفتح لها أحدهم الباب». وعلى ضوء المصباح بدأ ميغيل بمثاقبه الكثيرة -مثقب سيخ ومثقب ميسعة ومثقب لولب ومثقب مدبّب- يُخرج حمائم كبيرة وبومات وخنازير برّيّة وماعز حوامل، بل لقد ظهر أمامه تابير بحجمه الطبيعي. نظر ميغيل إلى ذلك كلّه: الحمامة والبومة والخنزير البرّي والمعزة والتابير،

ورأى أنّ كلّ شيء على ما يرام، ولمّا كان متعباً من زحمة العمل فقد واصل استراحته ليومٍ سابع. صفّ جميع الحيوانات في مخزن مهجور من مخازن شركة قرطبة الجديدة للسكك الحديديّة، كان يُستعمل لتصليح عربات القطار المغلقة والمسطّحة، وصار الناس يأتون إليه أيام الأحد لزيارة غاليري الحيوانات ذاك. وشاع ذكره واشتهر، بعد أن نشرت إحدى صحف العاصمة ريبورتاجاً وصفت فيه ميغيل بـ«العبقري الفطري». مع ذلك، فحين عرضت عليه غرفة التجارة الإسبانية أن يعمل تمثالاً للمستشار الأوّل، ردّ عليهم قائلاً: «صورته لا توحي لي بشيء، وأنا لا أصنع صوراً مكرّرة». وصاروا، منذ ذلك الحين، يصنّفونه -ومن دون أساس- بأنّه معارض للنظام. لكنّ آخرين -أعضاء المجمع العلمي- دافعوا عنه: «إنّه لا يغامر بالعمل في صورة بشريّة. ليس لدافع سياسي، بل خوفاً من الفشل». وكُلّف القساوسةُ بأن يتقرّبوا إليه ويعرضوا عليه عمل صورٍ للإنجيليين الأربعة[136]، لتزيّن توسعة حديقة رهبان الراعية الإلهيّة. «أنا لا أستطيع أن أُخرج رجالاً من الحجارة»، ردّ عليهم. لكنّه حين علم أنّ القديس مرقس يظهر مع أسد (وكان مؤخراً قد رأى أسداً في سيرك يقدّم عروضه في بلدات قريبة)، وأنّ القديس لوقا يتعامل مع ثور (الثور ثور في جميع الأنحاء)، والقديس يوحنّا مع صقر (هنا لا توجد صقور، لكنّ الجميع يعرف كيف هو الصقر)، وافق على العمل وبدأ بقياس الحيوانات الرمزيّة التي تمثّل حيوانات سفر الرؤيا الأربعة[137]، وترك إلى وقتٍ لاحق عمل تمثال القديس

---

(136) هم كتبة الأناجيل الأربعة من تلامذة يسوع ورسله: متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا.

(137) «وقدّام العرش بحر زجاج شبه البلور وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدّام ومن وراء. والحيوان الأول شبه أسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر». (سفر الرؤيا 4: 6-7).

متّى، الذي لم يكن رأى بعد «وجه الشاب الذي هو وجهه». لكنّه راح يعمل ويعمل، ويستخرج من الحجارة، للمرّة الأولى، وجوهاً بشريّة متوّجة بهالاتٍ ينحتها -ليس بالمثقب، بل بإزميل جاؤوه به من العاصمة- بدقّة من يعمل بسكّين. كان منهمكاً في تلك الأعمال حين بلغ علمَه خبرُ الاستسلام المذلّ. فرمى بالعدّة التي بين يديه وانطلق إلى الشارع. ولم يلبث الحالم، باعث الروح في الحيوان والبشر، الذاهل، غريب الأطوار، أن رفع عقيرته ورفع قامته، وصار خطيباً مفوّهاً، زعيماً، قائداً جماهيرياً، ذا سلطة، مسموع الصوت، مطاع الأمر. أمر ميغيل أستاتوا بخفض الأعلام البيض فخُفضت، ورأى أنّ من المناسب، بعد خفض الأعلام البيض، استئناف القتال. ودعا، وهو يحمل إصبع ديناميت في كلّ واحدة من يديه ويضع عطبة مشتعلة فوق كتفه، إلى المقاومة والقتال حتّى يصلوا بمقاومتهم إلى أن يصبح خُبزُ اليوم خَبْزَ اليوم فعلاً، نكسبه اليوم ونأكله اليوم، لا منّة من مخازن شركات اليانكي الأميركيّ أو الوطنيّة أو «المشاركة»، التي تدير المناجم، وتدفع الأجور في بطاقات لشراء البضاعة. وشكّل في الحال من سامعيه فريقاً لتفجير الديناميت وفريقاً آخر لزراعة الألغام. وأقسم التلامذة، تلامذة النخبة المثقفة، تلامذة المطرقة وتلامذة الكوزة، تلامذة الصندل والنعال -الذين ما عادوا يثقون في لويس ليونثيو مارتينيث الأخرق الرعديد، الذي يواصل توجيه خطاباته إلى البلد، طالباً المعونة من أناس يجهلون تقريباً وجوده، ويعلن عن أنّه يحظى بتأييد المحافظات التي لم تنتفض- أقسموا، وقد حرّكتهم كلمة تشي بالحقيقة، وإن كانت فظّة وغير فصيحة -وربّ كلمة تخرج من القلب، صارخة عنيفة، خيرٌ من ألف خطاب حماسي بليغ-، أقسموا على القتال حتّى آخر قطرة وآخر رمق. مع ذلك، لم يكن كافياً أن يستنفر الشبابُ المراهقون والنساء اليافعات والأطفال الجسورون، ولا أن تخرج العجائز خيوطاً للضمادات ويحوّل

الرجال المسنّون قضبان الحديد إلى رماح: فهم محاصرون في مدينة مكشوفة، بلا أسوار قديمة -كتلك الموجودة في أماكن أخرى-، ولا مبانٍ يمكنهم الاحتماء بها. مدينة تذوب بيوت الطوب في شوارعها وتتفتت مع سقوط رذاذ المطر. لكنّ القوات الحكومية سيطرت على البلدة، على الرغم من الألغام، التي تطايرت لانفجارها أذرعٌ وسيقان؛ وعلى الرغم من المعركة الشرسة التي دارت من بيت إلى بيت، ومن سطح إلى سطح، والتي خاضها المدافعون ببنادق «الونشستر» القديمة، وبنادق الصيد، وطبنجات معلّقة على ألواح، ومسدّسات «كولت»، وبنادق بمدكّ، وثلاثة مدافع رشاشة أو أربعة من نوع «ماكسيم»، يبرّدونها بالبول حين يعزّ الماء. وعندئذٍ عمدت تلك القوات إلى محاصرة الكاتدرائية، حيث اعتصم المئات من اليائسين، مع ما تبقّى لديهم من عتاد، يطلقون النار من النوافذ والفتحات والبوّابات. أمّا أكثر الرماة خطورة فهم الذين تسلّقوا برج الناقوس في الكنيسة وراحوا يستهدفون كلّ من يتقدّم في الشوارع التي تؤدي إلى الساحة الكبرى. مرّت الساعات على القوات الحكومية والأمور تسير على ما يرام، بين شطيرة لذيذة هنا وشراب حصلوا عليه من هناك، ولكن من دون التمكّن من السيطرة على كلّ البنايات المهجورة، بواجهاتها وشرفاتها الواقعة تحت نيران تلك الحفنة من الأوغاد، الذين ما زالوا يمتلكون من الرصاص والطعام ما يكفيهم لبعض الوقت. جهّز هوڤمان مدافع «كروپ»، ونُقلت في عربات تجرّها الثيران حتى مكان يمكن التصويب منه نحو البرج، وأصيب العديد من تلك الدواب بنيران جاءتها من أعلى، بعد أن كشفها مظهرها الجذّاب وحركتها البطيئة وحملها الثقيل؛ مع ذلك، وعلى الرغم من أنّها نزفت، وسقط ثاني دوابّ النير الثالث، وتقيّأ أول دواب النير الثاني، فقد وصلت بحملها إلى حيث كان مطلوباً منها أن تصل به. لكنّ المستشار الأوّل بدا، ولأوّل مرة، متردّداً: فما ينتصب أمامه

هو هيكل الراعية الإلهيّة، معبد شفيعة البلد وحامية الجيش، قبلة العابدين ومحجّ الحجيج ودرّة عمارة عهد الاستعمار. «يا رجل!» -قال الكولونيل هوفمان، وكان لوثريّاً- «الحرب لا تُكسب بالرسوم والصور!». فكلّ بناء يرمّم وكلّ مكسور يصلّح. وكلّ ترميم وتصليح يضيف متانة على متانة، ويعني قوة ومقاومة لعوامل الزمن. «وماذا لو أُصيب تمثال العذراء؟»، سأل المستشار. «في حيّ سان سوبليثيو بباريس يبيعون تماثيل لها جميلة جداً»، قال الدكتور پيرلاتا. «ماذا تنتظرون للقضاء على أولاد القحبة [بالإنجليزيّة] هؤلاء؟» -سأل الملحق العسكري الأميركي- «لو كان جنودنا من المارينز هنا لأنجزوا المهمة بسرعة. فهم ليسوا عاطفيين مثلكم!». «أرى أن ما من حلّ» -قال، أخيراً، المستشار- «إذا غسل بيلاطس يده فعليّ أن أصمّ أذنيّ»(138). «ظرف ذو طبيعة استراتيجيّة قاهرة»، قال هوفمان. وُجّهت المدافع بزاوية تصويب. صوّب المدفعجي المحنّك، صاحب مقولة «ثلاث أيدٍ إلى الأعلى، اثنتان يميناً، وإصبع ونصف لتصحيح الزاوية»، إلخ، وأُطلقت القذيفة الأولى. أُصيب مركز البرج، فطارت النواقيس وسقطت على سقف المعبد، وسمع دوّي الحجارة والتماثيل الساقطة. أطلق القذيفة الثانية -وفق الحسابات واللوغاريتمات، هذه المرة- فانحشرت في الباب الرئيس واخترقت المذبح الكبير لكنّها لم تصب تمثال الراعية الإلهيّة، التي ظلّت في مكانها، غير عابئة، ثابتة على عمودها. بل لم تهتزّ - أعجوبة صارت تعرف منذ ذلك الحين بـ«معجزة قرطبة الجديدة». «العذراء معنا!»، صاح المنتصرون. «العذراء» -قال المستشار، وهو يشعر بالراحة- «لا يمكن أن تكون في صفّ ملحد يؤمن بمناضد تتكلّم وآلهة لها ستّ أذرع». وعندئذٍ وقعت الواقعة: انطلقت

(138) يشير إلى بيلاطس البنطي، الحاكم الروماني الذي حاكم السيّد المسيح وحكم عليه بالصلب.

القوات متفرّقة، مشتتة، منفلتة، تُعمل في الناس، رجالاً ونساءً، قتلاً، بالحراب والسكاكين والفؤوس، وتُخرج الجثث، التي طُعنت صدورها وبُقرت بطونها وقُطعت رؤوسها وبُترت أطرافها، إلى وسط الشوارع تمثيلاً وتنكيلاً. أمّا آخر المقاتلين -وكانوا ثلاثين أو أربعين- فقد حُملوا إلى المسلخ البلدي حيث عُلّقوا، بين جلود المواشي وأحشائها ومصارينها ومراراتها، فوق برك الدم المتجمّد، بالكلاليب والخطافات، من آباطهم أو من باطن ركبهم أو من أضلعهم أو من ذقونهم، بعد أن طحنوهم رفساً وضرباً بأعقاب البنادق. «من يريد لحماً مشوياً؟ من يريد لحماً مشوياً؟!»، صاح الجزّارون، وهم يقلّدون المنادين العموميين، ويسدّدون طعنة أخرى لجريح محتضر، قبل أن يقفوا أمام مصوّر فوتوغرافي فرنسي، هو مسيو غارسان، الذي يعيش في المدينة منذ وقت طويل (يقال إنّه هارب من جزيرة الشيطان)[139] ويعتاش من التقاط صور عائليّة وصور حفلات أعراس وتعميد وتناول و«ملائكة صغار» مسجّين في توابيت بيض صغيرة[140]. «ابتسموا!» -يقول للجنود، بعد أن يبدّل الصفيحة، عند الضغط على كرة المطاط- «بيزوان وخمسون للصور الست حجم البطاقة البريدية، مع صورة مكبّرة، ملوّنة باليد، للتذكار.. لا تتحرّكوا! ها قد انتهينا! أخرى، الآن.. مع الأربعة المصفوفين هناك! صورة أخرى، مع أولئك المعلّقين. أنزِلوا تنّورة المرأة لكي لا تُرى عورتها! صورة أخرى، مع ذلك الذي غرس الرمح الثلاثي في بطنه! لدينا تنزيلات لمن يطلب اثنتي عشرة صورة»... ها هي ذي الكوندورات والعقبان والنسور تحلّق قريباً من سطح الأرض فوق باحات المسلخ البلدي. على أعمدة التلغراف وعلى أشجار حور المتنزّه

(139) Cayena إحدى جزر مستعمرة غويانا الفرنسيّة. استُخدمت سجناً ومنفى بين 1846 و1948.

(140) يُطلق تعبير angelito أو الملاك الصغير على الطفل الميت.

وعلى شرفات البلدية، عُلّقت مجموعة من جثث المشنوقين. وسُحل بعض الفارّين، بعد أن رُبطوا مثل عجول المصارعة بالخيول، سحلاً على الأرض المرصوفة بالحجارة والمزروعة بالحصى القاسي. أُعدم خمسون من عمّال المناجم، بعد أن أُجبروا على رفع أيديهم، في ملعب البيسبول الذي افتتحته شركة دو پونت ماينِنغ قبل أشهر قليلة. عند أسفل قدمي الراعية الإلهيّة، التي تنتصب فوق مذبحها المحترق، بين أطلال مسكنها المقدس، تناثرت كومة من أشلاء بشريّة، تظهر من بينها، ممزقة، خارج سياقها، ساقٌ ويدٌ ورأس خامد ثابت على آخر إيماءة له. كان إطلاق النار ما زال يُسمع في حيّ عمّال المناجم، حيث راح الجنود يحملون دلاء من النفط ويضرمون النار في البيوت، التي كانت تضجّ بالصراخ والتوسلات. عند منتصف الليل، هزّ انفجار كبير مرآب شركة قرطبة الجديدة للسكك الحديدية المهجور. لقد فجّر ميغيل أستاتوا نفسه، مع جميع مخلوقاته الحجريّة. تطايرت تماثيل كُتّاب الإنجيل، في قطع حادة كفؤوس سُنّت بإزميل خبير بحفر الجبال، من فوق رؤوس القوات فقتلت ثلاثة من الجنود.

بعد القضاء على مهد الثورة وبؤرة المقاومة، عاد المستشار إلى العاصمة، بعد أن أوكل إلى هوڤمان، الذي رُقّي إلى رتبة جنرال، مكافأة له على خدماته، مهمّة معاقبة البلدات القريبة التي قدّمت أيّ شكل من أشكال الدعم للمتمرّدين. أمّا الدكتور لويس ليونثيو مارتينث فقد فرَّ صوب الحدود الشماليّة عن طريق مهوى جاف يضيع في سلسلة جبال «ياتيتلان» المقفرة. سينادى به في مكان ما رئيساً لحكومة في المنفى وزعيماً للحزب الوطني الشرعي، إلخ، إلخ، وسيشكّل نواة هزيلة للمنفيين السياسيين، لن تلبث أن تتصدّع -يعرف الرئيس جيداً هذه القصص- بسبب التنافسات والردّات والانشقاقات والاتهامات المتبادلة والانقسامات والدعاوي القضائية،

التي تغذّيها صحف تصدر في ثلاثمئة نسخة وكتيّبات وأوراق موجّهة إلى خمسين شخصاً. وسينتهي الأمر برسول قرطبة الجديدة، الغارق في نظرياته وبين شياطينه، كما انتهى بغيره الكثير، منسيّاً في دار إقامة في لوس أنجلس أو في فندق حقير في الكاريبي، يكتب رسائل فارغة ومنشورات تافهة لا تثير اهتمام كلّ من يدرك أنّ ما يهمّ في السياسة هو النجاح.

استُقبل المستشار، لدى عودته إلى قصر الحكومة، بالأعلام وأقواس النصر والألعاب الناريّة ومارش سامبر إي ميوز العسكري الذي كان يروق له. لكنّه صرّح، في مؤتمره الصحفي الأوّل، متجهّم الوجه ومحزوناً، إنّه ليحزّ في نفسه أن يرى الشعب وهو لا يثق -كما بيّنت الأحداث الأخيرة- في إخلاصه ووطنيته. وعليه، فقد قرّر أن يتنحّى عن الحكم وأن يعهد بمسؤولياته إلى رئيس مجلس الشيوخ، بانتظار أن تجري انتخابات تأتي برجل مثالي، بأيّ مواطن صالح، أكثر كفاءة منه وأقدر على إدارة الحكم وقيادة الأمّة، إلّا إذا -إلّا إذا، أقول- أثبت استفتاءٌ للشعب خلافَ ذلك. ورُتِّب الاستفتاء على جناح سرعة، بينما واصل المستشار تصريف الأمور الاعتيادية وبه حزن هادئ ونبيل -ولا نقول ألماً يداريه بكبرياء-، حزن من لم يعد يؤمن بشيء ولا يثق بأحد، حزن من أُصيب بجرح بالغ، بعد كلّ ما عمل من أجل الآخرين. يا لبؤس السلطة! يا للدراما المكرّرة، دراما التاج والحُكم الكلاسيكية المعروفة! يا لشيخوخة الأمير المُرّة! ولمّا كان أربعون بالمئة من الشعب أمّيين، لا يقرؤون ولا يكتبون، فقد صُمّمت بطاقات ملوّنة -بيضاً لـ«نعم» وسوداً لـ«لا»- بهدف تسهيل آلية التصويت. وانطلقت أصوات غامضة، خفيّة، خبيثة، في المدن وفي الأرياف، في الجبال وفي السهول، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، تهمس همساً بأنّ السلطات ستكشف كلّ صوت، حتى لو كان سرّيّاً، ففي أيامنا تقنيات جديدة لمعرفة ذلك. كاميرات فوتوغرافيّة، مخفيّة في ستائر الكابينات،

تعمل أوتوماتيكياً كلّما قرّب المواطن يده من صندوق الاقتراع. فإن لم يضعوا الكاميرات المذكورة، وضعوا رجالاً مختبئين وراء الستائر نفسها. سيعمدون أيضاً، بكلّ تأكيد، إلى فحص المعلومات الرقمية الموجودة في البطاقات، من دون نسيان أنّ كلّ واحد من السكّان في البلدات الصغيرة يعرف ميول جاره السياسيّة، وإنّ عشرين صوتاً معارضاً هناك تعني عشرين فرداً معروفين بالاسم وبالجسم، من دون أي احتمال للخطأ. وتمكّن الرعب من الموظفين العموميين - وهم كثيرون. وراحت الأصوات الخفيّة تعلن، وقد علت نبرتها في الحانات والحوانيت والدكاكين الصغيرة، عن أنّ كبريات شركات المناجم والموز والصناعية وسواها ستسرّح مَن لا يؤيّد بقاء المستشار في السلطة من العمل. وسينال المزارعون المعارضون العقاب ضرباً على أيدي الحرس الريفي، جزاء ما اقترفت أيديهم. وسيُطرد المعلّمون من صفوفهم. وسيُعاد النظر في التصريح الضريبي لبعض التجّار -ونحن نفهم بعضنا- الذين لطالما تجاوزوا على مصالح الجباية. ونُبّه الأجانب الذين اكتسبوا الجنسية مؤخراً إلى احتمال أن تُسحب منهم جنسيّتهم ويُرحَّلوا إلى بلدهم الأم إن هم صُنّفوا ضمن غير المرغوب فيهم أو الفوضويين أو اللاسلطويين. وهكذا كان التصويت بـ«نعم» ساحقاً، بل لقد اضطرّ المستشار إلى القبول بوجود 4.781 صوتاً معارضاً -وهو رقم وضعه الدكتور پيرلاتا بعد عدّة رميات بالزهر- ليثبت نزاهة اللجان المشرفة على الفرز. وعادت الخطابات والمارشات العسكريّة والألعاب الناريّة وأضواء المشاعل. لكنّ الرئيس بدا متعباً. إنّه يشعر بخدر في ذراعه اليمنى، بثقل أو عدم استجابة أو كسل غريب ومؤلم في عضلاتها، مع وخز في الكتف، لا يخفّف منه مسّاج ولا دواء، ولا حتّى نقيع الأعشاب الذي تعدّه لامايورالا إلميرا، التي كانت، وهي ابنة معالج بالأعشاب، تعرف الكثير عن النباتات والجذور الأكثر نجاعة، دائماً تقريباً، من بعض الأدوية،

التي لطالما أعلنوا عنها في الجرائد. شخّص طبيب أميركي، جاء خصيصاً من بوسطن، علّته بأنّها التهاب حاد في المفاصل -أو شيء من هذا القبيل، باسم جديد من تلك التي تشيع في المجلّات التي تحمل على أغلفتها شعار «كادوسيوس»[141]، لإدخال المزيد من الرعب والبلبلة في قلوب المرضى- وأشار إلى أنّ بعض الأجهزة الكهربائيّة الحديثة، وهي الوحيدة القادرة على علاج المرض، غير متوفّرة في البلد. ترجّت الحكومة، في جلسة بكامل أعضائها، المستشار أن يسافر إلى الولايات المتحدة ليتداوى هناك، على أن يتولّى رئيس مجلس الوزراء مسؤولية الحكم، أثناء غيابه، بالتعاون المباشر مع رئيس مجلس الشيوخ والجنرال هوڤمان، المكلّف بحقيبة الدفاع الوطني. وهكذا بدأ المستشار رحلته على ظهر الباخرة «كونراد لاين» الفخمة. لكنّه أحسّ، وهو في نيويورك بخوف مفاجئ، غير منطقي، طفولي تقريباً -إنّه مرهق، ربّما؛ متوتر بسبب الأحداث الأخيرة- أمام أطباء اليانكي الأميركان، الغريبين في لغتهم، الباردين في تعاملهم، الميّالين إلى المشرط والقطع من دون أن تمسّ الحاجة إليهما، المنحازين إلى أساليب وحشيّة وعواقب غير محسوبة، خلافاً للطرق العقلانية والذكيّة التي ينتهجها الأطباء الفرنسيون أو السويسريون، الذين هم، في الواقع -تذكّر «دوين» و«رو» و«فنسنت»[142]- أساتذة أطباء بلدنا. إنّه ليفضّل العيادات المزيّنة بلوحات هارپينييه وكارلوس دوران[143] -سجاد فارسي وأثاث قديم وكتب مجلّدة في القرن الثامن عشر ورائحة يود غير

(141) Caduceus أو صولجان هرمس الذي هو علامة تجارية ترمز للطب.

(142) Eugène-Louis Doyen (1859-1916): جرّاح فرنسي ذائع الصيت عالمياً، Émile Roux (1853-1933): طبيب وعالم جراثيم فرنسي. Jean Hyacinthe Vincent (1862-1950): طبيب فرنسي.

(143) Harpignies (1819-1916) وCarolus Duran (1837-1917): رسّامان ونحّاتان فرنسيان.

محسوسة تقريباً- رائحة أطباء العثنون والصدريّة البيضاء وفيلق الشرف، الذين يمارسون عملهم، بعاطفة وثقافة، في جادة «فيكتور هوغو» أو بوليفار «ماليرب»، على عيادات هؤلاء الأطباء البيض، المعقّمة، الباردة، التي صُفّت في ڤتريناتها الملاقط والمقصات المسنّنة والأدوات الجارحة. «حسناً!» -قال پيرلاتا- «ولكن.. هل تظنّ حضرتك أن من الحكمة الغياب عن البلد كلّ هذا الوقت؟ وماذا لو انقلبوا عليك ثانية، سيدي الرئيس؟!».

«آي، صديقي! كلّ شيء جائز في هذه الديار. لكنّي أستبعد ذلك. لن نغيب إلا أسابيع قليلة. ثمّ إنّ صحتي أهمّ من كلّ شيء. فأنا لم أولد لكي أكون أعضب. ومن الغباء أن تكون أعضب من دون أن تكون شاركت في ليپانتو[144]. ثمّ إنّي، من دون ذراعي اليمنى، لن أحظى بصحبة أقرب الناس منّي، فأنا في وطني، حيث يحبني الكثيرون، لا أجد الهدوء والأمن إلا في الاجتماعات والزيارات، وحين أعرف أنّ ذراعي اليمنى معي». وأشار بذقنه إلى «البراوننغ»، القابع هناك، تحت الإبط اليسرى، وراح يثني على سرعة زناده وجمال أخمصه، برقّة من يثني على جمال معشوقته: مخلصٌ، مطيعٌ، أمينٌ، جميلُ الملامح، متناسبُ الأبعاد ناعم الملمس، رشيقٌ دقيقٌ حتى في فوهته، التي أُحسن تركيبها وإن كانت مخفيّة، فضلاً عن نقش شعار الترس الوطني. ولطالما أولته لامايورالا إلميرا عناية الأم وحنانها، فهي تنظّفه كلّ يوم، حين ينزعه ليأخذ حمّاماً طويلاً، ثمّ تعيده محشوّاً وجاهزاً للخدمة، لحظة تجفيف جسمه بمنشفة المخمل الوبري الكبيرة، التي اشترتها له أوفيليا من ميزون دو بلان. وهكذا، ترك المستشار كهربائيات العيادات الأميركية وتقدّمها واختراعاتها ومناضد تعذيبها، التي

(144) يشير إلى أديب إسبانيا الكبير ميغيل دي ثربانتس الذي فقد إحدى يديه حين شارك في معركة Lepanto البحرية التي جرت بين التحالف الأوروبي المسيحي والدولة العثمانية عام 1571 بعدما تحرّك العثمانيون للسيطرة على قبرص.

تشبه، بحسبه، بنايات سجون كبيرة، ليصعد ذات صباح إلى ظهر لافرانس، ولينعم، بعد ما رأى من أوقات الضيق والشدّة، بأجواء الصيف الباريسي - الذي وصفته الصحافة بالمشمس والدافئ تلك السنة، والذي لم تشهد باريس صيفاً مثله، أضافت، منذ منتصف القرن الماضي.

الفصل الثالث

ليس ميسوراً إدراك هذه الحقائق من جميع الناس بسبب ما يغشى عقولهم من أوهام شائعة وأحكام مبتسرة(145).

ديكارت

(145) «مبادئ الفلسفة» Les Principes de la philosophie، ترجمة: د. عثمان أمين، القسم الأول. المبدأ 50.

الإشارة في هذا النص ترتبط بما أصاب «حقائقه» من إدانة ورفض في باريس بعد أعمال القمع التي ارتكبها [Ortiz, 34].

ستة

كان التشولو مندوثا في استقبال الواصلين في محطة الشمال -قفازات صفر وزهرة غاردينيا في طيّة سترته، وطماق رمادي، كالعادة، وإن كان الوقت صيفاً- بعد أن عجّل بالعودة من «فيتشي»، إثر تلقّيه البرقية من أعالي البحار. في «فيتشي» كان مندوثا يقسّم صباحه وليله بين علاج بالماء وعلاج بالبار، ذلك المزج الذكي بين ينبوع الماء و«البوربون» الذي أعاد إلى وجهه نضارتَه، فبدا ابن عشرين. أمّا بقية موظّفي السفارة فكانوا يتمتعون بإجازاتهم، مع أطفالهم، في «تروفيل» أو «أركاشون». أمّا أوفيليا فكانت في «سالزبورغ»، حيث كان مقرّراً أن يبدأ في ذلك اليوم مهرجان موسيقا موزارت، بعمله كوزي فان توتي[146]. ذُعر الدبلوماسي حين تأمّل ذراع المستشار اليمنى هامدة، ملفوفة بشالٍ من الكشمير ومعلّقة في رقبته. ألم مزعج لكنّه لا ينطوي على خطورة - أوضح له پيرلاتا. سينتصر الأطباء هنا على المرض بعلمهم المتقدّم، فضلاً عمّا لهذه الأجواء وهذه الحركة وهذا الفرح وهذه الحضارة من تأثير.. باستنشاق الهواء وحده هنا -هكذا: شهيق، زفير، وملء الصدر...- يستردّ الواحد عافيته. ولا يخفى على أحد

---

(146) Cosi fan tutte [كلّهنّ شبيهات بعضهنّ] أو مدرسة العاشقين La scuola degli amanti.

أنّ أثر الحالة المعنويّة والنفسيّة يفوق كلّ أثر، فالألم يشتدّ كلّما ركّزنا على فكرة الألم، وقد ردّد أطباء علم النفس، مؤخراً، ما قاله أبيقور وسواه قبل قرون؛ لنترك الكلام الآن، فالكلام هنا غير ممكن مع ضجيج القطارات والصافرات هذا ومع صخب الحمّالين. من الأفضل أن تسبقنا تشولو، بالأمتعة، بينما نتمشّى أنا وپيرلاتا قليلاً، فقد أصيبت ساقاي بالخدر من طول الجلوس. ودخل المستشار، يتبعه سكرتيره، حانة معروفة بأجواء الفلامنكو مع لوحة رمي السهام وتماثيل الطفل الذي يتبوّل، حيث يقدّمون بيرة «هوجاردن» الحامضة، أو النوعية الأخرى بلون الكرز أو بيرة «لامبيك» القوية -التي رُسم عليها شعار المسمار المحمّر مغموراً في رغوتها-، وجميعها مناسبة وجيّدة للشروع بيومٍ يَعِدُ بمذاقاتٍ منسيّة. مضى كلّ شيء في هذا اليوم لطيفاً مع هؤلاء الناس الجالسين في تراسات المقاهي، بنطلونات العسكريين الحمر، شاشيات الزواف[147]، شعار لو بر\از\-الجزرة المتوهّجة-، الباصات التي تعلن عن حفلات أوبرالية، جمهوريات، باستيلات، حدائق «مونصوو» وطرق أمجاد نابوليونيّة. عاد الواصلون حديثاً إلى أجواء تلك الجولات الممتعة الكثيرة التي طالما قاموا بها، حسب الرغبة والمزاج، من لاشوپ دو بانثيون حتّى بصلات التوليب في كاي دو لا مجسيري؛ من مكتبة «شاكورناك» المختصّة بالروحانيّات والتنجيم (كارتات عرّافين وكتب مستجدين وكتابات ستانيسلاس دي غايتا...)[148] إلى صالة الجمناز، حيث يمارسون لعبة المصارعة العريقة رفساً بالقدم على الوجه؛ من حانوت «حاجات الرحمة» الأزرق السماوي في «نوتردام دي فيكتوريا»، إلى الرقم 25 من شارع «سان أبولين» -أو

---

(147) الشاشيّة هي غطاء الرأس الأحمر المستعمل في شمال إفريقيا. الزواف هم جنود المشاة الفرنسيون الذين قاتلوا في شمال إفريقيا.

(148) Stanislas de Guaita (1861-1897): منجّم وشاعر فرنسي.

غلاس- حيث تعمل صباحاً فتاة شقراء ثرثارة، تتكلّم على طريقة دوق أومال[149] مما يضفي جوّاً من الأرستقراطيّة الكوميديّة على ميادين الفروسية القريبة. كلّ شيء ينطق بلغة الروائح والأذواق خلف مشارب الزنك في البارات: قطع البريوش، في سلالها الصغيرة؛ والماغدالينا، مصفوفة مثل قواقع كومپوستيلا، في أوانٍ مربّعة من الكريستال؛ القطّة على زجاج شراب «الدوبونيه»، صورة جنود «البيرساغلييري» الإيطاليين على زجاجات «الزنزانو»، فخار زجاجات الجن الهولندي البراقة، الدرجات الخشبيّة المخبّأة في كؤوس عرق «أوروخو»؛ عطر «آمر پيكون»، الذي يتراوح بين قشور البرتقال والقطران. «الحال هنا أفضل من مغارة المومياوات»، همهم المستشار. وبعد أن صعد في سيارة مكشوفة، اتجه إلى شارع «تلسيت». «باريس تظلّ باريس!»، قال السكرتير حين بدا من بعيد، بين «كاباِّيوس دي مارلي»، قوس النصر، الكبير وغير النافع. وأحسّ المستشار، وهو يعدّل جلسته -يغوص- على مقعده الجلدي، بحاجته إلى إجراء يمكن وصفه بالعضويّ، في ما يتصل بإعادة علاقاته بالمدينة. اتصل بنادي «كاي كونتي»، حيث الحفلات الموسيقية الجميلة: السيدة ليست موجودة في البيت. اتصل بعازف الڤيولين موريل، فرحّب به هذا وهنّأه على عودته بكلماتٍ سريعة، فكأنّه يريد إنهاء المحادثة. اتصل بلويس دي مورناند، فتركته مدبّرة منزلها ينتظر مطوّلاً وقالت له بعد ذلك إنّ السيدة الحسناء غائبة عن البيت لعدة أيام. واتصل ببريشوت، أستاذ السوربون: «أنا أعمى تقريباً -قال له-: ولكن يقرؤون لي الجرائد». وأغلق السماعة. «متذمّر كعادته»، قال المستشار، الذي فوجئ بالجواب الغريب، وراح يبحث عن رقم آخر في مفكّرته. واتصل واتصل واتصل بهذا وبذاك، وعثر، باستثناء

(149) أو Enrique d'Oreleans (1822-1897): أمير وكاتب فرنسي وعضو الأكاديمية الفرنسية.

خيّاطه أو حلّاقه، على أصوات بدا أنّها غيّرت مكانتها وأسلوبها. فكّر حينئذ في دانونزيو، الذي قد يكون في باريس. قالت له إحدى خادماته إنّ سيدها سافر إلى إيطاليا، لكنّ صوت الشاعر ارتفع، مكذّباً مقالها، ومطلقاً لعناته في حقّ الدائنين، الذين يحاصرون بيته. نعم. إنّه محاصر. تلك هي الكلمة: كقطيع من الأرينيس، من اليومنيديس، من الفورياس؛ مثل كلاب هيكاتي[150]، يقفون هناك، طوال الوقت، متربّصين في الحانة المقابلة، في كشك السجائر عند الناصية، في المخابز القريبة، يراقبون، ينظرون إلى بابه، بانتظار أن يخرج، ليهاجموه ويمزّقوه بما يدينُ لهم من المال. «آه، وهو ما لن يفعله طاغية من طغاة أميركا اللاتينية من أجل أن يستولي على السلطة وينظّف شارع «جيوفروي لانسييه» من الأشرار والأشقياء، كما فعل، في قرطبة الجديدة، ما فعله الصديق الكريم الذي يكلّمه الآن!». حين توقّع أن تُقطَع المكالمة، لم تكن المرة الأولى، ضرب المستشار على السماعة بقلمه وهو يقول: «لاتقطعي مادموزيل.. لاتقطعي!» [بالفرنسيّة]، ثمّ أغلق الخط، قاطعاً عبارة الآخر، ليظنّ أنّ الاتصال قطع. لكنّه ظلَّ قلقاً ومشوّشاً. وراح يفكّر في تفسير كلمة «طاغية»، لأنّه اعتاد من صاحبه الشاعر أن يستخدم لغة «وهميّة» ومبهمة؛ أمّا عن قرطبة الجديدة، فما أدرى دانونزيو باسم تلك المدينة؟ شيء ما يحدث. قد يكون من المناسب الاتصال بابن بلدته «پويرتو كابيّو» رينالدو هان[47]، اللطيف الخفيف. رفع المؤلّف الموسيقي سماعة التلفون، وتكلّم معه بلكنته الفنزويليّة الظريفة، المتفرّدة -وهو ما لم يفلح في تفسيره- المشوبة بلهجة «ريو پلاتا». عقب التحايا المعهودة، أبلغه رينالدو، بطريقته اللطيفة البطيئة الكسولة في الكلام، وبطريقة من يتكلّم عن شيء آخر، أنّ جريدة لو ماتان

(150) إلهة إغريقيّة تظهر وفي يدها مشعلان أو مفتاح وبجوارها كلبان عظيمان يحرسانها. الإشارات الأخرى تتصل أيضاً بآلهة الانتقام الإغريقية المذكورة.

نشرت حول الأحداث «هناك» سلسلة من الريبورتاجات المروّعة، وصفت فيها ابن بلدته بـ«جزّار قرطبة الجديدة». جميعُ صور مسيو غارسان نشرت على مساحة ثلاثة أعمدة أو أربعة، وتظهر فيها الأجساد الملقاة في قارعة الطرق والجثامين المقطّعة والجثث المسحولة وتلك المعلّقة بكلّابات المسلخ البلدي من آباطها وأذقانها وأضلعها، والمطعونة بالمناخس والرماح الثلاثية الرؤوس والقضبان والمطاوي. والنساء المقاتلات اللائي أُجبرن على الركض عاريات في شوارع المدينة، والضرب بالحراب يتواصل على ظهورهنّ. والأخريات اللائي اغتُصبن وهنّ في حمى الكنيسة. والأخريات اللاتي اغتصبوهنّ في الحظائر. وعمّال المناجم الذين رُشقوا بالمدافع، أمام سور المقبرة، على أنغام الموسيقا العسكريّة والأبواق. كلّ تلك الصور مع صور المستشار، ببدلة القتال، صور جانبية، ونصف جانبية، وأحياناً خلفيّة، لكنّها دائماً صور واضحة، ويمكن تمييزه فيها من هيئته، وهو يأمر بقصف كنيسة الراعية الإلهيّة («لم أكن أنا، بل هوفمان!»، احتجّ الرئيس)، أعجوبة العمارة الباروكيّة - نوتردام العالم الجديد [بالفرنسية]، تقول الصحيفة. أمّا أغرب شيء وأقساه فهو أنّ ابنه ماركو أنطونيو لم يدافع عن أبيه حين سأله أحد الصحفيين، قبل يومين، وهو في شاطئ «ليدو»، برفقة ممثّلة مسرحيّة، بل صرّح قائلاً: «أنا غير معنّي بتعقيدات أميركا اللاتينية» [بالفرنسيّة]. وها هو ذا المستمع يفهم، وقد أصابه الذهول، سبب كلّ الحجج المزيّفة والأعذار الواهية التي سمعها؛ ها هو ذا يفهم غياب لويسا دي مورناند المزعوم، وردّ بريشو الغريب. «أنا أعلم، يا بن بلدتي، أنّ في ما يقال الكثير من المبالغة.. في هذه الأيام تُصنع الأعاجيب في مجال الحيل الفوتوغرافيّة.. أنت لن تستطيع.. كلّ شيء مزيّف، بالتأكيد».. لكنّه لا يستطيع العشاء معه، هذه الليلة، في «لاروي». ولا غداً، لأنّه على موعد مع غابرييل فوريه. فضلاً عن التزاماته

الكثيرة: مشروع أوبرا «حين تقول الفتيات "نعم"» لموراتين، كونشرتو بيانو وأوركسترا. إنّه جدّ آسف. استلقى المستشار، وقد استبدّ به الانزعاج، في شبكة النوم، المعلّقة في حلقات كان قد أمر قبل أشهر بتثبيتها في زاويتين من زوايا غرفته. لم يكن مغتاظاً، حتّى من التشولو مندوثا، الذي كان يستطيع أن يبلغه بالأمر. لأنّه يعلم أنّ دبلوماسييه لا يقرؤون من الصحافة الفرنسيّة سوى لو غيغ وفانتازيو ولا ڤي باغيسيان[151]، وما أقلّ ما يهتمّ هؤلاء بما يُكتب عن بلدهم. راح يتطلّع بمرارة لم يعهدها إلى السقف المزيّن بنقوش الجبصين. ما كان ليهتمّ لو أنّهم دعوه «جزّاراً» أم بربرياً أو متوحشاً أو ما شاؤوا من أوصاف ونعوت في أماكن لا تروق له، في مدن من تلك التي يتندّر عليها في أحاديثه ويطلق عليها أوصافاً تحقيرية. عنده أنّ برلين مدينة لم تأخذ اسمها الأولي من «مكان الدببة»، بهندسة بوابة «براندمبرغ» الثقيلة، الشبيهة بقاطرة من الجرانيت، ومعبدها، معبد بيرغامون بين جدران، تحت ظلال الزيزفون [بالألمانية]؛ أمّا ڤيينا، التي اشتهرت بجمالها وبهجتها التي تضفيها عليها مسرحياتها الغنائية ورقصات الڤالس الشهيرة، فلم تكن في الواقع غير مدينة متخلّفة بقدرٍ كبير، بضبّاطها اليافعين الخارجين من المصبغة، وبمطاعمها العشرة أو الاثني عشر المتطلّعة إلى أن تصبح كمطاعم باريس، خلف دانوب لونه لون القهوة بالحليب، ولا يكتسي زرقة إلا يوم 29 من شباط، حين تكون السنة كبيسة؛ أمّا برن، فهي مدينة خاملة، بتماثيلها التي تحمل شعارات سويسرا القديمة، وسط شوارع هي معرض كبير للساعات والبارومترات؛ أمّا روما، فكلّ ساحة وكلّ رأس شارع هو دار أوبرا، والمارّة فيها يرتدون، مهما كان لباسهم ومهما كان موضوع حديثهم، عباءة ممثّلي قوة القدر أو الحفل

(151) عناوين صحف ومجلّات فرنسية ساخرة أو اجتماعية.

المقنّع[152]، أمّا مدريد فهي دراما من النوع القصير، بمواضع الماء والماء المحلّى بالسكّر والعرق فيها، وبحرّاسها الليليين، الذين يحملون سلاسل المفاتيح في أحزمتهم، وبجلسات السمر في مقاهيها، حيث ترتسم ساعات الفجر فوق مشهد قروي من شوكولاته ساهرة وخبز أمس المحمّص، يذهب بعضهم للنوم، بينما يبدأ الآخرون يوم عملهم بفطور «الچورّو» وشراب «الكثايّا» والتبغ الرخيص.. لكنّ باريس، هي عنده مدينة الوفرة والخير، أرض الميعاد، بلد العبقريّة المقدسة، حاضرة فنّ الحياة، ينبوع كلّ ثقافة، التي تغنّى بها، عاماً بعد عام، روبين داريّو وغوميث كارّيّو وأمادو نيربو وكثيرون آخرون من كتّاب أميركا اللاتينيّة وأدبائها، ممن حظوا بالعيش فيها، وصنعوا منها، في الجرائد والمجلّات والكتب، كلّ على طريقته وأسلوبه، ما يشبه مدينة الربّ. شيئاً فشيئاً، وبعد أن تجاوز تحفّظاتِ وراعى الأتيكيت والملبس، وفق ساعات اليوم وأيام الأسبوع وفصول السنة، وبعد أن قدّم هدايا ثمينة من دون إسراف، وأرسل زهوراً من دون تبذير، وأبدى كرماً في مبرّات ومناسبات خيريّة، وصادق فنانين وأدباء بعيدين عن كل بوهيمية غريبة، وحضر حفلات موسيقا، وندوات جمهور عادي، وحفلات افتتاح مسرحي وغنائيّ -ليبرهن على أنّ أوطاننا تتقن فنّ الحياة كما يتقنونه- راح يشقّ طريقاً لم يقُده إلى قمم غوته، بل أخذ بيده، ولثلاث مرّات، إلى سهرات مدام فيردوران[153] الموسيقيّة - وهي لعمري بداية جيدة. كان، حين يتعب من صخب هناك وضجيج ناسه، ينسحب، لينتظر الموت، في هذا البيت الذي كان يراه في كلّ رحلة وقد بات أجمل وألطف. لكنّ الدهر كشّر له عن أنيابه. وأوصدت في وجهه وإلى الأبد

---

(152) عملان أوبراليان من أعمال الإيطالي جوزبي ڤيردي (1813-1901).

(153) من شخصيات رواية مارسيل بروست «البحث عن الزمن المفقود» وتمثّل عالم البرجوازية الوصوليّة.

أبوابُ البيوت التي طالما حلم بها، منذ أن كان صحفياً في المحافظة، حين كان ينشد، وهو يسير في شوارع «لا بيرونيكا» الحجرية، القصائد التي تغنّى فيها روبين داريو بـ«أزمنة لويس ملك فرنسا، شمس ببلاط من نجوم في حقول من اللازورد، حين ملأت وردة البومپادور الملكيّة الفخمة القصورَ بالعطر»[154]؛ أو حين يتطلّع، وهو يجلس في حانة من حانات الميناء، بين دخان الجمبري المشوي والسمك المقلي، ويحشر أنفه في مجلّات هناك، إلى الروائع التي كان أشهر رسّامي العالم قد تركوها، ليفرّجوه على ذهب بهو الأوبرا وحمرته، وعلى بياض فتيات السيلف ووواليس[155]، وعلى أناقة بدلات الخيّالة في سباق الفروسيّة، وعلى رياح الكاتدرائيات المطيرة الباردة -«يسقط المطر في قلبي / كما يسقط فوق المدينة»[156]-، تموج ألوان النساء اللائي كنّ، في لوحاتهم، طيورَ جنّة، سيمفونياتِ جواهر، كائناتٍ لا يدركها التصوّر إلا بمشقّة، عند ظهورهنّ هكذا، فجأة، على صفحات مجلّة لا لوستراسيون - هنا، بين صافرة سفينة الشحن الدنماركيّة وصرير الرافعة التي تلقي بأكوام الفحم على أوساخ المرسى القريب. وها هو ذا يظنّ أنّه يقرأ الاحتقار، الاتهام الصامت، في عيون من كانوا ينظرون إليه: خادمه سلفستري، الذي بدا عليه الصدود والنفور، الطبّاخة، التي بدأت، حين رأته، تمسح يديها بصدرية المطبخ، في حركة تحتمل تفسيرات وأوجهاً؛ البوّابة، المتحفّظة الباردة، التي لا تبدو مهتمّة -أو لا ترى أنّ من

---

(154) Rubén Darío (1867–1916): من كبار شعراء أميركا اللاتينية ومن رواد التيار الحديث في الشعر الإسباني. النص المذكور هو أبيات من ديوانه «نثر مدنّس» Prosa profana.

(155) السيلف sylph هي أرواح أثيرية أسطوريّة. أمّا واليس فهي دوقة وندسور Wallis Simpson (1896–1986) التي تزوّجها الأمير البريطاني إدوارد الثامن وتنازل عن العرش من أجل الزواج بها.

(156) الأبيات للشاعر الفرنسي پول ڤرلين Paul Verlaine (1844–1896).

المناسب أن تبدي اهتماماً- بذراعه المحشورة في الحمّالة؛ بل إنّ مسيو موزارد نفسه، صاحب البوا-شاربون، لم يكن ودوداً معه، حين دفع الفضول المستشار إلى زيارته ذلك العصر، مع الدكتور پيرلاتا، لشرب زجاجة من «بوجوليه». لم يكن صاحب البار رائق المزاج، ولم تخرج زوجته للسلام عليهما. وبدا من نظرات شخصين يرتديان الطاقيّة، واقفين عند الطرف الآخر من البار، أنّهما كانا يتكلّمان عنه. في جميع المقاهي كان الجارسونات يرسمون تعبيراً غريباً على وجوههم. وأخيراً، وبعد أن شعر المستشار بالحاجة إلى الراحة مما اعتراه من قلق وهمّ، وبعد التشاور مع پيرلاتا، حلَّ على غير انتظار في بيت الأكاديمي البارز، الذي يدين للمستشار بالكثير من الفضل. هناك، في الشقّة المعتمة المطلّة على «السين»، بين الكتب القديمة ورواشم هوكوساي[157]، ولوحات «سانت-بوف» و«فرلين» و«لو كونت دي ليسل» و«ليون دير»، وجد الرئيس ترحيباً حارّاً وتفهّماً أثار مشاعره. إنّ السلطة تنطوي على التزاماتٍ مرعبة - أكّد الصديق. «كريه أن يفي الملوك بوعودهم، وكريه ألّا يفوا»، قال، ربّما نقلاً عن أوسكار وايلد. لم يكن لأيّ قائد شعبي ولا لأيّ ملك عظيم ولا لأيّ زعيم كبير يدٌ ليّنة. مرَّ من أمام عيني الرئيس شريط لصور فيها من القسوة قدر ما فيها من العزاء: لوحات لخراب قرطاج وحصار نومنسيا وسقوط بيزنطة. وفجأة مرّت في خاطره، مبعثرةً مختلطة، صورُ «فيليب» و«دوق ألبا» و«صلاح الدين» و«بطرس الأكبر». هذا الأخير، اضطرّ، لمصلحة من مصالح الدولة العليا، إلى إبادة الناريشكيين في باحة الكرملين. ثمّ، مَن من القادة استطاع أن يكبح سَورة غضب جنده المنتشين بفرحة النصر؟ ومن منهم استطاع أن يحول دون أن يرتكبوا المظالم والفظائع، التي ملأت أخبارها صفحات سفر التاريخ؟ وكم تضاعف الظلم واشتدّ حين تتصل

(157) Hokusai (1760-1849): رسّام ياباني.

الواقعة بثورة هنود أو تمرّد عبيد سود؟! وفجأة، شعر المستشار بأنّه تحرّر من قيوده، فاستردّ تماسكه واستعاد معنوياته بعد ما سمعه من كلام الأكاديمي البارز، وخرج عن فرنسيّته التي يبالغ في وزنها، وتخلّى عن العناية بنطقه وقياس مفرداته، وانطلق مدفوعاً بسيل جارف من الكلمات البلديّة النابيّة رآها الآخر، مشدوهاً، تتدفق مثل طوفان شفوي من رموز يعجز عن فهمها. هندية. زنجيّة، نعم؛ زامبو. تشولو. سوقيّة. صعاليك. أوغاد. فاسقون. فاجرون. فلّاحون. ريفيّون. إخوة قحبة. رعاع. غوغاء (ويحاول الدكتور پيرلاتا الترجمة بلغته التي تعلّمها في بوا-شاربون مسيو موزارد: تافهون. ساقطون. بائسون. لقطاء. عفنون. قتلة. فُتات. حثالات. سفلة. خراء...) وخصوصاً -بعد أن عاد الرئيس إلى لغته الفرنسيّة- اشتراكيون، اشتراكيو الأممية الثانية، فوضويون، أشخاص يطالبون بمساواة مستحيلة بين الطبقات، ويحرّضون على الكراهية في صفوف جماهير جاهلة، ويستثمرون، لمصالحهم، كبرياء شعب أمّي، شعب يرفض توجيهات الحكومة وإرشاداتها التوعويّة، شعبٌ يمارس السحر ويميل إلى تصديق الخرافات ويؤمن بقدّيسين يشبهون قدّيسينا لكنّهم ليسوا قدّيسينا، ولا أشكّ أنّ هؤلاء الجهلة، النافرين من كلّ أبجديّة، سيسمّون ربّ كاتدرائيّة «أميان» الجميل، «أليغوا» أو «أوباتالا مسيح بيلاثكيث المصلوب» أو «أوشوم لا پيتا لمايكل آنجلو»[158]. ذلك هو ما لم يكن مفهوماً هنا. «أكثر مما تعتقدون حضراتكم!»، قال الأكاديمي البارز، وهو يزداد تساهلاً واقتناعاً. تفسير كلّ شيء تجده -وعاد إلى فيليب الثاني ودوق ألبا، مروراً بأميركا كورتيس، وپيثارّو- في الدم الإسباني، في الطبع الإسباني الموروث، في محاكم التفتيش الإسبانية،

(158) هي كاتدرائية الروم الكاثوليك في «أميان» الفرنسية. الأسماء الأخرى تشير إلى أرباب الأوريشا التي ينتشر أتباعها في بلدان الكاريبي.

في مصارعة الثيران، في حراب المصارعة القصيرة المزركشة، في قطعة القماش الأحمر، في السهام، في الخيل المحشورة بين دانتيل الزينة وموسيقا الپاسو دوبلي. «إفريقيا تبدأ عند جبال البيرينيه». لقد حملنا تلك الدماء في أوردتنا؛ وكان ذلك قدراً مقدّراً. ناس هناك ليسوا مثل ناس هنا، وإن لم يعدموا بالطبع بعض الطبائع، لأنّ ثربانتس والغريكو - الذي، بالمناسبة، كان العبقري تيوفيل غوتيه[159] قد اكتشفه وقدّمه إلى العالم. في هذه اللحظة، نهض پيرلاتا، مدرّس الثانويّة السابق، من مقعده، غاضباً، في قفزة واحدة: «فلقتنا بالدم الإسباني، يا رجل!»، صرخ. وراح يستعرض، بنبرة احتقار واضحة، أمام عينَي الأكاديمي البارز المشدوهتين، مثل زجاجتَي مصباحٍ سحريّ، جرائم سيمون دي مونتفورت وحملته الصليبيّة على الألبيجنيين[160]؛ وحكى كيف أنّ روبرت جيسكارد[161]، بطل مأساته، التي اشترت مكتبتنا الوطنية مخطوطتها، روى أنّ القائد النورماندي عمل ذبحاً بسكّان روما؛ وأشار إلى ليلة «سان بارتيليمي»، المرادف العالمي لكلمة الرعب[162]؛ وإلى اضطهاد الكاميسارد[163]، وإلى مجازر ليون، ومراكب نانت[164]، والرعب الأبيض بعد الثرميدور[165]، ولا

(159) Théophile Gautier (1811-1872): شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي.

(160) أتباع حركة «الكاثار» المسيحية (ق 12) التي حاربتها الكنيسة الكاثوليكية واعتبرتها خارجة عن الدين.

(161) Robert Guiscard (1015-1085): مغامر نورماندي. حارب المسلمين في صقلية وأخرجهم منها.

(162) مذبحة ارتُكبت، بأوامر من شارل التاسع، بحقّ آلاف البروتستانت، ليلة 24 آب 1572 في باريس.

(163) Camisard وهم البروتستانت الفرنسيون الذين ثاروا عام 1703.

(164) استخدمت السفن إبّان الثورة الفرنسية معتقلات كبيرة عائمة في مدينة «نانت» الواقعة على الأطلسي.

(165) Thermidor من أشهُر تقويم الثورة الفرنسية. المقصود به هنا الثورة الفرنسيّة.

سيّما، لا سيّما، بالاستخدام الذكي للمقارنات، والأيام الأخيرة من كومونا باريس[166]. هناك لم يتردّد أذكى الرجال في العالم وأكثرهم تحضّراً، بعد انكسار المقاومة الثوريّة، في إبادة أكثر من ستة عشر ألف رجل. ألم تتحوّل سيارة إسعاف كنيسة «سان سولپيس» -«أووه! اهربي، أيتها الصورة الجميلة!» [بالفرنسيّة]- إلى مسلخٍ على أيدي الفرساليين؟! ألم يصرّح مسيو تيير[167]، بعد جولته الأولى في باريس، بعد حفلة التنكيل والتمثيل قائلاً: «الشوارع مليئة بالجثث؛ ذلك المشهد المرعب سيكون عبرة ومثلاً». كانت جرائد ذلك الوقت -جرائد «فرساي»، بالطبع- تدعو إلى مجازر وحملات إبادة صليبيّة مقدسة. وحديثاً، وماذا تقول حضرتك عن ضحايا إضراب «فورمييه»[168]؟ والأحدث منه؟ هل تساهل «كليمنصو» العظيم مع المضربين في «دراڤي»، في «ڤيلنيف سان جورج»[169]؟... ها؟! التفت الأكاديمي البارز، وهو يتلقّى الهجوم مباشرة، نحو المستشار: «كلّ ما ذكرته صحيح. مع الأسف، كلّ ذلك صحيح. لكنّ هناك ملاحظة، مسيو» [بالفرنسيّة]... ثمّ، وبعد توقف مهيب وتحضيري، رفع فيه نبرته مع كلّ اسم ذكره، تذكّر أنّ فرنسا وهبت العالم رجالاً من قدر «مونتين» و«ديكارت» و«لويس الرابع عشر» و«موليير» و«روسو» و«پاستير». وهمَّ الرئيس بالردّ بأنّ قارّته، على الرغم من قصر تاريخها، أنجبت أبطالاً

(166) أو الثورة الفرنسية الرابعة، وقد انفجرت بعد الانكسار المذلّ لجيش نابليون الثالث أمام بروسيا ودخول هؤلاء باريس عام 1871 وكانت مناسبة لمجازر كبيرة.

(167) Adolphe Thiers (1797-1897): أوّل رئيس للجمهورية الثالثة وأشهر مؤرّخي الثورة الفرنسيّة.

(168) في تلك المدينة الفرنسية قُتل العديد من العمّال المضربين بسبب مطالبتهم بيوم عمل من ثماني ساعات.

(169) إضرابات واجهها رئيس الوزراء الفرنسي «كليمنصو» بالقمع. كان ذلك بين عامي 1906 و1909.

وقدّيسين، أبطالاً وشهداء، مفكّرين، بل شعراء، غيّروا، بالمناقلة، لغة إسبانيا الأدبية، لكنّه فكّر في أنّ الأسماء المذكورة ستسقط في فراغ ثقافة لا يعرف شيئاً عنها. في تلك الأثناء، أحكم پيرلاتا على الأكاديمي طوقاً من الأفكار المزعجة: حقيقيّ جمالُ قصائد راسين، ومعروفة شهرة «مقال عن المنهج»، لكنّ بعض الفظائع لا يقرّها المنطق ولا العقل. فما أخطر أن يكون مسيو تيير، أوّل رئيس للجمهوريّة الثالثة، ومؤرّخ الثورة وحكومة القناصل والإمبراطوريّة النابه، هو من أمر بمذابح الكومونا وإعدامات «پير لاشيز»[170] وعمليات النفي إلى كالدونيا الجديدة. خطورة تفوق أضعافاً مضاعفة قيام عسكري يدعى والتر هوڤمان، حفيد امرأة من الزامبا ومهاجر من هامبورغ، بروسي مزيّف وتينور صالونات عسكريّة، بتنفيذ -نعم، هو من يتحمّل مسؤوليّة ما حدث- حملة القمع في قرطبة الجديدة. «الثقافة التزام، تماماً كما طبقة النبلاء، سيدي الأكاديمي» [بالفرنسيّة]. بعد أن رأى أنّ صديقه البارز قطّب جبينه، أمر الرئيس سكرتيره، بإيماءة متعبة، بالصمت، ثمّ سقط في همود كسل صامت، وغرق بين ذراعَي الأريكة. إنّه ينظر إلى الأشياء فلا يراها - اللوحات، الكتب القديمة، رسم يصوّر «غرانفيل». أمّا الأكاديمي فراح يذرع الغرفة، وكأنّه يتجاهل وجود پيرلاتا، فيصطدم به بمروره -«پاردون!»-، ويطأ قدمه -«أرجو ألا أكون سبّبت لك أذىً!» [بالفرنسيّة]-، مطرقاً: «يمكننا المحاولة! ربّما...» [بالفرنسيّة]. اتصل هاتفياً برئيس تحرير لو ماتان. بعض الطلبة، الهاربين من هناك، هم الآن في باريس، حملوا صور مسيو غارسان -فرنسي قرطبة الجديدة الملعون-، يثرثرون ويحرّضون في مقاهي الحيّ اللاتيني - جميعهم من تلاميذ الدكتور لويس ليونثيو مارتينيث.

---

(170) عند أسوار مقبرة Père-Lachaise بباريس، أُعدم، عام 1871، الكثيرون من مقاتلي كومونا باريس ودُفنوا في مقبرة جماعية هناك.

لكنّ الصحيفة لا تستطيع التراجع ولا العدول عن نشر المقالات التي أعلنت عن أنّها ستنشرها. سيقول الناس إنّ الصحيفة باعت نفسها لمن يمتلك -كما كان معروفاً- ثرواتٍ طائلة. قصارى ما يستطيع هو أن يرفع من طبعة غد صورة يظهر فيها المستشار واقفاً إلى جانب جثّة موضوعة على طاولة قبو، تحت تقويم فيه إعلان لأعواد كبريت «فاليري»، حيث يقرأ بوضوح تاريخ المجزرة. «هنا تكمن الكارثة»، قال متبرّماً. ليت حادثاً يقع الآن. حادث -لا أدري!- يشغل الناس ويلهيهم: غرق تايتانيك أخرى، مرور مذنّب «هالي» يعلن نهاية العالم، انفجار «مونت-پيليه» جديد، زلزال في سان فرانسيسكو، حادث اغتيال مثير، كاغتيال غاستون كالميت على يد مدام كيلّو[171]... ولكن، لا شيء، لا شيء يحدث في هذا الصيف الحقير. والجميع يديرون له ظهورهم في المكان الوحيد الذي ما زال يقيم فيه لرأي الآخرين وزناً. عرض عليه الأكاديمي البارز، بعد ما رأى من انهياره ويأس يحني هامته ويفرّغ نظرته من محتواها، صداقته الخالصة، في مصافحة طويلة شدّ فيها على يده اليسرى، وكلّمه همساً، كمن يذيع سرّاً، عن هجوم مضادّ ممكن. الصحافة الفرنسيّة -يحزنه الاعتراف بذلك- موبوءة بالفساد. لا يقصد، بالطبع، لو تيمپ، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكاي دورسي[172]، والتي لم يكن مديرها، أدريان هيبرارد، رجلاً مؤهّلاً للقيام بمهمات معيّنة. وهو لا يفكّر أيضاً في ليكو دو باريس، حيث يعمل صديقه موريس باريه، ولا في لو غولواز التي يديرها السوداوي آرثر ماير. ولكن وراء تلك الصحف

(171) كان غاستون كالميت، رئيس تحرير لو فيغارو الباريسيّة، قد نشر فضائح فساد عن وزير المالية آنذاك جوزيف كيلو، الطامح إلى خوض الانتخابات التشريعية. زارت السيدة كيلو رئيس التحرير في مقر صحيفته وأطلقت عليه النار فأردته قتيلاً. جرت الأحداث عام 1914.

(172) Quai d'Orsay المنطقة التي يقع فيها مقرّ وزارة الخارجية الفرنسية. ويُشار به إلى الوزارة نفسها.

البارزة صحفاً أخرى يمكنها، إذا ما توفّرت الموارد (هزّ المستشار رأسه موافقاً)، المهم، أظنّ أنّ حضرتك تفهمني.. كلّ شيء يتوقف على المهارة في تدبير الأمور وتصريف المسائل. وهكذا، بعد ثلاثة أيام، بدأت لو جورنال بنشر سلسلة من المقالات، تحت عنوان عام «أميركا اللاتينيّة.. ذلك المجهول»، تنقّلت فيها من العام إلى الخاص، من كريستوف كولومبوس إلى پورفيريو دياث[3] (أشارت عرضاً إلى أن أنّ بلداً عظيماً كالمكسيك سقط في الفوضى العارمة، لأنّه لم يوقف الثورة في الوقت المناسب...)، ووصلت إلى وطننا، فتغنّت بشلّالاته وبراكينه؛ بناياته وغيتاراته، ثيابه وأزيائه -«الويبيل» و«البوهيّو» و«اللكيليكي»-، أطباقه -«تامال» و«أخياكو» و«فيخوادا»-، واستحضرت لحظات مشرقة من تاريخه - تاريخ يقود بالضرورة إلى عصر التقدّم والتطور الزراعي والبناء ونشر التعليم وتمتين العلاقات مع فرنسا.. كلّ ذلك بفضل سياسة المستشار الحكيمة. بلد صغير ينهض نموذجاً وقدوة في إزاء بلدان أخرى في القارّة تغرق في الفوضى. ولكن، ما حيلة الدولة إزاء جمهور متمرّد، غير متعلّم في أغلبه، يسهُل إغراؤه بإيديولوجيات هدّامة (من المناسب هنا تذكّر راڤاتشول، كاسيريو، قاتل الرئيس كارنو، كولغوش، قاتل ماكنلي، ماتيو مورال وقنبلته المرمية فوق موكب عرس فيكتوريا دي باتمبرغ وألفونسو الثالث عشر)[173]؛ وماذا تقدر حكومة جادة، حيال تسلّل أفكار ليبرتاريّة فوضويّة، غير أن تتخذ إجراءات جادة، وإن لم تستطع، أحياناً، أن تحول دون أن يُقدم نفرٌ من الجنود، واقعين تحت ضغط الاستفزازات ومشاعر العداء واليأس، على أفعال مؤسفة، ولكن، ومع ذلك، وعلى

(173) أسماء لفوضويين: فرنسي Ravachol وإيطالي Caserio وأميركي Czolgos وإسباني Mateo Moral، نفّذوا في سنوات مختلفة وأماكن مختلفة اغتيالات وتفجيرات واعتداءات.

الرغم من ذلك، وطبعاً.. «أهاااا! ما رأيك سيدي الرئيس! -هتف الدكتور پيرلاتا، وهو يقرأ المقالات ويعيد قراءتها-: نعم، سنزعج هؤلاء الطلبة القذرين المحرّضين في الحي اللاتيني باجتماعاتهم التي لا تحضرها إلا أربع قطط ومنشوراتهم التي لا يقرؤها أحد». في تلك الأثناء، وصلت برقية إلى المستشار تبلغه عن إرسال صندوق، صندوق عجيب، صندوق سحري، صندوق سماوي، شُحن قبل قليل في ميناء «پويرتو أراغواتو»: صندوق يحمل المومياء -مومياء تلك الليلة- بزينتها وأنسجتها وعظامها، مرسلة إلى متحف «تروكاديرو». المومياء في الطريق، وقد ثبّتوها بعناية، بصمغ وأسلاك غير منظورة، وأجلسوها في نعش مفتوح من الأمام -ما يكفي لمشاهدة هيكلها كاملاً-، محنطة بمهارة على يد خبير سويسري، متخصّص أساساً في تحنيط الزواحف والطيور، لكنّه، في هذه الحالة، أبدى كفاءة ومهارة فائقتين. المومياء في الطريق. تعبر المحيط. تصل في وقتها لتكون مادة صحفيّة لنوع معيّن من صحف لا تشبع - يستغرب الرئيس من شراهتها واندفاعها. لقد بات مسكن شارع «تلسيت» محجّاً، منذ ساعة مبكّرة من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل. صحفيون، كتّاب منوّعات، ناشرون، كتّاب أعمدة، مديرو صحف لا وجود لها في كشك ولا في مكتبة، كتّاب تحقيقات، منوّعات، ناس ببدلات سموكن وناس ببدلات مهترئة، ناس بقبّعات وناس بطاقيّة، رجال بسيخ في العصا، وعدسة عين واحدة، ملطّخون بصفار البيض -مختصّون مفترضون في السياسة الخارجيّة لا يعرفون عن أميركا إلا «كوندور أبناء الكابتن غرانت»، «الموهيكانو الأخير»، «لا پريچولي»، «الچوكلو»، التانغو الأرجنتيني الذي كان آخر صيحة أيّامه...-، الذين يأتون، في كلّ وقت، «بحثاً عن معلومات»، خطيرة مبهمة، ليؤكّدوا أنّ أخباراً فظيعة ما زالت ترد من هناك، تتحدّث عن ملاحقات للطلبة والصحفيين، وعن خطر يتهدّد المصالح

الأوروبية، وعن، وهذا هو الأخطر، انتحار مسيو غارسان -نزيل جزيرة الشيطان القديم، صحيح، لكنّه فرنسي في نهاية الأمر- في ظروف غامضة، وعن العثور على جثته قبل وقت قليل، معلّقة على جرّافة معطوبة، على بعد كيلومترات من قرطبة الجديدة. خلف لو پوتي جورنال، التي عانت مبيعاتها من تراجع كبير في تلك الأيام، تأتي لكسيلزوار، التي تذكّر بمكر أنّ الوثائق المصوّرة على صفحاتها تظهر بوضوح فريد؛ وتظهر لا لبير پارول بعد لا كري دو باريس، ثمّ ننتقل، متدرّجين من الأكبر إلى الأصغر، من يوميات الابتزاز إلى مجلّات الفضائح، وصولاً إلى صحف المحافظات -البرينيه الأطلسيّة. الألب البحريّة. أصداء الشمال. فنارات أرموريكا، نشريات مارسيليا...- في عرض يومي من الطفيليين المنتفعين المنافقين، ممن يجب إسكاتهم بلغة الأرقام، بحضور المومياء المهيب. ها هي ذي أمامهم، صُوِّرت من مختلف الزوايا؛ ها هو ذا جَدُّ أميركا أمامهم، يحمل على ظهره، بحسب خيال الكاتب، ألفي سنة أو ثلاثة آلاف أو أربعة - أقدم قطعة في القارة، والذي بحضوره يعود بهم إلى بدايات تاريخها، إلى الوراء، في رمشة عين. ثناء من مؤسساتنا العلمية، وثناء من المستشار، مهندس اللقية العظيمة؛ شكر على تلك الهدية القيمة المقدّمة إلى أحد متاحف باريس. لكن المومياء لم تصل. حملتها باخرة سويسرية لتنقلها إلى «شيربورغ»، لكنّهم أخطؤوا الميناء، فحملوها إلى «غوتنبرغ»، وإلى هناك اتجه التشولو مندوبًا للبحث عنها. وفي تلك الأثناء، واصل الصحفيون، المتعطّشون دائماً، المتوعّدون أبداً، التردّد على شارع تيلسيت «بحثاً عن الأخبار». «لا أتحمّل أكثر؛ لا أستطيع المزيد -صاح المستشار، بعد أن التقى محرّرة "ليزيه-موابلو"-: هؤلاء السفَلة! سيجرّدونني من كلّ قرش، من كلّ فلس، من كلّ درهم! فليقولوا ما يشاؤون، لن أعطيهم سنتاً واحداً آخر!» لكنّه أعطى وأعطى وأعطى، وإن ما عادت المومياء قادرة

على استدرار المزيد من الكلام وكتابة المزيد من المقالات، بعدما أُشبعت عرضاً، مصوّرة، محتشمة، بالمقارنة مع المومياءات الأخرى - المعروضة في اللوڤر والمتحف البريطاني. درس پيرلاتا، وهو يبحث عن مواضيع جديدة، الحالات التي شهد فيها العالم ظهور العذراء، لربطها بعبادتنا للراعية الإلهيّة - وهو موضوع قد يروق للقرّاء من الكاثوليكيين. في خضمّ تلك الحالة المضطربة لعلع الرصاص في «سراييفو»[174]، تبعتْه رصاصاتٌ قتلت، في كافيه دو كرواسان، جان جوريس[175]. «حمداً للربّ أنّ شيئاً ما وقع أخيراً في هذه القارة الحقيرة!»، قال المستشار. في الثاني من آب دُعي إلى التعبئة العامة، وبعد يومين قامت الحرب. «لا تدعوا صحفياً يدخل في هذا البيت!»، قال الدكتور پيرلاتا.. وفي تلك الليلة عاد المستشار إلى مشاويره السابقة. ذهب مع سكرتيره إلى بوا-شاربون مسيو موزارد، إلى الرقم 25 من شارع «سان أپولين»، إلى بيت التلميذات الإنكليزيات وراهبات «سان بيثنته دي پول». وكان الحديث هو نفسه في كلّ مكان. يقول البعض إنّ الحرب ستكون قصيرة وإنّ الجيوش الفرنسيّة لن تلبث أن تدخل برلين. بينما يقول آخرون إنّ الحرب ستكون طويلة ومؤلمة وفظيعة. «كذب! -قال الرئيس-: الحرب الأخيرة، آخر حرب كلاسيكيّة، هي الحرب الفرنسية-البروسيّة عام 70». أثبت عالم اقتصاد إنكليزي مرموق حديثاً («أمكنهم الحصول على كتابه في طبعة نلسون») أنّه ليس في مقدور أيّ أمة متحضّرة تحمّل تكاليف نزاع مطوّل. فالأسلحة الحديثة باهظة الكلفة؛ وليس في مقدور أيّ بلد أن يواجه نفقات إدامة جيوش عديدها

---

(174) اغتيال ولي عهد النمسا في سراييفو في 28 حزيران 1914 وكانت شرارة الحرب العالمية الأولى.

(175) Jean Jaurès (1859-1914): زعيم اشتراكي. اغتيل لمعارضته دخول فرنسا الحرب العالمية.

الملايين من الرجال. فضلاً عن أنّ، قال ذلك رئيس الأركان الفرنسي: «ثلاثة أشهر، ثلاث معارك، ثلاثة انتصارات». في تلك الأثناء، وصلت أوفيليا من «سالزبورغ»، عن طريق سويسرا، وصلت وهي حامل من پاپاغينو «الناي السحري»[176]. لقد كان حادثاً لم يحسبا له حساباً، فقد نسيتْ، ذات ليلة، عادت فيها ثملة، أن تضع اللولب، الذي كانت تحمله دائماً في حقيبة يدها للحالات الطارئة - هكذا، بغباء، بحماقة، متشبّثة بقنطورة[177]، في بيت صغير محاط بصنوبرات من «كابوزينرسبيرغ». جاءت والشرر يتطاير من عينيها؛ مغتاظة لأنّها ستضطر إلى الذهاب إلى مكان آخر للتخلّص من هذا، فأطباء هنا الأغبياء يرفضون إجراء هذا النوع من العمليات؛ مغتاظة بسبب ما نشرته لو ماتان، وردّدت صداه صحف ألمانيا والنمسا، مع رسم كاريكاتيري نشرته سيمپليسيموس ميونخ، صوّر المستشار وهو يعتمر قبعة مكسيكية عريضة ويلبس حزام خراطيش متقاطعاً، وقد تدلّى كرشه، الذي يشبه كرش المليونير، وأطلّ سيجار الهابانو من بين أنيابه، وهو يطلق النار على فلّاحة جاثية أمامه: اآخر دواء الملوك[178]، تقول الأسطورة. «تبوّلتَ خارج الحوض كعادتك! -صرخت الأميرة-: سموكن الماكاكو لا يغطي الذيل! ما دمتَ قتلتَ كلّ هؤلاء، فلماذا لم تقتل المصوّر؟!». «قتلوه!». «صحيح؟ بعد ما وقع الفأس في الرأس؟ لحسن الحظ أنّهم صفّوا هذا الأرشيدوق! ربّما ينسون بما يحدث الآن حماقاتكَ! لأنّ الجميع يدير ظهره إلينا. نحن نغرق. وصل الخراء إلى

---

(176) في أوبرا «الناي السحري» The Magic Flute لموزارت يمثّل پاپاغينو دور زوج پاپاجينا.

(177) القنطورة هي أنثى القنطور centauro وهو مخلوق أسطوري له رأس آدمي وجسم حصان.

(178) Ultima Ratio Regum عبارة لاتينية تشير إلى أن القوة هي الحلّ الأخير لدى الملوك. يقال إنّ لويس الرابع عشر أمر بصبّ هذه المقولة على مدافع جيشه.

هنا!» (ووضعت إصبعها على جبهتها). أخرج المستشار ذراعه اليمنى من حمّالة يده الحريرية. لقد عادت ذراعه إلى الحركة، ما عاد مفصل كوعه يؤلمه. إنّه يستطيع تقريباً تلمّس أخمص مسدسه. ترك أوفيليا لصراخها ورفسها (بدا أنّها شربت كثيراً في العربة - المطعم في القطار الذي جاء بها)، خرج لتناول الطعام مع الدكتور پيرلاتا في قبوٍ قريب من «غار سان لازار»، حيث صُفّت جرار النبيذ على إحدى الطاولات، وحيث يمكن للزبون تذوّق ثمانين نوعاً من الجبنة - بينها جبنة الماعز، بمذاق أعشاب عطرية، تُذكِّر بلبن قفار الأنديز الباردة الرائب.

سبعة

... إنّ الإهانات تبدو أكبر كلّما جَعَلَنا التعجرفُ نُغالي في اعتبار أنفسنا[179].

ديكارت

كان ذلك الصيف من أجمل ما سجّلته حوليّات مصالح الأنواء الأوروبية اعتدالاً وشمساً. لقد أمضى الرهبان، في محطات قياس الرطوبة الألمانيّة، صيفهم، بالقلنسوة مطروحة على قفاهم؛ وظلَّ الفلاح الذي يحمل المظلّة، في محطات قياس الرطوبة السويسريّة، مختبئاً في مسكنه الريفي بجبال الألب، وسمح لفتاة المريلة الحمراء اللحميّة، مع اعتدال الطقس، بالخروج. كانت الكستناءات جذلى والعصافير لا تنفكّ تزقزق بين تماثيل حدائق «التويليري» و«لكسمبورغ»، على الرغم من صخب المعركة التي تشهدها العاصمة، المضطربة من تتابع الأحداث التي كانت، على الرغم من إشاراتها التحذيريّة، تفاجئ الكثيرين من الناس إذ تذكّر بأحداث الـ 70 المأسويّة، فتبعث القلق في قلب كلّ من

(179) «انفعالات النفس» Les passions de l'âme، ترجمة: جورج زيناتي، المقالة 202، ص119.

شهدها منهم[180]. قرّر المستشار بالطبع إنهاء الحملة المُكْلفة التي قادتها الصحف لصالح بلده وحكومته، فالجمهور لا يبحث في صفحاتها إلا عمّا يتصل بالفوضى التي تعمّ أوروبا. كانت تلك الحملة الإعلاميّة عقيمة من ناحيتين: بسبب ما كان يحدث آنذاك، أولاً، ثمّ لأنّها لم تنفع في إنقاذ سمعته، وهي أكثر ما كان يحرص على إنقاذه. على الأقل، لم يلمس تقدّماً ولا فرقاً في هذا الجانب. فلم يتصل به أحدٌ ليعلّق على ما بعض ما نشر ويطيّب خاطره - عدا خياطه وحلّاقه، بالطبع. فقد كان الأشخاص الذين يهمّونه في إجازة - إجازات تبدو مطوّلة بسبب الأحداث. لم يتلقّ من رينالدو هان[47]، وكان تجرّأ على سؤاله، إلا جواباً فيه من المجاملة والتهرّب أكثر مما فيه من المنطق والإقناع: «اطلعتُ عليها.. اطلعتُ عليها.. جيّد جداً.. أهنّئك، صديقي!»... بدا واضحاً له أنّه لن يتلقّى، نهاية ذلك العام، حين يكون قد عاد إلى هناك، تلك البطاقات التي رُسمت عليها الأجراس وزهر الهدال، ولا تلك الرسائل المسطّرة على ورق بعلامة مائية، التي تأتيه من باريس، حاملة تواقيع لها وقعٌ في نفسه يفوق ما للمديح الذي تغدقه عليه صحافته المحليّة، ومكتوبة بأيادٍ يكنّ لها كلّ احترام وإعجاب، تردّ على تهانيه الطيبة بمناسبة أعياد الفصح - مرفقة دائماً بقطعة نفيسة من صناعاتنا التقليديّة. كان عليه، إذاً، أن يكفّ عن مراعاة الأشخاص الذين كان يعوّل على صداقتهم ويدّخرها لأيامٍ سيُمضيها في مسكنه بشارع «تيلسيت» المريح والهادئ هذا، أيام سيتخلّى فيها عن منصبه -لمللٍ أو لتعب أو لسبب آخر لا يعلمه إلا الله...-. ما كان في نيّته الابتعاد عن باريس في الوقت الحاضر -هو لا يشعر فيها بأيّ خطر، في الحقيقة-، فذراعه المريضة تتماثل للشفاء، بفضل خبرة الدكتور فورنييه، وهو «طبيب

(180) يشير إلى الحصار الذي فرضه الجيش البروسي على باريس بين أيلول 1870 وكانون الثاني 1871.

مستشفى» ملزم بالبقاء في المدينة بحكم مهنته. بدأ الرئيس يسير مسافات طويلة، برفقة سكرتيره، بلا وجهة ولا اتجاه، بانتظار صدور طبعات الصحف المسائيّة، بل كانا أحياناً يصلان، حين يشتاق إلى برودة النباتات وانداوتها، حتى «غابة بولونيا»، التي باتت جادتها المعروفة، جادة سانتييه دو لا فيرتو، مقفرة، بينما تمدّ إوزات البحيرة أعناقها، راسمة علامة استفهام، وهي تنتظر عبثاً كِسَر البسكوت التي كان المتنزّهون والأطفال، حتّى قبل أيام قليلة، يجودون بها عليها. يجلسان في تراس البري-كاتيلان، يتذكّران أيام زمان ومغامراتها، وإن كان المستشار، وهو ينتقل من مناجاة نفسه إلى الاعتراف المنقوص لصاحبه، يلتفت فجأة إلى هذه الحرب، لتأمّلها، أمام استغراب پيرلاتا، من منظور الرجل الفاضل المتألّم الناصح. الأمم الميّالة إلى الترف واللامبالاة -قال- تكون هشّة وطريّة، وتفقد فضائلها الأساسيّة. لا شكّ أنّ الجمال مطلوب، لكنّ الرجل، لكي يمتلك عضلات تنبض بالحيوية من كثرة ما تطلّعت إلى الجمال، يحتاج، بعد أحلام يقظة طويلة، إلى أن يقاتل، أن يصارع، أن يمارس رياضات الاشتباك. كم هي رائعة شخصيّة لودڤيغ الثاني، ملك باڤاريا، الذي تغنّى به شاعرنا روبين داريو وفيرلان! لكنّ بسمارك، الصلب القاسي المحارب، كان أنسب، لتوحيد ألمانيا المجزّأة الخاملة، من أمير مغرَم بالموسيقا ومنصرف إلى تشييد قلاع شعرية خيالية حالمة. هذه المعركة لن تكون طويلة («ثلاثة أشهر، ثلاث معارك، ثلاثة انتصارات»، أكّد جنرالاته)، ولا دامية كتلك التي وقعت عام 70، لأنّ الناس، الذين ذاقوا مرارة التجربة، لن يسمحوا باستمرارها وتحوّلها إلى كومونا مقيتة[166]. يناسب فرنسا أن تحدث فيها هزّة، أن تأخذ علاج طوارئ، أن تتعرض لصدمة، لتخرج من سباتها الذي تغرق فيه. ما أشدّ مكابرتها! ولذلك فهي محتاجة إلى أن تلقّن درساً. ما زالت ترى في نفسها قائدة للعالم، حتّى بعد أن دخلت، وقد استنفدت

طاقتها، مرحلة من التدهور والانحلال. لقد انتهت مملكة العمالقة: «هوغو» و«بلزاك» و«رينان» و«ميشليه» و«زولا». ما عادت تظهر هنا أرواح على ذلك القدر من العالميّة، وها هي ذي فرنسا تدفع ثمن خطيئتها الكبرى في هذا القرن المتعدّد الأشكال، والتي تتمثّل في المبالغة في تقدير ما يقع وراء حدودها. لا يثير اهتمام الفرنسي إلا ما كان فرنسياً، مهما بلغت غرابته. لأنّه مقتنع من أنّه خُلق ليصنع كلّ ما من شأنه أن يمتّع الإنسانيّة. ثمّ ينهض أمامه فجأةً إنسانٌ جديد، يقضّ مضجعه، لأنّه يحمل تصميماً راسخاً على تحقيق إراداته، إنسان مؤهّل ربّما لتملّك العصر: رجل نيتشه، المسكون بإرادة سلطة لا ترحم، بطل عود أبديّ تراجيدي وعدواني[181]، اليوم مكرّر في أحداث تهزّ العالم. كان بيرلاتا، العارف بالمستويات التأمليّة المتواضعة لصديقه، على بيّنة من أنّ المستشار لم يقرأ نيتشه، ولئن ذكره الآن ذكرَ العارف به، فربّما لأنّه قرأ في إحدى المقالات أمس بعض أفكاره محصورة بين علامتي تنصيص. ثمّ إنّه، وهو الذي اعتاد على مجاراته في طباعه المتذبذبة صعوداً ونزولاً، لاحظ أنّ الرئيس يخفي وراء الاعتبارات اللازمنية حقداً نحو الناس الذين أهانوه وتجاسروا عليه حين سدّوا عليه أبواب بيوتهم. إنّه حين يتلفّظ بأسماء بسمارك أو نيتشه، إنّما يوجّه مدفعيته الذهنيّة الحاقدة صوب كلّ من تجاهله وتجنّب استقباله: بريشو وآل كورڤوازييه وآل فروشوفيل والكونت دي آرجانكور - ذلك الدبلوماسي الفاشل الذي تجاهله ولم يردّ على سلامه حين صادفه في مكتبة كان الاثنان يترددان عليها لشراء كتب إباحية تحمل عناوين مضلّلة مثل الوجيز في الإباحية الهندوسيّة، أو المؤلّفون الماجنون في القرن الثامن عشر، بينما تزخر صفحاتها بالصور الفوتوغرافية الحديثة الفاضحة.

(181) تذهب نظرية نيتشه في العود الأبدي أو التكرار الأبدي Eternal Return إلى أن الوجود يتكرر.

وراح بيرلاتا ينظر إليه بخبث، يتأمّل فيه نيران تلك العدوانيّة المتصاعدة، ويبحث له، بين قراءات الأيام السابقة العشوائيّة، عن حجج دامغة حول معجزات ظهور السيدة العذراء في العالم يمكنه أن يوظّفها لكتابة مقالات عن «معجزة قرطبة الجديدة»، ربّما لن تجد طريقها إلى نشرٍ - ولن تعود على كاتبها بأيّ مردود مادي. وأدخل ذات صباح الفرحة على قلب المستشار حين أطلعه على نصٍّ لكاتب كاثوليكي، شهير بنزقه وصراخه وشتائمه التي لا يتصف بها إلا شحاذ جاحد (الكاتب يصف نفسه بأنّه «شحاذ جاحد»)، يؤكّد فيه أنّ شعب فرنسا هو، بعد شعب إسرائيل، شعب الله المختار والمقدّم على غيره. من دون فرنسا «لن يكون الربّ أبدياً»- يقول. ثمّ إنّ كلّ شيء يؤكّد قوله: إنّ عبارة تأمّلوا زنابق الحقل كيف تنمو[182] في الكتابات المقدسة هي إعلان عن الزنبقة التي هي شعار الملكية الفرنسية؛ أمّا الديك المذكور في وليمة التناول في العشاء، فهو إشارة واضحة إلى ديك بلاد الغال. فرنسا الزنبقة، فرنسا الديك، فرنسا خبز التناول الجيد ونبيذ التناول الجيد، التي تأكّدت في شعبها صفة الشعب المختار في العصر الحديث -يضيف الكاتب- عن طريق ثلاث حالات ظهرت فيها العذراء خلال ثلاث وثلاثين سنة: «بونتمين» و«لورد» و«لا ساليت».. لم يسبق لمن اطّلع على تلك المعجزات أن ضحك قطّ بتلك الروح: فهل فرنسا إذاً هي أرض الفارقليط، أرض الروح القدس؟ وأين يضع ذلك السيدُ إسبانيا التي فرضت الديانة الكاثوليكيّة على قطعة من الأرض تمتدّ من «ريو غرانده» في المكسيك حتّى جليد القطب الجنوبي؟ أمّا عن العذراوات!... عذراء «غوادالوپه»، البهيّة، في صخرتها المقدسة في «تيبياك»؛ وعذراء المحبّة النحاسيّة في كوبا، التي ظهرت محلّقة وهي ترتدي عشب السرجس، فوق القارب الذي كان يقوده «خوان أوديو»

(182) إنجيل متّى: 28-6.

و«خوان إنديو» و«خوان اسكلابو»؛ وعذراء «لا ريغلا»، شفيعة البحّارة والصيّادين في العالم، التي تحلّق، بعباءتها المزروعة بالنجوم، فوق الكرة الأرضيّة؛ وعذراء «دل بايّيه»، في كوستاريكا؛ والراعية الإلهيّة في بلدنا؛ وعذراء «تشيكينكيرا»، الشامخة، الرائعة الصدر، المرأة والسيدة، بالتاج الذي تحمله على رأسها؛ عذراء «لوس كروموتوس»، التي تركت صورتها، بعد حضورها المدهش، في كوخ للهنود؛ والعذراوات العظيمات المحاربات من أجل العقيدة، المدرّعات بالنار تحت عباءاتهنّ المباركة: عذراء «كينچه»، التي تحمل رتبة جنرال في جيش الإكوادور، وعذراء «لاس مرثيديس»، شفيعة الجيوش، التي تحمل رتبة مارشال البيرو، جميعهنّ بصحبة القديس بطرس كلافير، شفيع العبيد وسان بنيتو الأسود -«بلون مسامير المسيح»- والقديسة روزا دي ليما، ملكة القارة العجيبة، التي تضمّ أكبر الغابات وأطول سلاسل الجبال، ونهر «أوروبي» الكبير. تتقدّم هؤلاء العذراوات في فوج نورانيّ عجيب، وقد اسودّت عذراء «لا ريغلا»، وباتت عذراءُ «لوس كوروموتوس» لوزيّة العينين، قويّات، رحيمات، جميلات، خفيفات، يحملن آلامهنّ السبعة، آلام سيوفهنّ السبعة، يهبن أعاجيبَ وشفاءات، حظوظاً ومعجزات، مستعدّاتٍ دائماً للذهاب إلى حيث يُستدعين، مرئيات مئة مرة، مسموعات مئة مرّة، سريعات مجتهدات ورائعات، حاضرات في كلّ مكان وقادرات على أن يُعلنّ، في آن معاً، عن أنفسهنّ -كما الربّ حين يعلن عن نفسه أمام سانتا تريسا- في أعماق الطناجر كما في قمم البرج العاجي - وأمّهات، على وجه الخصوص، أمّهات الشبل العظيم[183]، الجريح في جنبه، الذي سيجلس ذات يوم على يمين الربّ، ليوزّع العقاب والثواب، بعدالة لا تقبل

(183) في التراث المسيحي أنّ يسوع سيجلس يوم الحساب على يمين الله: «ثم إن الرب بعدما كلّمهم ارتفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله» - مرقس، 16:19.

ردّاً ولا نقضاً، وليحكم علينا جميعاً... ثمّ يأتيني الشحاذ الجاحد، أو لا أدري ما اسمه، ليكلّمني عن عذراواته الفرنسيات الثلاث، وإحداهنّ، وهي عذراء «لاساليت»، كانت موضع أخذ وردّ في أروقة الفاتيكان نفسه! العذراوات هنّ عذراواتنا نحن، عذراوات حقيقيّات، وقد حان الوقت لتمريغ أنوف هؤلاء الناس هنا والإطاحة بعنجهيتهم، هؤلاء الذين يجهلون كلّ ما ليس لهم ومنهم. سيدركون ما معنى الشعب القوي المنظّم المنضبط الصاعد. وماذا أقول عن ألمانيا، حيث لم يعش فيها إلا قليلاً. بدت له فجأة أدغالاً سوداً ومعلّمين منشدين وملوكاً جنوداً، كاتدرائيات ينطلق من عقودها المدبّبة، عند الثانية عشرة، حواريون وأبواق، قرب الراين، الراين العظيم، راين الحصون العجيبة -التي تغنّى بها ڤيكتور هوغو ورسمها-، وحوريات الماء اللائي يضعن صبايا مراهقات في شِباك شعورهنّ، واحتفالات البيرة، التي يقيمها ناسٌ فرحون مسروررون، أقوياء الأرجل، يجمعون، إلى موسيقا «اليودل» وإلى الأكورديون، الروح الفلسفيّة -لبلاب هايدلبرغ-، عبقري الرياضيّات، عبادة الطاعة، وحب الاستعراضات الفخمة - إجمالاً: كلّ ما يفتقر إليه لاتينيو الانحطاط الثاني القذرون هؤلاء. لكنّهم سيرون ما هو جيد، حين يستعرض، وهو تحت قوس النصر (سيشهد الاستعراض من نافذته، ثابتاً راسخاً، وربّما متأثّراً مما يمكن أن يثيره من معاناة في آخرين، لكنّه مصمّم، لتقليد ديكارتي، على تصديق كل ما تكشّفتْ له حقيقته)، مرور الجنرالات «مولتكه» و«فلوك» و«بولو» و«فالكنهاين»، وهم على صهوات جيادهم، يحرسون ولي العهد، على رأس عرض رائع من الجاكيتات السود وزركشات براندنبورغ والخوذ مدببة، على أنغام أوبرا تانهويزر الرائعة التي تعزف بوقع أسرع من المألوف لضبط المسير. حينئذٍ ستؤدّي ألمانيا، وأخيراً، دور «الخميرة المولدة» الذي تنبأ لها به «فيخته» في إعلان تاريخي - إعلان لم يقرأه المستشار

أيضاً، فكّر پيرلاتا، وإن أقرّ بأنّ له حاسّة شمّ في ما يتصل بالاطلاع على الأمور بصورة غير مباشرة، عن طريق طرف ثانٍ.

صار قناصل سفارات دول أميركا اللاتينية وكبار موظّفي سفاراتها يجتمعون، عند ساعة مقبلات الصباح وساعة مقبلات العصر، وساعات كؤوس الليل، وهي كثيرة، في أحد مقاهي الشانزليزيه، وهم قلقون من التهديدات المحدقة بباريس (وإن كان الناس في الشوارع ما زالوا يردّدون: «إلى برلين! إلى برلين! إلى برلين!»)، ويتساءلون ما إن كان من المناسب نقل مكاتبهم إلى بوردو أو مارسيليا أو ليون. اجتمعوا لمناقشة أحداث اليوم. كان التشولو مندوثا ينتبه دائماً لأقوال أولئك وآرائهم ليصيغ منها تقارير توافق حدس المستشار وتخميناته. كان هذا قد تلقّى -سريّاً وشفوياً، فدكتاتور فنزويلا يخشى أن يسخر الآخرون من كتابته- من صديقه خوان بيثنته غوميث، جنرال جنرالاتٍ مولعين بالشارب القيصري ونظّارات العدسة الواحدة، نصيحة حكيمة بأن يظلّ على الهامش في كلّ شأن، لأنّ «الطفل الصغير الذي ينحشر في معركة بين كبار لا يخرج منها إلا مهروساً». مع أنّ الجميع تقريباً كانوا يتعاطفون مع فرنسا، لأسباب ثقافية وعاطفيّة -بعضهم حبّاً بأدبها، وآخرون شغفاً بنسائها، وهم الذين يشغلون وظائف، هي، في الواقع، إجازة طويلة وممتعة، تدوم ما تدومه شؤون الحكومة، وفي المكان المناسب لقضاء وقت هانئ ممتع-، فإنّ الكثيرين يتفقون على أنّ الحرب خاسرة، على هذا الطرف. ليس عليك إلا أن تلاحظ حالة الاضطراب والتوتّر والهرج والمرج السائد، وإن لم تعكسها الصحف - الصحف لا تصرّح إلا بأنصاف الحقائق ولا تنقل إلا أخباراً مموّهة، كما أكّد الدكتور فورنييه، في جلسات المسّاج والأشعة التي كانت تخضع لها يوميّاً ذراع المستشار، التي عادت أكثر حركة وخفّة. في الشوارع تعلو

أصوات مختلفة بها كتابات «بارّيه»[42] و«ديرولديه»[184] وشعراء آخرين من أصحاب الحماسة والحميّة الوطنيّة: يتكلّمون عن كتائب ضائعة، من دون قيادة ولا ضبّاط، فقد نُقل هؤلاء إلى قواطع هادئة من الجبهة، فما عادوا يعرفون ما إن كان عليهم أن يظلّوا في أماكنهم أم يتقدّموا أم يتراجعوا. وحدات عسكرية لا يرتدي نصف مقاتليها لباسهم العسكري النظامي، خليط من قبعات الكيبي على «برنيطات الشرطة»، وقد لفّوا أقدامهم، عوضاً عن الحذاء العسكري الطويل، بضماد أو بأغلفة من ورق مطليّ بالشمع. فضلاً عن فضائح البنادق من دون رصاص والقذائف من دون مدافع، وسيارات الإسعاف التي ضلّت طريقها، والمستشفى الميداني الخالي من الأجهزة. ثمّ الإشاعات التي كانت تنتشر على نحو خاص في المقاهي الصغيرة وأكشاك البوّابين وحلقات محلّلي الشوارع الاستراتيجيين: عربتا «الأولان» القتاليتان الواقفتان على بعد كيلومترات قليلة من باريس؛ الخطّة الألمانية في التوغّل إلى المدينة عبر أنفاق المترو؛ الجواسيس المنتشرون في كل مكان يسترقون السمع والنظر وينقلون الرسائل بفتح الستائر ثمّ إغلاقها، ليلاً، وفق شفرة ضوئيّة اخترعها خبير تشفير بروسي. وتصل إلى بلداننا أولى الصحف التي تتكلّم بإثارة وحماس عن «الحرب الأوروبية» - موضوع جديد، جيّد، جذّاب، بعد أزمنة رتيبة. عادت المانشيتات العريضة التي عرفتها أزمنة التشويق و«برقيات آخر ساعة» وأخبار «فلاش»، مؤطّرة بخط عمودي. انطلقت الكثير من النفوس، بعد أن اعتادت أن تتماسك إزاء الحدث المحلّي، خوفاً من القمع. انطلقت واهتاجت وهدأت، إزاء الواقعة الكبيرة البعيدة التي قفزت إلى واجهة الأحداث. وأخيراً صار ممكناً النقاش والجدال والتخمين والاعتراض

(184) Paul Deroulède (1846-1914): شاعر ومسرحي وسياسي. مؤسّس عصبة القوميين الفرنسيين.

(وشتم ڤون تيبتز[185] وانتقاد وقوف الإيطاليين على الحياد والتندّر على الأتراك...) وفق اتجاهات موحّدة لدى جميع بلدان القارّة. هناك كان رجالُ الدين جرمانيي الهوى، لأنّ فرنسا الكافرة هي التي تدعم التربية العلمانية، ولأنّها فصلت الكنيسة عن الدولة، بينما المصارف الإسبانية، وأبناء المهاجرين الألمان الكثيرون والأقارب والمقرّبون من الأسرة الصغيرة للضبّاط الذين يدعونهم، مزاحاً، بـ«فيديريكيتو الثاني»، يبشّرون بنصر ثانٍ للقيصر. وبات جميع المنتمين إلى الطبقة المثقفة «حلفاء» (ما كان أحد يفهم موضوع الاتفاق الدولي). و«حلفاء» بات أيضاً الكتّابُ والجامعيون وقرّاء روبين داريّو أوغوميث كارّيو، وهم أناس كانوا هنا أو حلموا بالمجيء إلى هنا يوماً ما. و«حلفاء» بات معلّمو المدارس وأصحاب الفكر الحر والأطباء الذين درسوا في باريس وقسم معتبر من البرجوازية -وخصوصاً البرجوازية التي تتحاور، في اجتماعاتها الدنيوية، أحياناً بفرنسيّة متكلفة وعرجاء كما يتكلّمها أبطال «الحرب والسلام»- والشعبُ كلّه عموماً، لأنّ فرنسيّ بلداننا، وهو تاجر قبل أيّ اعتبار، لم يكن يوماً مّا منافساً مزعجاً لابن البلد، فهو يتعامل بلطف مع الناس، وغالباً ما يصاحب الزامبات والتشولات، وهو، في ذلك، مختلف كثيراً عمّن يعتكفون بين مصابيح «نواديهم الألمانية» أو «مقاهيهم الألمانيّة»، الميونيخيّة، المخصّصة لأناسٍ من ذوي البشرة البيضاء، يمكن أن يقابلوا ظهور أيّ زنجيّ أو هندي بأنياب يكشّرون عنها كما يكشّر فافنر عن أنيابه[186]. ها قد بلغنا شهر أيلول، بين شكٍّ وتردّد، وإن كان المستشار الأوّل يتأمّل المشهد اليومي بترقب المستمتع تقريباً. جيوش مولتكه، بحكم سرعة حركتها، ستصل قريباً إلى قوس النصر، ومن دون جهد كبير، ففرنسا لا تتوفّر اليوم على جنرالات من

---

(185) Von Tirpitz (1849-1930): قائد البحرية الألمانيّة.

(186) Fafner أو Fanfir: قزم أسطوري له ذراعان جبارتان وأنياب مرعبة.

قَدْر أولئك الذين نُقشت أسماؤهم على النصب النابليوني. وستعرف هذه الحاضرة المتغطرسة الفاسدة تطهيراً بالنار ربّما توقعه أكثر من كاتب كاثوليكي من هنا، بعد أن قارن حالها بحال سدوم وعمورة - بل بحال بابل العاهرة، منذ انتصاب (لا يمكن استعمال هذه الكلمة إلا في حالة التماثيل أو المباني الهندسيّة، بحسب فلوبرت) برجها، برج إيفل، برج بابل، الزقورة الحديثة، منارة الكون، رمز اختلاط اللغات، الذي توازيه، في القمم، القباب البيض -وإن كان مهندسها قد حلم بأن تكون مذهّبة- قباب القلب الأقدس. لكنّ المستشار، المنعّم العافي، حين لا تجبره أفعال الآخرين على أن يكون موزّع عقوبات، لم يفكّر في نار حرائق ولا في سماوات منهارة، بل فكّر في نار سايكولوجيّة، نار عقابية تأديبيّة، تجبر المتكبرين والأنانيين على التواضع والنزول من أبراجهم للصلاة من أجل السلام. ليس لهذه النار أن تلحق الضرر، طبعاً، برسوم البانثيون ولا بأحجار ساحة «ڤوج» الورديّة، ولا بنوافذ نوتردام المزجّجة، ولا بأحزمة عفّة دير «كلوني»، ولا بتماثيل متحف «جريڤن» وسراباته، أو أشجار الكستناء المورقة في الجادة حيث تسكن كونتيسة دو نواي[187] (على الرغم من أنّها أدارت له ظهرها)، وأقلّ منها متحف «تروكاديرو»، حيث لن تلبث مومياؤنا أن تُعرض في الڤترينة بعد أن تضع الحرب أوزارها ويسافرالتشولو مندوثا إلى «غوتنبرغ» للبحث عنها. لم تبقَ إلا أيام قليلة، في الواقع، وتنتهي الحرب: أخبر الدكتور فورنييه مريضه باكتمال شفائه وقدرته على ممارسة حياته الطبيعيّة، فخفّت يدُ هذا تبحث عن المسدس، ولكن من دون أن يضع إصبعه على الزناد. وراح الطبيب يعرب عن ألمه لما تعانيه القيادة من نقص في الاستعداد، ومن ارتجاليّة وتقصير، سوء الإدارة والتبذير -ما زال هذا يشكّل كارثة [بالفرنسيّة]- وهي حالة ستقودنا إلى هزيمة نكراء: حضرتك

(187) Condesa de Noailles (1876–1933): شاعرة فرنسيّة من أصل روماني.

تحسن صنعاً بالعودة إلى وطنك، سيدي العزيز. على الأقل، هناك ستنعم بالشمس وبالرون وبصحبة الخلاسيّات [بالفرنسيّة]. لكنّ عصر 5 أيلول شهد بداية معركة المارن[188]. («لا يمكن كسب حرب بسائقي سيارات أجرة» - قال المستشار الأوّل مستهزئاً) وسرعان ما اتضح أنّ الفرنسيين، خلافاً لمبدأ «جوميني» التكتيكي والاستراتيجي، يواجهون جبهة قتاليّة من دون قلب، فليس هناك غير خط ضعيف من سلاح الفرسان. في يوم 8 بدا وكأنّ جنود هذه الجهة يوشكون على أن يخسروا الجولة. لكنّ النصر تحقق يوم 9 عصراً. تلك الليلة، احتفل الدبلوماسيون الأميركان اللاتينيون المعتمدون في باريس، والمجتمعون في مقهى «الشانزليزيه»، بالنصر، بأن دعوا جميع المومسات اللائي مررن من هناك لتناول الشراب، بينما همهم المستشار الأوّل -وكان قد خرج، للمرة الأولى، مع تلك الشلّة-، المهيب في سترته الطويلة، ذو الحكمة الأبويّة التي يقرّ بها القاصي والداني: «طبعاً.. طبعاً.. لكنّ هذا لا يحلّ مشكلة!». في اليوم التالي نهض مبكراً معكّرَ المزاج وراح يتأمّل قوس النصر، الذي بات بدنه يكبر في عينيه ويصغر، بحسب انتعاش آماله الانهزامية أو خمودها. أمّا وقد شفي، فلا بدّ له من التفكير في العودة إلى هناك -ما عاد من سبب لإطالة الإقامة-، وخصوصاً بعد أن تنازل، مؤقتاً، عن استعراض العودة الظافرة المنتظر، بالجوقات الموسيقية العسكرية، المدوّية والمضحكة إذا ما تأملنا مسيرَ العازفين وانتفاخ خدودهم -أبواق ومترددات- وهم يتابعون مسير طبل كبير عظيم. كان يهمّ بالاتصال بسكرتيره پيرلاتا ليعرض عليه القيام بجولة حتى بوا-شاربون مسيو موزارد، حين دخل السكرتير، وقد بدا على وجهه الاضطراب، يحمل رسالة طويلة كتبت على ورق أزرق: «اقرأ.. اقرأ!».

---

(188) وقعت في أيلول 1914 بين الفرنسيين والإنكليز من جهة والألمان من جهة. وانتهت بانتصار القوات المتحالفة.

كانت برقية من روكي غارثيا، رئيس مجلس الشيوخ: أضع في علمكم أنّ الجنرال والتر هوفمان قام بحركة عسكريّة في مدينة «مورينو» على رأس الكتيبة الثالثة والثامنة والتاسعة والحادية عشرة مشاة. أكثر من أربعة أفواج من سلاح الفرسان بضمنها وحدات الحرس الجمهوري زائداً أربع وحدات مدفعيّة انطلقت على صرخات يحيا الدستور، تحيا الحريّة... «يا لك من وغد! الويل لك يا بن القحبة!» صاح المستشار الأوّل. لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء: ثلاثة من «الفديريكيتوس الثواني» -بريكر، الفتى الطيب الأشقر، الذي حظى دائماً بتقدير وتوصيات صادرة من الجهات العليا؛ وغونثاليث، الذي كان ملحقاً عسكرياً في ألمانيا؛ ومارتوريل، رجل المدفعية الكتلان الذي أصبح من الكريول بسبب بغضه للنظام الملكي الإسباني-، هؤلاء الضبّاط الصغار المرتاحون المدلّلون، الذين صعدوا صعوداً خاطفاً، مشتركون أيضاً في الانقلاب. «يا لأولاد القحبة! يا لأولاد القحبة!». ولم يلبث المستشار أن سقط في نوبة غضب، فراح يصرخ ويعربد وسقط بعدئذٍ في مهاوي اليأس، يجأر، جريحاً، لاعناً، يبحث بكلمات متعثّرة عن أقذر الصفات التي يمكنه أن يصف بها فعلة هؤلاء وخيانتهم وجحودهم ونفاقهم وخداعهم. وصلت كلمات منولوجه إلى أقصى مراتب الغضب لتتراجع إلى الأسف الذي يقرب من التنهّدات، لأنّه لا يجد الكلمة التي تناسب الإحباط الذي يلفّه، ويتماسك فجأة، يحتدّ، يتصاعد، ينفجر مجدداً في شتائم وتهديدات فظيعة. («أعرف أنّ مونيه-سوللي[189] ممثّل كبير -قال بيرلاتا-: ولكن، مثل رئيسي لا يوجد اثنان»). صرخ المستشار الأوّل، يائساً وغاضباً، فأطاح بالأثاث ورمى بالكتب على الأرض وصوّب مسدسه البلجيكي نحو مجالدي جيروم[14]، في حالة من

(189) Mounet-Sully (1841-1916): ممثّل فرنسي.

الصخب والهياج خفّ سلفستري لها من المخزن مرتعباً: «هل سيدي مريض؟ هل آتي بطبيب؟!». وفجأة التفت الغاضب نحو خادمه، وقد هدأت ثورته -أو تصنّع أنّها هدأت- ليقول له: «ما من شيء، سلفستري.. ما من شيء.. حالة مزاجيّة وحسب.. شكراً!» [بالفرنسية]. فكّ الزعيم عقدة رباط عنقه، وهو بعد محتقنٌ متعرّق تملأ أصداء السياط سمعه، يذرع المكان طولاً وعرضاً. بدأ بإملاء أوامره وتوجيهاته على الدكتور پيرلاتا. ليذهبْ إلى أقرب وكالة للسفر -لا بدّ أنّ هناك منها ما يفتح حتى هذه الساعة قريباً من الأوبرا- وليفعل كلّ المطلوب للسفر إلى هناك في أقرب وقت ممكن. التأكيد على روكي غارثيّا في ما يتصل بصمود القوات الموالية للحكومة. برقيّة إلى آرييل؛ برقيّات إلى صحفنا، لتنشر بياناً موجّهاً إلى الصف الأول من القيادة («ومن جديد، يحرّك الطموح الأعمى لرجل غير جدير بالرتبة التي يحملها ولا المنصب الذي يحتلّه، إلخ إلخ إلخ.. حسناً: أنتَ تعرف البقيّة»)؛ برقية هنا، برقية هناك، برقيات كثيرة. في تلك الأثناء ينادي باعة الصحف معلنين عن طبعة في منتصف النهار تحمل آخر أخبار الحرب: «هذا ما ينقصني!». ركل من غيظه لوحة كان قد جاء بها أحد تلامذة جان-پول لورانس، محسوب أوفيليا، وكانت ما تزال على الأرض، لم تعلّق بعد، أمامه: تعذيب غانيلون. «يا لك من وغد! الويل لك يا بن القحبة!» ردّد المستشار الأوّل، وهو يدوس اللوحة بكعب حذائه، فكأنّ شيئاً من روح الجنرال والتر هوفمان المرتدّة القبيحة النتنة تختبئ في صورة أشهر الخائنين في ملاحم العصور الوسطى[190].

(190) في نشيد رولاند، وهو أقدم نص أدبي مكتوب بالفرنسيّة، يمثّل Ganelón شخصيّة الخائن.

ثمانية

يجب أن نسعى إلى تغيير رغباتنا بدلاً من محاولة تغيير نظام العالم[191].

ديكارت

وهكذا، ركب صباحاً القطارالمنطلق إلى «سان نازير»، من حيث خرجت باخرة متجهة إلى نيويورك، مليئة بالأميركان الذين فضّلوا العودة إلى ضفة المحيط الأخرى، بعد أن لاحظوا اقتراب الألمان من «السين» وشعروا بأنّ الحرب باتت وشيكة، بكلّ ما ستحمله من أزمات ومن تقنين في الاستهلاك. بعد الرحلة العبور، أمضى عدة أيام من الانتظار القسري، كما في المرّة السابقة، في فندق «والدورف أستوريا». فكّر في حضور عرض لمسرحيّة سيّدة مرتاحة البال لأومبيرتو جوردانو[192]، بأداء جيرالدين فارّار، التي أعلن المتروبوليتان أوبرا هاوس عن افتتاحها العالمي (كانت

---

(191) «مبادئ الفلسفة» Les Principes de la philosophie، ترجمة: د. عثمان أمين، ص22. يشير هذا الفصل إلى التغيّر الذي طرأ على ميول المستشار من الجرمانية إلى الأميركية اللاتينية. ومن هنا استشهاده بهذا القول لديكارت [CDC, 222].

(192) Umberto Gioradano (1867–1948): موسيقي إيطالي. والمسرحية المذكورة هي Madame Sans-Gêne.

ابنته ترى فيه جاهلاً بالموسيقا، لأنّ النعاس كان يغلبه، في كلّ مرّة، وينام في مقصورته، ضائعاً بين دسائس «ذهب الراين» الأرضيّة، أو ضجراً من مشكلات الأقزام والعمالقة وحوريات البحر، مع ذلك، فقد كان الرئيس مفتوناً بتنويعات ماريّا بارّينتوس وقوّة صوت تيتا روفو[193] ونقاء النغمات الطويلة الثابتة عند كاروزو، ذلك الساحر في هيئة صاحب حانة نابوليتانو).

وبعد أن تخلّصت أوفيليا من حمل بطنها في مكان ما في سويسرا، سافرت إلى لندن، هاربة من مضايقات حرب بدأت آثارها بالظهور، حسب ما قالت، في غياب عروض الباليه الروسيّة وأوركسترات التانغو وحفلات الأزياء. أمّا في إنكلترا، حيث كان التجنيد طوعياً، فكانت الحياة ما زالت طبيعيّة: قرّرت، إذاً، الذهاب إلى (ستراتفورد أون-آڤون)، بقصد إكمال ثقافتها الشكسبيريّة. «ليتها تعثر على "فورتينبراس" آخر أو "روزنكرانتس" ثانٍ تحمل منه»[194]، فكّر أبوها، وهو عالم بأنّ ما من شيء مما يمكن أن يقع هناك، في الوطن، يهمّ ابنته، بعد أن قرّرت منذ وقت الاستقرار في أوروبا، بعيداً -قالت- عن «بلد القذارة والجيفة»، حيث ما من لهو غير الحفلات الليليّة التي تنظّمها البلدية والحفلات العائليّة التي لا تعرف من الرقص غير «البولاكا» و«الماثوركا» و«الريدوا». أمّا حفلات القصر فما هي إلا مناسبات تأتلف فيها نساء الوزراء والجنرالات، بعيداً عن أزواجهنّ، الذين انخرطوا في أحاديث تافهة عن الولادة والإجهاض والأولاد والأمراض وجرّ أرجل الخادمات وموت الجدّات، وراحوا يتبادلون وصفات تحضير الحلوى وصفار البيض المزدوج وقهوة الكابوتشينو وكعكعة الماثاپان

---

(193) María Barrientos (1884-1946): مغنّية أوبرا إسبانيّة.
Titta Ruffo (1877-1953): مغنّي أوبرا إيطالي.

(194) أوفيليا هي بطلة مسرحية «هاملت». أمّا «فورتينبراس» و«روزنكرانتس» فهما، في تلك المسرحيّة، صديقا هاملت اللذان تجسّسا عليه.

وخبز الغلوريا. تلك الليلة، ودّع المستشار والدكتور بيرلاتا بوا-شاربون المسيو موزارد بحفلة شرب كبيرة. ثمّ أمضيا وقتاً ممتعاً مع فتاتين التقياهما بالمصادفة وذهبا معهما إلى ماخور راقٍ في شارع «سان بوف»، له مدخل ذو ممرّ مزيّن بسيراميك من عمل والد ليون پول فارغ[195]، يؤدي إلى مصعد فلكلوري مقلقل، يعمل بالمكبس، ويشبه ركناً من غرفة طعام نورماندي وُضع عمودياً. عادا في وقت متأخر إلى شارع «تلسيت» حين وجدا الحقائب والصناديق التي جهّزها سلفستري مكدّسة في الممرّات والصالات. عرض الدكتور پيرلاتا الصور الإباحية في ستيريوسكوب مطوّر، كان قد اشتراه في اليوم السابق، تظهر الصور فيه مزدوجة وتوحي إيحاءً عجيباً بالقرب: «انظر.. انظر هذه الصورة! يبدو الرجل فيها وكأنّه حيّ.. وهاتان المرأتان لا ينقصهما شيء! ما رأيك بهذه التشكيلة من خمس نساء مصطفّات؟!». ولكن، وعلى الرغم من كثرة ما عبّا من شراب، ظلَّ المستشار الأوّل صافي الذهن حزيناً. إنّه يشعر بذلك التعب شديد الذي تسبّبه تلك التجربة التي يمرّ بها للمرّة الرابعة منذ أن بدأ الحكم. حان الآن وقت الاستقبال في ميناء «پويرتو آراغواتو». صعد القطار الذي انطلق بعرباته القديمة صوب العاصمة، مختر قاً غابات تختلط فيها أوراق الأشجار -لا يميّز منها بين ما ينتمي للجذوع وما أطاحت به ضربة فأس- الأوراق التي صارت سقوفاً لأكواخ القرى الحزينة التي خيّمت عليها ظلمة النباتات حتّى عادت للضحكة فيها غرابة صرخة حيوانيّة منفلتة. ثمّ يأتي الخطاب المعهود الذي يلقيه من شرفة القصر. بدلة الميدان، ربّما برائحة الكافور، وقد أعادت كيّها لامايورالا إلميرا، قهرمانته الحكيمة التي لا بديل لها، والمرأة اللطيفة، ساعة الرغبة، والممتعة المواسية؛ الرحلة إلى

---

(195) Léon-Paul Fargue (1876-1947): شاعر وكاتب فرنسي.

جبهة الحرب، هذه المرة إلى جنوب الخريطة - قبل أشهر، كان الشمال هو الوجهة؛ وفي مرات أخرى، كان الشرق، الغرب. أمّا الآن، فنحو أرض المستنقعات، أرض الأهوار البنفسجيّة والفقاعات الأبديّة وقرقرات الحيوانات والزواحف المختبئة تحت هدوء النيلوفرات الخادع. المسير عبر طرق مغمورة بالماء، الوجوه مطليّة بدهن مقزّز مثير للغثيان، لا يدفع عنك لسع مئات الأنواع من البعوض إلا ساعة. عالم من الزهور الخطميّة المتعرقة، القرنفل المزيّف -خراطيم لاصطياد الحشرات-، رغوة تصطاد، بحلزوناتها وبفطرها وبرائحتها التي تذكّر برائحة الخلّ، خضرة مزيتة فوق جذوع متعفّنة، طحيناً وبرادة خضراء، بيوت أرضة خربة، حشائش ماكرة تقرض جلد الأحذية. عليه مطاردة الجنرال هوفمان في تلك المسالك، محاصرته، تطويقه، عزله، ثمّ وضعه على جدار دير أو كنيسة أو مقبرة وقتله. «أطلِقوا النار!». ما من سبيل آخر. إنّها قواعد اللعبة. إنّه أسلوب المنهج.

ولكن، هذه المرّة، هناك ما يزعج المستشار الأوّل. مشكلة تتصل بالكلمات. الآن، وقد عاد إلى هناك، وقبل أن يرتدي من جديد بدلة الجنرال، التي كانت تبدو عليه مستعارة -تلك هي الحقيقة- لأنّه هو من ألقاها على نفسه، هكذا، بالأشرطة وسواها، ذات يوم من أيّام شبابه الصاخب، ثمّ احتفظ بها، إذ لا يهمّ في بلده أن يزيد جنرال أو ينقص جنرال؛ الآن، وقبل أن تطول قامته العسكريّة، وقبل أن يُحكم شدّ مهمازيه الرنّانين، اللذين يستعملهما في حملاته، عليه أن يتكلّم. أن يقول شيئاً. كلمات جديدة، لأنّ الكلمات الكلاسيكيّة، المطروقة، المسترسلة، التي طالما استعملها في مناسبات سابقة، شبيهة بهذه، باتت مستهلكة، قديمة، غير فعّالة، غير مناسبة، بعد أن كرّرها في ظروف مختلفة، بالحركات ذاتها وبالنبرات ذاتها. لقد انتقلت كلماته تلك، التي ناقضها بفعله، من الساحات

العامة إلى القاموس، من الخطابات الناريّة إلى قائمة الصور البلاغيّة، من الفصاحة الناجعة إلى مخزن الكراكيب، مفرغةً من المعنى، ناشفة، عقيمة، مهجورة. كلمات ظلّت لسنوات عماد خطاباته: حرية. إخلاص. استقلال. سيادة. كرامة وطنية. مبادئ مقدسة. حقوق مشروعة. وعي مجتمعي. ولاء لتقاليدنا. مهمّة تاريخيّة. مسؤولياتنا تجاه الوطن... أمّا الآن، فإنّ هذه المصطلحات (اعتاد أن يكون ناقداً صريحاً مع نفسه) صارت لها رنّة العملة المزيّفة، رصاص مطليّ بالذهب، قرش لا يدور، حتّى إنّه صار، وقد تعب من تكرار كلماته ودوران دولابه اللفظي، يسأل نفسه عمّا سيملأ به الفراغات الشفوية، الفراغات الكتابية، في خطبه وتحذيراته التي لا بدّ منها قبل أن يبدأ العمل العسكري -العقابي- الوشيك. وها هو ذا، بعد سنوات قبلت فيها غالبية المواطنين به رجلاً قوياً حازماً أدار دفّة البلد في أحلك الظروف وأشدّ أوقاته اضطراباً، يرى سمعته تتضاءل وسلطته تتناقص بعد كلّ مكيدة يدبّرها هو، وكلّ مؤامرة يحوك بنفسه خيوطها، ليظلّ في السلطة. إنّه يعلم أنّ الآخرين يكرهونه ولا يطيقونه، وإنّ علمه ذاك ينمّيه ويكبّره، من باب ردّة الفعل إزاء ما هو خارجي، ومن باب الرضا والمتعة التي يجدها في خضوع من يخدمونه وتعلّق من يعتمدون عليه وتملّق من يدورون في فلكه، وهم يقوّون مصالحهم وزمن انتعاشهم بأن يطيلوا، قدر ما استطاعوا، من عمر سلطة تخلّت عن كلّ ما يتصل بالمساواة والدستور. لكنّه لا يستطيع أن يتجاهل أنّ أعداءه يستخدمون حججاً مشروعة في ما يتصل بتنازلاته للأجانب، الذين تمقتهم القارة كلّها، بلا شك. صحيح أنهم يسمّوننا «لاتينيّون» وأنّهم حين يقولون «لاتينيّون» فهم يقصدون رعاعاً وهمجاً وخلاسيّين وزنوجاً. (بل لقد اخترعوا تعبيراً ملطّفاً هو «لاتين كولور» ليبرّروا قبولهم باستقبال شخصيات كبيرة ملوّنة البشرة في فنادق نيويورك وواشنطن). واستمر المستشار الأوّل يفكّر في خطابه الواجب

عليه أن يلقيه، لكنّ مخيّلته لم تسعفه. كلام. كلام. كلام. هو الكلام نفسه دائماً. فأين الحريّة والسجون ممتلئة بالسجناء السياسيين؟ وأين الكرامة الوطنيّة وأين المسؤوليّة تجاه الوطن؟ - هذه هي المصطلحات التي يستعملها العسكريون الانقلابيون. لا مهمة تاريخيّة ولا رفات أبطال؟ لا استقلاليّة ولا استقلال، وقد باتا الوجه الآخر للتبعيّة. ولا نزاهة، والناس يعلمون أنّه يمتلك أكبر شركات البلد. ولا حقوق مشروعة، فهو يتجاهلها حين تتعارض مع صلاحياته ومصالحه. المفردات تخونه. تضيق عليه فعلاً. وأمامه خصم يمثّل تهديداً حقيقياً، ثلث الجيش ثائر، وعليه أن يتكلّم، أن يقول شيئاً، ولاحظ الخطيب الغاضب أنّ صوته بُحّ، وأنّه بات بلا لغة - تعوزه الكلمات المفيدة الفعّالة المشجعة، بعد أن فرّط بها، أفقدها قيمتها، حدّتها، بدّدها في مناوشات بائسة لا تليق بقيمتها ولا معناها. وعلى رأي فلّاحنا: «ضيّع باروده في زرزور». «أنا أشيخ»، فكّر. مع ذلك، فعليه أن يخترع شيئاً. أيّ شيء. أفرغ في جرعات صغيرة، متتابعة، إحدى القارورات الملفوفة بالجلد، وبانتظار ما تأخر في الخروج من داخله، تناول إحدى صحف الصباح -لو فيغارو- كانت مطويّة على مكتبه. هناك، وفي عمود في الصفحة الأولى، ظهر مقال لصديقه الأكاديمي، عمود بارز ومؤطّر. في ذلك المقال، يؤكّد صديقنا، وهو يستخلص العبرة من معركة «مارن»، أنّ تلك المعجزة الحربيّة، لم تشكّل نصراً للسلاح قدر ما كانت انتصاراً للذكاء، وأنّها، بغضّ النظر عن كلّ اعتبار، ترمز إلى انتصار الروح اللاتينيّة على الروح الجرمانيّة. إنّه الصراع بين ورثة الحضارة المتوسطية العظيمة، أحفاد أفلاطون وفيرجيل ومونتين وراسين وثوّار معركة «فالمي» الأبرار[196] -النافعة في هذه الحالة، وإن أزعج ذكراها أهل

(196) جرت عام 1792 بعد أن حاول التحالف الأوروبي احتواء الثورة الفرنسيّة. انتهت بانتصار الفرنسيين.

«فوبورغ سان جيرمان»[197]- في مواجهة عبقريّة العنصر، القائمة على التوازن والتعقّل والقياس، وعدوانية التوتونيين المريضة[198]. ديك بلاد الغال مقابل التنينات وحدّادي الكهوف والأقزام. مُهر عذراء أورليان القديسة -توشك أن تبلغ التطويب-، النشيط الناعم الخفيف، مقابل حصان برونديلا الوحشي. الأولمبيو مقابل فالهالا[199]. أپوللو مقابل هاغن[200]. فرساي مقابل پوستدام[201]. حكمة پاسكال الجوهرية مقابل عملقة هيجل الفلسفية - التي عبّرت عنها لهجة هايدلبيرغ التي ترفض غريزياً ذهنيّتنا المدمنة على وضوح الخطاب وشفافيته. كان الانتصار في معركة مستنقعات «سان غون» انتصاراً لديكارت أكثر منه انتصاراً للمدفع 75. وانتهى الكاتب باستعراض واضح وحاسم لثقافة -يسمّيها كلتور- موسيقا فاغنر الألمانية، للذوق البرليني الرديء، لعلمويّة المتعالم هيكل[202]، لأفكار أقزام مغرورين، ظنّوا أنفسهم رجالاً خارقين، متنكرين بثياب زرادشت، يحملون سيوفاً في أحزمتهم وجماجم في قبّعاتهم، فأطلقوا العنان -تلامذة السحرة المستجدون- للكارثة الراهنة. كانت حرباً، بل أكثر من حرب، كانت حملة صليبية مقدسة ضدّ البربرية البروسية الجديدة. بعد انتهائه من قراءة المقال، بدأ المستشار يذرع الصالون طولاً وعرضاً.

---

(197) Foubourg St. Germain من أحياء باريس التاريخيّة والراقية.

(198) التوتونيون قبيلة جرمانية قديمة. يشمل المصطلح هنا الناطقين باللغات الجرمانية وخصوصاً الألمانيّة.

(199) في الأساطير الإسكندنافية، قاعة كبيرة يذهب إليها الشهداء ليكونوا في ضيافة كبير الآلهة أودين.

(200) يظهر اسم Hagen بوصفه محارباً من أبطال الملاحم الجرمانيّة.

(201) Postdam: مدينة ألمانية. وقد كانت مقر الإقامة السابق لملوك بروسيا حتى عام 1918.

(202) Ernest Haeckel (1834-1919): فيلسوف وعالم أحياء ألماني. رائد علم البيئة.

وفجأة أدرك أنّه مخطئ: فولعه بالجرمانية ولعَ الأجنبي الحاقد -تذكّرَ أنّ الإغريق لم يستعملوا صفة «أجنبي» بالمعنى التحقيري- لم ينفعه في شيء. ولن ينفعه في هذه اللحظات، الحرجة بالنسبة إلى مستقبله السياسي، جنود ڤون كلوك[203] ولا غوّاصات ڤون تيپتز[185]. القضيّة الفالكيريّة[204] باتت عنده قضية خاسرة - قضيّة «لا تُجدي». إنّه مجبرٌ على الاعتراف بأنّ الناس في أميركا اللاتينيّة يصطفّون إلى جانب فرنسا - أو بالأحرى، إلى جانب باريس. أمّا المولعون بالجرمانية هناك، ولنحصر الكلام عن وطننا، فهم اليسوعيون، أتباعُ أبرشيّة منتخبة، آباءُ اعتراف سيدات ثريّات، ممن لا تربطهم صداقة بالمريميين الفرنسيين المتواضعين الذين علّموهم وربّوهم، ولا هم على وفاق معهم؛ المولعون بالجرمانية هم الإسبانُ الأغنياءُ المقيمون في المكسيك، رجالُ الاستيراد والتصدير [بالإنكليزيّة] -هذا إن لم يكونوا زيّاتين وصرّافين- ذوو الحسابات الكبيرة في بنوك كاتالونيا وبلباو، الذين لا ينظر إليهم الكريول، تقليدياً، بارتياح؛ إنّهم مستوطنو ضاحية «أولميدو»، أحفادُ فلاحين بافاريين أو بوميرانيين، ممن لا اتصال لهم بالحياة العامة. ثمّ إنّ العذراوات جميعهنّ -انتبه إلى ذلك!- العذراوات جميعهنّ، عذراوات أرضنا، كلّهن لاتينيات. لأنّ أمّ الربّ كانت لاتينيّة، لاتينيّة مرّتين، بعد أن أخرجها اللوثريون القذرون -مثل هوڤمان وأتباعه- من معابدهم. إنّ الراعية الإلهيّة في قرطبة الجديدة، وعذراوات «تشيكنكيرا»، و«كوروموتوس»، و«غوادالوپه»، و«المحبّة النحاسيّة»، وجميع اللواتي يعلّمن في فيلق الشفيعات المقدّس، حاضرات في كلّ مكان. حضور من توّجت، وحيدة ومؤبّدة، على يد لويس الثالث عشر في رحاب نوتردام، في بادرة تكريس مملكته على العبادة

(203) Von Kluck (1846–1934): أحد القادة الألمان في الحرب العالمية الأولى.

(204) يقصد بها الجرمانيّة.

المريميّة[205]. فالواجب، إذاً، وضع السيدات العذراوات في صفّنا -معي في المعركة، مع تمثال مرفوع على راية الصليب- لأنّ على الأمير أن يستمدّ العون، أمام الأعداء، من كلّ ما يدعم قضيّته[206]. قائد الشعوب، دليل الرجال، يجب ألّا يكون عنيداً، بل ليّناً مَرناً، ولكي يحافظ على السلطة، فعليه أن يتخلّى، في لحظات معيّنة، عن رغباته الشخصيّة. وهكذا بدت له واضحة القاعدة الإيديولوجية-التكتيكيّة للمعركة الوشيكة مع هوڤمان الخائن. يكفيه أن يتأمّل لقبه: هوڤمان. ويكفيه أن يتذكّر تكوينه الألماني؛ حرصه على التباهي بعنصره الآري النقي، وإن كانت جدته سوداء، مرميّة في الباحة الخلفيّة من بيته الواسع ذي الطراز الكولونيالي. وفجأة كان على آنت جميما -كما كان يناديها هناك الحمقى- أن تنهض رمزاً للروح اللاتينيّة. (دبَّ النشاط في الرئيس، بعد أن استبدّ به الملل والتعب، رفع رأسه، ضرب على المنضدة بقبضة يده، وتذكّر سلوك عضو المجلس الروماني) الروح اللاتينية في النهاية لا تعني «نقاء الدم» ولا «نظافة الدم» - كما اعتادت محاكم التفتيش القديمة أن تقول. كلّ أجناس العالم القديم انصهرت في حوض البحر المتوسط، البحر المتوسط العجيب، أبو حضارتنا. ما أعظم ذاك السرير، ذاك السرير الذي جمع رومانياً مع مصريّة. وطروادياً مع قرطاجية، وآلف بين هيلينيّة مشهورة وناس باهتين. وكم من ثديٍ كان للذئبة مرضعة رومولوس و روموس[207] -ومعلوم أنّ إيطاليا ستهاجم ذات يوم القوى المركزيّة- لكي يتعلّق التشولو

---

(205) يشير إلى المذبح المكرّس للعذراء، الذي أمر لويس الثالث عشر ببنائه في كنيسة نوتردام عام 1637 إيفاء بنذره بعد أن وُلد له صبيّ بعد سنين طويلة من الزواج.

(206) إشارة إلى كتاب «الأمير» لميكافيللي.

(207) تروي الأسطورة أنّ ذئبة أرضعت مؤسِّسا روما، رومولوس وأخاه التوءم روموس، بعد أن تخلّت عنهما أمّهما. دام ملك رومولوس أربعين سنة.

أو زامبا بها. القول بـ«الروح اللاتينيّة» هو كالقول بـ«التهجين»، وكلّنا كنّا مهجّنين في أميركا اللاتينيّة؛ كلّنا لدينا شيء من الزنوج أو من الهنود، من الفينيقيين أو من الموريين؛ من أهل قادش أو من السلت الإيبيريين - بشيء من لوشن «والكر»، مُنعّم الشعر، المخبّأ في صناديق العائلة. مهجّنين كنّا وبشرف! بدأت الأفكار والكلمات تنهال على المستشار من داخله، حتّى تجمّعت في جعبته مفردات جديدة. مفردات ناريّة. رنّانة. لطيفة على السمع. كلمات ستلقى، بلا شكّ، صدى جيداً هناك، سيكون لها وقعٌ جيد على أصحاب المواقف المذبذبة الكثيرين.. المتردّدين.. الأعداء المحتملين، الذين صاروا، بعد أن ارتبطوا، قليلاً أو كثيراً، بطبقة مثقفة موالية للحلفاء، محلّلين استراتيجيين ممّن يحرّكون أعلاماً ثلاثيّة الألوان على الخرائط الموضوعة على طاولات المقهى، ويضعونها، تنفيذاً لرغباتهم الخاصة، خلف الخطوط التي لم تحلم حتّى رئاسة أركان الجيش بالتوقف عندها. كان في الناس حماس، وكان من الذكاء أن يستثمر ذلك الحماس لصالحه. لقد قضي الأمر، واتخذ المستشار قراره: هو أيضاً، فارس جديد من فرسان الهيكل، انضمّ إلى حرب الروح اللاتينيّة الصليبيّة المقدّسة. إنّ نصراً يحققه هوڤمان وأعوانه سيعني جرمنة ثقافتنا. ثمّ إنّ من السهل أن نجعل منه أضحوكة أمام الرأي العام. فالمتمرّد، بالنظر إلى شخصيّته وقراءاته؛ إلى اللوحات التي يعلّقها في مكتبه، والتي تصوّر فيديريكو الثاني وبسمارك ومولتكه؛ وبالنظر إلى تكتّمه على موضوع العجوز الفقيرة -التجسيد الحقيقي لشعبنا، لحم أفضل لحمنا- التي تركها، جدّة بلا وزن، هناك، تحت أشجار التمر هندي، قريباً من الزريبة، حيث يتغذّى خنزير ليلة الميلاد، يمثّل مرآة حيّة للبربريّة البروسيّة التي لن يتوقف حقدها عند حدود أوروبا، بل سيعمّ تهديدها بلاد المستقبل هذه أيضاً، لأنّ الألمان يرون أنّ القدر اختارهم ليحكموا الأرض، مستندين إلى

مبدأ العنصر المتفوّق الذي صرّحوا به مؤخراً وبوضوح في «إعلان مثقفين»، متغطرسين وكارهين لكلّ ما هو أجنبي، ظهر في صحافتنا. فالواجب يقتضي، إذاً، القذف بتاج سانتا روسا دي ليما على شعار الفالكيريات[208]. والكواوهتيموك على ألاريك[209]. والصليب المُخلّص على رمح ووتان[210]. وسيف محرّري القارة، كلّ محرّري القارة، على وندال القرن العشرين التقنيين. «تعال، بيرلاتا!» وراح يُملي، على مدى ساعتين، مقالاتٍ موجّهة إلى صحف بلاده، منتقياً الصفات الجارحة والصورة البرّاقة، وإن لم يزوّق كثيراً أسلوبه هذه المرّة. في تلك المقالات رسم الخطوط الإيديولوجيّة العريضة للحملة الوشيكة. «هيّا، عجّل بهذا إلى الويسترن أونيون!». ثمّ راح يتأمّل الصالة والأثاث الصديق واللوحات والتماثيل التي تحيط به بألم كسول - ربّما أصابه الإرهاق من طول ما أملى. بعد ساعات سيترك هذا الهدوء، هدوء الحضن الأمومي، هذه الراحة بين الحرير والأطلس والمخمل، ليغمس قوائم حصانه، ولأيام، أو أسابيع، أو ربّما أشهر، في أوحال تلك الأراضي الحارة الجنوبيّة -نباتات متسلقة، أيكات ساحليّة في مياة ضحلة، ظلال خبيثة، فروع تصل إلى الوجه- بعيداً عن كلّ ما يجعله سعيداً بحق. كان يفكّر في الحياة هناك، وأحسّ بالملل الذي تعنيه العودة إلى أيّ نقطة بداية لمن سار كثيراً إلى الأمام. لن يلبث تشرين الثاني -تشريننا نحن- أن يبدأ بعيد الأموات، وستتحوّل المقابر إلى احتفالات ومهرجانات، وسيتنقّل بائعو القناديل من قبر إلى قبر، وستصدح موسيقا

(208) Santa Rosa de Lima (1586–1617): متديّنة من بيرو عُرفت بعطفها على الفقراء والمرضى. عُدّت قديسة عام 1671. أمّا الفالكيريات Walkiria فهنّ ربّات شماليات مكلّفات بقتلى حروبهم.

(209) Cuauhtemoc من ملوك المكسيك إبّان الغزو الاسباني. Alarico (370–410): من ملوك القوط الغربيين. اشتهر بنهبه روما.

(210) Wotan من أسماء أودين، كبير آلهة الميثولوجيا النورديّة.

الأرغن اليدوي في كلّ الجهات والغيتارات فوق ضريح المرحوم، خشخيشات وكلارينيتات غيتارات بالقرب من مصلّى المسجّى، مع فتيات تشولات زالت نضارتهنّ بين باقات ذابلة على دفين جديد. أموات من سكّر كريستالي، أموات من مقرمش وردي، أموات -جماجم- من كاراميل، من مثابان، من عجينة السمسم، بين مجارف الحفّارين وحبال الدفّانين، بين توابيت وصناديق وبرونز جميل المظهر وصور أجداد وجدّات وعسكريين وأطفال حسني الهندام، من خلف زجاج بيضويّ، مضبّب بالندى وقطرات المطر. وترى أيضاً باعة الهياكل العظميّة الراقصة، وعلى رؤوسها التاج أو القلنسوة أو القبعة، يحملون رقصة القبور المجوّفة إلى الصلبان على صيحة: «هيكلٌ لطفلك»، وكان حُمل، ذلك اليوم، ليفرح ويشرب ويأكل الكعك. والحوارات التي يبدؤونها، والنكات التي يتبادلونها، والمجادلات التي تنشب بينهم، بين صليب وصليب، بين ملاك وملاك، بين شاهد وشاهد. «آاه ياصديقي! ما أسعدك بميّتك الصغير!». «آااه يا صديقي! وكم كان فقيدكم صعلوكاً وكم كان سافلاً!». «هذا اسمه، صديقي! لكنّ فقيدكم لم يكن هو الآخر قديساً!». «لذلك، يا صديقي، لأنّه طلع على جدته!». «الله أعلم، صديقي، من طلع على من!». بالعودة إلى هذا، كان المستشار الأوّل يرى في نفسه كمن كان محبوساً في حلقة سحرية رسمها سيف أمير الظلام[211]. التاريخ، وهو تاريخه لأنّه يؤدي فيه دوراً، كان تاريخاً يتكرر، تاريخاً يأكل ذيله، تاريخاً يبتلع نفسه، تاريخاً يصاب بالشلل في كلّ مرّة -لا يهمّ أن تحمل أوراق التقاويم رقم 185(؟)، 189(؟)، 190(؟)، 190(6؟)...-: إنّه استعراض البدلات والسموكنات ذاتُه، استعراض القبعات على الطريقة الإنكليزيّة، بالتناوب مع خوذات الريش على الطريقة البوليفيّة، كما يحدث في المسارح الصغيرة، حيث

(211) المقصود به الشيطان.

تقدم مواكب من ثلاثين رجلاً يمرّون ويعاودون المرور من أمام الستارة نفسها، يركضون، حين يكونون خلفها، ليعاودوا الدخول في الوقت المناسب إلى الخشبة وهو يصرخون، للمرة الخامسة: «النصر! النصر! النصر! يحيا النظام! تحيا الحرية!». السكين الكلاسيكية التي يغيّرون مقبضها حين يستهلك ويبدّلون شفرتها حين تستهلك، وتظلّ السكين هي نفسها مع مرور الوقت -ثابتة- وإن غيّروا مقبضها وشفرتها مرّات ومرّات حتى ما عاد في الإمكان حساب التغييرات التي طرأت عليها. وقت متوقف في انقلاب ومنع تجوّل وتعليق العمل بالدستور وإعادة المياه إلى مجاريها، وكلمات، كلمات، كلمات، أن تكون أو لا تكون، تصعد أو لا تصعد، تتماسك أو لا تتماسك، تسقط أولا تسقط، هي، في كلّ مرّة، مثل عودة الساعة إلى وضع أمس حين تؤشّر أمس ساعات اليوم. ينظر إلى الحرير وإلى الأطلس وإلى القطيفة، إلى المجالد الواقع على الأرض، إلى الحورية النائمة، إلى ذئب غوبيو[16]، سانتا راديغوندا. كان يريد البقاء، الخروج من الحلقة السحريّة، لكنّه لا يستطيع، لأنّه محبوس في الحلقة. جذور الغريزة، جذور ما ندركه وما نعرفه حين نفتح عيوننا على العالم، تجرجر إرادته. يعرف أنّ الكثيرين هناك يمقتونه؛ يعرف أنّ الكثيرين، الكثيرين جداً، جداً، يحلمون بأن يتجرأ أحد مّا، يوماً مّا، على اغتياله (لو كان يكفي لاغتياله الضغط على زر حكاية المندرين الأسطوري، لضغطَ عليه آلاف الرجال والنساء)[212]. لكنّه لذلك سيعود. ليثبت أنّه، وإن وقف على أعتاب شيخوخته، وإن ضعفت بنيته وبدنه، فهو ما زال صلباً قويّاً، ممتلئاً بالرجولة. بالفحولة. فحل. فحل ونصف. سينغّص على أعدائه. سيظلّ شوكةً في جنبهم ما دام قادراً على ذلك. إنّه لا يريد أن تكون نهايته كنهاية الطاغية روساس، الذي مات ميتة غامضة في «سوائلنغ»، منسيّاً - بل لقد نسيته ابنته

(212) يشير إلى تعويذة صينية فعّالة توصف لمن أراد أن يكسب محبّة الآخرين ويقوّيها.

مانويليتا[213]. ولا يريد أن يكون مثل پورفيريو دياث[3]، زعيم المكسيك، الذي مات في الحياة، والذي كان يطوف بجثّته، ببدلته وقفّازيه وقبعته المهيبة، في جادات «البوا»، بين مشمّع أسود، كثياب الحداد تقريباً، في عربة تجرّها خيول، تفصح طريقة سيرها عن خطوات موزونة بطيئة لمواكب جنائزيّة قادمة. وتذكّر الأسبوع المقدس ذاك، الذي نظّم أثناءه أهل بلدته تمثيليّة جماعية، حاشدة، مبنيّة على سرّ الألم العظيم الذي يُحتفظ بنص مخطوطته التي تعود إلى القرن الثامن عشر في أرشيف الأبرشيّة الكبيرة. طوال شهور وشهور احتفظت النساء واحتفظ الأطفال بأغلفة الشوكولا والكراميل الفضيّة ليغلّفوا بها خوذات الضباط الرومان ودروعهم، وجمعوا أعراف أحصنة وبغال وحمير ليصنعوا منها ريشاً للخوذات. صنعوا من ستارة من المخمل البنفسجي عباءة للمخلّص؛ أمّا حزامه فجعلوه من حبل منقوع في مغلي أزهار سنط العنبر؛ تاج الشوك، فرع من شجيرة تدعى «قرصة أفعى»، تنمو في جبل قريب. جرت المحاكمة في باحة البلديّة، ووافق المستشار الأوّل، وكان حينذاك محافظاً، أن يؤدي، وهو جالس على أريكة حمراء في صالة الاجتماعات، دور بيلاطس[138]. سلّم ابن الربّ إلى الفريسيين وغسل يديه في إناء ياباني، استعاره معمل فخار الإخوة سواريث. وبدأ الصعود نحو درب الصليب، بين نحيب الجمهور وأنينهم. تقدّمت فتاة شابة متسوّلة، بسيطة الروح، كانت تظنّ أنّها تشهد القصّة الحقيقية التي شاهدتها عشرين مرّة على مذبح الكنائس في القرى والضِّياع، اقتربت من الإسكافي ميغيل، الذي كان يمثّل دور ابن الربّ، محاولة أن تنقل إلى كتفها لوحة الخشب الثقيلة التي كان الآخر،

(213) Juan Manuel de Rosas (1793–1877): عسكري أرجنتيني. بلغ من هيمنته على الشأن السياسي والعسكري طوال عشرين عاماً أن سميت فترة حكمه بحقبة روساس.

متعرّقاً ومنازعاً تقريباً، يحملها متعثّراً، متذبذباً بين سقوط ونهوض، وهو يطلق أنيناً يمزّق نياط القلب، في مشهد استشهاد مؤثّر، متجهاً صوب التلة التي سيؤدي فيها مشهد الصلب. رفع يسوع يده اليسرى وهو يرفض تدخل الفتاة التي ستفسد عليه الدور الرائع، وقال لها: «إن نزعتِ عنّي الصليب فماذا سيتبقّى منّي؟! من سأكون؟!» وواصل طريقه صعوداً في شارع الآلام بينما الحشد ينشد لحناً قديماً، لا أحد يدري من أين جاؤوا به، بنغمات بطيئة من الغناء البسيط:

وإن كان عليّ أن أموت غداً
فليقتلوني قتلة واحدة!

ها هو ذا بيرلاتا، وقد عاد من مكاتب «ويسترن أونيون»، يسألني، وهو يرى أنّي ما زلتُ صاحياً، ربّما مطرقاً: «لماذا لا تدع ذلك كلّه وترسل به إلى الجحيم وتظلّ هنا مستمتعاً بما لديك؟ فالمال وفير لديك. كم من الشراب لدينا! وكم من النساء!». «فإن نزعوا عنّي ذلك، فماذا سأكون؟! ماذا سيتبقّى لي؟!»، قلتُ، نعم، أتذكر أنّي قلتُ، وأنا أفكّر في الناس الذين ألقوا بي من هنا، بعد ما جرى في قرطبة الجديدة، وكانت النتيجة أن تضاءل شخصي وتضاءل حضوري في الكارثة التي نحياها هنا. ولكي أحقّق صورتي، فقد ناديت بنفسي المحارب الصليبي في سبيل الروح اللاتينيّة. وإذا أرادت شفيعة ابتهالاتي المقدسة أن تهبني النصر في الأسابيع القادمة، فسأنذر، نعم، سأنذر، بعد الانتصار، أن أحني رأسي وأحجّ إلى معبدها، معبد الراعية الإلهيّة، مختلطاً بالناس، بعامة الشعب (وإن احتطتُ وأحطتُ نفسي بناس من عامة الشعب يرتدون ملابس «عامة الشعب») في بادرة شكر وعلامة فرح على النعم التي نلتها والمغفرة التي محت الذنوب الكثيرة التي ارتكبتها. سأحجّ إليها مع من يجرجرون سيقاناً مقروحة، مع

من يئنّون ليلاً من عيونهم البيض التي ابتُليت بالعمى، مع أصحاب الأنوف المقروضة والذراعين المبتورة، المتقاطعة، المتصلة في علامة صلاة مستحيلة؛ مع النساء اللائي جفّت أرحامهنّ وانسدّت وباتت صدورهنّ من رمال؛ مع من لا يعرفون، وقد صاروا أكثر من مراهقين، غير بكاء الطفل عند الولادة والخطوة المائلة والذراع المتخشبة واليد الملتوية؛ مع أصحاب الكلمة الميتة دائماً في الحناجر، الخفيّة المقنّعة؛ مع المتقيّحين والكسيحين، سأقطع أرضيّة البلاط العريضة، على ركبتيّ، رافضاً السجادة الحمراء التي وضعها رعاة الكنيسة، سأزحف فوق الحجارة حتّى قدمي والدة الربّ، لأعبّر لها عن شكري بفيض من طقوس العبادة، لا أذكر ما إن كنتُ تعلّمتها من رينان أم من الإخوان المريميين: وردة ناسكة، برج عاجي، بيت ذهبي، نجمة صباحيّة، صلاة نجمة البحر. نظرتُ إلى الساعة. عليّ الآن أن أرتاح قليلاً، فغداً سأخرج مبكراً. أضع الطرطور الإنكليزي ذا الرفرفين على سبيل المزاح، بعد أن أرتدي ملابس النوم، وأضع فوقه الشال المربع الذي اشتريته للرحلة. «صرتُ مثل شارلوك هولمز»، قلت، حين تطلّعتُ إلى نفسي في المرآة المركّبة على تماثيل مذهّبة تصوّر أبا الهول. «تنقصك عدسته المكبّرة»، قال بيرلاتا، وهو يدسّ في جيبي قارورة عرق ملفوفة بجلد الخنزير.

مكتبة سُر مَن قرأ

وها هو ذا الجرس. العاشرة والربع. هذا غير ممكن. التاسعة والربع. أقرب. الثامنة والربع. قد تكون هذه الساعة تحفة من تحف صناعة الساعات السويسريّة، لكنّ عقاربها هي من الدقة أنّها تكاد لا ترى. السابعة والربع. النظّارات. السادسة والربع. نعم. يبدأ النهار يتلون بالضحى من فوق صفرة الستائر. لا تعثر قدمي على الخفّ الآخر الذي طالما ضاع بين ألوان السجادة الفارسيّة. يظهر سلفستري، بصدريّته المخططة، وهو يحمل

صينيّة الفضّة-فضّة مناجمي-: «القهوة سيدي. ثقيلة كما تحبها. هل نمت سيدي جيداً؟!». «كان منامي سيّئاً. سيّئاً جداً -أجبتُه-: الهموم كثيرة، عزيزي سلفستري». «الهزائم | تحزن عظماء هذا العالم» [بالفرنسيّة]، تنهّد الآخر وأنشد ذلك البيت الشعري الذي يكتسب، بتقطيعه الكلاسيكي، نبرة الكوميديا الفرنسيّة في هذا البيت حيث يبدأ، في ساعة مبكرة، وفي جوّ احتفالي، وبغضّ النظر عن مشهد ما سيؤول إليه مصيري، فصلٌ جديد من فصول تاريخي.

الفصل الرابع

... إنّنا «نبصر» الناس يمرّون في الشارع؛ والحقيقة أنّ كلّ ما نراه إنّما هي قبّعات ومعاطف من الممكن أن تكون موضوعة على آلات متحرّكة...[214].

ديكارت

(214) «التأملات في الفلسفة الأولى» Méditations Métaphysiques، ترجمة: عثمان أمين، ص90.

يستشهد المؤلّف بهذه المقولة لهذا الفصل للإشارة إلى التزوير والمظاهر [CDC,222].

تسعة

لم يكن ضرورياً إعدام والتر هوفمان. فنهاية الصراعات تقرّرها، في العادة، أحداث خارجة عن التوقّعات والمخططات. وهكذا وصل الجنرال الخائن إلى نهاية لا تخلو، إن نظرنا إليها جيداً، من تأثير فاغنريّ: احتضار فافنر[186] في غابة تفوق غابة «سيغفريد» أو حديقة «تيرغارتن» أو «أونتر دن ليندن»، اتساعاً وخطورة، فهي غابة شاسعة واسعة عائمة على الأرض. طاردنا المتمرّد في منطقة رمال متحرّكة اضطر إلى التراجع إليها، بعدما راح مناصروه يتخلّون عنه شيئاً فشيئاً مرهقين من الهزائم، حتّى ما عادوا يحفلون بخطابات ولا تحذيرات ولا إعلانات ولا شراب، بل لقد بدؤوا يقرّون -ويزدادون ضيقاً بإقرارهم بتلك الحقيقة- بأنّهم لعبوا ورقة خاسرة، وبأنّنا نحن من يمتلك الورقة الرابحة. لم ينفع الجنرال هوفمان، حين اكتشف بقايا هرم هندي في أعقد بقعة من الغابة، أن يصرخ برجاله: «أيّها الجنود.. من على هذا الهرم يتأمّلكم خمسون قرناً!» (أضاف عشرة قرون، لأسباب وطنية، إلى القرون الأربعين المذكورة في خطبة نابليون)[215]. «حتّى لو كانت خمسة وسبعين»، فكّر الجنود، الذين

---

(215) يشير إلى عبارة نابليون التي وجّهها إلى جنوده يحمّسهم قبيل دخول معركة أمبابة مع جيش المماليك عام 1798: «أربعون قرناً تتطلع إليكم من هذه الأهرام!».

أكّدت لهم «عجائزهم» -ممن يؤيّدن الانقلابيين- «أنّ تلك الحجارة، المكدّسة والمجوّفة، ما كانت تنفع إلا جحوراً لأكثر الحيّات فتكاً في العالم وللحريشات مئويّة الأرجل ولعناكب الرتيلاء والعناكب آكلة الطيور والعقارب التي هي هكذا طولاً» (نوفّر طريقة إشارتهنّ إلى طول العقارب). واختفى الأخوان فديريكو فجأة، هربا نحو الحدود الجنوبيّة، فبدأ الجنود بالفرار والاستسلام بالجملة، يهتفون متفرّقين: «خدعونا وصدّقناهم. كنّا مأمورين!»، حتّى قرّر الجنرال، ومعه عدد من خلصائه، أن يجتاز السهول الملعونة -المخرج الوحيد إلى البحر- التي اكتسبت المنطقة اسمها منها لأنّها موبوءة بالوعث ومسالك الرمل. هناك، ومع صعوبة المسير وتنامي خطورته، ومع تناقص عدد رجاله -كان معه اثنان من رجال المدفعية مع ملازم، وخمسة عشر جندياً وعريف، وبضعة وستّون مع ضابطهم-، وجد نفسه وحيداً، يتبعه عدد قليل من مناصريه -الله يعلم بماذا كانوا يفكّرون- عند حدود أرض جرداء صفراء يخترقها أخدود من النباتات المدّادة، حيث تنفتح برك صغيرة -هي بالأحرى حفرٌ كبيرة- من عجينة دبقة، رمليّة ربّما، تبدو وحلاً غافياً في طبقة رفيعة على أرض يابسة صلبة. وقع الجنرال هوفْمان في واحدة من تلك الحفر بعد أن لكز حصانه وسحب زمامه بعنف حين أراد أن يتجنّب غصناً شوكياً اعترض طريقه. وفجأة، راح الحصان يصهل بعد أن أحسّ بقوائمه تغطس في الطين الخدّاع، فكأنّ شهيقاً صادراً من تحته يجرّه، وكأنّ شافطاً يشفطه إلى باطن الأرض. راح يصهل يائساً، طالباً عون الرجال، حتى لحقه الإجهاد بسبب محاولاته العقيمة في التشبّث، ولم تستطع جهوده في تحريك القائمتين الأماميتين والقفز في تخليصه من الانحدار البطيء والحثيث. وغطّى الوحل ركبتي الجنرال، فحاول إخراج جزمتيه، اللتين صار لهما ثقل الرصاص، وراح يجرّ زمام الحصان ويعاود الجرّ من دون جدوى، حتّى صرخ، وهو يرى أن جهود

حصانه لا تفلح إلا في التعجيل في غرقه: «حبل.. سير.. نطاق.. أخرِجوني من هنا! بسرعة! حبل! سير! ليف السيزال!». لكنّ الرجال الذين أحاطوا بالبركة، صامتين، متجهمين، راحوا يتأملون غرق قائدهم، غرقه المتأخر، المتأخر جداً، بهدوء وترقب. «إلى جهنم، أيّها السافل!»، قال عريف كان هوڤمان قد صفعه قبل سنين عقاباً له على جواب غير لائق. «إلى جهنم، أيّها السافل!»، قال، بنبرة أعلى، رقيب كان هوڤمان قد رفض، ذات مرّة، ترقيته. «إلى جهنّم، أيّها السافل!» قال بصوت قوي، ملازم طالما طالب، من دون جدوى، بأن يُمنح نجمة فضيّة صعبة المنال. «لا، اللعنة، لا! لا تتركوني أموت هكذا!» - صرخ القائد وقد تشبّث بأذني حصانه، الذي كان ما يزال يبدي أسنانه من فوق الرمل المتحرّك، «إلى جهنم، أيّها السافل!» ردّت عليه الجوقة الإغريقيّة. وبلغت الرمال عنق الجنرال، ثمّ غاص فيها ذقنه، ثمّ امتلأ بها فمه، وهو ما يزال يطلق صرخات مبهمة، من حنجرة باتت مغمورة بالوحل - حشرجات في فقاعات، صراخ غير مسموع، رقصة الطير المذبوح.. وحين لم يبقَ فوق السطح غير القبعة، ألقى أحد المتفرّجين عليها صليباً صغيراً، سرعان ما ابتلعته الرمال، وسرعان ما عاد السطح إلى هدوئه الظاهر.

بعد أن تخلّص المستشار من منافسه، عاد إلى العاصمة، ليتلقّى، بين أقواس نصر وأعلام وأوراق زينة، لقبين أُضيفا إلى ألقابه: «رجل السلام» و«ابن الوطن البار»، أطلقتهما عليه غرفتا البرلمان، وقوى الصناعة والتجارة الحيّة، وصرّح بهما أسقف العاصمة من على منبره العالي، والمطارنة المساعدون من على منابرهم الأقلّ علوّاً، والصحافة من على صفحاتها، وهي تحلّل تفاصيل حملة عسكريّة قادتها يد مجرّبة محنّكة، مرفقة بخرائط رُسمت عليها سهام سود تؤشّر خطوط الدفاع والهجوم، وعمليات التوغّل والالتفاف وتدمير خطوط العدو، في معركة «كواترو كامينوس» الحاسمة

-التي انتهت، على الرغم من شراستها وصعوبتها، والارتجال الذي شاب بعض صفحاتها، بانتصار القوات الحكومية- استناداً إلى الرسومات الغرافيّة التي نشرتها لا لوستراسيون الباريسيّة، في شرح خطة معركة «مارن». أمّا الرئيس، فقد أكّد، في خطاب سامٍ في معانيه، رفيع في مستواه، وبتواضع، أنّه لا يستحقّ المديح الذي أغدقه عليه بنو وطنه، لأنّ الربّ نفسه، العظيم برحمته والشديد في غضبه، تكفّل بعقوبة الخائن. لو تأملنا نهاية هوفمان، لرأينا فيها امتحاناً لم يلطّخ فيه المنتصرُ، بإرادة عليا تتجاوز حدود فهمنا ومجال إدراكنا، يدَه بدم رفيق سلاحٍ قديم، أعماه طموحه المتهوّر: «هناك لم تسمع صرخة مملكتي مقابل حصان الشكسبيريّة[216]، لأنّ المذنب، وقد تعب ربّما من تأنيب الضمير ومن تعقّب سلاحنا له، دخل، مع حصانه الذي كان في أوقات أخرى يصول ويجول، في مملكة الظلال». لم يكن غرق عدوّ النظام في الرمال المتحرّكة هو ما يهمّ. المهم هو أنّه، بذلك الحدث، عزّز وعينا بالروح اللاتينيّة، في مواجهة الصراع الذي كان يرعب العالم، لأننا لاتينيون، لاتينيون حتى النخاع، لاتينيون ونفتخر، ولأننا حمَلة التراث العظيم الذي هو، مروراً بقوانين روما، أساس شريعتنا، أساس «فيرجل» و«دانتي» و«دون كيشوت» و«ميكائيل آنجلو» و«كوبرنيكس»، إلخ، إلخ. (فقرة طويلة تنتهي بتصفيق مدوٍّ وهتافات عاصفة، لا نهاية لها). صعدت آنت جميما، وقد وضعت، في تلك المناسبة، منديل الحداد بدلاً من دثار المدراس التقليدي ذي المربعات، إلى المنبر بصعوبة لتسلّم المستشار الأوّل رسالة اعتذار باسم عائلة هوفمان، ولتذكّره، همساً، بأنّ زوجة الجنرال، إذ تأسف لفعلة زوجها، تطلب منه أن يتكرّم عليها بصرف الراتب الذي تستحقّه أرملة عسكري

(216) My kingdom for a horse عبارة وردت في مسرحية «الملك ريتشارد الثالث» على لسان الملك وهو يطلب النجدة والنجاة من الموت على أرض المعركة.

خدم في الجيش لأكثر من عشرين سنة، استناداً إلى قانون الثامن عشر من حزيران من عام 1901. وذهب القائد المتعب، بعد حملته في أنحاء من البلاد وبيلة كثيرة الغابات، ليمضي أياماً من الراحة في بيته في «ماربيّا»، حيث الشاطئ الطويل الرائع، وإن غزت رمله الأسود أسراب قناديل البحر، الميتة بين بقع القطران والبترول بسبب قربه من الميناء. كانت أسماك القرش وشياطين البحر ممدّدة مصفوفة في شبكة رباعيّة شائكة موشّاة بأعشاب بحرية ممزقة. ومع أنّ بعض أسماك المواريه ظلّت في تجاويف نتوء صخري صغير، لم يصادف أن التهم عقّام البحر خصيتي أيّ رجل في المنتجع منذ سنوات طويلة. حين تهبّ رياح الشمال -يسمّونها «يليتو»- يعود لون البحر أزرق غامقاً، ويحمل أمواجاً هادئة ذات إيقاع منتظم، مهيب، فتحمل الزبد حتّى قدم أشجار جوز الهند والقشطة الشوكيّة. ولكنّ المياه تبدو، في بعض الصباحات -في الصيف-، ناعمة شفافة، من دون تلك الخلفيّة الصاخبة التي تميّزها؛ يلقي السبّاح بنفسه فيها، فلا يلبث أن يتلقّى إحساس من سقط في بحيرة من الجيلاتين. وسرعان ما يكتشف مندهشاً أنّه لا يسبح، بل ينزلق على عجينة من الرخويات الشفّافة، غير المنظورة تقريباً، الصغيرة بحجم قطع النقود وتكويرها، وكانت قد وصلت إلى هذا الطرف من الشاطئ ليلاً، بعد رحلة نزوح طويلة وغامضة. ولإضفاء جاذبيّة أكبر على المنتجع، فقد بنت البلدية، في نهاية رصيف الأسمنت، كازينو يقوم على ركائز، ليكون شبيهاً بكازينو «نيس»، هيكل معدني وسيراميك برتقالي وقبّة حديدية، اخضرّ لونها من أثر الأملاح. وأقاموا في ذلك الكازينو ألعاب الروليت والباكارا و«السكّة الحديديّة»، وحلَّ فيه «موزّعو ورق»، يرتدون بدلات السموكنغ ويتعاملون بقروش وسنتات -نقود مهجورة- وينطقون بعبارة «ضع رهانك» و«هذا يكفي»، التي تعلّموها، وإن خانهم اللفظ الفرنسي الصحيح، بدلاً من جارسونات

الكريول الذين اعتادوا عبارات «تقرّبوا ولا تخافوا» و«لا سنتَ أكثر». تطلّ ڤيلّا «هيرمنخيلدا»، مقر إقامة المستشار الأوّل، على الشاطئ من مكانها على قمة التلّة القريبة. إنّها بيت يتراوح طرازه بين بيوت البلقان وبيوت شارع «لا فيساندري»، له أعمدة على شكل تماثيل نساء موديل 1900، عليهنّ ثياب سارة برنار، يرفعن، بمتانة قبعاتهنّ المريشة -أحسن من أيّ رياضيّ قصر برلينيّ- شرفة عريضة مغلقة بدرابزينات نُظّمت على شكل أحصنة البحر. برج-مرقب-فنار يشرف على سطوح تعكس بريقاً سرمدياً مصدره خزف مجزّع. كانت غرفه الفسيحة الباردة عالية الركائز مفروشة بكراسيّ هزّازة صُنعت في قرطبة الجديدة، شبكات نوم معلّقة دائماً من حلقاتها، وعدد من الكراسي الحمر، مطليّة بالورنيش، هديّة من إمبراطورة الصين العجوز، ردّاً على الألعاب التي كان المستشار الأوّل، العارف بميولها واهتماماتها، قد أرسلها إليها من سنين: قطار يعمل بالبكرة، عدد من مناظير الأشكال والألوان، خذاريف تُصدر صفيراً عند الدوران، دببة «برن» في علبة موسيقا، بارجة حربيّة بحجم زنابق الماء في بركة قصر الشتاء. في غرفة الطعام نسخة من طوافة قنديل البحر[217] -طبعاً بحجم أصغر- مقابل لوحتين تصوّران مشهد ألستير البحري، وتغطّي عليها، بثقلها الدرامي، لوحة جيريكو[217]. يحيط بالمنزل حديقة واسعة، يعتني بها فلّاحون يابانيون، ينهض بين شجيرات البقس تمثال لڤينوس من مرمر أبيض، شوّهته طحالب خضر تنزل من بطنها. ثمّ يأتي، تحت الصنوبرات، مصلّى الراعية الإلهيّة، الذي أقامه على روح دونيا هيرمينيخيلدا - وقد صار تأمله يولّد في نفسه تأنيباً ولوماً، لأنّه يذكّره بالنذر الذي نذره في باريس، في لحظات شدّة وضيق، ولم يوفّه، بالصعود على ركبتيه إلى كنيستها

(217) Le Radeau de La Méduse لوحة من عمل الرسّام الفرنسي تيودور جيريكو Théodore Géricault (1791-1824).

والشمعة في يده. (لكنّه تذكّر أنّ العذراء، الذكيّة في السياسة كما في كلّ شيء؛ والتي أرسلت إليه، بانتصاره، إشارات صريحة على أنّها تكلؤه بحمايتها الإلهيّة، تدرك بلا شكّ أنّ الإيفاء بالوعد، في تلك اللحظات، وعلى مرأى من الجميع، هكذا، في عرض مهيب للحمية الكاثوليكيّة، سيجمع عليه -وهو الذي له أعداء كثيرون- حشداً غفيراً من الماسونيين وأتباع الصليب الزهري والروحانيين والثيوصوفيين والمناهضين لرجال الكنيسة وقرّاء لا تراكالا ولاسكيلا دي لا تورّاتشا، اللتين تصدران في برشلونة، فضلاً عن الملحدين وذوي التفكير الحر -فيلق المجدّفين من أكلة الرهبان[218]- وكلّهم يدعون إلى فرنسا لا يستطيع رجال الكنيسة فيها التعليم في المدارس، وحيث يخضع طلاب المدارس الدينية للخدمة العسكرية، وحيث يزهر وينمو، حسب قولهم، الدين الوحيد الممكن في قرن المعجزات هذا، القرن العشرين، قرن التقدّم: دين العلم). خلف البيت، غابة صغيرة من أشجار الرمّان، تظلّل الدرب الصغيرالذي يسلكه الدكتور پيرلاتا ليلاً حين يأتي بامرأة خفيّة إلى حجرة المستشار الأوّل. («لا تمتْ كما مات الرئيس فيليكس فور»، يقول السكرتير وهو يوصل الأمانة إلى يد سيده. «أتيلا وفيليكس فور هما الرجلان اللذان ماتا ألذّ ميتة»[219]، يرد دائماً أيضاً المستشارالأوّل). يصفر قطار الألمان الصغير باكراً. ويطلّ المستشار من الشرفة، وفنجان قهوته في يده، ليتأمّل مروره. كانت القاطرة الصغيرة، بأذرعها ومساميرها النحاسيّة البرّاقة، تبدو، في الصباحات الخضر، مثل صينيّة مطليّة لمّاعة، تصعد إلى الجبل سالكة

(218) يستخدم مصطلح comecuras للإشارة إلى حملة الفكر الاشتراكي.

(219) أتيلا الهوني (ق 5 م) آخر حكّام مملكة الهون في آسيا الوسطى. مات ليلة زفافه. أمّا الرئيس الفرنسي Félix Faure فقد مات أثناء لقائه بعشيقته مارغريت ستينهيل عام 1899.

طريقاً ضيّقاً، فتصدر صوت سكة حديدية معلّقة وهي تجرجر عرباتها الصغيرة الحمر المظللة صوب ضاحية «أولميدو» - تشبه، في كلّ شيء، لعبة القطار التي كان المستشار الأوّل قد أرسلها هدية إلى إمبراطورة الصين، لإغناء مجموعتها من اللعب الميكانيكيّة والأشخاص الآليين.
حين انطلق القطار الصغير من «بويرتو أراغواتو»، بدا وكأنّ كلّ شيء يتقزّم أمامه -المحطات الكثيرة، الجسور المشيّدة في مناطق السيول، تقاطعات السكك الحديدية، الحواجز، أقراص الإشارات-، وإن علا دويّه حين دخل في المحطة الصغيرة ليحمل عشرة ركّاب ورزماً قليلة وعدداً من البدلات القصيرة والبريد والجرائد وعجلاً يطلّ برأسه من نافذة العربة الوحيدة المخصصة للحيوانات. كان القطار الصغير يستريح، نهاية يوم عمله، في عالم فريد غريب، فكأنّه أُخرج من محل للعب في «نورمنبرغ»، مطليّاً لمّاعاً، في عالم بعيد عن العالم الذي تحته، عالم البيوت المبنيّة في الغابة السوداء، بين النخيل وأشجار القهوة، حيث البار الذي يحمل شعار الملك الوعل، وحيث النساء يرتدين على طريقة أهل «تيرول» النمساويّة، بينما يرتدي الرجال سراويل من الجلد، وحمّالات وقبعات عليها ريشة.
إنّهم مواطنون رائعون من مواطني الجمهورية، منذ أكثر من قرن، مع ذلك فهم بصعوبة يتكلّمون الإسبانية. لقد حرص الكثيرون من المهاجرين، منذ أن جاء بهم ملّاك أراضٍ ثريٌّ من أصول كريوليّة، مهووس بفكرة «تبييض العِرق»، يدعى الكونت دي أولميدو، على عدم الاختلاط بنساء هذه الأنحاء، وفيهنّ جميعاً ما يشي بأنّهن من الزامبا أو التشولو[45]، أو ممن ناهزن الأربعين أو بلغنها - هذه لأنّ شعرها مجعّد كثيراً؛ وتلك لأنّ عينيها أشدّ سواداً من المطلوب؛ وتلك لأنّ أنفها أفطس، ولأنّ بشرتها فاتحة.
وهكذا كبروا، من الآباء إلى الأبناء، جيلاً بعد جيل، يطلبون نساءً بالمراسلة، من «باڤاريا» أو من «بوميرانيا»، وينشدون «كورال لوثر»، ويعزفون

الأكورديون، ويزرعون الراوند، ويصنعون حساء البيرة ويرقصون اللاندلر التي كانوا يرقصونها في الأيام الخوالي، بينما تسبح، في سيول الجبال الجارفة، راعيات مكتنزات البدن، آريّات عظم العانة، يحملن ربّما أسماء كريوليّة مثل «بوغليندة» أو «بيلغوندة» أو «فلوسيلدة». وما أقلّ ما اهتمّ المستشار بوجود هؤلاء الناس المسالمين، الذين يحترمون القانون، والذين لم يتدخّلوا يوماً في السياسة، والذين صوّتوا دائماً في الانتخابات لصالح مرشّحي الحكومة ما دامت الدولة تحترم عاداتهم. أمّا الآن، فإنّ قراءته للصحف الفرنسيّة تجعله ينظر إلى هؤلاء السكّان بشيء من السخط. فإلى جانب الصور التقليديّة لمناظر الطبيعة التي تغطيها الثلوج أو لضفاف «الإلبا» أو لمسابقة «واتربورغ» أو للفتاة الأسطوريّة، صاحبة الخوذة المجنّحة، التي تحمل إلى السماء، وهي على الحصان الطائر، جسدَ شاب قويّ قضى في المعركة، هناك صورة أو اثنتان لوليام الثاني، الذي يظهر في الصحافة التي يطالعها في صورة المسيح الدجّال. الإمبراطور الذي توغّلت جيوشه وجحافله ومحاربوه المدرّبون وفق أحدث الأساليب، في بلجيكا المسالمة الوادعة، وفي فلاندر الفؤوس التي رسمها بيلاثكيث –جدّات رماحنا، رماح اللانوس– التي تجرف كلّ شيء[220]. لقد زحفوا بسرعة الفاتحين، بين أطلال كاتدرائيّات، وحجر مهيب متناثر، يدنّسون المقدّسات وينتهكون الحرمات، بعد حرق مكتبة «لوباينا»، على طريق رُصف بكتب قديمة ألقي بها في الشارع. واحد.. اثنان.. واحد.. اثنان.. [بالألمانيّة].

---

(220) يشير إلى المناخس التي كان الجنود الإسبان المرسلون إلى حروب الفلاندر البلجيكية في القرن السادس عشر والسابع عشر يحملونها مع ما يحملون من عدّة وعتاد، والتي تظهر في لوحات الرسّام الإسباني الشهير بيلاثكيث. أمّا اللانوسيّة فإشارة إلى السهول llanos الممتدة على ضفاف الأورينوكو، بين كولومبيا وفنزويلا.

وبخطو برابرة، يركلون مجلّدات لا نظير لها ومخطوطات لا تقدّر بثمن، رقاق جلد كنسية فاخرة وزخارف حروف رفيعة، وواصلوا مسيرهم، لا لمهاجمة الرجال، بل للانقضاض على حملة الكتب المقدّسة، العهدين المبجّلين، الحاضرين، منذ قرون، صفحات في كتب مفتوحة، فوق قوصرات الكاتدرائيات وأروقتها وإيواناتها. واحد.. اثنين.. واحد.. اثنين.. [بالألمانية]. ووجّهت المدافع الألمانية صوب «إشعيا» و«إرميا» و«حزقيال» و«عزرا»، وصوب «سليمان» و«شولميث» و«داوود» الذي خطط، مع «بثشبع» -موضوع الدراما التي كان قد اشترى مخطوطتها من الأكاديمي الصديق البارز-، لموت الجنرال العجوز الديّوث (من الشائع أن يكون الجنرال في الحرب ديوثاً، فكّر الرئيس، وخصوصاً إذا كان عجوزاً) قبل أن يتجسّد في صورة ربّ «أميان» الجميل أو في وجه أجمل الملائكة المبتسمين - الذي بات مصدّعاً، مرشوشاً، مضبّباً، بات بخاراً من حجر في أفول لا رجعة فيه. لكنّ ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة مع أخبار عمليات الاغتصاب المنفرة. تضمّ لاإلوستراسيون الباريسيّة إلى صفحاتها صفحات صغيرة رماديّة، يُمنع على الأطفال قراءتها، تحكي فيها كيف أنّ الجنود الألمان، بعد أن كانوا يسيطرون على أيّ ضيعة، يجرجرون فتيات بريئات، طالبات مدارس مراهقات، إلى مخزن دكّان لصنع الأحذية أو صيدليّة أو محل متعهّد لدفن الموتى، ليغتصبوهنّ -كنّ تسعاً، عشراً، إحدى عشرة، تقول الصحيفة الفرنسيّة؛ بينما يقول لويس دومور، الذي ألّف رواية عن تلك الفظائع، إنّهن كنّ خمس عشرة فتاة- بأسلوب ألماني خسيس، بينما ينظّم المسؤولون عن الفعلة الشنيعة الأدوار ويصدرون الأوامر للجنود: «دورك الآن.. وليستعدّ التالي!». لكنّ تدمير الكاتدرائيات وإتلاف كتب القدّيسين والصور وتحطيم الأيقونات وقطع رؤوس العرّافات والحرق والتفجير بالديناميت والذهول والجريمة لم تكن شيئاً

بالمقارنة مع مأساة الأطفال مقطوعي اليدين. نعم، فقد فاجأهم الجندي الألماني، وهو يتنقّل بين الأنقاض، يبحثون عن الأم الضائعة أو القتيلة، وعند سماعه عويلهم اقترب منهم، كمن يريد مساعدتهم، وهكذا، وبضربة سريعة من سيفه («هل كان جنود المشاة يحملون سيوفاً؟»، سأل پيرلاتا) قطع يدين طريتين فطارتا في الهواء: «لكي لا ترفع السلاح في وجهنا». في غلاف ملحق الصحيفة الباريسية تظهر صورة لواحد من ضحايا عملية البتر الفظيع تلك، وهو يرمي بالطرف المقطوع في خرائب «إيبريس» التي تذكّر بيوم القيامة[221]... كان المستشار الأوّل يملأ رأسه يومياً بتلك الأدبيّات ويؤشّر بالقلم الأحمر على ما يرى أنّ من المهم أن تشير إليه الصحافة الوطنيّة، لإثارة الشكّ والخجل في نفوس بعض الضبّاط ممّن يشكّ أنّهم جالسوا هوڤمان وسامروا «الفديريكيين الثواني»، والذين يعلم أنّهم مستاؤون -وإن لم يجاهروا باستيائهم- من قراره الأخير بإلغاء الخوذة المدببة من الزي العسكري للجيش الوطني. فإلى أولئك القرّاء، الذين يلزم تجريدهم من ميولهم الجرمانيّة، توجّه على نحو خاص المقالات التي تتحدّث عن نهب حصون شهيرة وسرقة ساعات -سرقة الساعات كانت قد بدأت عام 70-، وصهْر نواقيس أثريّة وتحويل كنائس إلى مراحيض وتدنيس قرابين وتنظيم مسابقات رماية لضباط ثملين على رسوم من عمل ميملنغ أو رامبرانت. نظر المستشار الأوّل نحو التلال التي غطاها الضباب في ضاحية «أولميدو» -صخرات سود بين أشجار التوت، شجرة تنّوب هنا، وأخرى هناك، رياح شمال خفيفة في الصباح- وهو يفكّر في أنّ أولئك السفلة الذين في الأعلى، وعلى الرغم من صيحات «يحيااااااا الوطن!» المنطلقة من حناجر فتياتهم الشقراوات الظفائر، المتنكرات بستر وطنية،

---

(221) مدينة بلجيكيّة حاصرها الألمان عام 1915 وقصفوها بالغازات السامة وعملوا في سكّانها قتلاً.

اللائي كنّ يستقبلنه بباقات البنفسج حين كان يزور أكبر بلداتهم، هم، في حقيقتهم، مع أولئك الذين يقطعون أيدي الأطفال، هناك في «أرتوا» أو في «شمبانيا»، التي تظهر لنا مناظرها المروّعة -مقروضة، مقطّعة الأوراق، مقطّعة الأشلاء من أثر القصف- في رسوم جورج سكوت ولوسيان سيمون[222]، مقدّمة على إطار من الكارتون، حيث تُظهر الألوان الطينيّة المختارة عظمَ الكارثة والدمار اللذين حلّا بالساحات والبلديات الساقطة، والبيوت التراثية الخاوية على عروشها، في اتهام توجّهه الأرضُ، شجرةُ السنديان الجليلة، وقد باتت من دون أوراق ولا فروع، في حضور بطولي لا يمثّله إلا جذعها الأجرد، الذي يبدو وسط الخرائب وكأنّه يتكلّم بألسنة قشرته المجروحة المتشققة المئة. تخلّص المستشار من قراءاته المؤلمة وراح يتأمّل، كلّ صباح، من نافذته، قطار الألمان الصغير وهو يبدأ صعوده نحو الجبل، يتوقف، بصفيره الغاضب، ليطرد معزاة اختارت أن تأكل حشائش طريّة نبتت وسط السكة. وصار يجلس، بعد فطوره الذي اعتاد عليه من تورتيّا الذرة، واللبن الرائب واللحم بصلصة تشيلي، قبالة البيانو الأوتوماتيكي الذي أهدته إيّاه الجالية الإسبانية في قرطبة الجديدة مؤخراً. خطر على باله، وهو يضغط على دواسة البيانو بقدمه ويحرّك أزراره ليخرج من اللفة الأسطوانية المثقّبة إيقاعات من أجل أليز\[22] وافتتاحية -ما كان يتجاوز الافتتاحية- ضوء\القمر، أنّ عمل تلك الآلة الموسيقية قريب الشبه بعمل الوقّاد الذي يقود الآن قطار الألمان الصغير نحو الغابات، حيث تسرح وتمرح سناجب مستوردة، تهدد، حسب ما قال صحفي يتصيّد الفضائح -معارض مستتر-، بنقل عدوى داء المتدثّرات الطيري إلى أغنام البلد - التي تمرّ أصلاً بأزمة منذ أن ثبت عملياً أنّ الأبقار عندنا، وهي

(222) Georges Scott (1873–1943): رسّام توضيحي فرنسي في مجلة لا لوستراسيون.
Lucien Simon (1861–1945): رسّام فرنسي.

ضعيفة القوائم ضيّقة الأرداف، لا تتحمّل ثقل فحول «شاروليز»، التي تستورد لتحسين النوع، حين تباغتها من خلفها. «آه، أيّ حرب هذه، سيدي الرئيس!»، يشكو الدكتور پيرلاتا كلّ صباح، بين وقت القهوة الثقيلة وأولى سجائر اليوم. «فظيعة، فظيعة -يردّ المستشار، وهو يفكّر في قطار الألمان الصغير-: وتبدو أنّها ستطول». ولكن، شاع في العاصمة، في هذه الأثناء، أنّ مخططي الشراب والشواء الاستراتيجيين أمضوا أمتع أوقاتهم لذلك العام حين علموا، عن طريق برقية، أنّ لو ماتان نشرت على مساحة ثمانية أعمدة عنواناً مثيراً: «القوزاق على خمس مراحل من برلين». «صار القوزاق هم المدافعون الجدد عن الروح اللاتينيّة، جنباً إلى جنب مع السيپاهيّة والسنغاليين، المنخرطين أصلاً في الحرب[223]»، قال پيرلاتا ممازحاً. «ليتهم يتأخّرون في الطريق!» دمدم الآخر، وهويفكّر في أنّ انتباه الكثيرين توجّه، بفضل حالة الترقّب والحماس التي أثارتها الحرب، نحو حوادث واسعة وبعيدة. ها هو ذا المستشار الأوّل يعرف الهدوء أخيراً، لائذاً بظلال المدافع الملتهبة.

(223) القوزاق هم فئة من محاربي الجيش الروسي القيصري. السيپاهية هم جنود سلاح الفرسان العثماني.

عشرة

... من المفيد أن نعرف شيئاً عن أخلاق الأمم المختلفة حتى لا نظنّ أنّ كلّ ما خالف عاداتنا هو سخرية ومخالف للعقل[224].

ديكارت

راح المستشار الأوّل يمدّد إقامته في «ماربيّا»، أسبوعاً بعد أسبوع، صرّف أثناءها شؤون حكومته من تعريشة عريقة محشورة في نهاية البستان بين متاهة من أشجار البرتقال. كان يتجوّل في الصباح الباكر على طول الشاطئ ممتطياً صهوة حصانه «هولوفرنيس»، الأصهب البرّاق، الجامح الوحشي مع الغرباء، المذعن المطيع مع سيّده، الذي اعتاد أن يحمل له، عصر كلّ يوم، جردلاً من بيرة إنكليزيّة -غينيس، وهي من الأفضل- فيتلقّاه الحصان بصهيله جذلان فرحاً. كان للرئيس أسبابه لكي يكون، في تلك الأشهر، رائق المزاج، فالبلد يمرّ بحالة من الازدهار والانفراج لم يسبق له أن مرَّ بها. فمع الحرب الأوروبية -وكانت نعمة من ربّ العالمين، وإن كان من غير المناسب قول ذلك-، بلغت أسعار السكّر والموز والقهوة

(224) «مقال عن المنهج» Discours de la méthode، ص114. أشارت [CDC, 223] إلى أنّ مناسبة ذكر هذه العبارة هي تبرير التغيير الذي طرأ على المدينة.

والمطّاط حدوداً لم تبلغها من قبل، فامتلأت المصارف ونمت الثروات وبدت مظاهر من بذخ وحياة ترف شبيهة بما يظهر في الروايات أو الأفلام التي تمثّل شخصيات أسطوريّة من شاكلة «غابرييل روبين» أو «پينا مينيكيللي» أو «فرانتشيسكا بيرتيني» أو «ليديا بوريللي». وباتت العاصمة، المحفوفة بالغابات المعمّرة، غابة من سقالات ترتفع وأخشاب تشير بإصبعها إلى السماء، رافعات وجرّافات، صريرٌ دائم من بكرات الرفع وضربٌ متواصل من المطارق على الحديد والفولاذ، كتلٌ من الأسمنت، مساميرُ، نقرٌ وطرقٌ، بين صيحات عمّال محلّقين وآخرين على الأرض، صافرات عمل وصفّارات تنبيه وإنذار، رمل يُرفع ومحرّكات تهدر. حوانيت توسّعت بين ليلة وضحاها، وواجهات صحا الناس ولم يكونوا رأوا مثلها من قبل، تماثيلُ عرض -شيء جديد آخر- لملابس التناول الأول، وبدلات عرائس، وملابس خياطة راقية، وبدلات من مشمّع إنكليزي، جيدة الخياطة، جيدة التفصيل، للعسكريين من ذوي الرتب العالية. مكائن لصنع الحلويّات وُضعت عند بوّابات الخان الملكي القديم، تثير دهشة المارّة بحركة أذرعها المعدنيّة المتناسقة التي تعجن كتلاً بيضاً مخدّدة بالأحمر وتمطّها وتدمجها، فتنبعث منها رائحة الڤانيللا والمارشميلو. وانتشرت مكاتب المحامين والمصارف وشركات التأمين والشركات وتجارة الاستثمار. أجهزة مسح وأشرطة قياس تحوّل الأرَض البور، التي غمرتها المياه ورتع فيها الماعز، إلى مساحات مقسّمة ومربعة. أرض أخرى، كانت تدعى، من أوقات بعيدة، بـ«أرض المجذوم» أو «مزرعة المكسيكيّة» أو «قطيع السيدة پيترا»، صارت تسمّى «باغاتيللي» أو «ويست-سايد» أو «آرمينونفيل»، جُزِّئت وبيعت، وهي على الخريطة، ولم يُشيّد عليها، بل راحت أسعارها تتصاعد، بعد أن بيعت وأعيد بيعها عدة مرات في اليوم، في مكاتب تزيّنها الشجيرات والمراوح المذهبة والخرائط

البارزة والتصاميم الرائعة وزجاجات الكونياك والجنّ، المصفوفة في الخزانة، وتتم فيها صفقات ومعاملات تجري بين شرب ودخان ومكالمات من نساء -شيء بالغ الجدّة- يعرضن خدماتهنّ بالتلفون، بلكنة أجنبيّة رقيقة واعدة، وهو ما ترفضه عاهراتنا المستترات، اللائي يرين أنّ «المصلحة» يجب أن تُدار بالطريقة الكلاسيكيّة، من دون تكلّف، من دون ضيق، من دون فنطازيّات نساء البلاد الأخرى. وغزا البيانو الأوتوماتيكي العاصمة، يعيد ألحان لاماديلون و روز أوف بيكاردي و الطريق طويل إلى تيبيراري[225] ويكرّرها، من الفجر حتى منتصف الليل. في محلّات البريسكا والدومينو، وفي البارات، حلَّ الوايت هورس محلّ الرون، وما عاد يجري على ألسنة الروّاد إلا الحديث عن المكاسب والأرباح التي أنستهم الحرب، وهي من ثمارها، على الرغم من أنّ الناس أجمعين -بيضاً وتشولو وزامبو وسوداً وهنوداً، «محمّصين»...- صاروا يميلون إلى الفرانكويّة وينزعون إلى العلم ذي الألوان الثلاثة ويرغبون في الانتقام، أصحاب قبعات الكوكاد، الجان داركيين، أنصار مذهب بارّيه[42]، يؤكّدون أنّنا سنأخذ سريعاً بالثأر لكارثة «سيدان»[226] وستعود لقالق «هانسي» إلى أجراس نواقيس «ألساثيا» و«لورينا». في هذه الأجواء شُيّدت ناطحة السحاب الأولى-خمسة طوابق مع السطح-، ثم بدأ في الحال تشييد البناء تيتان، الذي سيكون من ثمانية طوابق. وراحت المدينة القديمة، ببيوت الطابقين، تختفي، لأنّ البناء بات عموديّاً، فما عادت العيون تراها أو تتعرّف عليها. وما عاد المهندسون، المهووسون بتشييد عمارات أعلى من سابقاتها

(225) It's a long way to Tipperary و La Madelon, Rose of Picardy: جميعها من الأغاني والأناشيد التي شاعت وقت الحرب العالمية الأولى.

(226) Sedan: معركة حدثت في الأول من أيلول من عام 1870 انهزم فيها الجيش الفرنسي أمام البروسي ووقع قائده نابليون الثالث في الأسر.

وأطول، يفكّرون إلا في جمالية الواجهات، فكأنّ على الرائي أن يتأملها من مسافة مئة متر، بينما لا يتعدّى عرض الشارع ستّ أذرعٍ أو سبعاً، لأنّه خُطِّط أصلاً لمرور سيارة واحدة، طابور واحد، صفّ واحد من البغال، عربة واحدة. وهكذا صار على السابلة أن يسيروا في طابور طويل، وأن يتأملوا الزينة الضائعة في سماء تعجّ بالنسور والصقور الحوّامة. كان معروفاأنّ في الأعلى أكاليلَ وقرونَ خِصبٍ وصولجانات هرمس، وأنّ في الأعالي معبداً إغريقياً متسلّقاً على الطابق الخامس، مع أحصنة فيدياس[227]، أمّا لماذا كان ذلك معروفاً، فلأنّ تلك القصور، تلك الأبراج والقباب، تلك التحف المعماريّة، كانت تهيمن على المدينة -مدينة فوق مدينة- في مملكة محجوبة عن الأنظار. وفي الأعلى الأعلى، تنهض التماثيل، منفردةً، مجهولة، منفيّة، تمثال عطارد -في غرفة التجارة-، تمثال مينيرڤا، برمحها الذي يجذب شرر أغسطس، تمثال كوكبة تمسك بالأعنّة، جنّ مجنّحون، قدّيسون نصارى، يسيطرون، منعزلين بعضهم عن بعض، يجهلهم الناس، على مدرّج وعر لسطوح، أسقف أردوازيّة، خزّانات ماء، مداخن، مانعات صواعق، حجرات مصاعد. ناس يسكنون، من دون أن يعوا ذلك، في «نينوى» لا يتطرق إليها الشكّ، في «ويست منستر» تدوّخك، في قصور «تريانون» طائرة، مزيّنة برؤوس وحوش أو أشخاص من البرونز سيشيخون من دون أن يراهم ناس الأسفل، المنهمكين، المنهكين، بين رواقات وأقواس وأعمدة تحمل أوزان مبانٍ لا تدركها الأبصار. ولمّا كان الجميع متلهّفين لكلّ جديد، فقد ترك ساكنو البيوت الكولونيالية بيوتهم ليقيموا في بيوت جديدة، حديثة، لها طراز روماني، شامبور أو ستانفورد وايت[228]. أمّا

---

(227) رائد النحت اليوناني الكلاسيكي. عاش في القرن الخامس قبل الميلاد.

(228) Chambord: من أجمل القلاع في فرنسا. شُيِّدت في عصر النهضة وألحق بها قصر منيف. Stanford White (1853-1906): مهندس معماري أميركي.

قصور المدينة القديمة المنيفة الواسعة، بواجهاتها المعمارية وشعاراتها المحفورة في الحجر، فقد باتت مرتعاً للنفايات وهوام الأرض والجرب - وسكنها الأعمى الدعيّ الذي يتسوّل بصحبة لاثاريّو مستأجَر[229]، والسكّير المرتعش وقت الصباح، وعازف الأكورديون ذو الساق الخشبيّة، الكسيح المسكين الذين يستعطي الناس حبّاً بالربّ. وامتلأت الأجنحة الداخليّة بنسوة شعثاوات وأطفال عراة ومومسات وصعاليك، بين دخان المواقد والملابس المنشورة على الحبل، بينما جعلت الباحات مسارح لعروض التمثيل والملاكمة ومصارعة الديكة واستعراضات الساحر المتفق مع النشّال. مئات من سيارات الفورد -نفسها التي تظهر في أفلام ماك سينيت[230]- تدرج في شوارع رديئة الإكساء، تقفز بين الحفر وتتسلق الأرصفة وتطيح بسلال الفواكه وتحطّم واجهات المحلّات في حرص على السرعة لا تعرفه تلك النواحي. ضيق وعجلة وتسابق ولهاث في كلّ شيء. في أشهر قليلة من الحرب، انتقل الناس من قنديل الزيت إلى المصباح الكهربائي، من الطاسة المعمولة من قشر التوتوما إلى حوض الاستنجاء الخزفي، من شراب «الغاراپينيا» إلى الكوكا كولا، من اليانصيب إلى الروليت، من الروكامبول إلى پيرل وايت[231]، من حمار توزيع الطلبات إلى دراجة عامل البرقيات الهوائيّة، من العربة التي يجرّها البغل -بكُريّات الصوف والأجراس- إلى الرينو الفاخرة الطراز التي لا تتمكّن من الاستدارة في نواصي المدينة إلا بعد عشر مناورات أو اثنتي عشرة مناورة إلى الأمام

(229) إشارة إلى لاثاريّو، الطفل الصعلوك وبطل أوّل رواية صعلوكية في الأدب الإسباني: «اللاثاريّو دي تورميس». من بين مغامراته مرافقته أعمى متسوّلاً يذيقه الأمرّين.

(230) Mack Sennett (1880–1960): ممثّل ومخرج ومنتج كندي أميركي، عُرف بملك الكوميديا.

(231) Pearl White (1889–1938): ممثّلة أميركيّة.

وإلى الخلف، لتأخذ بعد ذلك طريقها في شارع ضيّق سُمّي تجاوزاً «بولفار»، ولتتسبّب في هروب جماعي للماعز الذي ما زال يجوب في بعض الأحياء، طلباً للعشب الذي ينبت بين بلاطات الرصيف. ومدّت الراهبات الأورسوليات «مغارة لورد» بالكهرباء، وبدأ حفل الافتتاح برقصة قدّمتها فرقة جاز أتوا بها من نيو أورليانز، وجاؤوا بأحصنة وفرسان من «تيخوانا» لتتسابق في مضمار مكسوّ شُيِّد فوق أرض مستنقعات. وصحت المدينة القديمة، التي تصفها محاضر التأسيس (1553) بـ«الوفيّة جداً والرفيعة جداً»، وقد باتت عاصمة القرن العشرين. هربت آخر الأفاعي -ذات الأجراس وأفعى الماپنار والمرجانيّة والمخمليّة...- من المناطق السكنيّة، وصمتت العصافير وفغرت الفونوغرافات أفواهها. ونُظّمت مسابقات «البريدج» وعروض الأزياء، وافتُتحت الحمّامات التركية وأسواق البورصة والمواخير الفخمة التي كانت محرّمة على الرجال الأغمق لوناً من وزير الأشغال العامة - جُعل مقياساً لأنّه، إن لم يكن نعجة مجلس الوزراء السوداء، فقد كان الأشدّ «تحميصاً» بين زملائه. صار رجال الشرطة يلبسون، بدل الأحذية المرقّعة، جزماتٍ نظاميّة، وبإشارة من قفّاز أبيض يتوقف المرور الذي يتغذّى ضجيجه بزمّور متعدّد الأصوات، قادر حتّى على عزف ڤالس «الأرملة الطروب»[232] أو افتتاحيّة النشيد الوطني. كان المستشار الأوّل يشعر بالضيق أحياناً والمدينة أمامه تزداد اتساعاً ونموّاً، والمنظرُ الذي يتأمّله من نوافذ القصر يزداد تغيّراً وتبدّلاً. وكان أن دخل هو الآخر في صفقات عقاريّة رتّبها له الدكتور پيرلاتا، وشيّد بناياتٍ خرّبت مشهداً طال ارتباطه بمسيرته وبمصيره إلى درجة أثارت قلقه، بعد أن رأى في ذلك نذير شؤم. لقد نبّهته لامايورالا إلميرا ذات يوم إلى التبدّل الذي

---

(232) عنوان أوبريت للمؤلّف الموسيقي النمساوي فرانتس ليهار Franz Lehár (1870-1948).

طرأ على ذلك المشهد: «تطلّع إلى هناك!».. «تطلّع إلى ذاك!». لقد جزّأت مداخنُ المصانع التي أقامها طبيعةً كانت، حتّى وقت قريب، لا تعرف مجرّد تقاطعات أسلاك البرق القبيحة. أمّا البركان، البركان-الأكبر، البركان توتيلار، مسكن قدامى الآلهة، الأيقونة والرمز، الذي تظهر صورته مبصومة في الشعار الوطني، فقد بات أقلّ من بركان -أقلّ من مسكن آلهة قدامى- حين يلوح جلالته، في صباحات الضباب، بحياء ملكٍ مهان، عاهلٍ بلا بلاط، من فوق دخان قريب وكثيف، منبعث من أربعة أفواه فاغرة وعالية هي مداخن محطة توليد الكهرباء، التي أُنشئت حديثاً. بدأت المدينة، وقد تعامدت وتهندست، بعد تقطيع سفوح وتلال، وتربيع وديان وخضار، بالانغلاق على أميرها. ولمّا كان عدد سكّانها يزداد بالفلّاحين والعمّال الذين يقصدونها يومياً للعمل، وبالحرفيين المهاجرين من المحافظات، منجذبين بازدهارها، ينوءون بحمل أجدادٍ مصابين بالبلهارزيا، وأبدانٍ مبتلاة بالملاريا، وأطفال مرضى بسلّ الغدد اللمفاويّة، بعد أن استوطنتهم طفيليات الزنطارية -فوقعوا فريسة الإنفلونزا الخبيثة، القادمة الله يعلم من أين-، فقد تضاعفت مكاتب خدمات الدفن، وراح منظر السواد والتوابيت يضيّق على القصر الجمهوري. «ها هي ذي البومة قادمة!»، تقول لامايورالا إلميرا حين ترى موكباً جنائزيّاً يقترب من الميدان الكبير في الطريق إلى المقبرة. «أعوذ بالله!» يردّ عليها المستشار، وهو يعقد سبابته وخنصره في كلتا اليدين ليطرد الشرّ. «لن يقدر حتى نابليون على سيادتك!»، اختتمت لامايورالا كلامها بذكر رجل كان اسمه يمثّل بالنسبة إليها رمزاً لأعلى سلطة منحها الربّ لكائن بشري، رجل خرج من العدم ووُلد في مذود، كما يقولون، ليحكم العالم - لكنّ ذلك لم يؤثّر في حسن سيرته وصدق أخوّته ونقاء صداقته (بل لم ينسَ غسّالته حين وصل

وصار كبيراً!)[233] وكان دائماً فحلاً لنساء طيّبات، كتلك الكاريبيّة التي كانت تمسك به من لا أدري من أين، لأنّ المرأة الخلاسية والتشولا تولدان والشيطان بين سيقانهنّ، ومن يذُق ذلك... (هناك رجال يتخلّون عن كلّ شيء، يختفون ويهجرون بيوتهم مع نداء الصلاة للروح الوحيدة[234]، التي تلجأ إليها نساء السلطة العليا اللائي يرددن ويرددن، مع حبّات المسبحة، بعد أن يضعن قناديل موقدة خلف الباب: «وليركضْ خلفي مثل كلبٍ مسعور. آمين!»).

بعد تفكير مطوّل، انكبّ المستشار باندفاع -بدا على ذلك الاندفاع أثر السنين في مجالات أخرى- على ما يمكن اعتباره مأثرته العمرانيّة الكبرى وتحفة إنجازات حكمه الحجريّة: مبنى الكابيتول الوطني. بعد اتخاذ القرار، فكّر في الدعوة إلى مسابقة عالمية، مفتوحة أمام جميع المهندسين، لتقديم ما يمكن تقديمه من أفكار ومشاريع وخرائط. ولكن، ما إن شاع الخبر، حتّى اعترض مهندسو البلد، وكانوا قد شكّلوا نقابتهم الوطنيّة مؤخراً، محتجين بأنّهم قادرون على إنجاز ذلك العمل. فبدأت، حينئذٍ، مرحلة صعبة من الدراسات والتحويلات والنقاشات نتجت عنها سلسلة من التعديلات والتغييرات التي تطرّقت إلى مظهر البناء المستقبلي وعمارته وحجمه. كانت الفكرة في البداية تقضي بأن يكون على شكل معبد إغريقي، بنظام دوريسيّ، خالياً من القواعد، بثلاثين متراً من الأعمدة - محاكاة لمعبد «البستوم» بحجم الفاتيكان. ولكنّ المستشار الأوّل تذكّر

(233) يشير إلى شخصية Angelina Pietri في رواية «الأيام المئة» لجوزيف روث Joseph Roth (1894-1939) وكانت تعمل غسّالة في قصر نابليون وقد شُغفت به حباً.

(234) Oración al Ánima Sola: تعويذة لربط الرجل وجذب الحبيب وتفريق الأحباب.

أنّ القيصر فيلهلم، وهو من يجسّد البربرية البروسيّة، كان مغرماً بتلك التأثيرات الهيلينيّة، حتّى إنّ لديه قصراً يشبه قصر أكيليون، فيه كثير من الطراز البارثينوني، في جزيرة «كورفو»، ثمّ إنّ اليونانيين لم يعرفوا القباب، ولا يصحّ أن يشيّد كابيتول من دون قبّة. من الأفضل النظر إلى روما الخالدة، أمّ حضارتنا. لذلك أخذ بالنظام الدوريسي وطبّقه على الكورنيثي، من دون المرور بالإيوني، على يد مهندسينا، مع قبّة تشبه قبّة قصر العدالة في بروكسل. أمّا قاعتا المجلسين -النواب والشيوخ- نصف الدائريّتين، فتذكّران بمسارح «ديلفي» و«إيبيداوروس»، لذلك بدتا مكفهرتين باردتين مزيّفتين بمنابر الخطابة التي وُضعت فيهما، وكيف لا ووجودها في ذلك المكان يلبّي مطلباً ديمقراطياً لا يمكن إغفاله. وحدث أن حلَّ مهندسٌ وطنيّ جديد محلّ مهندسين وطنيين تآمر عليهما مهندسون وطنيون آخرون كثيرون، فحلّت عليهما اللعنة ونكبا. لقد استوحى هذا المهندس الوطني الجديد رسوماً من مسرحية شكسبير يوليوس قيصر ليضع مخطّطاً لصالة نصف دائريّة، على الطريقة الرومانيّة، بعمود في الأعلى، وقد نال المخطط قبول مجلس الوزراء. لكنّ المجلس وجّه باستخدام أخشاب أشجار الماهوجني، ذات اللون الأحمر الدافئ العميق، في ذلك العمل المعماري الفخم. فالبلد منتج مهمّ لتلك الأخشاب التي يمكن استخدامها في أعمال الإكساء والتسقيف والمنابر والمقاعد والمصاطب وبوابات الدخول ومقر رئاسة القاعتين نصف الدائريتين. ولمّا لم يستعمل الرومان قطّ الخشب لتلك الأغراض، فقد ظهر مشروعٌ خامس لبناء الكابيتول، مستوحى من العمارة القوطيّة الحديثة التي شُيّد برلمان بودابست على طرازها. لكنّهم أهملوا تلك الخرائط بعد دخول الإمبراطورية النمساوية-الهنغاريّة في حرب مع الروح اللاتينيّة، وصاروا يفكّرون في عبقريّة إيريرا،

مهندس الأسكوريال الرائع[235]. «إطلاقاً -قال المستشار الأوّل-: من يقل الأسكوريال فإنّه يقصد فيليب الثاني. ومن يقل فيليب الثاني فإنّه يقصد حرق الهنود واستعباد الزنوج والتنكيل بوكلاء الأراضي الأبطال وتعذيب الأمراء ومحاكم التفتيش». ورُفض المشروع رقم 15، رُفض لأنّ المهندس خطط لاستعمال رخام وطني من ذاك الذي اكتُشف حديثاً في قرطبة الجديدة، بعد أن فكّر في شيء يذكّر بكاتدرائية ميلانو، ويبدو أنّ تلك الذكرى الكنسيّة الباقية لم تعجب الماسونيين والمفكّرين الليبراليين وناساً آخرين تقوم معاييرهم على تحكيم العقل. أمّا المشروع رقم 17 فقد كان، في الواقع، نسخة كاربونيّة مفضوحة من دار الأوبرا بباريس. «لكنّ مجلس النواب ليس مسرحاً»، قال المستشار الأول، وهو يرمي بالخرائط على منضدة المجلس. «أحياناً...»، همهم الدكتور بيرلاتا، من وراء ظهره. وأخيراً، وبعد أخذ وردّ ونقاشات وآراء وتعديلات على الآراء تمّت الموافقة على المشروع رقم 31 الذي كان يقدّم الحلّ الأسهل: بناء يشبه كابيتول واشنطن، مع استعمال الخشب البلدي والرخام البلدي - وفي حال لم يناسب البناء كما حسبوا، فسيؤتى بالرخام من «كارّارا» الإيطاليّة، وسيقولون للناس إنّه رخام وطني. وبدأ العمل يوم مئويّة الاستقلال، بوضع الحجر الأساس وإلقاء الخطابات المألوفة بكلّ البلاغة المعروفة. مع ذلك بقيت مشكلة: لا بدّ من إقامة تمثال كبير للجمهوريّة تحت القبّة. وتطوّع نحّاتو البلد كافة لعمل التمثال. لكنّ المستشار الأوّل كان يعلم أنّ أيّاً منهم لا يقدر على هذه المهمّة. «خسارة أن جيروم مات![14] -قال، وهو يفكّر في مجالديه ومصارعيه-: ذلك كان الرجل». «رودان ما زال حيّاً»، قال الدكتور بيرلاتا. «لا. رودان، لا! رودان نحّات عظيم -بلا شكّ!- حين

(235) يشير إلى المعماري خوان دي إيريرا Juan de Herrera (1530-1597) الذي صمم بناء مجمّع الأسكوريال الشهير في عهد الملك فيليب الثاني.

يلتزم بحدود الواقع.. لكنّه سيصنع لنا بلزاكاً ثانياً يجعلنا في حيرة من أمرنا. فإن رفضناه فسنصبح أضحوكة هناك؛ وإن قبلنا به، فسنضطر إلى ترك البلد!»[236]. «ومنعَ أيّ تعليق في الصحافة». «سيكون هذا منافياً لمبادئي. أنتَ تعلم ذلك. حديد ونار مع السفلة. ولكن حرية في النقد والجدل والنقاش والاعتراض حين يتصل الأمر بالفن أو الأدب أو المدارس الشعريّة أو الفلسفة الكلاسيكيّة أو خفايا الكون أو سر الأهرامات أو أصل الإنسان الأميركي أو مفهوم الجمال أو ما يحدث هناك. تلك هي الحضارة...». «في غواتيمالا، وضع صديقنا أسترادا كابريرا الأساس لعبادة مينيرفا، فبنى معبداً وكلّ شيء...». «مبادرة رائعة من حاكم عظيم...». «هو في السلطة منذ ثمانية عشر عاماً...». «... للسبب نفسه. ولكن يبدو أنّ تمثاله، تمثال پالاس أثينا، ليس بالشيء الخارق». كتب المستشار الأول، وهو في حيرة من أمره، إلى أوفيليا مستشيراً، وكانت قد عادت إلى باريس، بعد أن طافت لعدة أشهر في مروج الأندلس، ودخلت فجأة في أجواء الثيران والحفلات والغناء، كما دخلت من قبلُ في أجواء «بايرويت» أو «ستراتفورد-أون-آڤون». ردّت الأميرة، وهي التي تنفر من كتابة الرسائل، ولذلك دلالته ومعناه في إملائها الفنطازيّ، ببرقيّة بسيطة: أنطوان بورديل[237]. «لا أعرفه»، قال الدكتور پيرلاتا. «ولا أنا -قال المستشار الأول-: لا بدّ أنّه أحد البوهيميين، من أصحابها». وتوجّه، لقطع الشك باليقين، إلى الأكاديمي البارز، طالباً منه المزيد من المعلومات. ومع عودة البريد، تلقى صوراً بارزة من عمل الفنّان لتزيين مسرح الإليزيه، في عام 1913. إحدى تلك الصور ترمز إلى الموسيقا، لم تعجب پيرلاتا إطلاقاً لما فيها من تزوير

(236) يشير إلى تمثال شهير للروائي الفرنسي بلزاك من عمل رودان.

(237) Antoine Bourdelle (1861-1929): نحّات فرنسي من نحّاتي ما عُرف بالزمن الجميل.

وتشويه وتحريف، إذ أُقحمت صورتان إقحاماً في مجال مستطيل: حوريّة بحر منحنية على آلة كمان في وضعيّة مستحيلة لأنّها تفترض أن تمرّر القوس بذراع من فوق رأسها؛ وساتير[238]، عظيم، ملتوٍ، أقرب إلى الحشرات منه إلى الإغريق، ينفخ في ناي عظيم، لا يوحي بأنه آلة موسيقيّة تصدح بأنغام ريفيّة، بل هو شبيه بقطعة من ماسورة مدفع رشاش من عيار 30/ 30. الصورتان منشورتان في عدد من غازيت-دي-بوز-آرت، وفيه مقال للناقد الشهير پول جامو يقول في إحدى فقراته، أشّر تحتها بخط أحمر، إن النحّات لا يعالج أشكاله بالطريقة القديمة، بل بفظاظة الذوق الجرماني الموحية [كذا]. «جرماني! جرماني! وهذا هو ما تنصحنا به أوفيليا في هذه اللحظات! يبدو أنّها من كثرة ما صاحبت مصارعي الثيران صارت غبيّة. ليس لديها أدنى حسّ سياسي -وانتبه فجأة إلى جانب آخر للمشكلة يتصل بلفظ الاسم-: ثمّ إنّه مستحيل هنا، بسبب لقب العائلة. بورديل[239]. فكّر في وقع ذلك في أذن من يسمعه بالقشتاليّة». «صحيح! -قال پيرلاتا-: سينادونه أوّلاً "بوووورديّه". وبعد ذلك سيهتدون إلى لفظه الصحيح». «...وعندئذٍ، تبدأ النكات من طرف "أحبابي" الكثيرين. فالكلمة ستقدّم إليهم على صينيّة من فضّة: فمن قائل إنّ الكابيتول... وإنّ الجمهوريّة... وإنّ حكومتي... مستحيل!». «من الأفضل أن نتوكّل على پللينو» - قال پيرلاتا. وقد وجّههم خبير الرخام الإيطالي، مورّد الملائكة الكبير والصلبان والمدافن، الذي تدين له الكثير من مدننا بتماثيل تحمل اسمه، تماثيل أبطال أو تماثيل قديسين، إلى فنان من ميلانو، له أعمال نالت

---

(238) Satyr مخلوق أسطوري في الميثولوجيا اليونانية، يهيم في الغابات والجبال في صحبة إله الخصب ديونيسوس وإله الرعاة والأغنام بان. يظهر في صورة نصف رجل ونصف تيس.

(239) لأنّ معنى بورديل بالإسبانية «بيت الدعارة».

جوائز في فلورنسا وروما، متخصص في إقامة النُّصب والنافورات البلدية والمعابد المدنيّة وتماثيل فرسان يمتطون صهوات جيادهم وكلّ ما هو فن رسمي وجاد ووقور، يرتدي بدلة مناسبة للحقبة التاريخية إن كانت المناسبة تستدعي ذلك، وعراة يُعاملون باحترام إن كان العري يلبّي أمثولة، في تعبير يفهمه الجميع، لجمالية غير مهجورة، ولا حديثة كثيرة - فالحداثة في الفن التشكيلي باتت موضوعاً أُشبع نقاشاً في هذه الأزمنة. أرسل ألدو نارديني -وهذا هو اسم النحّات- رسماً أقرّه مجلس الوزراء في الحال: تظهر الجمهورية فيه ممثّلة بامرأة ضخمة الجسم ترتدي ثياباً إغريقيّة وتتكئ على رمح -رمز اليقظة-، وجه عريق وصارم، فكأنّها ابنة جونو الفاتيكانية الشهيرة[240]، بثديين عظيمين، أحدهما مستور والآخر مكشوف - رمز الخصب والوفرة. «ليست رائعة، ولكنّ الجميع سيكون راضياً -ختم المستشار الأول كلامه-: نفِّذوا!». أُنفقت عدة أشهر في عمل التمثال وصبّه، ونشرت الصحف أخباراً عن سير العمل، إلى أن دخلت خليج «بويرتو أراغواتو»، ذات صباح، باخرة قادمة من «جنوا» تنقل المرأة الضخمة. واحتشد جمهور مترقّب في الأرصفة ليشهدوا ظهورها. ولكنّ شعوراً بالخيبة عمَّ حين عُلم أنّ التمثال لن يخرج كاملاً، على قدميه، منتصباً، كما سيكون في الكابيتول، بل لقد جُلب في قطعٍ ليُعاد تركيبه في المكان المخصّص له. مع ذلك، فقد كان المشهد يستحقّ التأمّل. ألقت الرافعات بخطّافاتها وأنزلت الأسلاك إلى أسفل الباخرة وظهر الرأس فجأةً، وسط الهتافات، فصفّق له الجمهور المحتشد. خرج من بين الظلمة، محمولاً في الهواء، ثمّ تبعته عدة قطع من الجسم. القدم اليسرى -مع قطعة من الساق وأطراف الثياب-، الذراع اليمنى، مع جزء من عصا الرمح في

(240) أخت جوبيتر وزوجته، وفق الأساطير اليونانيّة. وكانت نساء الرومان يقدّسنها لأنّها كانت إلهة الزواج.

اليد؛ بطن خصبة بمحورها الحيوي الذي ارتكز في البرونز؛ الثدي المستور، تتبعه القدم اليمنى والذراع اليسرى، قبل صعود القبّعة الفريجيّة التي ستوضع على رأس الجمهوريّة. في تلك الأثناء علا صوت صفّارات الساعة الثانية عشرة، فتوقفت الرافعات عن العمل وذهب عمّال التفريغ لتناول الغداء، لكنّ الجمهور لم يتفرّق. فما زال في جوف الباخرة شيء كبير. بعد ساعتين، عاد العمّال والحمّالون، وبين تصفيق وهتاف خرج الثدي العاري من أسفل الباخرة، وأُنزل على الأرض ببطءٍ مهيب. ثمّ حُملت القطع في شاحنات توجّهت بها إلى قطار شحن، فمُدِّد تمثال العملاقة على ألواحه وصفائحه، ووُزّعت قطعه على العربات، في منظر غريب، إذ بدا جسماً بشرياً وُزّعت أجزاؤه أفقياً بالتوالي من دون أن يشكّل كلّاً ذا معنى. العربة الأولى: قبعة فريجيّة؛ الثانية: كتف وثدي مستور؛ الثالثة: رأس؛ الرابعة: كتف وثدي مكشوف؛ الخامسة: بطن خصبة... والآن، في صفّ مضطرب، الفخذان والذراعان والقدمان تحتذيان صنادل بين يونانيّة وكريوليّة، الرمح في ثلاث قطع، في قاطرة من الأمام وقاطرة من الخلف، لأنّ الحمل ثقيل، وكان ميكانيكيو القطار يخشون أن يتوقف الحمل من البرونز الثقيل عند الصعود إلى القمم، هناك حيث وقعت، بسبب الأمطار الأخيرة، انجرافات في التربة فوق السكة... لكنّ الجمهوريّة وصلت في النهاية إلى عاصمتها، وهكذا رأت الأمّة، بدلاً من نصب بورديل، تمثالاً لابن ميلانو نادريني، ضاع وجهه الهادئ الوقور وإلى الأبد عن عيون الجمهور، لأنّ حجمه الكبير يخفي رأسه في أعالي ياقةٍ لم يكن العمّال يصعدون لتنظيف عمودها الدائري إلا مرّتين في السنة - لاعبو أكروباتيك على السقالات، يحرصون على توازن تتطلبه مهمتهم المثيرة للدوار ليتمكّنوا من تأمّل مواطن الجمال في عمل فنّي.

أحد عشر

الكابيتول يكبر. كتلته البيضاء، التي ما زالت متناسقة، محصورة بين السقالات، تعلو فوق أسطح المدينة، وتزداد أعمدته ارتفاعاً، وأجنحته عرضاً واتساعاً، وإن توقّف العمل فيه فجأة لأسباب تتعلّق بالرواتب والتمويل. ليس بسبب أزمة في اقتصاد البلد، بالطبع، فاقتصاد البلد لم يشهد أوقاتاً خيراً من هذه قطّ، بل بسبب تكاليف مواد البناء التي راحت تزداد شهراً بعد شهر. لقد ارتفعت أسعارُ العُدد والمكائن والشحن والنقل جواً وبحراً، وتخطّت النفقاتُ التوقّعات، وتخطّى المصروفُ الميزانيّة المرصودة - التي أثقلتها الأحمال الخفيّة، فضلاً عن الحصص الكثيرة التي وُعد بها الوزراءُ وكبار الموظفين في لجنة الدعم والجهاز الحكومي، وفضلاً عن شيكّين، قُيِّد على أحدهما مبلغٌ ضخم، وعلى الثاني مبلغ أقلّ ضخامة، سلّمتهما إدارة الأشغال العامة خلسة إلى الدكتور بيرلاتا. وفجأة توقفت الأشغال، وظلَّ الرواق المعمّد من دون عقوده، والبوابة الكبيرة من دون قوصرتها. صمتت أزاميل النقّاشين عن العمل في الحلقات والأطواق، وبات ضرورياً تخصيص اعتمادات ماليّة جديدة، إقرار ضرائب على عيدان الثقاب السويديّة وعلى المشروبات الأجنبيّة وعلى عوائد سباقات الخيل. وتحوّل مركز العاصمة، وقد قلّ النشاط فيه، إلى شيء من قبيل المنتدى

الروماني أو رحبة بعلبك أو تخت جمشيد، تحت قمر يضيء ذلك المنظر الغريب من رخام مختلط ومساحات نصف مبنيّة وأعمدة مقصوفة وكتل حجريّة بين أسمنت ورمل - أطلال ما لم يتمّ. بقايا ما لم يكتمل. موت ما كان له أن يكون ولم يكن. ولمّا كانت قاعتا مجلس النوّاب ومجلس الشيوخ نصف الدائريتين قد تشكّلتا -وإن لم تسقّفا بعد- بمدرجاتهما، في تلك الأجواء من البناء المعلّق المتوقف، فقد شاءت كليّة الدراسات الإنسانيّة في الجامعة ورجلُ أعمال يعمل في ساحات التزلّج على الجليد أن يستغلّاهما، أثناء توقّف العمل فيهما. وهكذا صارت تُسمع، في بعض الليالي، أنّات «آياس» وصرخات «أوديب»، زناة محارم وقتلة آباء، في القاعة نصف الدائريّة الشماليّة، بعد أن اتخذ الطلبة منها مسرحاً، بينما راحت نساء يصرخن، وهنّ يرقصن على إيقاعات أشهر ڤالسات والدفيل[241]، مصحوبة باهتزاز المنصّة الخشبيّة التي نُصبت في القاعة نصف الدائريّة الجنوبية، يعلنّ بأنّهنّ توصّلن إلى طريقة لتركيب كعوب أحذيتهنّ، موديل لويس الخامس عشر، على أحذية التزلج بالدواليب، ليستمتعن هكذا برياضتهنّ دون أن يضحّين بالموضة. أقيم في بعض الأماكن الوسطيّة، أحياناً، متحف دوبويتران متنقّل[242]، البانوبتيكون الأعظم عن اكتشاف أميركا وتعذيب الهنود[243]، معرض حيوانات، سارية فنان جوع[244]، بينما راح بهلوانات، في الأعلى، فوق أسلاك مشدودة بين عُمُد من دون أفاريز، يرقصون على شبكاتورديّة وأرجوحات رُكِّبت

(241) Émile Waldteufel (1837–1915): مؤلّف موسيقي فرنسي.

(242) متحف تابع لجامعة پيير وماري كوري بباريس، مخصص لعينات التشريح والتشوّهات الخلقية.

(243) Panopticon: نوع من السجون يعتمد نظام مراقبة غير منظور.

(244) عنوان قصة لكافكا عن فنان سيرك يحبس نفسه في قفص ويظلّ من دون طعام مطوّلاً لتسلية الجمهور.

عليها مصابيح كهربائية كبيرة، راحت تسافر بين تاج عمود وآخر، غير عابئة بالمشهد الذي يجري تحتها، فوق حلقات متزلجين وتراجيديات سوفوكلوس - بانتظار أن يُطردوا على يد جيش العمّال الذين يعودون دوريّاً إلى أعمالهم التي تركوها لمواصلة ما يوشك أن يكون طقساً من الطقوس في تشييد المعبد المدني صعوداً نحو مشكاة السقف. كانت الحال تجري هكذا، بين بناء وتوقّف، حين دخل الدكتور بيرلاتا، ذات صباح، بخُطا مرحة، غرفة المستشار الأول الخصوصيّة، وكانت لامايورالا إلميرا ما تزال بقميص نومها: «الأعجوبة، سيدي! وقعت الأعجوبة! الغوّاصات الألمانيّة أغرقت للتو الباخرة الأميركيّة "بيخيلنتيا"! كلّ الطاقم الغرينغو[130] ذهب إلى الخراء! لم يبقَ واحد منهم!» (كان يضحك) «لم ينجُ واحد منهم، سيدي الرئيس! ولا واحد! لقد ماتوا جميعاً! صحيح أنّ خبر دخول الولايات المتحدة لم يعلن رسمياً، لكنّها دخلت. نعم، بالطبع: دخلت!». وبلغ من فرح الاثنين أنّهما خفّا إلى حقيبة-هيرميس، وعبّا جرعاتٍ طويلة من «سانتا إينيس». («وأنا ماذا؟ هل أنا كلبٌ؟»، قالت لامايورالا وخفّت تحمل قدح الأسنان). منذ زمن والفرحة لا تعرف طريقها إلى قلب المستشار الأوّل، فالحرب الأوروبية، التي تحوّلت إلى حرب خنادق ومواقع، حرب معارك بطيئة وطويلة لاحتلال مرتفع هنا أو غابة صغيرة هناك أو خرائب قلعة خُرّبت عشرات المرّات، حرب حدود دنيا من التقدّم والتراجع خلّفت عدداً لا يحصى من القتلى، هذه الحرب باتت رتيبة، إن لم نقل «مملّة». حرب فقدت، في رأي الناظر إليها من هنا، التشويق اللازم لأيّ عرض. لقد انقضى الوقت الذي كان فيه الناس يحرّكون أعلاماً على خرائط البلاد البعيدة ليؤشّروا الانتصارات والهزائم، فما عاد يُسمع بانتصارات أو هزائم مثيرة، وما عادت المعارك تستعر إلا في مسارح مكرّرة في أراغون أو فردان، بين أماكن مجهولة الأسماء - لا

تذكرها خرائط مقياس الرسم 1/ 1000 التي ما زالت تظهر، مغبرّة لا يطالعها أحد، في التحقيقات الصحفيّة. أكثر من سنتيمتر واحد. صحيح أنّ البلد يشهد ازدهاراً مدهشاً، لكنّ ارتفاع تكاليف الحياة كان يترك الفقير فقيراً دائماً -الموز المشوي للفطور والبطاطس للغداء وكسرة الخبز والمنيهوت في نهاية النهار، مع شيء من لحم الماعز المشمّس أو شريحة من لحم بقرة مريضة لأيّام الأحد أو أعياد الميلاد- على الرغم من الرواتب الجيدة في الظاهر. ومن هنا فإنّ الطلبة والمثقفين والمحرّضين المحترفين -تلك الطبقة المثقفة القذرة التي طالما اختبرت صبر الواحد- انصهروا شيئاً فشيئاً في حركة معارضة صمّاء. وكلّما ظنّ المستشار الأول أنّ الأمور هدأت وراقت، فوجئ بمعارضة تخرج في المدينة، تتظاهر هنا وهناك، على غير توقّع، فتعكّر مزاجه وتقضّ مضجعه، حتّى إذا تناساها، عادت يد الدكتور لويس ليونثيو مارتينيث إلى الظهور عن طريق خطاب مُرسل، من أماكن مختلفة، بطوابع مختلفة، يكشف فيه النقاب عن أمور وأحداث -وهذا هو الخطير في الأمر- يفترض ألّا تعرف بها إلا قلّة قليلة من المرتبطين بالقصر الرئاسي. لم يُعرف إلا متأخراً (لم يعرف رئيس الشرطة القضائية الأحمق أنّنا نتآكل!) أنّ أستاذاً جامعياً، بروفيسوراً في قسم التاريخ الحديث، ألقى محاضرات حول الثورة المكسيكيّة، تكلّم فيها عن القوى البروليتاريّة وعن جمعيّات الفلّاحين ونقابة عمّال المزارع المأجورين «بيراكروث» وعن الإصلاح الزراعي وعن حكومة كارّيو بويرتو في «ياكاتان» وعن مقالات المغامر الأميركي جون ريد - عن كلّ تلك الأشياء التي خرّبت أراضي دون بورفيريو[3] الرائعة وأغرقتها وأتلفتها. دون بورفيريو، ذلك الرجل الإنساني المتحضّر الذي دُفن، بعد أن أتعبه الجحود، في ركن كئيب من مقبرة «مونبرناس»، بدلاً من أن يرقد في مقبرة

وطنية كبيرة. فضلاً عن أنّ بعض الفوضويين، القادمين بالتأكيد من برشلونة، ولم تمسك بهم مخابراتنا بعد، يخرجون ليلاً كالأشباح ليكتبوا على الجدران وبالطباشير ثلاثة حروف (R.A.S)، يبدو أنّها تعني ثورة فوضويّة نقابيّة، يشفعونها أحياناً بعبارات مثل: الممتلكات هي السرقة، وعبارات أخرى مستهلكة ما عادت تُسمع إلا في هذه الأميركا المقلّدة والمتخلّفة. أمّا الآن، ومع إغراق بيخيلنتيا[245]، فستدخل الولايات المتحدة الحرب، وسندخل نحن الحرب، وسينشط الشعور الوطني، ولمّا كانت حالة الحرب تعني حالة طوارئ دائمة، فسننظّم، على أنغام النشيد الوطني و«المارسييز»، و«ليحفظ الربّ الملك» [بالإنكليزية] و«ليحمِ الربّ القيصر» [بالإسبانية] و«الراية الموشّاة بالنجوم»[246] [بالإنكليزيّة]، حملات قمع على المعارضين والمتآمرين وأصحاب الأفكار المشبوهين -وكلّهم من أنصار النزعة الجرمانيّة والموالين لها، في هذه الحالة- لم يشهد البلد لها مثيلاً. عندئذٍ، وبعد أن شرب رون المناسبات، استدعى المستشار الأوّل سفير الولايات المتحدة الأميركيّة ليحيطه علماً بأنّ الجمهوريّة ستقف إلى جنب شقيقتها الشمالية الكبرى في أيام محنتها. وبعد مجلس وزراء سريع، خرج المسؤول أمام غرفتي البرلمان، اللتين دُعيتا للانعقاد على جناح السرعة، حيث أقرّ بالإجماع نصّ إعلان الحرب على القوى المركزيّة، وصفق الجميع عند كلّ «ومع الأخذ بالاعتبار» وكلّ «فعليه» لاحقة تبررها. وفي ذلك اليوم نفسه أُعلنت الحرب، في عمليّة مضمونة المكسب سريعة التنفيذ: ففي الساعة الخامسة عصراً صعد القادة

---

(245) Vigilentia: سفينة الشحن الأميركية التي أغرقتها البحرية الألمانية في 17 آذار 1917 وكان في ذلك ما سبب دخول الولايات المتحدة الأميركية الحرب العالمية الأولى.

(246) Star and Spangled Banner وهو النشيد الوطني الأميركي.

العسكريون في «پويرتو أراغواتوا» على ظهر أربع بواخر ألمانية -لوبك وغران وشويرت وكوسهافن، وكانت راسية بانتظار أوامر من حكومتها- تمهيداً لاحتجازها وأسر أطقمها. أمّا البحّارة الألمان، فقد قابلوا إجراء سلطات الميناء بالتصفيق والهتاف، وهم يرون أن مشاركتهم في الحرب، بعد وقوعهم في الأسر، قد انتهت، وخرجوا في طابور، فرحين، نحو ساحة التدريب، يحيّون المارّة، ثمّ ألقوا بأحد ضبّاطهم، بعد أن هتف، وكان مؤمناً بأفكار نيتشه: «نموت ولا نسلّم الباخرة!»، من فوق السطح بعد أن شتموه بالألمانية بما معناه: «اللعنة على القحبة التي أنجبتك!». وأُخذ الأسرى إلى مزرعة مسوّرة، عُلّقت فيها شبكات النوم في الأشجار، وبدؤوا مباشرة بتنظيف الأرض من الأعشاب الضارة. وفي صباح اليوم التالي، بدؤوا ببناء شاليهات جميلة على الطراز الألماني، من خشب جُلب لهم بناءً على أوامر عليا، بينما راح آخرون يزرعون زهور الغلاديلاس ويدوسون التربة ليقيموا ساحتين للتنس. بعد ثلاثة أسابيع، تحوّلت الأرض إلى مزرعة نموذجيّة. نظّموا مكتبة فيها دواوين لهنريك هاينه، بل للاشتراكي دهليم. مع ذلك، فقد كان المكان تنقصه النساء، بالطبع، وإن كان الكثيرون منهم ليسوا في حاجة إلى النساء لأنّهم مثليون، أمّا من لم يكونوا قادرين على كبح رغباتهم، فكان يسمح لهم بالذهاب كلّ جمعة إلى ماخور «لاراموناا»، تحت حراسة عسكريّة. ولمّا كان البحّارة الألمان مولعين بالموسيقا، فقد جمعوا الآلات التي كانت في سفنهم، وبدؤوا يعزفون ألحان «هايدن» و«مندلسون» و«راف» القصيرة - وخصوصاً «كافاتينا». وقد تتسلّل حيّة الأجراس أو الأفعى المرجانية أو الماپاناري إلى الساحة التي تقام الحفلة الموسيقيّة فيها، فتتلقى على ظهرها ضربة بظاهر قوس عازف التشيلو - بخشب القوس، كما يقال في اللغة التقنيّة، بعد أن يكتشفها، لأنّه هو من يتطلّع أكثر

من سواه من الموسيقيّين إلى الأرض. ولطالما صدح كابتن سفينة اللوبك بالغناء، بصوت التينور الجميل، ترافقه الجوقة على أفضل ما تكون المرافقة:

عواصف الشتاء
فسحت الطريق
للقمر السعيد
في الضوء اللطيف
لينز تتلألأ...[247]

أمّا العمليّة الثانية في تلك الحرب فقد استهدفت مصادرة قطار الألمان الصغير - قاده المستشار الأوّل شخصيّاً، على رأس جنود سلاح المهندسين في الفرقة الثانية التكتيكيّة. عند فجر اليوم H احتُلّت المحطتان -العليا والسفلى- والمحطات التي في الطريق، كابينات الإشارات، نقاط التحويل، الخ. ولمّا كانت الرحلات قد عُلّقت حتّى إشعار آخر، فقد استطاع الرئيس أن يستمتع بتحقيق حلم قديم: حلم اللعب بالقطارات على مزاجه، فحشر پيرلاتا، الذي علا وجهه السواد، في عربة الكاربون. وبعد أن شرح آليّة لعبته بدأت القاطرة بالتحرّك إلى الأمام وإلى الخلف والدخول إلى مرآب التصليح والخروج منه واللف والدوران فوق الألواح الدوّارة؛ يصفّر ويطلق البخار من جميع صماماته ومحامل كراته المعدنية، ليخرج الدخان بكثافة غير معهودة، يذهب ويأتي ويتوقف لتحميل أيّ شيء: حزم من القصب، براميل، سلة كلامار، كوثل في أصيص، أقفاص فارغة، كنترباص، دجاج، سود طبّالون يضربون على الكومبيا. وحين أتقن المستشار الأوّل تقنيات تغذية المراجل واستخدام المكابح لإيقاف

(247) من أحد فصول أوبرا فاغنر «الفالكيري» وعنوانه «عواصف الشتاء».

العربات بتوافق تامّ بين العربات والرصيف، دعا الحكومة بكامل أعضائها إلى سفرة في ضاحية «أولميدو»، مع وجبة من المعجّنات والتامال في العربات، وشمبانيا كافية لشرب نخب على صحة ميكانيكي الأمّة الأوّل. وبلغ من استمتاع الرئيس بلعبته أنّه نسي أيام الحرب الأوروبية وترك مطالعة الصحف الأجنبيّة التي اعتاد الدكتور بيرلاتا أن يأتي له بها - صحف مع مجلّة ريجيما الفرنسيّة اللاذعة التي كانت تنشر الكثير من الصور الفاضحة بين تقاريرها. في تلك الأثناء، ومع نجاح لا ماديلون وروز أوف بيكاردي[225]، كانت موسيقا أوڤر ذير[248] تجتاح البلد. لقد انتقلت، بعد أن دخلت عن طريق بيانوهات «پويرتو أراغواتو» الآليّة، من غرامافون إلى غرامافون، على امتداد خط الشرق الكبير للسكك الحديدية، فتفوّقت على بيانوهات معاهد الموسيقا وبيانوهات الصالونات البرجوازيّة وبيانوهات دور السينما والمقاهي والراهبات والعاهرات، قبل أن تجد أرقى تعبير لها في الحفلات الليليّة التي تقام أيام الأحد في المتنزّه المركزي. أوڤر ذير أوڤر ذير أوڤر ذير. لافتات كبيرة رُسم عليها جندي أميركي يحمل الحربة على عدو غير مرئي -كُتبت عليها عبارة Come-on! الشديدة- تدعو إلى شراء سندات خزانة دعماً للمجهود الحربي، وقد كان الإقبال عليها في البلد من القوّة أنّ السفير آرييل استطاع بعد وقت قصير تسليم الرئيس وودرو ويلسون مبلغاً قدره مليون دولار، جُمع في أقلّ من خمسة وعشرين يوماً. وكانت دور السينما تعرض أفلاماً وثائقية تمجّد الجنرال پيرشنغ[249] - هو نفسه الذي أمر قبل أوقات بتنفيذ «الحملة التأديبيّة» المعروفة على

---

(248) Over There: عنوان أغنية وطنيّة أميركية ذاع صيتها في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

(249) John Pershing (1860-1948): جنرال أميركي شارك في الحرب العالمية الأولى.

المكسيك. أوڤر ذير أوڤر ذير أوڤر ذير. أمّا الآن، فإضافةً إلى أوڤر ذير بدأت تصدح موسيقا «سوسا»، بنحاسيّات التوبا المصحوبة بالفلوتات. وأعرب ضابط شاب، بدعم من الحكومة («في الحرب تتفجّر طاقات الرجولة -قال المستشار الأوّل-: الحرب عند الرجال كالوضع عند النساء»)، عن نيّته تشكيل فوج من المتطوّعين الوطنيين للقتال في فرنسا - تحت قيادته، بالطبع. صحيح أنّ القتال ينطوي على مخاطر، لكنّها مخاطر مشوبة بفرح كبير. يكفي، دليلاً على ذلك، أن تقرأ مقالة كتبها موريس باريه[42]، وأُعيد نشرها كثيراً في الصحافة المحليّة، يقول فيها: «يسود مزاج رائق في الخنادق. بالطبع إنّ الحالة هناك في الليالي الماطرة ليست كالحالة في مطعم فخم.. لكنّي أعرف مكاناً، يقع في متاهة من الخنادق، أعدّت بعناية، وتمتد على مسافة ثمانية كيلومترات، حيث يطلق على مسالكها أسماء الشانزليزيه أو «غري مسيو-لو-بغرانس». أعلمُ بمكان ملجأ سرّي تحت الأرض يمتلك فيه أحد الضبّاط كرسيّاً من المخمل القرمزي وطاولة عليها باقات من الورد وصحوناً من خزف «ستراسبورغ» القديم. زُيّنت الخنادق بقطع الأثاث التي عثروا عليها في خرائب بيوت البلدات التي تعرضت للقصف. تسود الفرحة في الخنادق» [كذا]. تلك الكتابات، المرفقة بصور رمّاحين بنغاليين وقنّاصين متأنقين وقوزاق -جمهوريين منذ بعض الوقت- مستعدين الآن للانقضاض بقوّة جديدة على هذه الألمانيا التي لا يجد شعبها الجائع من غذاء غير الخبز المخلوط بالتبن ونشارة الخشب؛ والتي باتت تُنشر معزّزة بصورة لأوفيليا تظهر فيها جميلة وبنت بلد أكثر من أيّ وقت مضى، وهي ترتدي ثياب ممرضة في الصليب الأحمر، وتضمّد جراح جندي إنكليزي، حرّكت قوة من مئتين وخمسين شاباً توّاقين لزيارة «برج إيڤل» و«المولان روج» و«مطعم ماكسيم». «سيرون، هناك، أيّ شجاعة نتحلّى بها وأيّ رجال شجعان نحن!»، قال پير لاتا. لكنّ الجمهور

أصيب بخيبة أمل حين بلغه، بعد أسابيع، أنّ مقاتلي البلد، حين وصلوا إلى هناك، وُزّعوا على الوحدات الفرنسية وأنّ الضابط الشاب، وقد نحّي عن قيادة رجاله، عاد حانقاً غاضباً ليؤكّد -وقد رأى الأمور عن كثب- أنّ الحلفاء سيخسرون هذه الحرب، على الرغم من المساعدة الأميركية، لأنّ ما رآه كان الاضطراب بعينه والفوضى متمثّلة في شخص. لكنّ الناس ما كانوا معنيين في الواقع بأن يكسب الحلفاء الحرب أم يخسروها، فكلّ ما يهمّهم هو أن تدوم الحرب أطول وقت ممكن. ففي ثلاث سنوات أو أربع أو خمس إضافية من الحرب، سنتبوّأ مكانة عظيمة بين الأمم. كان الجميع، من قدّاس السادسة حتّى تسابيح المساء الورديّة، ومن نواقيس الفجر حتّى صلاة التبشير، يصلّون من أجل السلام، بالطبع، ولكن بتقليد شائع، يصعب تفسيره للأجنبي، قوامه أن يصلّي المؤمن وقد عقد إصبعه الوسطى على سبّابته[250]. فما يجري في أوروبا هو، أولاً وآخراً، من صنع أيديهم، ولا ذنب لنا في ما يحدث لهم. لقد أخطأت القارة العجوز حين تطوّعت أن تكون مثالاً للحكمة. وإذا كان البلد يشهد الآن فترة تقدّم وازدهار ووفرة، فذلك دليل على أنّ الربّ القدير -هذا ما قاله الأسقف في عظته- يميّز أولئك الذين عرفوا، بابتعادهم عن الفلسفات الجوفاء التي تحيل الروح رماداً، وبتجنّبهم القواعد الاجتماعية الكافرة والمنحلّة والغريبة، كيف يحافظون على تقاليد دينهم وتقاليد أمّتهم - قال الأسقف ذلك مشيراً، وهو ينزل من حمامة الروح القدس التي كانت تتأرجح فوق رأسه، إلى المستشار الأوّل، الذي كان حاضراً في الكاتدرائية ذلك الصباح.

كان العمل في الكابيتول يوشك على الاكتمال. لقد بدأت «العملاقة»، «لا تيتانا»، «المرأة العظيمة» -وهي نفسها «خونو» و«يومونا» و«مينيرڤا»

---

(250) استناداً إلى الموروث الشعبي فإنّ هذه الحركة تجلب الحظ أو تبعد الشر.

و«جمهوريّة»- المحبوسة الآن بين جدران قصر بالغ الضيق، تكبر، يوماً بعد يوم، ضمن حدود محيطها المتنامي. باتت كلّ يوم تبدو أكبر - تبدو مثل تلك النباتات الغابيّة التي تنمو باندفاع أثناء الليل، صاعدة نحو فجر تسرقه منها الغابات العلويّة. وبدت، هي في ضيقها وحبسها بالحجر المحيط بها، أكثف وأضخم وأعلى -أعلى دائماً- ممّا كانت عليه حين رُفعت، قطعة قطعة، في فضاء مكشوف غير مسقوف. واكتمل بناء القبّة، ورُفعت المشكاة الفخمة في أعلاها -تقليداً لفندق «ليز أنفاليد» الباريسي- الذي يهيمن، وقد أُضيء ليكون مناراً وشعاراً، على ليالي المدينة، ويكسف بضوئه أبراج الكاتدرائيّة، التي انحسرت وصغرت حتّى ما عاد من حوار بينها وبين قمّة بركان «توتيلار» البعيدة - كما يشير بيت أحد كبار شعرائنا في القرن الماضي. العمل يوشك على الاكتمال، ولكن لا يبدو أنّه سيفتتح، كما كان متوقعاً، في احتفالات مئويّة الاستقلال، التي باتت قريبة. ويوم طُرحت المشكلة في اجتماع وزاري عاصف، أقال المستشار الأوّل، وقد استبدّ به الغضب، وزير الأشغال العامة، مهدّداً الآخرين بالنفي والسجن إن لم يكتمل العمل في طلاء الكابيتول وتلميعه وصقله، ويتمّ ترتيب حدائقه وخلاف ذلك في التاريخ المحدد. فبدأ عندئذٍ عملٌ كالذي قام به المصريون في الأهرامات. وهكذا، وبجهود مئات من المزارعين الذين جُلبوا ضرباً بالسياط وشُدّوا إلى جرافات وعربات وأُسكنوا في عنابر يخرجون منها على صوت بوق ليتناوبوا العمل مع آخرين مثلهم، بدأت الأعمدة التي لم تنهض بالنهوض، وعلت المسلّات وارتقت الآلهة وصعد المحاربون والراقصون والملهمات وشيوخُ الأراضي وقادةٌ محميّون بزرود ودروع وفرسانٌ وجنودٌ إلى أعلى الأفاريز - صقلوا ما كان حقّه أن يصقل، وذهّبوا ما كان له أن يُذهّب، وصبغوا وطلوا ما كان من حقّه أن يُصبغ ويُطلى.

عملوا ليلاً، على ضوء المصابيح الكبيرة العاكسة. وبلغ من صخب المطارق أن ضجّت الأجواء طيلة أسابيع بما يضجّ به كورُ الحدّاد، بين سنادين وحفّارات ومثاقب، وأوشك أن يتمّ رصف درجات سلّم الشرف. ودخلت أشجارُ النخيل الملكيّة إلى المدينة، ذات عصر، مطروحة في شاحنات وعربات ثقيلة، تكنس بسعفاتها الأرصفة، وتثير غبار الشوارع، بعد أن أُعدّت لغرسها حفر عميقة مُلئت بتراب أسود وعُصافة وسماد. ظهرت من بعد ذلك -غابة ماكبيث- شجيرات الصنوبر والبقس المشذّبة والكوثل، وقد جُلبت من كلّ مكان، جاهزة للغرس على أيدي مئات من الرجال كانوا ينتظرونها وهم يحملون مرشّات يوجّهونها وهم على أهبة الاستعداد - وإن لم يكونوا يضمنون أنّ الأوراق ستخضرّ حين يحين اليوم العظيم. «الأوراق الذابلة ستصبغ عشيّة الاحتفال. ولا شكّ أنّها ستتحمّل، لساعات، ضربة من صبغ "ليفرانك"»، قال المستشار الأوّل. في تلك الأثناء، كان المهندسون والمشرفون يسمّرون عيونهم في التقاويم والساعات، متوتّرين، مؤرّقين، يوجّهون العمل ويستعجلون العمّال بصراخ الآمر وروح النخّاس، حتّى اكتمل البناء ووُضعت اللمسة الأخيرة الباذخة، ماسة تيفاني كبيرة، أسفل تمثال ألدو نارديني، لتؤشّر، وهي محشورة في قلب نجمة الرخام الأحمر المخضرّ، نقطة الصفر، النقطة التي تنطلق منها جميع الطرق في الجمهوريّة - وهو مكان الالتقاء المثالي للطرق التي خططت الحكومة أن تربط العاصمة بأرجاء البلد الأبعد. وأخيراً، ازدهت العاصمة، يوم الثلاثاء ذاك، يوم مئويّة الاستقلال، واكتست بالأعلام والشعارات والرايات التي تحمل رموزاً شعبيّة وأحصنة كارتونيّة تذكّر بالمعارك الكبرى. مئة قذيفة مدفعيّة عند الصباح، وألعاب نارية تتطاير من فوق السطوح، إطلاقات في جميع الأحياء والحارات، استعراض

عسكري كبير، وتابعت الفرق الموسيقيّة، فرق موسيقية كثيرة، التابعة للجيش في العاصمة وفي المحافظات، العزف، حتّى بعد انتهاء الاستعراض الرسمي، ظلّت تعزف طوال النهار، في الحدائق البلديّة والأكشاك على النواصي، تتناقل، على يد واحد من جنودها، دفاتر النوتات -كان لديهم منها القليل- الألحان المحليّة والموسيقا الوطنيّة خصوصاً، وإن ضمّت إلى برنامجها بعض أناشيد المقاومة التي كان المستشار الأوّل قد اختارها بمساعدة مدير معهد الموسيقا الوطني. لا أثر للموسيقا الألمانيّة، بالطبع، باستثناء فاغنر، المُبعد دائماً، في ما يبدو، من حفلات باريس الموسيقيّة، بعد أن وصفه كاميسان صانز[46]، في مقالات لاذعة، بأنّه تجسيد مشؤوم ومنكر للروح الجرمانيّة. أمّا بيتهوڤن فمن الأفضل تجاهله مؤقتاً – وإن أشار بعضهم إلى أنّ ألمانيا بيتهوڤن ليست ألمانيا ڤون هندنبرغ. ولذلك كانوا يتنقّلون، مع تنقّلهم من الساحات إلى الأكشاك، ومن الحدائق إلى الميادين، من افتتاحية زامپا إلى افتتاحية وليم تيل، ومن مشاهد ألزاسيةّ ماسينيه إلى پاتريا پالاديله، ومن مصارع ثيران و أندلسيةّ روبنتشتاين -يلزم وجود مؤلّف موسيقي روسي في البرنامج- إلى سيريناتا فيكتورين جونسيير – سيرينيتا التي ما عادت «هنغارية»، لأنّنا كنّا في حرب مع القوى المركزيّة، وما عاد اسم المارش الهنغاري لبرليوز، بقنابل المدفعيّة المصاحبة له، يذكر إلا مجرّداً من نسبته[251]... يوم صخب. يوم خمر يشرب مباشرة من القارورات، ولحم عجول يشوى على السفود، أكواز ذرة مجانيّة، براميل بيرة، لعب للأطفال الفقراء، شرائط زينة وأشرطة للشعر، جوقات منشدين في المقبرة الوطنيّة، صلوات في الكنائس، رقص في البيوت وفي المطاعم، في الأزقّة وفي بيوت الدعارة، عزف بالبيانوهات

---

(251) جميع الأسماء المذكورة هي لمؤلّفين موسيقيين فرنسيين باستثناء روبنشتاين الذي كان روسياً.

الآليّة والبيانوهات العادية والغراموفونات وفرق الموسيقا الجوّالة والعازفين بالخشخيشات، في كونشرتو شامل عشوائي، ونشاط حرّ بانتظار حفل افتتاح الكاپيتول، الذي سيحضره، في القاعة نصف الدائريّة الكبرى، الوزراء وقادة الجيش وأعضاء السلك الدبلوماسي وجمهور أنيق أُحسِن انتقاؤه وفلترته وترتيبه ومراقبته، على يد فوج من رجال مخابراتنا، ارتدوا، في تلك المناسبة، بدلات سموكن متشابهة لكي لا تبدو بدلات رسميّة. وبدأت السهرة مهيبة بعرض ملابس فخمة، كتّافيّات وأكمام مطرّزة وأوسمة ونياشين - وسام إيزابيل الكاثوليكيّة وكارلوس الثالث وملكة مالطة وفيالق الشرف ووسام ليستحِ من يسيء الظنّ به[252]، أربطة وصلبان وأقوال لغوستافو أدولفو، حتّى شارات غريبة لتنّين آنام وزنبقة الماء والقوس، الذي مُنح مؤخراً لكبار موظفينا. وبعد أن عُزف النشيد الوطني، صعد المستشار الأوّل إلى المنبر تلك الليلة -واثقاً من نفسه، رابطَ الجأش- وعليه كلّ الرتب والنياشين. بدأ خطابه بنبرة متأنّية، كما اعتاد أن يفعل، وبحركات مسرحيّة متقنة، مشفوعة دائماً بدور المحامي والخطيب، ليرسم مخططاً رصيناً ودقيقاً لتاريخنا، منذ الفتح حتّى الاستقلال. وأبدى الذين كانوا ينتظرون، بسخرية مكتومة، تزويقاته اللفظيّة وأوصافه المستهلكة ونداءاته البرّاقة، إعجابهم وهم يرونه ينتقل من أجواء الملاحم التي يستذكرها باعتدال إلى عالم الأرقام البارد، الذي راح يتأمّله بدقّة رجل الاقتصاد، ليقدّم صورة واضحة ومقنعة عن حجم الازدهار المتحقق، وإن توافق هذا الازدهار -وهنا بدا التأثّر على نبرة صوته- مع أكبر مؤامرة تشهدها البشريّة لتدمير الثقافة الإغريقية-اللاتينيّة. لكنّ هذه الحضارة العظيمة ستبقى وستعيش. إنّ انتصاراً قادماً لأجدادنا الروحيين سيؤكّد

(252) بالفرنسيّة Honni-soit-qui-mal-y-pense وهي شعار إخوانية فرسان الرباط وهي أعلى مراتب الفرسان المحاربين الإنكليز.

صمود القيم التي تسطع مشرقة، حيّة، على هذا الجانب من المحيط، بينما تتعرّض للتهديد هناك. وسرّع المستشار الأوّل كلامه، في نبرة متصاعدة وإيماءات مفتوحة، ليستعيد فجأة الأسلوب الغامض المزوّق والمتكلّف الذي أثار استهزاء منافسيه، حين تطلّع ودعا سامعيه إلى التطلّع إلى هذا البناء الفخم الذي يضمّنا بين جنباته الآن، حيث تتمثّل، بالرخام وبالبرونز، قواعد العمارة الكلاسيكيّة -«ڤيتروڤيو» و«ڤينيولا» و«برامانتي»...[253]- الإغريقيّة-اللاتينيّة. وأنهى الصوتُ الملهم خطابه بدعاء إلى تلك التي تستحقّ أن تتحكّم وتسود، متجاوزة الجمهوريّة ذاتها، هذا الصرح المدني الحديث، مرشد كلّ عقل ودليل كلّ عبقريّة: «يا بوّابة أرتشيجيتيس، أيّتها المثل الأعلى الذي يجسّده العبقري في أعماله الكبيرة، أن أكون الأخير في بيتك خيرٌ لي من أن أكون الأوّل في أماكن أخرى! نعم: سأتدلى من أعلى درجات معبدك، سأنسى كلّ نظام غير نظامك، وكلّ منهج لا يوافق منهجك، سأكون ناسكاً فوق عواميدك وأروقتك، وسأجعل صومعتي فوق عوارضك. و -ما أصعب ذلك!- سأعود إليكِ، إن استطعتُ أن أعود، غير مهادن و منحازاً. (ترقّب كبير بين الجمهور) سأكون ظالماً، ربّما، في ما يمسّك، لكنّي سأكون عبداً لآخر أبنائك. سأعظّم سكّان الأرض الحاليين، الأرض التي وهبتَها إلى إريختيوس، سأسعدهم، سأسعى إلى أن أحبّهم، أن أحبّ حتّى عيوبهم، وسأقنع نفسي-يا هيبياس!- بأنّهم أحفاد الفرسان الذين يقيمون هنا في الأعالي [إشارة إلى الأعالي] حفلتهم الخالدة على رخام أفاريزك». وبدا وكأنّ المستشار الأول أنهى خطابه، فعلا تصفيق الجمهور، الذي وقف على قدميه. كان پيرلاتا، الجالس في المكان المخصص للسكرتير، مقابل الضيوف من السلك الدبلوماسي، قد لمح السفير الفرنسي وهو يضرب بكوعه على ذراع سفير إنكلترا، حين أشار

(253) أسماء معماريين إغريق وإيطاليين قدماء.

المستشار الأول إلى أركاخيتا. وحين تلفّظ بعبارة أعلى درجات المعبد، وصلت ضربة الكوع إلى جنب سفير إيطاليا؛ وبين ناسكا إلى عوارضك، وبين إريخثيوس إلى هيبياس، كانت ضربات الكوع قد انطلقت منتقلة، متتابعة، من سفير إلى قائم بالأعمال، ومن وزير مفوّض إلى ملحق ثقافي، وصولاً إلى ضلع الملحق التجاري الياباني الناشف الضامر، الذي كان نصف نائم، لأنّه لم يكن يفهم شيئاً ممّا يقال، فكان على وشك أن يُقذف به، كما الكرة الأخيرة في الجهاز الفيزياوي، إذ تُقذف في الهواء حين ترتطم بها الكرة الأولى، المساوية لها في الوزن، لتوصل طاقتها القارعة إلى ست كرات مجاورة، متشابهة في ما بينها. ضحكات تتخفّى وراء مناديل تجفّف عرقاً لا وجود له - إذ لم يكن الطقس حاراً في تلك الليلة بعد هبوب رياح شمالية برّدتها ثلوج البركان «توتيلار». وكانت تلك هي اللحظة التي قال فيها المستشار الأوّل، بعد أن استرعى انتباه الجمهور بحركة خفيفة من يده، إنّه «يشكر ذلك التصفيق على وجه الخصوص، لأنّه موجّه إلى الفذّ إرنست رينان[40]، الذي اختتم بـ صلاته على المقبرة الفقرة الرائعة التي انتهى للتوّ من إيرادها لأنّها تلبّي من جميع النواحي التطلّعات العميقة لروحه في هيبة هذه الليلة وجلالها». ودوّى التصفيق من جديد، أطول وأقوى من سابقه -فكأنّه صادر من ناس يطلبون المغفرة عن ذنب اقترفوه- ترك پيرلاتا مكانه ليقترب من سفير فرنسا ويقول له: «لقد اصطادك، أليس كذلك؟ ما هو على هذا القدر من الغباء، صديقي!». «فعلاً، ليس هو بالغبي على هذا القدر» [بالفرنسيّة]، ردّ الآخر وقد أُخذ على حين غرّة، وسرعان ما شعر بالقلق حين فكّر في أنّ ردّه المتهوّر يمكن أن تصل أخباره إلى «كاي دورسي»[172] التي لم تكن في هذه الأيام في وضع يسمح بالمزاح، فقد كانت أرسلت اللبق اللامع أليكس ليجير إلى

الصين بينما عيّنت پول كلوديل وزيراً مفوّضاً في ريو دي جانيرو، لرفع المستوى الفكري البائس للممثّليات الفرنسيّة في آسيا وأميركا اللاتينيّة. وفي تلك اللحظة وقعت الفوضى، فغودرت المقاعد بلا نظام، وتسابق الجميع في النزول على الدرج والتدافع نحو الأبواب، للوصول قبل الآخر، وقع اقتحام، انهيار، دفع بالأكواع والعكوس، من أجل بلوغ بوفيه مفتوح كبير وُضعت على موائده صواني فضية كبيرة، فيها ما لذّ وطاب من الأطباق المستوردة -نيويورك وباريس- فضلاً عن الأطباق المحليّة: درّاج بريشه، سمّان بطعم الكمأة، خنزيز صغير محشو بخليط الغلانتين بالفستق، تامال بالشطّة والديك الرومي بصلصة التوت البرّي وحلويات سان أونوريه بالكريم وحلوى الكأس والمارون غلاسيه ومعجنات التمر هندي ووجبات خفيفة محليّة أسفل الكافيار الأسود والأحمر المحمولة على ظهور فيلة حُفرت بالثلج، أشرفت عليها في الوسط والمقدّمة الحلويات الهندسيّة المعمولة من البيض والسكّر والمقرمشات التي تصوّر الكابيتول صورة طبق الأصل، من دون عمود واحد ينقصه، بتماثيله ومسلّاته من المعجنات - وكان كلّ ذلك موضع إعجاب وتذوّق بين نبيذ وخمور، عرق وتكيلا، بينما راحت تظهر زجاجات جديدة من الشمبانيا وُضعت لتبرد في أوانٍ مليئة بنبيذ وردي مثلّج من أجل عرض أجمل لعنق الزجاجة المذهّب. وشرب الجميع الأنخاب، متحلّقين حول الجمهوريّة العملاقة، بينما راحت أوركسترا، رُفعت إلى أعلى القبّة، تعزف موسيقا الدانزون والبامبا الكريولية، بالتناوب مع ڤالس بيو تيفول أوهايو أو سينكوپات پريتي بيبي. وبعد ذلك أُطلقت الألعاب الناريّة، التي تساقطت، بعد أن أشعلت السماء، سيولاً وشلالاتٍ من نجوم ومشاعل، فوق أسطح المدينة وأسقفها. وفي الساعة الثانية فجراً -بحسب رئيس التشريفات لا يمكن أن تتجاوز السهرة

الرسمية ذلك الوقت- عاد پيرلاتا والمستشار الأوّل إلى القصر، مرهقَيْن، ولكن سعيدَيْن، وبهما رغبة شديدة لخلع بدلة الفراك وشرب شيء أقوى وأبسط من تلك التي شربوها في الاحتفال. كانت لامايورالا إلميرا بانتظارهما في الغرف الرئاسيّة، وهي في قميص نومها، وإن سترت صدرها من الهواء البارد الذي كان يهبّ من ناحية الجبال ويتسلل عبر الأبجورات. ولمّا كان السكرتير قد أوفى بوعده وجلب لها شيئاً مما قُدِّم في بوفيه الحفل، فقد راحت الزامبا المستطلعة تُخرج الأشياء من السلّة، وهي في شكّ من أنّها تناسب ذوقها، تُخرجها من السلّة، الواحدة تلو الأخرى، بحذر خبير متفجّرات يتفحّص محتويات حقيبة فوضوي مشكوك فيه وفيها. وراحت تصف كلّ شيء بما يعيبه: فقواقع بورغونيا «غرويّة»، والكافيار «خرادق مغمورة بالزيت»، والكمأة «فحم حطب»، والحلوى «تورّون يريد أن يتشبّه بتورّون خيخون». لم يستطع الرئيس، وقد بلغ به السكر مبلغه وراح يطلب المزيد من الشراب، النوم، بينما امتدح پيرلاتا التوظيف العبقري لنص إرنست رينان.. «ألم يقولوا إنّ خطابي كان متكلّفاً ومثيراً للضحك؟ -قال الرئيس-: ما أتأسف له أن صديقنا الأكاديمي لم يكن حاضراً معنا. لكان وقع هو الآخر في الفخ». «فذلك النثر بدا وكأنّه كتب خصيصاً لافتتاح الكابيتول -قال پيرلاتا-: وفيه تهديدات مناسبة للأنذال في المعارضة...». تطلّع المستشار الأوّل عبر النافذة إلى مشهد مشوّش من سقالات وأعمال بناء لن تلبث أن تمتلئ بالعمّال. من بعيد يظهر البركان «توتيلار» وهو بعدُ في رداء ضباب الفجر الأبيض. كانت لامايورالا، بعد أن عبّت الزجاجة السادسة من البيرة، قد عبرت، وفم الزجاجة في فمها، سريرها الميداني في الباب، واستلقت لتنام -تلك كانت عادتها- وفي متناول يدها بندقية قصيرة الماسورة. ونام پيرلاتا، وهو ثمل، على أريكة الجلد، عريضة المسند ووثيرة الوسائد، وقد أدار ظهره إلى

الموقد الذي يعود طرازه إلى عصر النهضة -رُسم في أعلاه خنزير شوكي، شعار لويس الثاني عشر- حيث تتلألأ، وقد عازته النار التي لا توقد أبداً، مصابيح حمر بين حطب متوهّج خدّاع. «نجح الحفل نجاحاً باهراً، نجاحاً حقيقياً»، قال المستشار الأول وأعاد القول، وهو يسمع النداء الخافت لصلاة الصبح في الكاتدرائية - كان أمر بخفض صوته، لأنّ الناس ما عادوا يستيقظون باكراً كما كانوا يفعلون، وقد طلبوا ألّا تُقرع النواقيس بالشدة التي كانت تُقرع بها. واصل طوافه، من مقعد إلى مقعد، يحمل كأسه الأخيرة، هي دائماً قبل الأخيرة. لكنّ الرجل، ذا الليالي القصيرة والقيلولة الطويلة، الذي يعذّب، باجتماعات ساعات الفجر، مساعديه وأعوانه، لم يحسم أمره تلك الليلة، ولم يخلد إلى النوم لساعات في شبكته -شبكة صيد طويلة منسوجة، مثل تلك التي في باريس-، وظلَّ بانتظار الحمّام الذي ستجهّزه له، كما جرت العادة، لامايورالا إلميرا، معطّراً بالأملاح الإنكليزيّة وبدرجة حرارة تناسب درجة حرارة الجسم. إنّ إنجاز الكابيتول ليشعل عواطفه ويجعله سعيداً. ستُرسَل صور البناء إلى سفاراتنا لتتولّى نشرها في صحف أوروبا والقارّة - بعد تحديد الدفع حسب الأعمدة والتعريفة حسب السنتمترات، كما جرت العادة في حساب سعر التعليقات التي ترافق الصور. هكذا سيرى العالم كم توسعت هذه المدينة، التي لم تكن بداية القرن إلا ضيعة كبيرة، محاطة بقفر ترتع فيه الأفاعي، وبتلال جرداء، وأحراج منحوسة وماء آبار، تعمّرها أسراب البعوض، وتجول في شوارعها الأغنام، يتبعها صياح الفلّاحين وصفيرهم. كان مستغرقاً في أفكاره تلك حين علت أصوات أبواق بعيدة. كانت الشمس قد بزغت والنهارُ ولد، وظهرت أولى عربات الترام وهي تنقل ناساً يحملون السلال والأخراج والأسفاط إلى الأسواق، بينما علت زقزقة العصافير وهي في أقفاصها وراحت السلاحف تجترّ أوراق الخسّ في صناديقها. نظر

المستشار الأوّل إلى أجندة مواعيده. لا اجتماعات لديه اليوم ولا مجالس ولا التزامات. فليغيّر إذاً تسلسل طقوسه: سيدخل إلى الحمّام أوّلاً؛ ثمّ ينام حتّى الضحى. لكنّه استلقى على الأريكة وراح يأكل شوكولا محشوة بالخمر، متردّداً لا يستقر على رأي. «اطلب ما بدا لك، يا صاحب السيادة!»، همست لامايورالا، وكأنّها تتكلّم في المنام. «سأقول لكِ في الحال، عزيزتي. لا تستعجلي!». أحسّ بالتماهي مع البركان الذي كشف عن نفسه بعد أن تحرّر من السحاب المزعج، سيّداً قويّاً، في صخب حدوده الكوارتزيّة وزرقة نطاقه الكاملة. وراح يكرر لنفسه: «نجاحٌ.. نجاحٌ.. وإلّا!». وفي تلك اللحظة، هزّ القصرَ انفجار شديد. انهار زجاج الواجهة؛ وهوت الثريات من السقوف؛ وسقطت زجاجات وتهشّمت كؤوس وتناثرت قطع السيراميك وأطباق الزينة - بل لقد انقلعت بعض اللوحات من مكانها على الجدران. لقد انفجرت قنبلة كانت موضوعة في حمّام المستشار الأوّل، وانبعث منها دخان كثيف له رائحة اللوز المرّ. نظر الرئيس إلى الساعة شاحب الوجه ممطوطه من كثرة ما جاهد لكي يبدو متماسكاً: «إنّها السادسة والنصف.. ساعة حمّامي.. كم أنا آسف، أيّها السادة؛ لقد فوّتُّ الفرصة عليكم اليوم!». وبينما خفّ الحرس والخدم والخادمات، في حشدٍ، مهرولين، وراحت لامايورالا تنادي على الآخرين، قال المستشار الأوّل، وهو يشير نحو المدينة: «ما كان لِما وقع أن يقع لو أنّ يديّ هاتين لم تكونا بالِغتَي اللِّين!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

اثنا عشر

ولكن هناك لا أدري أيّ مضلّ شديد البأس شديد المكر، يبذل كلّ ما أوتي من مهارة لإضلالي على الدوام[254].

ديكارت

أيقظت مكالماتٌ تلفونيّة مصدرُها الدكتور بيرلاتا الوزراءَ من نومهم - تأخروا في النوم لأنّهم أتبعوا العشاءَ الرسميّ في بيوتهم بهواضمَ من شراب جيّد، شراب «إيزارّا» الأصفر، و«البنيدكشن» الأخضر، و«الشيري» براندي. كان السكرتير يستدعيهم لحضور اجتماع طارئ على الساعة الثامنة والنصف صباحاً، ويطمئنهم بأنّه سيسقيهم من القهوة ما سيكون كفيلاً بنقلهم من دوخة ما شربوه البارحة إلى الصحوة التي يقتضيها الظرف الراهن. قادتهم لامايورالا إلميرا عند وصولهم -يمضغون النعناع ويطلبون الأسبرين ويُغرقون عيونهم بالقطرة المناسبة- إلى حمّام الرئيس ليعبّروا عن غضبهم ويعربوا عن سخطهم وهم يتأملون مشهد بلاطات البورسيلان المحطّمة وألواح المرايا المهشّمة، بقايا المقابض ومواضع

(254) «التأملات في الفلسفة الأولى» Méditations Métaphysiques، ترجمة: عثمان أمين، ص121.

الصابون مغمورة في برك من ماء الكولونيا، أمّا حوض المرحاض فقد نُزعت صنابيره من مكانها وراحت تلفظ الماء كما تلفظه النافورة، بل لقد انهار السقف الثانوي من هول الانفجار. «فظيع! رهيب! غير معقول! يا لطيف!». «لم أشأ أن أدخل معكم -قال المستشار الأوّل، بنبرة درامية، بعد أن جلس الجميع-: لأنّي أخاف من غضبي!». ساد صمتٌ غامض، مشحون بكلّ منذر ومحذّر. ثمّ قال بصوت هادئ: «لنبدأ أيّها السادة!». أحاط السكرتير الحاضرين علماً بما حدث ومتى وكيف.. خلص التحقيق الذي قام به الكابتن بالبيرده، رئيس الشرطة القضائية، حول الحادث، إلى أنّ قسماً من الحرس الجمهوري نُقل أمس، بمناسبة افتتاح الكابيتول، إلى مكان الاحتفال، ولم يبقَ من حراسات القصر ما يكفي، وجرت تغطية النقاط المهمة بعناصر تنقصها الخبرة. ولكن، لم يدخل أيّ شخص من غير المكلّفين بالخدمة والموثوقين إلى المبنى بعد تبديل الحراسات. «ثمّ إنّ القنبلة التي انفجرت -قال الرئيس-: ليست من النوع الذي يمكن حمله في الجيب. هي قنبلة موقوتة، وقد تُركت قبل ساعات طويلة خلف حوض البانيو. لم تكن قنبلة صنعها هواة من النتروبنزين والبارود الأخضر أو حامض البكريك، بل قارورة أعدّها أشخاص ذوو خبرة واختصاص، أشخاص يعرفون ماذا يفعلون. يقول خبير المتفجّرات إنّ رائحة اللوز المرّ، وكانت ما تزال تملأ الأجواء، هي ثمرة تقنيّة عالية». أمّا الفرضيات فتتراوح بين أن يكون الفاعل هو تنظيم RAS (ثورة-فوضويّة-نقابيّة) الذي رسم، قبل أشهر مضت، شعاره على جدران المدينة؛ أو أعوان الدكتور لويس ليونثيو مارتينيث، وقد تبيّن أنّه أكثر نشاطاً مما تصوّرنا، وأنّ جماعته تتحرّك كثيراً في الآونة الأخيرة -وبمهارة، يجب الاعتراف بذلك- حتّى استمالت قلوب المؤيّدين في العاصمة وفي المحافظة؛ أو الطلبة، ربّما، وهم دائماً بين هيجان وتحريض (ولماذا لم تغلق اليوم جامعة سان لوكاس؟)؛ أو

عدميين من الروس («تفاهات»، همهم الرئيس)؛ أو أعضاء من اتحاد العمل الأميركي من جماعة صامويل غومپيرس («لا، لا تضحكوا!») ممّن كانت لهم مؤخّراً نشاطات ثوريّة في شمال المكسيك. «ولا تنسَ الأدب الأحمر!»، قال وزير التربية. «نعم. هذا هو: الأدب الأحمر»، كرّر الآخرون. لكنّ رئيس الشرطة القضائية لا يرى علاقة بين حادثة الصباح وتداول كتب من مثل مُتع القياصرة، الذي تبيعه مكتبة «باربادّيو»، والذي اطّلع عليه مؤخراً، ويظهر فيه الإمبراطور أوكتاڤيو، في نقوش رومانيّة، وهو يمدّ يده -وبأيّ طريقة يمدّها!- على ابنته خوليا، بينما يظهر نيرون في نقش آخر وهو يقوم بأفعال لا يمكن تفصيلها هنا احتراماً للحضور. «ليس المقصود هذه الكتب، لا نتحدّث عن قصص ملوّنة لا تؤذي في نهاية المطاف أحداً -قال وزير التربية-: بل عن كتب تتحدّث عن الفوضويّات والاشتراكيّات والشيوعيّات والعماليات الأمميّة والثورات... الكتب الحمر: هكذا تسمّى في كلّ مكان». «لنظلّ في موضوعنا، أيّها السادة؛ لا نخرج عن الموضوع!» -قال رئيس الشرطة القضائيّة، بشيء من الاستياء. المشكلة أسهل. فقريباً من هنا -والجميع يعلم بذلك- توزّع منشورات تزخر بالشتائم للحكومة، كُتبت بأسلوب بلدي واضح - ترّهات، بالطبع، أكاذيب من تلك التي اعتادت المعارضة إطلاقها. لا عدميون ولا فوضويون نقابيّون، ولا جماعة لا أدري ماذا؟ «ما قاله السيد الوزير، فأنا لا أعرف الإنكليزيّة». الأعداء ببساطة هم سياسيون متسترون، «يطبّلون ويزمّرون» للإطاحة بالحكومة. إنّهم يراقبوننا، يترصدون حركاتنا؛ وها قد بدؤوا، بما فعلوه البارحة، حرباً مفتوحة. والحربُ بالحرب، قال، وهو يضع مسدسه على المنضدة. «ولكن، علينا أن نعرف أولاً أين هم»، قال الرئيس. «دع الأمر لي، سيّدي. أنا أعرف من أين نبدأ. لديّ بعض الأسماء، ويمكنني أن أقرأها على سيادتك إن أردتَ!». «من الأفضل ألا تقرأها، كابتن. فقد

يرقّ قلبي لبعض من ستذكر أسماءهم. أنا أضع ثقتي فيك. تصرّف أنتَ. بسرعة وبقوّة. أظنّك تفهمنيّ». «مع ذلك، الحذر واجب، لأنّ الخطأ قد يكلّف غالياً»، قال پيرلاتا. «الخطأ من طبع البشر»، أضاف المستشار الأوّل، مقتبساً عبارة لاتينيّة مذكورة في موسوعة لاروس المصغّرة. وأمر المستشار الأوّل بإحضار زجاجات الكونياك، محاولاً بثّ الروح في وجوه وزرائه الشاحبة، التي استطالت من قلق وسهر: «كأس واحدة، لا أكثر»، قال وهو يصبّ لنفسه. «جاءت في وقتها»، ردّد الآخرون. ووصل البنّاؤون والسبّاكون يحملون ألواح البورسيلان وجهاز اللحيم وعدّة البناء وأدواته، لإصلاح ما لحق الحمّام من الضرر. «مع ذلك، لا تغفلْ موضوع الأدب الأحمر»، قال المستشار الأوّل مخاطباً رئيس الشرطة القضائيّة، ولكن بنبرة من لا يولي الموضوع اهتماماً كبيراً. «لا عليك، سيدي! لديّ ناسٌ مختصّون بهذا!»، قال رجل الشرطة، وهو يودّع بعجلة من يتحرّق شوقاً للشروع في تنفيذ ما عزم على تنفيذه. «اليوم سنشهد حملة كبيرة على أنصار الجرمانيّة»، قال پيرلاتا.

وعاش سكّانُ العاصمة ذلك اليوم، عند الثانية ظهراً تقريباً، مشهداً غريباً ومفاجئاً. كانت ساعة عودة الموظّفين إلى دوائرهم، ساعة ما بعد الغداء في المطاعم، ساعة القهوة في تراسات التورتوني ولا غرانخا والماركيز دو سيڤينييه... المظلّلة، التي أُقيمت مؤخراً، على غرار تراسات باريس، وكانت الشوارع تغصّ بالمارة. ظهرت فجأة سيارات صغيرة -من نوع فورد، بالتأكيد- تطلق صفّاراتها، تتبعها أقفاص سودٌ تسير على عجلات، أقفاص على شكل صناديق كبيرة مشبّكة بقضبان الحديد، وقف على سلالمها الخلفيّة عناصر من الحرس، متجهّمين صارمين مسلّحين. وسرعان ما علم الناس أنّ تلك العربات المشؤومة، التي اشترتها الحكومة مؤخراً، جاءت لتحلّ محلّ عربات نقل السجناء «التي تشبه حيوان

الأرماديّو المدرع -أو «أقفاص العصافير»-، وكانت، حتى ذلك الوقت، تستعمل لتجميع السكيرين والمشرّدين والنشّالين واللوطيين الهائمين في الشوارع. لوحظت أيضاً حركة محمومة للشرطة في المدينة. درّاجات ناريّة تروح وتغدو. محققون سرّيّون يظهرون هنا وهناك، يكشفون عن هويتهم بحرصهم الزائد على «عدم لفت الأنظار إليهم» - يرتدون ملابس هي خليط بين ملابس المندوبين التجاريين وماركة «النايك كارتر»، لا تدع مجالاً للشك. فضلاً عن تلك الصفّارات المدوية المقلقة التي تتخاطب في ما بينها، من حيّ إلى حيّ، متجاوزة السقوف والسطوح - مشيعةً الفزع والقلق في أجواء المباني الحديثة. «شيء ما يحدث -قال الناس، وقد فوجئوا ودُهشوا-: شيء ما يحدث». وما أكثر الأشياء التي تحدث. وما أكثر الأشياء التي حدثت ذلك اليوم الذي راحت أجواؤه تكفهرّ من مطر خفيف بدأ بالهطول. عند الثانية والنصف من بعد الظهر، وبينما كان مساعد رئيس الجامعة يشرح، من كرسيّه الجامعي، مذهب الاسمانيّة ومذهب الإراديّة عند وليام الأوكامي[255]، اقتحمت الشرطة المكان واعتقلته واعتقلت تلامذته لأنّهم احتجّوا على ما تعرّض إليه أستاذهم من اعتداء. بعد اقتحام كلية الإنسانيات، اعتُقل ثمانية أساتذة آخرون، بعد أن اقتيدوا ركلاً ودفعاً، إلى العربات الجديدة. وحين تعب الكابتن بالبيرده من سماع رئيس الجامعة ينادي بقوانين عفّى عليها الزمن وبحكم ذاتي، بادره بضربة ألقته، هو وعباءته وقلنسوته وعصابته، في نافورة الباحة المركزيّة، بعد أن حاول بلباسه الأكاديمي أن يردع المعتدين ويلزمهم باحترام المقام وحرمة المكان. عند الساعة الثالثة، داهمت السلطات -تحت إمرة الملازم كالبو، وهو خبير مكلّف- عدة مكتبات، مختصّة ببيع كتب من مثل أسبوع

(255) William of Ockham (1288-1348): راهب إنكليزي ومن أعظم مفكّري القرون الوسطى.

برشلونة الأحمر (وهو كتيّب حول مقتل الفوضوي فيرّير)، وفارس البيت الأحمر، والكتاب الأحمر، والفجر الأحمر (پيّو باروخا)، والعذراء الحمراء، «سيرة لويز ميشيل»[256]، والأحمر والأسود، والحرف القرمزي لناثانيال هاوثورن[257] - وكلّها، بحسب الخبير، من كتب الأدب الأحمر، الزاخر بالدعاية الثوريّة، المسؤولة، في حالات كثيرة، عن حوادث كذاك الذي وقع البارحة في القصر. وحُملت الكتب في عربات بأربع عجلات، لتأخذ طريقها إلى محرقة النفايات التي كانت قد أقيمت مؤخراً في أطراف المدينة. «احملوا أيضاً قصّة ذات الرداء الأحمر»، صرخ أحد التجّار، وقد فلتت أعصابه. «أنت معتقل بتهمة التندّر والسخرية!» - قال الملازم كالبو، وهو يسلّمه إلى أحد جنوده. ثمّ بدأت -كانت الساعة الخامسة تقريباً- حملات لمداهمة المنازل: تقاطر رجال شرطة كما المطر من السماء، ركضوا على الأسطح ونزلوا في الباحات ودخلوا إلى المطابخ وكسروا الأبواب وفتّشوا تحت الأسرّة ونبشوا الخزانات وبعثروا الدروج وفتحوا الصناديق، بين صراخ النسوة وبكاء الأطفال ولعنات الجدّات - واحتجّ الجدّ المسلول، من على كرسيه ذي العجلات، وغضب، فضُرب ضرباً مبرحاً لأنّه قال إنّ المستشار الأوّل ابن قحبة وإن المرحومة دونيا أيرمينيخيلدا، التي طالما وصفوها بالقديسة، تعبت من مداعبة عضو شاب من ضباط الحرس الجمهوري، شهير بضخامة عضوه. حلَّ الليل، بين إشاعات عن حالات اعتقال وتوقيف واختفاء بين صفوف «عناصر مخرّبة»، عملاء ألمانيا، اشتراكيين من أنصار الجرمانيّة، من دون أن يبدو الاضطراب على نشاط المدينة وحركتها. أُشعلت الإعلانات الضوئيّة في «بينو مارياني»

(256) Louise Michel (1830–1905): شاعرة ومعلّمة فرنسيّة وُصفت بأنها «فوضويّة» فرنسا الأولى.

(257) Nathaniel Hawthorne (1804–1864): روائي أميركي.

و«جيرالدوز» و«أورودونال»، وعلت أصوات أجراس دور السينما، بينما راح الناس في المقاهي والبارات يبحثون عبثاً عن الأخبار في طبعات الصحف المسائية، التي كانت تتكلّم عن كلّ شيء إلا عمّا كانوا يبحثون عنه. حدث ما يشبه الاستراحة في حركة الأقفاص السود، وعزفت فرقة الإطفائيّة، في ميدان الحديقة المركزية، مارش سامبغ اي ميوز العسكري، وباليه شمشون ودليلة وقطعاً من موسيقا الـ«پاسو دوبلي»، التي تُعزف في حفلات مصارعة الثيران، فاليوم خميس. وغصّت شوارع المركز -«سان إيسيدرو» و«شايوتا» و«مانغي» و«إيكونوميّا» و«سان خوان دي لتران»...- بالناس. لكنّ مداهمات فجائية وشرسة بدأت عند الساعة الحادية عشرة، شملت بيوت الدعارة ونوادي القمار غير المرخّصة والحانات وحفلات الرقص على أنغام الكمنجات والقيثارات. واعتُقل كلّ من لم يستطع أن يثبت أنّه موظف حكومي أو عسكري، وحُشروا -كان بعضهم من دون ملابس-، في شاحنات عسكريّة تمهيداً لنقلهم إلى السجن المركزي القديم، الذي كانت زنزاناته وممراته وباحاته تغصّ بالبشر. وحين أصبح الصبح كانت أجواء الرعب تخيّم على المدينة. تواصلت الاعتقالات. وواصلت الأقفاص السود حركتها. مع ذلك، وعلى الرغم من كلّ الرعب والمداهمات والاعتقالات، فقد عثرت لامايورالا إلميرا ذلك المساء، وهي تنظّف قاعة الاجتماعات، على علبة بسكويت، موضوعة وراء كتاب تاريخ العالم لقيصر كانتو، فأثارت شكوكها، وقد تبيّن أنّ داخلها قنبلة بدائية من صنع منزلي كان متدرّب على المتفجّرات من حرّاس القصر قد أبطل مفعولها. «لا بدّ من تشديد الإجراءات»، علّق پيرلاتا.

مع تقدُّم السن وتصلّب الشرايين، ابتُليت عينا المستشار الأوّل -كان يرفض أن يلبس النظّارات لأنه لا يحتاجها للقراءة- باضطراب يُفقده

القدرة على رؤية البعد الثالث. صار يرى الأشياء، من بعيد أو من قريب، مسطّحة، من دون بروز، من دون بُعد ثالث، صوراً شبيهة بالتي تُرسم على الزجاج القوطي المعشّق. وهكذا كان يرى الرجال من ذوي الألوان الطبيعيّة النظامية، بأشكال زجاجيّة قوطيّة معشّقة -فهذا، أزرق وأسود، وذاك، أبيض وذهبي، والآخر، ذو سترة عسكرية صفراء رمليّة- يحدّثونه عمّا فعلوه في أمسهم، وعن ليلتهم التي أمضوها في مراكز الشرطة والسجون والمعسكرات والمعتقلات، محاولين انتزاع الاعتراف والأسماء والعناوين والتقارير ممن لا يريدون الاعتراف. كلام عن تغطيس وتعذيب، مشانق وعنف، مرفق بكاتالوجات لكمّاشات وهراوات ومحارق، وحتّى عرانيس الذرة -هذا للنساء-، مشاهد لقدّيسين يُعذَّبون، وملعونين يسقطون، منقولة إلى الزجاج المعشّق العظيم المفتوح على الألق البعيد لبركان «توتيلار». وبعبارة «شكراً جزيلاً، أيّها السادة»، تنكسر موجة الزجاج الأوّلى، ينزاح اللون الأزرق والأبيض والأصفر من الصورة الأوليّة، ويدخل رجالُ استراق السمع والنظر من أحد الأبواب، يدخلون ليصبحوا في طبقات الزجاج الثانية. إنّهم المطلّون، السامعون، الكثيرون، المبثوثون، المنتشرون، الممثّلون، أساتذة فن التوليد[258]، خبراء الحدس والتخمين والاستدلال، الذين لا يكتفون بنقل ما حصلوا عليه من معلومات بالتحايل، وما تلقّفته منه نباهتهم على الطاير، وما وصل إليهم مبتوراً، ولا تكفيهم عبارة الإدانة التي فلتت من اللسان في حفلة استقبال دبلوماسيّة، أو عند المشرب في أحد البارات، أو في دفء غرفة النوم -هم في كلّ مكان، يدخلون غير مرئيين، ضيوف زجاج، بُكْم، إن كان ذلك مفضّلاً، مندسون، نمّامون، وغالباً ظرفاء...- بل هم مراقبو مراقبين، ملاحظو ماكرين، حفظة

(258) Maieutics: الجدل السقراطي الذي يُستعمل لتوليد التعريفات ضمنياً من معتقدات المتحاورين.

ما يخترعه معاونو المستشار الأوّل وما ينسجه ويحيكه أقرباؤه وجلساؤه، لصالح ظلّهم العالي. وهكذا، كان يطّلع، وهو يستمع إلى ما ينقله له أتباعه، ممن يحشرون عيونهم في فتحات الأقفال ويدسّون أنوفهم في شؤون الخلق، غاضباً مرّة وضاحكاً أخرى، على أغرب المشاريع التي تجري من وراء ظهره وأعجبها: مشروع جسر على نهر لا وجود له على الخريطة. مشروع مكتبة بلديّة بلا كتب. مشروع فحول نورماندية لم تعبر المحيط. مشروع لُعب وكتب تعليم القراءة لرياض أطفال لا وجود لها. مشروع مراكز أمومة ريفيّة لم تقصدها الفلّاحات قطّ، طبعاً، لأنّهنّ في العادة يضعن المولود وهنّ جالسات على طابوريّة مفرّغة، ويشددن حبلاً مدلّى من السقف بعد أن توضع قبّعة الزوج على رؤوسهنّ لكي يكون المولودُ ذكراً. مشروع تماثيل ونُصُب حجريّة كيلومتريّة ظلّت حبراً على ورق. مشروع أفلام إباحيّة تباع في علب شوفان كويكر. مشروع ورق اللعب الصيني (أطلقوا على «لعبة الستة والثلاثين وحشاً» [بالفرنسيّة] اسم البارون دي دروموند، وكان هو من أدخل يانصيب صور الحشرات المرقّمة الكانتوني إلى أميركا) الذي تتقنه خليّة مكافحة الألعاب غير القانونيّة في الشرطة الوطنيّة. مشروع إريكتيل لمشروب كوري معمول من ذرة اليبروح الخريفي في القارورة، متسلّق «سانتو دومينغو» للفحولة، مساحيق غطاء السلحفاة ومستخلصات الذباب الهندي. مشروع مكائن السلوت -ثلاثة جلاجل أو ثلاث برقوقات أو ثلاث كرزات متشابهة: جائزة كبرى- يديره رئيس جهاز الشرطة السريّة؛ مشروع شهادات الميلاد الدائمة لـ«الممنوعين من الإقامة» وللفرنسيين الهاربين من جزيرة الشيطان[139]، ممن يرغبون في أن يشاركونا المواطنة وحمل جنسيتنا. مشروع استشارات فلكيّة، عِرافة، قراءة الفنجان، قراءة كارتات، أبراج بالمراسلة، نسّاك هندوس -كلّها ممنوعة قانوناً- يشرف عليها وزير الداخليّة. مشروع «ستريوسكوبات أنيقة»،

مسموح بها في الاحتفالات ومدن الملاهي، وهي من حصّة الكابتن بالبيرده. ومشروع بطاقات البريد الكتلانيّة -الأرقّ من الفرنسيّة، كما يقول العارفون-، وهو للكابتن كالبو. ومشروع «شراشف العرسان المباركة» [بالفرنسية] [كذا]، التي تُصنع في حيّ «ماريه» بباريس، لتباع مع جهاز العروس المسيحيّة. كان المستشار الأوّل يتأمّل، كلّ صباح، بين مستمتع ومستاء -مستمتعاً أكثر منه مستاءً- مهرجان النصْب والاحتيال ذاك، فيرى فيه مكافأة بسيطة لأتباعه ومقابلاً على إخلاصهم وولائهم، مدفوعاً بالعملة الفلكلوريّة. أمّا هو فلم يكن رجلَ أعمالٍ صغيرة. بل صاحب شركات يديرها أشخاص آخرون نيابة عنه، إنّه سيّد خبز وسمك، غلال وأغنام، ثلوج وعيون، ما يسيل وما يدور، تحت مسمّيات وعلامات ومجمّعات تجارية ووكالات وشركات، مغفلة دائماً، لا تعرف الإفلاس ولا الخسارة. راح المستشار الأوّل، إذاً، يتأمّل زجاجه المعشّق الصباحي، لكنه لاحظ أنّ هناك شيئاً لم يفلح أعوانه هؤلاء في إدراكه، على الرغم من الرعب الذي دبّ في قلوبهم منذ انفجار القنبلة. شيء أفلت من أيديهم. شيء لا توقفه الاعتقالات ولا التعذيب ولا الحصار: شيء يتحرّك من تحت الأرض، في الأرض التحتانية، يظهر من سراديب المدينة المجهولة المهمّشة؛ شيء جديد على البلد، جديد في ظهوره، غير متوقّع في تظاهره، غامض في آلياته، لا يفلح الرئيس في تفسيره. تبدو الأجواء وكأنّها تتغيّر بفعل غبار طلع غير محسوس، خميرة دفينة، قوة زلقة، متزحلقة، خفيّة، لكنّها، مع ذلك، ظاهرة، صامتة، ولكن بنبض حيّ لمنظومة دموية، في قصاصات ورقيّة سريّة، إعلانات، شعارات، منشورات بحجم الجيب، تظهر يوميّاً، تطبعها مطابع خفيّة («...أَوَتعجزون عن العثور على شيء يصعب إخفاؤه ويستحيل كتمُ ضجيجه؟»، يصرخ المستشار الأوّل في صباحاته وقد صعد الدم إلى رأسه من الغضب) حيث ما عادوا يشتمونه بطريقة الكريول

البلدية، أو بلغة المجمّعات السكنيّة الشعبية، بعبارات فيها طباق وتورية واستعارات، ولا بنكات صعبة الاختراع، كما كان يحدث سابقاً، بل صاروا يعرّفونه بـ الدكتاتور (وما أكثر ما تجرحه تلك الكلمة! بل إنّها عنده أسوأ من أيّ نعت بذيء، ومن أيّ نبز فاحش، لأنّها باهظة الكلفة في البلاد الأجنبيّة -ولا سيّما في فرنسا-)، وصاروا يكشفون للناس، بلغة موجزة وواضحة، أشياء كثيرة -أفعالاً، صفقات، قرارات، تصفيات...- ما كان لها إطلاقاً أن تصل إلى علم الناس. «ولكن... مَن، مَن، مَن عساه يقف وراء نشر هذه الوثائق والمنشورات والافتراءات المشينة؟!»، يصرخ المستشار الأوّل، كلّ يوم، أمام زجاجاته المعشّقة المألوفة، بوجوهها المتعرّقة المتشنّجة التي وتّرها عجزُها عن العثور على جواب. يُدمدم أصحاب اللون النظامي بشيء، يتهامسون بشيء، بلون أزرق وأبيض وأصفر؛ ثمّ يردّد خلفهم أتباع المنهج السقراطي، المحاججون والممحّصون، يناقضون ويخالفون، مستندين إلى منهج الاستبعاد والطرح. يدقّقون في الكتابات ويقرؤون، علّهم يعثرون على مُتّهم بين السطور. ليسوا هم الفوضويين: فهؤلاء معتقلون جميعاً؛ ولا أتباع لويس ليونثيو مارتينث، الذين تغصّ بهم سجونُ البلد؛ ولا المعارضين الخوّافين الذين ينتمون إلى أجنحة سياسية أخرى، وهم تحت المراقبة، من دون وسائل تقنيّة تسمح لهم بالحصول على مطبعة سريّة تنجز تلك المهمّة المتواصلة والمثيرة للأعصاب... وهكذا وصلوا، بالحدس والتخمين، بعد أن طُرحت فرضيات، وحُسبت احتمالات، وجُمعت قطع متفرقة، ورُكِّبت خيوط سائبة، على طريقة الپازل الإنكليزي، إلى بناء كلمة واحدة: شُ يُ وْ عِ يّ ـة، فرضت نفسَها فرضاً على الأذهان. ولكنّنا -فكّر المستشار الأوّل في الأمر، وهو مع پيرلاتا وحدهما- قومُ رواياتٍ وخيال بامتياز، كما هو حال الأميركان اللاتينيين كلّهم. يكفي أن يطلق العالم شيئاً -موضة، منتوجاً، فكراً، فكرة، صرعة في

الرسم، في كتابة الشعر، في قول تفاهات- حتّى نتبنّاه بحماس. نجد مصداق ذلك في المستقبليّة الإيطاليّة، وفي إكسير الشباب الذي أنتجه الراهب ساوري، سواءً بسواء؛ في الثيوصوفيا وفي مسابقات المطاولة في الرقص؛ في الكراوسيّة وفي المناضد الدوّارة. وها نحن نرى الشيوعيّة الروسيّة، الغريبة والمستحيلة، التي أدانتها جميعُ الأرواح الشريفة منذ معاهدة برست ليتوفيسك المخزية[259]، تمدّ بأذرعها نحو أميركا. ليس مؤيّدو تلك الإيديولوجيّة الغريبة علينا، والتي لا مستقبل لها بيننا، كثيرين -لحدّ الآن نشاطاتهم ليست بادية للعيان-، مع ذلك، فهناك من رأى فيها محرّكاً ممكناً، بعد أن برزت أمام الحضور صورة تافهة لشاب يحمل لقب آلباريث أو ألبارو أو ألبارادو -پيرلاتا لم يتذكّر على نحو دقيق- اشتهر بلقب «الطالب»، قال، في خطاب له عالي النبرة شديد اللهجة: «ما أنا إلا طالب. فلا تروا فيّ أكثر من ذلك، الطالب» - وقد برز اسمه في اضطرابات جامعيّة سابقة. كان أحد المخبرين قد سمعه يُثني مؤخراً على لينين ذاك، الذي أطاح بكيرينسكي[260] في روسيا وأقام نظاماً لتوزيع الثروات والأراضي والماشية وأواني الفضّة والنساء. «عليكم أن تبحثوا عنه! -قال الرئيس-: ربّما نجد هناك شيئاً». لكنّ الزجاج المعشّق لكلّ صباح تحوّل فجأة إلى لوحة رعب. لا سبيل إلى القبض على الطالب. فهو لم يكن قطّ هدفاً للمراقبة المشدّدة، وهو غير عدوانيّ -إنّه يبدو شاعراً أكثر منه سياسياً- لذلك لم يشدّد خبراء الأمن على نحو دقيق في مظهره وقامته وتقاطيع وجهه وجسمه. فمن قائلٍ إنّ عينيه خضراوان؛ ومن قائل إنّهما

(259) معاهدة وُقعت في آذار 1918 بين البلاشفة والقوى المركزية لإنهاء مشاركة روسيا في الحرب العالمية الأولى.

(260) Alexander Kerensky (1881-1970): رئيس وزراء الحكومة المؤقتة بعد ثورة فبراير عام 1917.

كستنائيتان؛ قال البعض إنّه ذو جسم رياضيّ؛ وقال البعض الآخر إنّ له جسماً سقيماً ناحلاً: 23 سنة، بحسب معلومات التسجيل في الجامعة؛ يتيم الأم؛ ابن معلّم قُتل في مذبحة قرطبة الجديدة. مع ذلك فهو في المدينة؛ ولكن، حين داهمت الشرطة مسكنه، لم يجد عناصرها غير فراش مبثوث، وآثار تدلّ على أنّه كان موجوداً قبل قليل، زجاجة بيرة شُرب نصف محتواها، أوراق محروقة، أعقاب سجائر، كتاب على الأرض: الجزء الأوّل من رأس المال لكارل ماركس، اشتراه، كما يظهر من الختم التجاري، من مكتبة «أثينا» لصاحبها بالنتين خيمينيث، الذي اعتُقل مؤخراً بتهمة بيع كتب حمر. «بالضبط! -صاح المستشار الأوّل حين سمع ذلك-: هؤلاء الحمقى يأخذون الأحمر والأسود و فارس البيت الأحمر، لكنّهم يتركون الكتب الأخطر في واجهات العرض». ولمّا كان الأكاديمي البارز قد حدّثه مرّة في باريس عن «خطر ماركسي»، عن «أدب ماركسي»، فقد أمر پيرلاتا («وهو أذكى من هؤلاء المحقّقين القذرين، من دون مؤاخذة ولا اعتذار لهم») بأن يأتي له بكلّ ما يستطيع العثور عليه في المدينة من هذا الأدب. بعد ساعتين، صُفَّ على طاولة المكتب الرئاسي: ماركس: صراع الطبقات في فرنسا (1848-1850)، الثامن عشر من بروميير لويس بونابرت، الحرب الأهليّة في فرنسا (1871). «عجباً! كلّ هذا من عصر ما قبل التاريخ!»، قال المستشار الأوّل، وهو يزيح الكتب بحركة استخفاف وازدراء. ماركس- أنجلز: نقد برنامج غوته وأرفورت. «أشمّ في هذا رائحة كرّاس يهاجم طبقة النبلاء الأوروبية.. لأنّ غوته، كما تعلم، يشبه دليل تلفون سنوي خاص بالأمراء والدوقات والكونتات والماركيزات»... إنجلز: لودڤيغ فويرباخ و نهاية الفلسفة الكلاسيكيّة الألمانية. «لا أظنّ أنّ هذا بقادر على إفساد سائقي عربات الترام لدينا». ماركس: القيمة والربح والاستغلال. وقرأ الرئيس: «إنّ تحديد قيم البضائع عن طريق كميات متناسبة من العمل

يختلف تماماً عن المنهج الطاوطولوجي الذي يقضي بتحديد أقيام البضائع عن طريق قيمة العمل أو الأجور». «هل فهمتم شيئاً؟ وأنا لم أفهم أيضاً!». ماركس: مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي. تصفّح الكتاب حتى وصل إلى الملحق الذي أثار ضحكه: «أشعار بالإنكليزيّة واللاتينيّة والإغريقيّة.. ربّما كسبوا بهذا لامايورالا إلميرا إلى صفوفهم». («يصوّرونني أكثر فظاظة مما أنا عليه!»، قالت الأخرى، غاضبة...)، وكان ما يزال يضحك حين تناول مجلّداً آخر: «آه! لدينا هنا رأس المال الشهير! لنرَ!»:

التحوّل الأوّل للبضاعة (ب)، أي تحوّلها من الشكل البضاعي إلى النقد (ن)، هو على الدوام وفي الوقت ذاته، التحوّل الثاني المناقض لبضاعة أخرى ما، أي التحوّل العكسي لهذه الأخيرة من الشكل النقدي إلى بضاعة. ن- ب أي الشراء، هو في الوقت نفسه البيع، ب- ن؛ لذلك فإنّ التحوّل الختامي لبضاعة ما هو في الوقت نفسه التحوّل الختامي للأخرى. فبالنسبة لصاحبنا النسّاج يمثّل تحوّل بضاعته إلى الكتاب المقدس، الذي حوّل إليه الجنيهين الإسترلينيين في القماش. لكنّ بائع الكتاب المقدّس بدوره يحوّل الجنيهين الإسترلينيين اللذين أخذهما من النساج إلى خمر. ن- ب، المرحلة الأخيرة من العملية ن - ب - ن (قماش- نقود- كتاب مقدّس) تمثّل في الوقت نفسه ب- ن أي المرحلة الأولى من العملية ب- ن- خ (كتاب مقدّس - نقود- خمر)[261].

«الشيء الوحيد الواضح عندي هنا هو الخمر -قال المستشار الأوّل، وقد بدا بمزاج رائق-: وكم سعر هذا المجلّد الضخم الألماني؟!». «اثنان وعشرون بيزو، سيدي». «فليبيعوه، فليبيعوه؛ فليواصلوا بيعه! لن تجد اثنين

(261) مأخوذة بتصرّف من طبعة دار التقدم. ج 1، ص161. موسكو (1985). ترجمة: د. فهد كم نقش.

وعشرين نفراً في هذا البلد مستعدّين لدفع اثنين وعشرين بيزو مقابل كتاب وزنه أثقل من وزن ساق ميت! ب - ن - ب، ن - ب - ن.. أنا لا تسقطني المعادلات!». «ولكن، انظر هذا -قال پيرلاتا، وهو يُخرج كرّاسة رقيقة من جيبه-: تربية الدجاج من سلالة رود آيلند ريد». «وما علاقة هذا بذاك؟ -قال الرئيس-: لم نستطع هنا أن نربّي الدجاج الأميركي. ولا الدجاج من فصيلة "ناك بيركنتون" المحجّل؛ ولا دجاج الليجهورن الذي يضع هناك في الشمال بيضاً يفوق عددُه أيام السنة، أمّا هنا، ولا أدري لماذا، فتنغلق فتحة شرجها فلا تبيض أكثر من أربع بيضات في الأسبوع؛ والرود آيلاند ريد السمينة التي يقتلها القمل حين يأتون بها إلى هنا». «افتح الكراس، سيادة الرئيس، الآن. وتطلّع فيه جيداً!». ماركس-أنجلز: البيان الشيوعي.. «أهااا، يا إلهي! هذا شيء آخر!» وقرأ وهو متجهّم الوجه، مرتاب: «شبحٌ يطوف أرجاء أوروبا: شبح الشيوعيّة. جميع قوى الحلف المقدّس تحالفت لملاحقة ذلك الشبح: البابا والقيصر ومترنيش وغيزو وراديكاليّو فرنسا وشرطة ألمانيا». حلَّ الصمت. ثمّ: «كالعادة: إمّا كتابة هيروغليفيّة أو ما قبل التاريخ. الحلف المقدّس (ألم يتشكّل بعد سقوط نابليون؟)، البابا، الذي لا يؤذي أحداً، مترنيش وغيزو (من منكم يتذكّر سادةً كانوا يُسمّون مترنيش وغيزو؟)، قيصر روسيا (أيّ واحد منهم؟ حتى أنا لا أعرف ذلك). ما قبل التاريخ.. ما قبل التاريخ تماماً!». مع ذلك، فحين وصل، بعد أن قفز بين الصفحات، إلى نهاية الكرّاس المموّه بغلاف عن الدواجن، توقف، يتأمّل العبارة التالية: «والخلاصة، فإنّ الشيوعيين، في كلّ مكان، يدعمون أيّ حركة ثوريّة موجّهة إلى النظام الاجتماعي والسياسي القائم...»، ساد صمت طويل. وأخيراً: «الفوضوية المعهودة؛ قنابل في باريس، قنابل في مدريد؛ اعتداءات على ملوك وملكات؛ الفوضويّة النقابيّة، الشيوعيّة، الـ R.S.A، الـب - ن - ب، الـن - ب - ن، الـP.O.S.D.R. والـY.M.C.A.

فوضى الأبجديّة، شيوع المختصرات، علامة انحطاط الأزمنة. مع ذلك، فموضوع تربية دجاج رود آيلند ريد.. شيء عبقري.. روخو-ريد[262]... أصدِرْ أمراً بحبس كلّ من يتاجر بأدب الدواجن هذا! ثمّ.. ثمّ.. ولكن.. ماذا يحدث؟!». كانت الساعة الثالثة عصراً تقريباً. بدأ ناقوس الكاتدرائيّة يدقّ بإيقاعٍ بطيءٍ مهيب. وردّت، من دير «لا پالوما»، هناك فوق، في تخوم البركان «توتيلار» الثلجيّة، أجراسٌ عذراوات، حادة، ليس بها شرخ ولا صدع، فكأنّ مطرقة عظيمة، هي والدة نواقيس-بنات، بنات-نواقيس، تدقّ، على بناء ناقوس برونزي أوّلي عظيم، ليتلقّى أصواتَها سوپرانو «سان بيثنته دي ريّو فريّو»، وباريتون راهبات «دي تاربيس»، وتنويعات أجراس نواقيس اليسوعيين، وكونترالتو «سان ديونيسيو»، وباس «سان خوان دي ليتران» العميق، وصولفيج الراعية الإلهيّة الفضّي، ولتقام هكذا حفلة صاخبة قوامها نقرٌ وقرع، نداءٌ ورنين، فرحٌ ومتعة، يتدلى فيها قارعو أجراس مجلجلة، بحبالٍ قويّة، صعوداً ونزولاً، فاتحين ما بين أرجلهم، راقصين في الهواء، جنباً إلى جنب صبيان قداسٍ وطلاب لاهوت ورهبان كابوشيين، بحركاتهم الرشيقة، فيقفزون من الأرض، ليعاودوا الارتفاع، راقصين، وليصعدوا متأرجحين، على إيقاع صخب صادر من الأعلى، من بئر الأبراج المجلجل. وانطلق الكونشرتو من الشمال إلى الجنوب، والتناغم من الشرق إلى الغرب، أصوات متعددة تلفّ المدينة باهتزازها ونبضها وقرعها، بينما تعلو أصوات صفّارات المعامل وأبواق السيارات والطناجر تُضرب بالملاعق والقدور وعلب الصفيح وبكلّ ما يُصدر صوتاً أو يرنّ أو يصمّ الأذان، في سماء الشوارع القديمة الضيّقة وفوق زفت الشوارع الجديدة العريضة. تصفّر القاطرات وتهدر عربات الإطفاء

---

(262) كلمة Rojo = Red معناها أحمر ومعناها «شيوعي» أيضاً.

وتهتزّ أسلاك الترام النحاسيّة. «انتهت الحرب!» - صرخ وزير العلاقات الخارجيّة، من دون أن يعلن عن دخوله، ومدّ يده وتناول زجاجة «سانتا إينيس» التي كان المستشار الأوّل وسكرتيره قد فتحاها للتو وتركاها على طاولة الكتب، واثقين من أنّ أحداً لن يراهما. «انتهت الحرب. وانتصرت الحضارة على الهمجيّة، اللاتينيّة على الجرمانية. النصر لنا!». «يا له من خازوق -قال الرئيس بصوت خافت-: هذا خازوق على المضبوط!».
وخرج طلاب المدارس من مدارسهم، وقد أُعفوا من الدرس، يهتفون ويغنّون. واندفعت فتيات في شوارع «شايوتا» و«إيكونوميّا» و«سان إيسيدرو»، فرحات يرتدين شبكات شعر لورينا أو الشرائط السود الألزاسيّة، موضوعة على كعكة الشعر. «انتهت الحرب.. انتهت الحرب!». وراح الحرفيون والبنّاؤون ومدوزنو البيانو والصرّافون وباعة المانغو والتمر هندي وطاحنات الذرة الطريّة والرياضيّون، من ذوي الفانيلات المزركشة، وصانعو المثلّجات وعازفو الأرغن، بلباسهم الجميل على الطريقة الإيطاليّة، وعمّال النظافة المدنية والأساتذة، من ذوي القمصان المنشّاة، وكيميائيو السّكّر وأنصار الطبيعة والثيوسوفيون وسماسرة المراهنات في مضامير سباق الخيل والباحثون والروحانيون ورجال المختبر واللوطيّون، ممن يحملون القرنفلات في أفواههم، والفولكلوريون ورجال الكتب ورجال نادي القمار ورجال العباءة والقبعة، يستعرضون على وقع الهتاف ذاته: «انتهت الحرب.. انتهت الحرب!». وظهر باعة الطبعات الخاصّة، بعناوين كتبت بحروف كبيرة: «انتهت الحرب.. انتهت الحرب!». واندفع طلاب جامعة «سان لوكاس» إلى الشوارع، وهم يعلمون أنّ الشرطة لن تعترض طريقهم، في موكب حاشد، رافعين على أكتافهم منصّة خشبيّة عليها بغل أوتوماتيكي، يرتدي خوذة مدبّبة، وقد لُفّ بالعلم الألماني،

ويرفس في الهواء، بينما وقفت وراءه دمية تمثّل مارشال فرنسا، ببدلته العسكريّة ثلاثيّة الألوان والمشغولة بالذهب، توسعه ضرباً بالسيف. كان المرافقون ينشدون:

القيصر يرفس
وجوفري يحرّكه[263]

دارت تلك اللوحة الرمزيّة بالمتنزه المركزي عدة مرات، حاملةً الجنرال جوفري ببنطاله الأحمر. وتوقّف الموكب أمام القصر الجمهوري. اتخذ جادة الجمهورية، باتجاه أعالي المدينة، بينما أخرج رهبان الراعية الإلهيّة منصّة أخرى حُملت عليها العذراء، التي امتطت، وعليها عباءة كبيرة من الأضوية، ظهر تنّين أخضر، محتضر وممزّق -أخرجوه من مذبح القديس خورخي-، وعلّقوا على رأسه الشيطاني لافتة من الكارتون كُتب عليها بحروف كبيرة من الحبر الصيني: حرب. وكانت النسوة هذه المرة هنّ من ينشدن الأغنية الريفية القديمة:

القديسة ماريّا
خلِّصينا من كلّ شرّ!
احمينا، أيّتها السيّدة،
من هذا الحيوان المرعب!

ويعود الآخرون، من ناحية شارع «كومرثيو»، ببغلهم ومارشالهم يحرّكونهما بالأسلاك، بين قرع وخشخشة وألعاب ناريّة.

القيصر يرفس
وجوفري يحرّكه

(263) إشارة إلى جوزيف جوفري القائد الفرنسي الذي قاد الحلفاء وانتصر على الألمان في معركة «المارن» في الحرب العالمية الأولى.

وتدخل خادمات الراعية الإلهيّة في شارع «لوس پلاتيروس» لكي ينتهي بهنّ المطاف، بعد الصعود عبر «غراديّاس»، في جادة «أوغوسته كومته»:

أخذت العذراء فأساً
عازمةً على قتله
لكنّ الشيطان ذا القوائم الأربع
حشر نفسه في الأحراج

«يا له من خازوق!»، قال المستشار الأوّل، وهو يتأمّل ذلك كلّه بوجه لا يشي بالارتياح. «ولكنه، سيدي الرئيس، انتصار العقل، انتصار ديكارت». «اسمع، پيرلاتا: لن يلبث سوق السكّر والموز والقهوة والعلكة والمطاط أن ينهار. لقد انتهى وقت البقرات السِّمان.. وسيقال إن لا فضل لحكومتي فى ازدهار البلد!».

القيصر يرفس
وجوفري يحرّكه

«وجِّهْ بإعداد وليمة رسمية كبرى للاحتفال بانتصار سانتا خينوبيبا على شعب الهون، وانتصار جان دارك على كلاوزفيتز، وانتصار الراعية الإلهيّة على الشيوعيّة العالميّة. ستعود لقالق هانسي إلى سقوف "كولمار" وسيعلو صوت بوق "ديروليد" رائعاً.. لقد كسب ديكارت الحرب، لكنّنا بلعنا الخازوق!».

القديسة ماريّا
خلّصينا من كلّ شرّ!

... «ما زالت، مع ذلك، أمامنا طريقة للحصول على منفعة أخيرة من الظروف. فما دام الناس ما زالوا يملكون نقوداً، فلنفتح باب التبرّع لإعادة

بناء المناطق المدمّرة من فرنسا! ابعث ببرقيّة إلى أوفيليا. قل لها أن تأتي في أسرع وقت ممكن. ما زلنا نستطيع الاستفادة من ثيابها، ثياب ممرضة الصليب الأحمر». ومع تضاؤل اهتمامه بما يجري في الشارع، وانصرافه عن ذلك الجوّ الصاخب، بعد أن لفّه حنين وتحرّكت في نفسه غصّة كامنة، شغّل المستشار الأوّل غرامافون الزمّور، الذي يرقد في زاوية من مكتبه، ليسمع أسطوانة لفورتوجيه[264]:

حين يحلّ الليل في باريس
تبدو كنيسة نوتردام الجميلة
وكأنّها ترتقي إلى السماء
لتخبرها بحالتها المعنويّة

(264) Fortugé أو Gabriel Fortuné (1887–1923): مغنٍّ هزليّ فرنسيّ.

ثلاثة عشر

مثّلت حملة جمع التبرعات لإعادة إعمار المناطق التي خرّبتها الحرب نجاحاً باهراً، ففضلاً عمّا عادت به من أموال إضافيّة لم تخضع لحساب ولا كتاب، فقد أعادت للبلد مكانته، وللحكومة الذكيّة وزنها في أوروبا، التي كان لها في مشاكلها في البحث عن السلام ما يشغلها عن تذكّر حوادث تافهة، محليّة، غريبة، باتت بعيدة زمانياً عن آبٍ تاريخيّ غيّر وجه العالم[265]. لقد تجوّلت أوفيليا، بملابس الممرضة، من مدينة إلى مدينة، من ندوة إلى ندوة، تنظّم معارض للصور، للرسوم، للملصقات، لصور فوتوغرافيّة معبّرة، تصوّر حقولاً خربة وضِياعاً ميتة ومناجم محفورة وكاتدرائيات مهدمة وآفاقاً من صلبان. «يطلبون منكَ مدارس لأولادهم»، كُتب على خرائب مقبرة عسكريّة. «أعِدْ لي مسكني»، كُتب أسفل تمثال للمسيح رُشق بالرصاص.. في تلك الأثناء، واصلت حالة من الازدهار المتورّم، هي ثمرة الاندفاع المنفلت، غير المحكوم بقاعدة، صعودها بين مضاربات ونفقات، من دون أن يتنبّه المنتفعون والمضاربون إلى العواقب الوخيمة التي حذّر منها المعنيّون بالاقتصاد - من الجادين المتشائمين الذين لا تتلاءم أصواتهم، المبنيّة على الحسابات والتوقعات، مع صوت جوقة

(265) يشير إلى بداية الحرب العالمية الأولى في آب 1914.

الواهمين المطمئنين، الذين يتغنّون بمباهج سراب يتجدّد أمامهم يومياً. لقد انساق الناس، من دون أن يشعروا، وراء مهرجان كبير من الـ«شبّيك لبّيك»، من المعجزات، من السحر، حيث ينقلب كلّ شيء في رمشة عين: القيم والمفاهيم والمظاهر والطرق والوجوه والتحوّلات - سراب دائم، تحوّلات مفاجئة، حالات من انقلاب الرأس على العقب، العالي إلى الواطي، بفعل حركة مال سريعة، تغيّر وجهه ووزنه وقيمته، بين عشيّة وضحاها، من دون أن يخرج من جيب صاحبها - أو بالأحرى، من خزنته. كلّ شيء بالمقلوب. صار البؤساء يسكنون في قصور تعود إلى زمن التأسيس، قصور من زمن أوريّانا وبيثارّو[266] -باتت طعماً للقذارة والفئران- بينما أصحابُها ومالكوها يسكنون في بيوت أخرى، بعيدة عن أيّ تراث أصيل أو باروكيّ أو يسوعيّ - ديكورات مسرح حقيقيّة بألوان العصور الوسطى أو عصر النهضة أو الأندلس الهوليوديّة التي لم يكن لها يوماً ما صلة بتاريخ البلد، هذا إذا لم تجد مباني كبيرة على طراز بولفارد هوسمان، شُيِّدت إبّان الإمبراطوريّة الثانية[267]. البريد المركزي الجديد بساعته الرائعة التي تحاكي ساعة «بيغ بين». مديرية الشرطة الجديدة التي تشبه معبد الأقصر، بلون النيل الأخضر. مقر وزارة المالية الريفي، وهو نموذج مصغّر من قصر «شونبرون». أنزل رئيس البرلمان محظيّته في دير صغير في «كلوني»، كساه باللبلاب المستورد. ثروات طائلة تنفق كلّ ليلة في ملاعب كرة اليد الباسكيّة ومضامير كلاب الصيد الإنكليزيّة. أمّا العشاء فكان مكانه

---

(266) Francisco de Orellan (1511–1546) وPizarro (1502–1548): مستكشفان إسبانيّان.

(267) نسبة إلى Georges Haussmann (1809–1891): مهندس وسياسي فرنسي وضع مخطط باريس في القرن التاسع عشر، إبّان عهد الإمبراطورية الثانية، التي أسسها لويس نابليون بونابارت عام 1852.

بيّا ديست أو لا ترويكا (كباريه فتحه مؤخراً الروس البيض الأوائل الذين وصلوا إلى هنا، عن طريق القسطنطينيّة)[268]، بينما اختصّت الحانات الصينية بتقديم الأطباق البلديّة التقليدية، التي غودرت وتركها الناس كما تركوا نعل الخيش والقنّب الفلّاحي، أو كما تركوا قصص الحكواتي - فأصبح عمّال المطبخ الصينيون، هكذا، حملة لواء فنّ الطبخ الوطني. أمّا قمم الموسيقا فصارت «كرافان» و«إيجبتلاند» و«جاپانيز صاندمان» و«تشيناتاون، ماي تشيناتاون» و«هندوستان»، وهذه الأخيرة تجدها على مساند جميع البيانوهات، تحت غطاء يظهر عليه رسم بالأسود لفيل ومروّضه على قرص شمس حمراء. وما عادت النساء اللائي ركبن موجة البووووم يعرفن أين يستعرضن أكاليلهنّ وتيجانهنّ وأقراطهنّ وعقودهنّ، أو أزياءهنّ التي هي من تصميم «وورث» و«دوسيه» و«كالوت سيغ». وفكّر المستشار الأوّل، وللسبب نفسه، ومراعاةً لرغبة قديمة باتت ممكنة التحقيق، في إمكانية إقامة الأوبرا داخل المدينة-الأوبرا، عاصمة الخيال، ليوفّر لمواطنيه عرضاً شبيهاً بالعروض التي يقدّمونها في «بوينوس آيريس» و«ريو دي جانيرو» - وهي مدن تضع فن العالم القديم وذائقته وتأنّقه دائماً نصب عينيها. ووقع اختياره على أدولفو براكالي، صاحب شركة مختصّة بتنظيم عروض أميركية جوّالة، مهووس بالمسرح الغنائي إلى درجة أنّه ذهب بفرقته ليعرض «سيمون بوكانيغرا» و«مانون» و«لوجيا دي لاميرمور»[269] في مواقع استخراج النترات في تشيلي ومزارع الموز وموانئ الجنوب ومطّاط «ماناوس»، قاطعاً قفاراً وعابراً أنهاراً ومتجوّلاً في جزر الأنتيل الكبيرة والصغيرة، بالممثّلين والأزياء والديكور - رجل قادر على

---

(268) الروس البيض هو المناوئون للثورة البلشفية. قاتلوها في البداية ثمّ فرّوا من بلادهم بعد ذلك.

(269) أعمال أوبرالية لڤيردي وماسينيه ودونيزيتي على التوالي.

حمل عصا القيادة حين يصاب المايسترو بملاريا، أو على عزف سيدة الفراشة[52] مع أوركسترا مؤلّفة من بيانو وسبعة كمانات وفلاوت وساكسفون وبوق وآلتي تشيلو وآلة كونترباص، إذا لم يجد غير ذلك - فكلّفه بتقديم «أفضل ما يعرض في العالم» على خشبة المسرح الوطني. وهكذا دخل قطار «بويرتو آراغواتو»، ذات صباح، العاصمة حاملاً معابد قديمة ودوارق كيمياء ومقبرة اسكتلنديّة وبيوتاً يابانية وحصن «السينور» وشرفة «سان آنجلو» وأديرة ومغارات وزنزانات، مطويّة كلّها وملفوفة في قطع يمكن تركيبها، غابات تطوى، وقاعات مبطّنة، في صناديق كثيرة احتاجوا لحملها إلى قطارين متصلين. وأخيراً، وعند الغروب، دخل إلى المحطة قطار ثالث -فيه عربة مطعم، حديثة، تُقدِّم وجبة طعام فرنسيّة- لمّاع برّاق، بما يحمل من المشاهير، الذين راحوا ينزلون إلى الرصيف بين فلاشات التصوير وباقات الزهور وعبارات الترحيب الصادرة من الموظّفين الرسميين ودويّ التصفيق الذي يناسب شهرتهم وعزف آلات الماندولين على يد الجالية الإيطاليّة: إنريكو كاروزو[85] العظيم، في المقدمة، بصدار متقاطع وربطة عنقه مشبوكة بماسة وقبعة رماديّة فاتحة وأزرار أكمام من البلاتين، لطيف مجامل ولبق، مع ذلك فقد تشوّش ذهنه بين لطفه هو مع الجمهور ولطف الجمهور معه حتّى خاطب عريفاً ظنّه جنرالاً، وتوجّه إلى رئيس الحمّالين بتعبير «صاحب المعالي»، وتجاهل الوزير وعانق موسيقياً وجهه كوجه وزير، وراح يوزّع تواقيع بالدزّينات ويقبّل الأطفال، وهو سعيد بتلك الأجواء التي تذكّره بساحة من ساحات نابولي ظهيرة يوم إجازة؛ ظهر بعد ذلك تيتا روفو[193]، بجبين مقطّب وبدن جسيم وصدرٍ لاهث، يرتدي ثوباً من قماش خفيف من نوع «بالم بيتش»، وبدا مستحيلاً أن يتفق ذلك الجسم الرياضي مع نحول هاملت، الذي سيتوجب عليه أن يؤدي دوره بعد أيام قليلة؛ ثمّ نزلت من القطار

لوكرثيا بوري[270]، وكلّها أسنانٌ وأصوات، وقد تقمّصت شخصيّة روسينا، بالكرات المزركشة والتنورة الإسبانية؛ ثمّ غابرييلا بيزانزوني[271]، كونترالتو بخنجر في نطاقها، بمظهر المرأة النبيلة الذي يتعارض مع هزال راقصات الباليه الأميركيات الشاحبات اليابسات اللائي نزلن وراءها من العربة الرئاسيّة وهنّ يحملن أحذيتهنّ في حقائب مطاطيّة صغيرة؛ وتوالى نزول ريكاردو ستراكاري[272]، وهو يرتدي قفازين معمولين من جلد الماعز وبدلة قريبٍ ذاهب إلى مناسبة دفن كبيرة، وهو يردّ على أسئلة الصحفيين بصوت مصطنع؛ ومانسويتو، الطويل النحيف نحافة دومينيه كابرا[273] وطوله، والذي بلغ من ظرفه أنّه نزل حاملاً قبعة دون باسيليو تحت إبطه؛ ونيكوليتي-كورمان، الذي سنراه عاري الصدر، شاليابينياً[274] وجدّافاً، في مفستوفيلي بويتو[275]. وعمل خيّاطو العاصمة ليلَ نهار تفصيلاً وقصّاً وخياطة، في أقمشة الفراك وفي صدار البيكة، بينما كانت الخيّاطات ينتقلن من بروفا إلى بروفا، لإتمام هذا أو لقصّ ذاك، لتطويل التنّورات أو تنزيل فتحات الصدر، أو تضييق فستان النحيلة الهزيلة أو تعريض لباس البدينة، أو توسيع مقياس الحامل أو لتعديل ما فاتت موضته أو تحديثه وتكييفه على آخر خطوط مجلّات الأزياء. وتشكّلت جوقات المنشدين من الطلبة

---

(270) Lucrecia Bori (1887–1960): مغنّية أوبرا إسبانية شهيرة.

(271) Gabriella Besanzoni (1888–1962): مغنّية أوبرا إيطالية شهيرة.

(272) Riccardo Stracciari (1876–1955): مغنّي أوبرا إيطالي.

(273) El dominé Cabra إشارة إلى إحدى شخصيّات رواية «البوسكون» الشطارية لفرانثيسكو دي كيبيدو Francisco de Quevedo (1580–1645)، وهو معلّم المدرسة الذي هذا وصفه.

(274) نسبة إلى مغني الأوبرا الروسي فيودور شاليابين (1873–1938) الذي عُرف بصوته الجهوري وأدوار البطولة في الأعمال التي شارك فيها.

(275) Arrigo Boito (1842–1918): مؤلّف موسيقي إيطالي. Mefistófele هي أحد أعماله الموسيقية.

والهواة؛ وعمل خيرة موسيقيي البلد، وقد انتظموا أخيراً في أوركسترا، تحت قيادة مايسترو بولوني حادّ الطبع حامض المزاج، يُصدر صارخاً، من دون أن يوقف العزف، توجيهات من قبيل «"فا" مستمرة، أيّها السافل!».. «سوداء بنقطة، أيّها البائس!». «حلو، ولكن ليس إلى حدّ اللواطة!» [بالإيطاليّة] (هذا عن افتتاحية ترافياتا)، «سريع خفيف كالخصيتَين» (هذا عن افتتاحية كارمن)، ويؤكّد دائماً، مقلّداً أستاذه توسكانيني، أنّ مصاحبة السفَلة والسافلات خيرٌ من مصاحبة الموسيقيين، مع ذلك فقد كان يصحبهم بعد انتهاء البروڤا، وقد لفّ رقبته بمنشفة من المخمل، إلى حانة روما الشعبيّة، ليشربوا معاً «سانتا إينيس» المخفّف بـ«فيرنيت برانكا». وبانتظار بدء الموسم، كانت تقام، كلّ ليلة، حفلة على شرف ناس السكالا والميتروبوليتان الذين، وإن أكّدوا دائماً أنّهم «غير مستعدّين للغناء»، يؤدّون قطعة من مهرجان «بيدريغروتا» أو أوبرا «أتمنى لو أموت» لتوستي[276]. في تلك الأثناء، وبين مطارق، وعبارات توبيخ، وشتائم، وحوادث، وديكورات محطّمة، وأبواب أرضيّة لا تعمل، وإكسسوارات تالفة، وعجلة مغزل متروكة في إيطاليا، ومصابيح إنارة غير مناسبة، وأدخنة شيطانية لا تخرج في الوقت المناسب، وأفواج فئران تغزو الكابينات، وحالات زحار، ومغص شهر أيار، وزهور تفرحُ السوبرانو، وشِجار بين «مانسويتو» و«نيكوليتي» على فتيات خلاسيات، وعقود ممزّقة أعيد إبرامها وتوقيعها، وصفعة كمان أوّل للمزمار الثاني، وشكاوى لا تنتهي، وأصوات مبحوحة، ودمّلتان تنتفخان بسبب الجو، وبعوض، وبدلات مبقّعة، وأمطار موسمية، وفتق، وانحباس صوت آخر، وبقع جلدية وطفح، في تلك الأثناء، راح يتشكّل فاوست مؤثّرٌ وخالد انتقلت روائعه فوراً إلى شعراء الفصحى

(276) Paolo Tosti (1846–1916): مؤلّف موسيقي إيطالي. والأغنية المذكورة من أشهر أعماله.

والعاميّة، ممّا أثار استغراب من لم يكونوا مطّلعين. قُدّمت بعد ذلك أوبرا كارمن بيزانزوني-كاروزو، وإن ظهر فيها الكومبارس في مشهد المهرّبين وهم يحملون مسدّسات «ونشستر»، بعد أن ضاعت بنادقهم القصيرة أثناء الرحلة - لم ينتبه أحد إلى ذلك. وقدم بعد ذلك حلّاق إشبيلية، حيث أدّى مانسويتو دور دون باسيليو، وبدا من توحّشه وسخريّته أنّه تفوّق على شخصيّة فيغارو-تيتا روفو، شجاعة وجسماً. وحملت ترافياتا الجمهور إلى قمة المتعة: ولزم أن يكرّر مشهد «النخب» ثلاث مرّات أمام تصفيق طغى على العزف حتى أوقف العازفين عن تقليب كرّاسة النوتات؛ وحرّك مشهد العجوز «جيرمون» و«فيوليتا» التنهّدات المكتومة، وكانت الزهور التي أُلقيت على المسرح من الكثرة أنّ الممثّلين صاروا يمشون على ورد وزهر وقرنفل.. وواصل الموسم نجاحه مع مارتا لفلوتو[277] (أحد أنجح أعمال كاروزو)، وهاملت لأمبرواز توما[278]، وريغوليتو والسائرة في نومها[279]. شعر المستشار الأوّل بالسعادة، فالأوبرا تغيّر وجه العاصمة. بعد العروض امتلأت المقاهي الراقية بجمهور يستعرض أغلى ما يمكن أن تكون عليه الزينة وأبهى ما يمكن أن تكون عليه الملابس - جمهور يتأمّله الشعبُ من شارعه، مستغرباً إذ يرى على مرمى حجر منه عالماً من الأبّهة والرفاهية لم يكن يتصوّر وجوده إلا في الروايات الرومانسيّة أو في الأفلام التي تصوّر حياة الأثرياء أو على أغلفة فانتي فير التي يراها في أكشاك الصحف. وما أكثر النساء اللائي انتقلن فجأة، أسلوباً وملبساً، إلى عوالم

---

(277) Friedrich von Flotow (1812-1883): مؤلّف موسيقي ألماني. ومارتا عمل أوبرالي من تأليفه.

(278) Ambroise Thomas (1811-1896): مؤلّف موسيقي فرنسي، وهو مؤلّف أوبرا هاملت.

(279) عملان أوبراليان: الأول لفيردي والثاني لبلليني.

جون سينغر أو جان غابرييل دوميرغ[280] - «عددُنا في ازدياد، بيرلاتا؛ ناسنا يزدادون!»، قال الرئيس، وهو ينظر إلى الصالة الفخمة حيث لم يكن يُسمع، أثناء الاستراحة، إلا كلام تتخلّله مصطلحات السرد الاسترجاعي والنقلة وطول النفس وخامة الصوت والأداء المنفرد.. وسار كلّ شيء على ما يرام حتى العرض الأوّل لأوبرا توسكا. حينذاك وقع شيء غريب: في نهاية الفصل الأوّل، حين أغمدت فلوريا توسكا سكّينها في صدر سكاربيا، علا من المقاعد العلويّة تصفيق حادّ متواصل بلغ من تواصله أنّ الأوركسترا توقفت عن العزف. ولمّا لم تجد ماريّا خيريتزا -وكانت تؤدي للمرة الأولى تلك الليلة- في أدائها ما يبرر كلّ ذلك الحماس والتصفيق، فقد ظلّت حائرة، لا تدري ماذا تفعل، وراحت تحرّك الشمعدانات، وتعيد تحريكها يمين جثّة تيتا روفو، المتحجّرة مثلها، ويسارها. وأخيراً صاح أحدهم من فوق: «الموت للذيول! يسقط بالبيرده!»، فعرف سبب ذلك التصفيق العاصف، وغادرت توسكا المسرح على عجل. أُنزلت الستارة بسرعة وتوقفت الأوركسترا المذهولة عن العزف، بينما فتشت الشرطة مقاعد الطابق العلوي واعتقلت كلّ من لم تسعفه قدماه للهرب[281]. في اليوم التالي، عُرضت أوبرا أندريا شنييه لأومبرتو جوردانو، فأحاطت الشرطة بالمسرح، واحتلّ العسكر أرجاءه بعد أن وُزّعوا بعناية بين المقاعد والممرات. مع ذلك، فقد سُمعت، في فصل المحكمة الثوريّة، صرخة، الله أعلم من أين خرجت: «عاش روبسبير!».. وهكذا صارت كلّ أوبرا

---

(280) John Singer Sargent (1856–1926): رسّام أميركي.
Jean Gabriel Domergue (1899–1962): رسّام فرنسي.

(281) في أوبرا «لاتوسكا» الموسيقية التي ألّفها جاكومو بوتشيني (1858–1924) عن مسرحية لويجي إيليكا (1857–1919) وغويسيبي جاكوسا (1847–1906)، يراود مدير الشرطة «سكاربيا» المغنية «فلوريا توسكا» المتهمة بالخيانة عن نفسها فتقتله. تجري أحداث المسرحية عام 1800.

تشهد تصفيقاً عاصفاً وهمهماتٍ وهسهسات وهتافات لا علاقة لها بمستوى أداء الممثّلين ولا بجودة موسيقا العمل. تصفيق ينطلق كلّما ظهر خارجٌ عن القانون أو متآمرٌ أو قاتلُ زعيم أو شاعرٌ متمرد أو هيرناني فيكتور هوغو[282]؛ أمّا حين يظهر الواشون أو الأعوان أو المخبرون السرّيون أو الجواسيس فكان نصيبهم الصفير. رأى المستشار الأوّل أنّ من المناسب إلغاء عرض سيبريا‌الجودارنو، التي كان أعلن عنه، وصار ينتظر، مغتاظاً، أن يغلق الموسم الغنائي بأوبرا عايدة. حُشدت لهذا العرض إمكانياتٍ غير مسبوقة وطاقات لا نظير لها. أتوا من محلّات ليدي في نيويورك بالأبواق لعزف مسيرة النصر. وجيء بالجِمال والفيلة من سيرك وصل مؤخراً إلى العاصمة، في موكب يتبعه خمسون فارساً من فوج الحرس الجمهوري، يرتدون على طريقة المصريين، وقد صُبغت وجوههم حين لم يكن فيها ما يقرّبها بما يكفي من سحنة النوبيين أو الأثيوبيين. لم يعرف عرضٌ من العروض ذلك البهرج في حركة المشاهد وعمل جوقة المنشدين وإبداع الأوركسترا، التي حسّنت، وقد تولّتها يدٌ نشيطة واثقة، أداءها بقدر كبير في الأسابيع الأخيرة. أُشيد بالملابس وأُثني على الديكور وأُعيد، كما كان متوقعاً، مقطع «عاد المنتصر»، فبدأ التوتّر يخيّم مع بداية الفصل الثاني. بدأت أجواءُ حماسٍ مبكّرٍ ومتعة جمعيّة تخيّم على المسرح، بين المغنّين، بين الممثّلين، مع اقتراب الدراما من ذروتها، من لحظة عودة راداميس المنتصر. علت أنغام المارش الشهير في أرجاء القاعة. وحانت لحظة المشهد الأخير بحضور مئتين من البشر، موزّعين بين أعمدة ونخيل، وحورس و أنوبيس، والنيل في الخلفيّة -نيل مزروع بالمصابيح الكهربائيّة-

(282) يمثّل هيرناني العاشق الرومانسي الصادق الذي يفوز بحب «دونيا سول» أمام النبيل «دون كارلوس»، ثم يضطر هو وهي إلى الانتحار بعد أن يضيّق عليهما ويهدّدهما. العمل له بعد اجتماعي وسياسي ثوريّ.

حين دوّى انفجار شديد في خندق الأوركسترا، تحت مجموعة الإيقاع، فطارت الصنوج النحاسيّة والعلب والطبول والدفوف، وسط عاصفة من دخان أبيض. ودوّى انفجار قنبلة ثانية خلف الكونترباص، ففرّ الموسيقيّون وصعدوا إلى المسرح محاولين الهرب عبر البوابة الأرضيّة، ولجؤوا إلى المقصورات، ودبَّ الذعر بين جمهورٍ خفّ راكضاً نحو أبواب الخروج، قفزاً من فوق المقاعد، متدافعاً صارخاً متزاحماً سائراً فوق من يسقط، بينما راح حرسُ الفرعون والقساوسة والصرّافون والأسرى المصفّدون وجنود فوج الحرس الجمهوري يركضون ويتدافعون ويجاهدون للوصول إلى الأبواب المؤدية إلى الشارع، وسط أوراق زينة تنهمر ومسلّات تسقط وتماثيل تهوي وركام يتفتّت فوق الرؤوس. «النشيد الوطني! النشيد الوطني!»، صرخ المستشار الأوّل موجّهاً صرخته إلى المايسترو البولوني، الذي ظلَّ واقفاً على منصّته، شاحباً صارخاً، محاولاً السيطرة على عازفيه، الذين تفرقوا شذر مذر. ولمّا لم يبقَ في الخندق غير سبعة منهم أو ثمانية، لم يخرج من بين أيديهم، ردّاً على صرخة «النشيد! بسرعة! النشيد!» إلا صوتٌ يكاد لا يُسمع: أربعة كمانات وكلارين واحد وأبوا وتشيلو. وحين بدأ الجمهور المتجمّع في الساحة يستردّ شتاته، وبدأت الشرطة تساعد المصابين والمدهوسين -لم يُجرح أحد- على الخروج، تنبّه المستشار الأول إلى أن ما انفجر لم يكن قنابل، بل مفرقعات من تلك التي تُحدث دويّاً وتطلق دخاناً. «يجب استئناف العرض»، أمر أدولفو براكال، الذي رافقه في جولته التفتيشيّة، يتبعه عمّال الكهرباء. ولكن ذلك مستحيل: فقد كانت رائحة البارود تملأ القاعة، والديكور مدمر، ثمّ إنّ جلود الطبول تمزّقت وباتت الكونترباصات ألف قطعة وقطعة؛ الستارة لا تنزل، وأصيب العديد من الراقصين أثناء التدافع، وراحت خيول الاستعراض ترفس وتعضّ، وفقد أموناسترو صوته، وأصيبت أمنيريس بنوبة عصبية، وراحت

تصرخ، وهي لائذة بقمرتها، بأنّها تستحقّ ما حدث لها، لأنّها لبّت الدعوة وجاءت إلى بلد السفلة هذا. أمّا كاروزو-راداميس، فقد اختفى. وحين ذكر أحدهم أنّه رآه يخرج من أحد الأبواب الخلفيّة، راحوا يبحثون عنه في محيط المبنى وفي المقاهي والبارات القريبة من دون طائل. ولم يعد إلى الفندق. ربّما جُرح، ربّما ضُرب أو ربّما فقد وعيه في مكان مظلم. وجدّ المتعهّد بالبحث عنه، لكنّ التيار الكهربائي انقطع وعمّ المسرحَ الظلام.
عاد المستشار الأوّل، يتبعه وزراؤه وقادته العسكريون إلى القصر. كان صمته في تلك اللحظات يعبّر عن غضبٍ يتجاوز حدود الغضب. غضب داخلي. مكبوت. مستحكم. توتّر يُقرأ في نظرته المسمّرة المريعة التي تجاهلت الوجوه الحاضرة. نظرة الكارثة، المصوّبة نحو رؤى بعيدة تملؤها العواصف والصيحات والعذاب. في تلك الأجواء، أجواء التوتّر الذي يفوق الحدود، رنّ جرس التلفون في قاعة المجلس. كان المتصل صاحب المعالي الوزير الإيطالي. إنّه يبلّغهم بأنّ شرطياً محلّياً أمسك بإنريكو كاروزو في الشارع، وأخذه إلى المركز الخامس للشرطة، لأنّه كان يرتدي قناعاً في غير موسم المهرجان؛ يتخفّى بزي امرأة، ويتزيّن ويتبرّج، فقد طلى فمه وعينيه بالألوان -يفصّل المحضر- مما يضعه تحت طائلة القانون الخاص بمكافحة الأعمال الفاضحة والمخلّة بالآداب العامة، الذي ينصّ في مادته (132) على عقوبة مدتها ثلاثون يوماً سجناً لمن خالف الأعراف والتقاليد العامة والسلوك القويم في الشارع، والتي تنطوي على ظرف مشدّد، لأنّ الشخص يبدو مثليّاً في ملبسه وفي مظهره، وهو ما يظهر من غطاء الرأس ذي الشريطين الأفقيين والحلق في الأذنين والأساور المقلّدة والعقد المعلّق بالرقبة، مع حفنة من الخنافس والتعاويذ والحلي والأحجار الملوّنة هي، حسب تقرير الشرطة، قرائن واضحة على اللواطة... «هذه أمّة متحضّرة!»، صاح المستشار الأوّل، وقد انقلب غضبه من الصمت المتجهّم

إلى الكلام المدوّي، بينما راحت يداه تلقي بالكتب وثقالات الأوراق والمحابر على السجادة. وصدرت الأوامر. وذهب الدكتور پيرلاتا لإخراج إنريكو كاروزو من الحبس، ثمّ جيء به وهو في مظهره المضحك، لأنّه كان ما يزال بثياب راداميس، وصرّح بأنّ ما حدث كان أمراً عارضاً وإنّه جاء، مع سفيره، بالشرطي الذي اعتقله -«شابّ طيب، ولد رائع، قام بواجبه»- لكي يطلب له الصفح من الرئيس («لم يفعل أكثر من تطبيق القانون؛ فهو لم يرَ في حياته مصريّاً يمشي في شوارع العاصمة»). وانتهى كلّ شيء، عند خيوط الفجر الأولى، بكؤوس وسيجار - هابانو «فونسيكا» الأشقر، الغليظ والطويل، الذي رُسمت على غلافه عينان فاتحتان، كما يروق للمغنّي. وخرج البركان «توتيلار» من ضبابه البارد، وجاءت لامايورالا إلميرا بالشطائر والعصير، وأعلن أدولفو براكال قبل انصرافه إنّ موسم عروض الأوبرا سيختتم تلك الليلة بأوبرا رقصة \الأقنعة لڤيردي - إذ لا يمكن الحديث عن عايدة بعد الكارثة التي وقعت. «سأُري أصحاب المفرقعات هؤلاء كيف تكون رقصة الأقنعة!»، قال المستشار الأوّل للدكتور پيرلاتا قبل أن يخلد إلى النوم.

وبدأ يعلو فجأة فوق المدينة بناءٌ دائري، دائري كحلبة مصارعة الثيران، كالمدرّج الروماني، كسيرك اللاعبين والمروّضين. إنّه سجن «موديلو»، الذي يلبّي أحدث مواصفات السجون، التي برع في بنائها المهندسون الأميركان. واكتشف المستشار الأوّل آنذاك، وهو الذي اعتاد أعمال البناء الحجري البطيئة -من نشر الحجر وقطع الحجارة ونظريات المطرقة والإزميل- التي تحتاج إلى وقت طويل لتكتسب جسماً ومظهراً، سحرَ خلاطة الكونكريت، ودوران الحصى والرمل في أوعية الكوكتيل المصنوعة من الحديد الرمادي، ومعجزة قالب الأسمنت الذي يتصلّب ويقوى فوق هيكل من القضبان الحديدية، وأعجوبة البناء الذي يبدأ سائلاً، خليطاً من

حجر وحصى، قبل أن ينهض سريعاً، عمودياً، جداراً فوق جدار، وطابقاً من بعد طابق، وأفاريز على أفاريز، إلى أن يركّز في السماء -في ظرف أيام- سارية علم أو تمثالاً أُلصق بكاحله جناحان. ولمّا كان المستشار الأوّل مغرماً بسرعة تشكّل الكونكريت، وإخلاصه، ومطاوعته، فقد أنيطت بالكونكريت مهمة غلق فتحة السجن «موديلو» العملاقة -هناك في تلّة «ثيرو دي لا كروث»، بعيداً عن قبة الكابيتول، أبعد من سهم القلب الأقدس- قبل أن يشرعوا بعمليّة بوليسيّة واسعة النطاق. وبدأ العملُ، ليل نهار، وعلى ضوء المصابيح العاكسة، حين يتطلّب وجودها الظلام والضباب، في ذلك البناء النموذجي، الذي كان لأسواره متحدة المركز جمالُ لعبة من الحلقات يضيق نطاقها وتتداخل الواحدة في الأخرى، وصولاً إلى مركز يتمثّل في باحة مركزيّة يمكن منها مراقبة جميع الزنزانات والدهاليز والعنابر والممرات. وحين لم يبقَ من البناء سوى حمّامات الألمنيوم والكراسي المشبّكة والسيور المخصصة لصالات تحت الأرض (في المخطط كتب إنّها «فضاءات تقنيّة»)، أُرسلت صورٌ فوتوغرافيّة للبناء الرائع إلى العديد من المجلّات العالمية المتخصصة بالهندسة، فأشادوا بطابعه الوظيفي العملي وبحسن منظر محيطه وبالتناسق الصعب الذي تحقق في شيء يستدعي بطبيعته وطبعه مظهراً صارماً. كان ثمّة قصد واضح، وربّما مثالي، لإضفاء الطابع الإنساني -هدف الهندسة المعماريّة هو مساعدة الإنسان على العيش- على الرؤية المعروفة والنظرة العضويّة إلى السجون والمنشآت الإصلاحية، وجعلها مقبولة في نظر المجرم الذي هو، في نهاية المطاف -وقد أثبت ذلك علماء النفس الحديثون- مريضٌ، كائنٌ غير اجتماعي، ثمرة الوسط والبيئة، ضحيّة الإرث، المصاب في سلوكه بسبب أشياء صارت تدعى «عُقَد» أو «رغبات مكبوتة» إلخ إلخ إلخ. لقد انتهى عصر سجون المطبق الفينيسيّة، وزنزانات محاكم التفتيش

تحت الأرض، وسجناء سبتة أو قادش -الشبيهة بسجون «غوايرا» و«هافانا» و«سان خوان دي أولوا»- والمعتقلات التي طالما ذكرها بروانت[283] في أغانٍ باتت قديمة. لقد تقدّمنا في مجال السجون على أوروبا - وهو أمر منطقي، فما دمنا في قارة المستقبل، فلا بدّ لنا من أن نبدأ بشيء. ولكن، مع الاقتراب من بلوغ نهاية العمل في سجن «موديلو»، بدأ البلد -وكان في ذلك خيبة أمل للكثيرين- يواجه أزمة تهدد خصوبة تربة لا نظير لخصوبتها، تربة تَعِدُ بالكثير -وعودٌ ما زالت بِكراً- الكثير من الخصوبة والحرث تحت المحراث، الكثير من التربة الألفيّة الصالحة، من الأخشاب التي لا نهاية لها (غابات بحجم مساحة بلجيكا)، من المعادن الكامنة في عروق غنيّة ثمينة. لدينا كلّ شيء: فضاء وأرض وثمار ونيكل وحديد. نحن بلد محظوظ متميّز في إطار عالم المستقبل. هنا لدينا تقارير وزارة الزراعة والإنماء. حسبنا أن نتابع الإحصائيّات ومخططات الهيكل التنظيمي والأرقام المصفوفة في أعمدة والأرصدة نصف السنويّة وتعليقات الخبراء والمعادلات التنبؤيّة التي يمثّلها حرف من حروف الأبجديّة اليونانيّة موضوع في مكان جيد، لكي ندرك كم هو واعدٌ واقعنا في مجال التربة وكم هو مبشّرٌ. لكنّ المستشار الأوّل، وعلى الرغم من المذكّرات والملفات التي كانت تقدّم له كلّ يوم، تنبّه، بعد انتهاء موسم الأوبرا الملعون، في استرجاع للحركة الاقتصادية والماليّة، إلى أنّ زراعة السكّر في الجمهوريّة عانت من انهيار مرعب في لوحات البورصة العالميّة، بينما كانوا هم مشغولين بافتتاحيات الأوركسترا وكالديرون التينورات. كان سعر سكّرنا قد بلغ 23 سنتاً للرطل حين أنشد نيكوليتي-كورمان، الشيطان العظيم، تمجيده لعجل الذهب. ومع النشيد الوطني الأميركي، الذي عُزف في

---

(283) Aristede Bruant (1851–1925): ممثّل ومغنّي كبريهات فرنسي.

الفصل الأوّل من مدام بترفلاي، هبط السعر إلى 17.20. وهبط إلى 11.35 مع تاييس - «الإسكندريّة، مدينة مرعبة»، غنّى تيتا روفو. وحين عرضت ريغوليتو ذات يوم مشؤوم -يقولون إنّ ذوي الحدبة يجلبون الحظ- هبط السعر إلى 8.40. وعجّلت أوراق اللعب المغشوشة في الفصل الرابع من مانون في السقوط الذي بلغ، مع كارثة عايدة، 5.22. وحين وصل موسم الكرنفالات، انهار سعر السكر -وهو البطل البارز في كلّ قصيدة رعويّة في شعر أميركا اللاتينيّة- إلى 2.15 سنتاً للرطل الواحد، بعد أن امتلأت المخازن بالأكياس التي ما كانت تجد من يشتريها. وذات صباح، أعلن البنك العالمي، حديث الإنشاء، فجأة، أنّه سيتوقف عن الدفع حتّى إشعار آخر. وأغلق البنك الإسباني وبنك ميرامون والبنك التجاري والزراعي وبنك الإعمار شبّاكه بقوة كان لها دويّ وصرير، بينما ملأ البنك الوطني والكليرنغ هاوس صفحات الجرائد بالإعلانات والبلاغات والوعود والدعوات إلى الهدوء والثقة للحيلولة دون هلعٍ وصل، صعوداً من دفاتر التوفير الصغيرة والحسابات العائليّة البسيطة، إلى قمّة عالم المال والأعمال. وطُرح الوضع -وصفته الجرائد بأنّه «عرضي ومؤقّت»- على مجلس الوزراء لبحثه. ودعت الحكومة المواطنين إلى التحلّي بالهدوء والسكينة والروح الوطنية. لا طوابير ولا فوضى. وسمع الناسُ بإجراء تأجيل الدفع moratoria -وهو مصطلح جديد عليهم، بل لقد فكّر بعضهم أنّ له صلة بالموت morir أو بالوصيّة testamentaria-، بوصفه وسيلة ناجعة لتحسين الوضع في أسابيع قليلة، فأدخل ذلك السكينة إلى النفوس، وبدأت حفلة الأقنعة، كما في الكرنفالات، بضجيج المتنكّرين وصخب الخشخيشات والمزامير الصينية والطبول الزنجيّة، ونُظّمت مسابقة الملابس التنكرية والعربات الفنطازيّة، وحازت عربة «المينوتور الفينيسي» فيها على جائزة خاصة، وإن صعب حملها إلى منصّة المحكّمين، لأنّها

كانت تتقدّم بصعوبة تحت أسلاك خطوط التلفونات، نظراً لارتفاع مقدّمتها، التي جلست فيها دوقات سترن وجوههنّ بالدانتيل. لقد جاءت الحفلة في وقتها ومناسبتها، فلطالما شكّل اللهو والتسلية نشاطاً مهمّاً في حياة البلد، ولطالما توسّل الناس به ليروّحوا عن أنفسهم وينسوا كلّ مشكلة وكلّ ظرف. في تلك الأيام، بقيت مجالس عزاء النساء من دون نائحات، والتلفونات من دون عاملات، والمخابز من دون طحين، والأطفال الرضّع من دون ثدي. وانغمس الجميع، بين رقص وغناء واستعراض، في الأجواء ونسوا القواعد والمواعيد، نسوا الالتزامات والوعود، وانساقوا إلى أهوائهم ورغباتهم التي ظلّت مكبوتة ممنوعة أسابيع وشهوراً. وما أكثر النساء اللائي مشين عاريات إلا من عباءة التنكّر. وما أكثر النزوات التي تخفّت بالطرطور والقناع. يرقصون ويغنّون، في الحدائق العامة وعلى الأسطح المعرّشة وفي المقاهي التي احتلوها بالقوة؛ يتجامعون في نواحي المرصد الوطني، وتحت أقواس الجسور، وفي الدهاليز المزيّنة بالصور المقدّسة، وفي أحراج ضواحي المدينة وأطرافها - حتّى في إيوانات الكنائس كانت تقام محلّات لشرب عصير القصب وچاراندا الكوكوي والعرق. كانت أياماً ليلها نهار ونهارها ليل، تظهر فيها الرهبانيّات التقليدية وقد غيّرت من تقاليدها ولبسها، فحملت جريد نخل الرافيا وريش مالك الحزين وقلائد السحرة وملابس الشياطين وأسماك القرش الكارتونيّة والأفاعي التي رُكّبت على نوابض، رجال بهيئة باشق، ورجال بهيئة حصان، ورجال بهيئة أفعى، ملابس مثيرة للضحك، وألعاب قديمة مأخوذة من إفريقيا أو من طقوس قديمة يختلط الغرض الأوليّ منها بليالي التراث الألفي التليد. في وسط حلبات الرقص أفاعٍ ومسابقات وملكات جمال وتيجان من الكارتون المذهّب، عمالقة وأقزام عظيمو الرؤوس، عمائم

وأرجل خشبيّة، أسبوع طويل من المتعة والهزّ والرقص والعربدة والإيقاعات والمذاقات. وفجأة اندفع، في وسط الحشد الهائج المائج، عددٌ من الأشخاص، متنكّرين بزيّ المهرّجين، وقد أخفوا وجوههم بجوارب نسائية سود، وأطلقوا النار على الشرطة؛ واستولى جمعٌ من الغجر، ممّن كانوا يمثّلون في كارمن، وهم يحملون بنادق الونشيستر التي استعاروها لأداء مشهد المهربين، على بنادق ومسدسات من ثكنة «سانتا باربارا»، وألقموها بالعتاد في سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر؛ وألقى أعضاء كومبارس «بومبادور»، بملابسهم ذات اللون السلموني، والباروكات التي تنزل على أعينهم، قنبلة على مركز شرطة الدائرة الخامسة، وحرّروا أكثر من أربعين سجيناً سياسيّاً. وأفرغ عددٌ من هنودنا، من «يوكاتان» في ما يبدو، تنكروا بزيّ هنود حمر أميركان، من كثرة ما شاهدوا أفلاماً من إنتاج استوديوهات «ڤيتاغراف»، مستودع القنابل اليدويّة في مركز شرطة الدائرة الثانية، ثمّ اندسّوا بين الحشود. وأخرج رجالٌ انتحلوا صفة رجال الأمن ثلاثة من قادة الفوضويين من السجن؛ وسقطت المنشورات والبيانات الداعية إلى انتفاضة ثوريّة كالثلج، من سهم القلب الأقدس ومن قبّة الكابيتول. لكنّ دويّ انفجار المفرقعات وضجيج الطرق والنقر الصادر من «موكب مومو» المعروف، اختلط بدويّ أكثر جفافاً وصوتٍ أكثر رنيناً وصدىً. فبعد أنبولات كلوريد الأثيل البسيطة، التي كان أثرها يشبه ما يفعله إصبع من الثلج على فتحة صدر النساء، جاء دور القنابل المسيلة للدموع، الاختراع المذهل الذي دشنته الشرطة آنذاك؛ وحملت خيّالة الشرطة، وبلا تمييز، على الجميع، فرقَ تمثيل وشخوصاً؛ وتحوّل صفير ألعاب الكارتون والأبواق الكارتونية إلى صراخ أطلقه كلّ من هوجم أو ضُرب، وحلَّ الزيّ العسكري محلّ الملابس التنكرية، فساد رعبٌ قلبَ

الأشكال وغيّر الألوان. وتحوّلت زهرة الشمس المصبوغة إلى وشاح مزدوج من أزرق ورمال. وبقرار رئاسي عاجل عُلّقت الكرنفالات وامتلأ «الموديلو» بالأقنعة. عصيّ وسياط. علت صرخات ألم وحشرجات موت، وصرّت كسّارات في الأعناق، ودارت حفّارات في الأسنان، ودُعست أعضاء تناسليّة، وعُلِّق رجالٌ من المعصم والكاحل، وأوقف ناس لأيام على الدواليب، وعرّيت نساء، وطوردن بالضرب عبر الممرات، ثمّ طُرحن أرضاً واغتُصبن، كويت صدورهنّ وأولجت السفود الحامية في لحمهنّ؛ إعدامات مزيّفة وأخرى حقيقيّة، دماء متناثرة ورصاص يترك حفره على الجدران التي ما زالت رائحة البناء تفوح منها؛ أُلقي بالبعض من النوافذ، وخُنق آخرون، ودقّت المسامير في أجساد آخرين، ونقل الكثيرون إلى الاستاد الأولمبي الكبير حيث المساحة تسمح برشقات رصاص أكبر وإعدامات أوسع نطاقاً - ليتجنّبوا هكذا إضاعة الوقت في تشكيل فرق الإعدامات؛ في مشهد آخر حُشر رجال في صناديق مستطيلة كبيرة ثم صُبّ عليها الأسمنت، قبل أن تصفّ البلوكات في العراء، عند أحد أضلاع السجن، وكانت من الكثرة أنّ السكّان ظنّوا أنّها مواد بناء أُعدّت لتوسعة مستقبليّة للبناء. (ولم يُعرف إلا بعد سنوات طويلة أنّ في داخل كلّ واحد من تلك الصناديق هناك جثة عليها ثياب تنكريّة وقناع، تكيّفت على المادة الصلبة التي لفّتها - جسم بشريّ كامل منحوت في مادة صلبة).

الفصل الخامس

أنا كائن. أنا موجود. هذا أمر يقينيّ... ولكن إلى متى؟[284]

ديكارت

(284) «التأملات في الفلسفة الأولى» Méditations Métaphysiques، ترجمة: عثمان أمين، ص99. الإشارة إلى بقائه في السلطة.

أربعة عشر

مكتبة سُر مَن قرأ

أيْ.. بي.. سي.. دي.. إي.. ما أغرب الأبجدية التي يعلّمونها الآن في المدارس النظاميّة، وفي الليسيه الأغوسطينيّة الأميركيّة، التي افتتحت في مدننا الرئيسة لتثير الشكوك حول نجاعة أسلوب الآباء الساليزيانيين والمريميين الفرنسيين والراهبات الدومنيكانيات الأورسولينيات أو راهبات «تارب» في تعليم الأطفال، وحول حداثته - خصوصاً حداثته! صرنا نسمع This is a pencil, this is a dog, this is a girl بدلاً من -Rosa-Rosae Rosa-Rosam وما شابهها من حالات اللاتينية الإعرابيّة، بينما طوى النسيان النكات والطرائف التي كانت تُحكى، حتى أوقات قريبة، عن آنت جيما، إذ كانت تطبّق ذلك التصريف على صفات المجموعة الأولى فتقول: Nigra-Nigrae-Nigra-Nigram. وها قد بدأ «السيد القمبياطور» بسيفه، و«رولاند» ببوقه العاجي، و«سان لويس» بسنديانته العتيقة، و«إيزابيل الكاثوليكيّة» بمجوهراتها التي رهنتها، و«هنري الخامس» بدجاجه في الطنجرة[285]، يُبعَدون من كتب التاريخ، ليحلّ محلّهم بنيامين فرانكلين وصحيفته پور ريتشاردز ألماناك[286]؛ وجورج واشنطن في «ماونت

(285) إشارات إلى شخصيات ملحمية وأدبية وتاريخية مع أحداث ارتبطت بأسمائهم.

(286) يشير إلى Poor Richard's Almanack صحيفة نشرها فرانكلين، وكانت خاصة بالتنبؤات والألغاز.

ڤيرنون»، محاطاً بزنوج يعاملهم كأهله؛ وجيفرسون وقاعة الاستقلال في فيلادلفيا؛ وأبراهام لنكولن وخطاب «غيتيسبيرغ»[287]؛ ومسيرة الجنرال كوستر إلى الغرب وموته المأسوي، بعد أن هزمه في معركة «ليتل بيغ هورن» رجالُ «الثور الجالس» المتوحّشون[288]. أمّا الأطفال، فقد صاروا يؤخذون، بعد أن يتركوا صدور مرضعاتهم المكسيكيات، اللائي كنّ يغنّين لهم المامبرو[125] ويعلّمنهم، كما كان يفعل فيثاغورس، ألّا يجب تهييج النار بالسكين، إلى جناح الأمراء العباقرة، حيث يقف موزارت الصغير بالقرب من دانييل وبستر، الذي دافع، وهو صبيّ غرير، عن قارضٍ خبيث، قال إنّ له الحقّ في الحياة، مثله مثل عبيد كوخ العم توم لأنّه من خلقة الله[289]. ومع سرعة وصول صحف لا لوستغراسيو وليكتيغ پوغ توو وكوليزمغازين وساتردي إيڤننغ پوست -هذه الأخيرة بأغلفة من رسم نورمان كوروين-، بدأت تتكشّف الحقائق (حقائق مريرة، لكنَ الكلام فيها صار ممكناً، ومن دون لفّ ولا دوران، وصار التاريخ تاريخاً) عن الحرب الأخيرة. فمن دون أوڤر ذير، ومن دون الجنرال پيرشنغ[249]، كانت فرنسا لا شيء. لقد قاتلت إنكلترا من دون حماس ولا اقتناع: فجنود التوميز الإنكليز جنود فولكلور: قوس الرخام[290] وشاي في الخنادق، بين عمائم تركيّة وقِرَب اسكتلنديّة. أمّا إيطاليا فقد كانت، بريشة الديك على رؤوس

(287) أسماء أربعة من رؤساء الولايات المتحدة الأميركية وإشارات إلى أحداث ارتبطت بهم. و«ماونت ڤيرنون» مسقط رأس جورج واشنطن.

(288) Sitting-Bull (1834–1890): زعيم هندي قاد قبيلته وانتصر على قوات الولايات المتحدة في معركة «ليتل بيغ هورن» المذكورة.

(289) Daniel Webster (1782–1852): سياسي أميركي. دافع وهو فتى صغير عن مرموط، وهو سنجاب صغير، عثر عليه أخوه في حقلهم وأراد قتله، فنصبا محكمة بحضور والدهما. أمّا الرواية التي يشير إليها فهي رواية Uncle Tom's Cabin للكاتبة الأميركية هارييت ستاو، التي تروي معاناة السود الأميركان.

(290) إشارة إلى الـ Marbel Arch من معالم لندن.

جنودها غير الأكفاء، بلد المعركة الوحيدة: كاپوريتو[291]. أمّا روسيا فكانت روسيا الراهب راسبوتين وابن القيصر والهوموفيليا ومدام ڤيروبوڤا، وجلسات المجون الصوفيّة والمساطيل المُلهَمون[292]، روسيا البعث، ياسنايا-پوليانا[293]، والروح السلافيّة، الحائرة المعذبة، المذبذبة بين سموّ الإيمان ومهاوي جهنّم، التي صبّت في مُصلح حالم -رجل من الكرملين، كما كان إيفان الرهيب-، شيطان ماركسي هالك، باتت أيامه معدودة، ثقيلة، مجزّأة، أمام هجوم قوات دنيكين ورنجل وكولتشاك[294] والجيوش الفرنسية البريطانيّة في البلطيق، التي لن تلبث أن تطيح بمنظومة محكوم عليها بالانهيار، لأنّنا سنجد في العالم (كما ورد في إصحاح مكرّر في الأناجيل، يصعب، مع ذلك، العثور عليه في ذاك الكمّ من الصفحات المطبوعة في الكتاب المقدّس على مساحة عمودين من الورق الخاص بالكتاب المقدس) أغنياء وفقراء دائماً. أمّا بالنسبة للجمل وثقب الإبرة[295]، فنحن نعلم أنّ في أورشليم باباً اسمه «باب الإبرة»، واطئاً وضيّقاً، لكنّه يسمح بمرور الجمال الذكيّة، شرط أن تثني ركبتها قليلاً. وكان الأوروبيون عاجزين عن أن يعيشوا بسلام -وهذا أمرٌ ثابت-، لذلك كان على الرئيس ويلسون أن يعبر الأطلسي ليعيد ترتيب الأمور. لكنّ تلك المرة كانت الأخيرة. فنحن لن نزجّ بطاقاتنا الشابّة من جديد دفاعاً عن ثقافة بات مركز

(291) دارت نهاية عام 1917، بين القوات النمساوية، مدعومة بالألمانية، والإيطالية وانتهت بانكسار إيطاليا.

(292) إشارات عديدة إلى قصة الراهب راسبوتين ونفوذه في بلاط روسيا قبيل الثورة البلشفيّة.

(293) «البعث» رواية تولستوي الشهيرة. ياسنايا-پوليانا، المكان الذي كانت تقوم فيه مزرعته وبيته.

(294) من كبار قادة الجيش الروسي الإمبراطوري في الحرب العالمية الأولى.

(295) إشارة إلى الآية: «إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله».

جاذبيتها يتحرّك -حان الوقت لقول ذلك- نحو أميركا - أميركا الشماليّة، طبعاً، بانتظار أن نستطيع نحن، سكّان الجزء الأسفل، أن نتحرر من التقاليد الملعونة التي تلزمنا بالعيش في الماضي. لقد دخل العالم في عصر التكنولوجيا، بينما منحتنا إسبانيا لغة عرجاء، عاجزة عن متابعة هذا التطور التقنيّ. المستقبل ليس لأنصار الفلسفة الإنسانيّة، بل للمخترعين. والإسبان لم يخترعوا شيئاً على مرّ القرون، بينما، محرّك الاحتراق الداخلي، التليفون، الضوء الكهربائي، الفونوغراف... لو أنّ سفن كولومبوس تقاطعت، بمشيئة ربّانيّة، مع مايفلاور[296]، واتجهت إلى جزيرة مانهاتن، بينما توجّه المتعصبون الإنكليز إلى باراغواي، لكانت نيويورك الآن شيئاً يشبه «إيّسكاس» أو «كاستيّيخا دي لا كويستا»، ولأثارت «أسونثيون» إعجابَ العالم بناطحات سحابها، و«التايمز-سكوير» التي فيها، وجسر «بروكلين» الذي يزيّنها، وسوى ذلك من المعالم. أوروبا باتت تنتمي إلى عالم الماضي. عالم جميل يناسبك أن تطوف فيه وأنتَ في الجندول، أن تحلم به وأنت بين أطلال روما، أن تتأمّل زجاج كنائسه المعشّق وتتجوّل في متاحفه وتُمضي فيه إجازات رائعة ونافعة؛ لكنّه عالمٌ عجّل في انهياره تحلّلٌ أخلاقي سريع قوامه الجنس والنساء اللائي يضاجعن كلّ من هبّ ودبّ، والعادات الفرنسيّة الفظيعة [بالإنكليزيّة]، التي نقلها من هناك الجنودُ الأميركان الشبّان، والتي تشير إليها أحياناً، بصوت منخفض مفزوع (لأنّ الأمّ يجب أن تعلم بكلّ شيء) بناتُ الثورة [بالإنكليزيّة] العفيفات. انتصار الروح اللاتينيّة -ما زالت تقول صحف أميركا اللاتينيّة-، لكنّ الحرب الأوروبية كان لها أثرها السلبي على الروح اللاتينيّة في بلداننا الأميركيّة اللاتينيّة، لأنّها أحدثت، بفعل متعدّدٍ صادرٍ من أعلى، نزاعات

(296) Mayflower السفينة التي أقلّت عام 1620 أوائل المستوطنين في أميركا من البريطانيين.

مناصب وسلطات جديدة[297]. المكتبات التي كانت تقدّم أعمال أناتول فرانس ورومان رولان، من دون أن ننسى رواية جحيم باربوس[298]، التي حازت نجاحاً أسطورياً، باتت تقدّم سجين زندا، سكاراموش، بين هور، مسيو بوكير[299] وروايات إلينور غلين[300]، في أغلفة ملوّنة زاهية تجذب بإيحاءاتها أنظار القراء الراغبين في «مواكبة» ما ينشر في عالم الأدب. وبإزاء سينما أوروبية فقيرة، خالية من نجمات مهمّات -يبدو وكأنّهنّ جميعهنّ قضين أثناء القصف-، راح يتعزّز فنّ الساحر ديفيد غريفث[301]، محرّك الجماهير المبهر، ومستكشف الزمن، القادر على أن يظهر لنا في صور فريدة -أكثر تأثيراً من أيّ إيحاء ثقافي- مولد أمّة، تراجيديا الجلجثة[302]، ليلة سان بارتيليمي[162]، وحتّى عالم بابل - وإن أكّد الدكتور بيرلاتا، المولع بكتب تعليم لعبة الكروكيت وكتاب أپوللو لريناخ[303]، أنّ الآلهة - الفيلة التي ظهرت هناك لم يكن لها وجود في ممالك الكلدانيين، وهو يصفها، من دون أيّ اعتبار ولا مراعاة، بأنّها «تصوّرات غرينغو مخمور». لقد بعثت فرنسا إلينا فجأة، وقد شعرت بأنّها تفقد نفوذها في هذه البقاع، بسارة برنار، في جولة رسمية قصيرة - ثلاثة أيام من حضور فاتر، بينما كان المستشار الأوّل، بعد مرارة مغامرته الأوبراليّة، يستريح في

(297) هي النزاعات بين الكنيسة والدولة (1074-1122) التي أدّت إلى فصل السلطة الدينية عن الدنيويّة.

(298) Henri Barbusse (1873-1935): روائي وكاتب فرنسي.

(299) عناوين أفلام وروايات مغامرات أو كوميدية.

(300) Elinor Glyn (1864-1943): روائية وكاتبة وممثّلة بريطانيّة.

(301) David Griffith (1875-1948): مخرج أميركي. «مولد أمّة» هو أشهر أفلامه الصامتة (1915).

(302) Gólgota يشير بها إلى واقعة صلب السيد المسيح والمكان الذي تمّت فيه.

(303) Salomon Reinach (1858-1932): عالم آثار ومؤرّخ أديان فرنسي. عنوان كتاب أپوللو المذكور هو: «التاريخ العام للفنون التشكيليّة».

«بيّامار». وأنشدت سارة برنار، والمساحيق والألوان تغطّي وجهها، وباروكة مهرّجة لوتريك على رأسها؛ وغنّت، وقد ألقت بثقلها على ساقها الوحيدة الباقية، متشبثة بالبقاء فوق أنقاضها، بصوت محتضر مرتجف، محمولة دائماً بين ذراعين، أو مستندة على شيء، أو جالسة على عرش، أو مستلقية، أو محمولة في عربة الملك تيولير، غنّت أجمل أبيات فيدرا أو مقطوعات محتضرة مشرفة على الثمانين. ثمّ جاءتنا من إيطاليا -تلبية لاهتمام الجمهور، الذي بات مفتوناً بممثّلات هوليوود الشابات الحسناوات- إليانورا ديس، التي ارتدت سترة الدولمان العسكريّة المجنّحة، ووضعت على رأسها خوذة عالية سوداء، وهميّة مثل راميَيْ قنابل هاينه[304]، تحمل أطلال المدينة الميتة، وأعمدتها المحطّمة، مدينة دانونزيو، ذلك المؤلّف الذي تخلّى عنه الشباب فجأة، بعد أن أولعوا لسنوات بمسرحيته ابنة يوريو[305]. كلّ ذلك ينتمي إلى الماضي، ولذلك فإنّ له رائحة زهرة القبر. وربّما بسبب ذلك ازدادت مبيعات المجلّات الأميركيّة أو الجرائد التي كانت تُصدِر، كما هي حال نيويورك تايمز، ملاحق في أيام الأحد وفيها أخبار عن موسيقا جديدة ورسوم غريبة وحركات أدبيّة فريدة تظهر في باريس (يبدو أنّ هناك، وعلى الرغم مما يقال، نهضة صغيرة تحدث) على الرغم من أنّ لا لوستغراسيو وليكتيغ يوغ توو كانتا تتجاهلان هذه الأمور، أو تشيران إليها، ولكن لكي تهدماها بحجّة «حسّ النظام والتناسب والقياس»، فيكون لازماً العودة إلى المنشورات التي تصدر في نيويورك للاطلاع على الجديد المفاجئ - قصائد لشاعر يدعى أپولينير،

(304) إشارة إلى قصيدة «راميا القنابل» للشاعر الألماني هاينرش هاينه (1797-1856).

(305) La figlia di Iorio مسرحية شعريّة من مسرحيات الأديب الإيطالي غابرييل دانونزيو (1863-1938). وهو أيضاً مؤلّف مسرحية «المدينة الميتة» La cità morta المذكورة.

مثلاً، مات يوم أعلنت الهدنة[306]. «الشباب خياليّون دائماً»، قال المستشار الأوّل. لكنّه يجهل أنّ وراء البيت الشعري المجرد من القافية وعلامات وقف، وأنّ وراء السوناتا النشاز، ترد -ويا له من اكتشاف!- تعليقات مرعبة حول الأوضاع في بلدنا. ذات صباح، انتقل الخبر، من فم إلى أذن، عن افتتاحية طويلة لمحلل الشؤون الأميركية اللاتينيّة في نيويورك تايمز، قدّم فيها تحليلاً دقيقاً عن إفلاسنا، وأشار إلى حملات القمع التي تقوم بها الشرطة وإلى أعمال التعذيب، وكشف لغز بعض حالات الاختفاء، وفضح عمليات اغتيال ما زالت مجهولة هنا، وذكر أنّ المستشار الأوّل، شأنه شأن روساس والدكتور فرانثيا -دكتاتور باراغواي- وپورفيريو دياث وإسترادا كابريرا، دكتاتور غواتيمالا، وخوان بيثنته غوميث، حاكم فنزويلا -كمن يتحدّث عن لويسات فرنسا أو كاتالينات روسيا- هو على رأس السلطة منذ ما يقرب من عشرين عاماً. أعطيت الأوامر لمصادرة الطبعة، التي نفدت على الفور من جميع الأكشاك والحوانيت، لكنّ الدكتور پيرلاتا استطاع أن يعثر على ثلاث نسخ في كشك لبيع البقوليات، كان صاحبه يشتري صحف المئة وعشرين صفحة ليلفّ بها رؤوس الكرنب والخضراوات والبطاطا. «يجب منع دخول الجريدة إلى البلد»، قال السكرتير حين لاحظ علامات الغضب بادية على وجه المستشار الأوّل. «صحيفة من صحف اليانكي الأميركي. فضيحة كبرى. ستنهال علينا شبكة راندولف هيرست الصحفيّة كاملة»[307]. توقُّف. «ثمّ إنّ الكتابة المطبوعة تصل إلى كلّ مكان. في

---

(306) Guillaume Apollinaire (1880-1918): شاعر ومسرحي وروائي فرنسي بولندي الأصل. أمّا الهدنة التي يشير إليها فهي التي انتهت بموجبها الحرب العالمية الأولى في 11 تشرين الثاني 1918.

(307) W. Randolph Hearst (1863-1951): صاحب أكبر سلسلة من الصحف والمطبوعات الأميركية.

مقدورك أن تحبس خصماً سياسياً، لكنّك لن تستطيع أن تمنع انتشار صحيفة أجنبية تشهّر بك. نسخة واحدة تكفي. تأتيك طائرةً في الهواء، مخبّأة في جيب مسافر، في حقيبة دبلوماسيّة، في مشدّ سيّدة، تنتقل من يدٍ إلى يد عبر الحدود والأنهار وسلاسل الجبال». توقّفٌ جديد، أطول قليلاً من الأول. «اللعنة على الساعة التي وقعتُ فيها على قرار تدريس اللغة الإنكليزية في المدارس. بات الكلّ هنا يستطيع أن يقول: ابن القحبة [بالإنكليزيّة]». توقّفٌ ثالث، أطولُ من الثاني، كسره صوت پيرلاتا الذي انتهى للتو من قراءة الافتتاحية: «هنا إشارة إلى المادة 39 من دستور عام 1910». وقرأ بسرعة، وكأنّه يقرأ فقرة من الكتاب المقدس أثناء عقد قران: «تجري الانتخابات الرئاسية في موعد لا يقل عن ثلاثة أشهر من انتهاء سنوات العهدة الرئاسية الست». وقفةٌ رابعة، أطولُ من الثالثة. «ومن قال لهؤلاء إنّ انتخابات ستجري هنا؟»، صرخ المستشار الأوّل. «حسناً، ولكنّ دستور 1910 يقول في مادته 39...». «...يقول ما قلتَه أنتَ، لكنّه يقول أيضاً إنّ تلك الانتخابات لا تُجرى إذا كان البلد في حالة نزاع مسلّح أو حرب مع إحدى القوى الأجنبيّة». «صحيح. لكننا لا نقاتل غير سفَلة في الداخل!». نظر المستشار الأوّل إلى الآخر بإعجاب ساخر: «لكننا ما زلنا في حرب مع هنغاريا». «صحيح!». «لم أوقّع معاهدة السلام مع هنغاريا، ولا أنوي توقيعها، فما زالت الفوضى هناك تضرب أطنابها. وسفيرهم، الذي لم يتقاضَ راتبه من أشهر، اضطرّ إلى رهن ملابس زوجته. إذا استمرّ بلده على هذه الحال فلن نلبث أن نراه يعزف الكمان في أحد كباريهات الغجر... و، يا رجل.. خلص! نحن في حرب مع هنغاريا وكفى. وحين تقوم حرب لا تجري انتخابات. لأنّ إجراء الانتخابات الآن سيكون خرقاً للدستور. هكذا ببساطة!». «ياي، سيدي الرئيس! ليس لسيادتك نظير!» قال الدكتور پيرلاتا، وهو يخفّ للإتيان بحقيبة الهيرميس والاحتفال بهذا التمديد غير

المتوقّع للنزاع العالمي. كان لفكرة الحرب مع هنغاريا طعم كوكتيل «كومبيا أي كثارداس» و«بامبا وفريسكا» و«سيريناتا كريول» و«راپسوديا دي ليستز»، مشوباً بصوت حالم للسوبرانو الساكنة في مرايا قلعة كارپات لجول ڤيرن[308]، كما تسكن لامايورالا إلميرا، التي تنشط في البحث عن الكؤوس، في مرايا قاعة الاجتماعات هذه.

نشرت نيويورك تايمز ثلاث مقالات أخرى عن الوضع الاقتصادي والسياسي في البلد - كان لها صدىً كبيرٌ على الرغم من أنّ پيرلاتا، المتابع المتيقّظ، أمر بشراء كلّ نسخ الجريدة بمجرد أن وصلت إلى المكتبات وإلى أمير كان بو كس شوپس. لكنّ مكتباً، يعمل بسريّة ونشاط -يحرّكه، بلا شك، أعوانُ الدكتور لويس ليونثيو مارتينيث- كان يتكفّل بترجمة النصوص واستنساخها بالمئات وإرسالها إلى البريد في ظروف مختلفة الأحجام، تحمل في كثير من الأحيان علامات مزوّرة وماركات ورموزاً لشركات صناعية وتجاريّة معروفة، على أنّها مواد دعاية وإعلانات. في تلك الأثناء، انصرفت الصحافة المحليّة، الخاضعة للرقابة، والممنوعة من التطرّق إلى الكثير من المواضيع التي يحظر النظام نشرها وإذاعتها، وبحرفية مستوحاة من ملاحق لو پو تيت جورنال ومن صحف نيويورك النصفيّة، إلى استثمار الإثارة في الخبر الأحمر، في الفعل الدموي، في الحدث الفريد. وفجأة، ملأت أخبارٌ، من مثل جريمة شارع «إرموسيّا» أو قضية الأختين اللتين قتلتا والدهما، الصفحات الأولى كاملة، بعناوين عريضة، وطوال عدة أسابيع. وفي عرض مرعب تقشعرّ له الأبدان -زاخر بالوصف الملطف لما هو مخيف، وبالاستعارات الخبيثة لما هو جنسي؛ بمصطلحات طبّ العظام، ومفردات علم القياسات الآدميّة الشرعي، ولغة عنابر الجثث

(308) Le Château des Carpathes من روايات الفرنسي جول فيرن Jules Verne. صدرت عام 1892.

وصالات التشريح- نُشرت أخبارٌ عن: شخص يدفن حيّاً في «بايارتا»/ طفل يولد برأس فأر الباكا/ قرية كهوف تعيش في القرن العشرين/ إخلاء سبيل رجل قتل دفاعاً عن شرفه/ ست توائم في «پويرتو نيغرو»/ رجل يقتل أمّه بلا سبب مقبول/ المطلوب معالجة سريعة للسادية في حانات الميناء/ إطلاق نار كثيف في حفلة عيد ميلاد/ النمل يفتك برجل عجوز/ اكتشاف كهف من كهوف سودوم/ تفاقم مشكلة تجارة الرقيق/ امرأة مقطّعة الأوصال في «كواترو كامينوس». تجد كلّ هذا مخلوطاً بمواضيع أخرى مثيرة للاهتمام بسبب قيمتها التاريخيّة ومضمونها الإنساني: عِقد الملكة. موت نابليون الرابع على يد الزولو. أطلانطس، قارة غارقة، أو قصّة «إبلار» و«إلواز»، بعد معالجتها بملطّفات الكلام الضروريّة في ما يتصل بفعل القسّ فلبير[309]، الذي استعجل بعض السفلة وشبّهوه -لأنّهم لا يتركون شاردة ولا واردة- برئيس الشرطة القضائيّة. بين جرائم القتل ومآسي العشق والغرام وحوادث لم يسمع بمثلها، كانت الأمور تسير حين حلّت أعياد الميلاد، وكانت، في الحقيقة، أعياد ميلاد غريبة عجيبة، فقد صارت تسمّى كريسماس. وطوى النسيان فجأة تقاليد الميلاد الجميلة: ما عاد يقام إسطبل بيت لحم، الذي يُصنع عادة من الورق المقوّى والصمغ، بالمذود والعذراء والقديس يوسف والحمار والثور وموكب الرعاة الذين جاؤوا -يزدادون عدداً كلما كانت حال البيت ميسورة- لتقديس الطفل المكتنز كملائكة الكيروبيم، وهو في مهده الذي فُرش بأوراق الجوّافة التي يبدّلونها كلّ يوم ليكتسب المكان رائحة طيبة. لم تعاود الأسرُ طلاء

(309) من أشهر قصص الحب. أمّا القس فلبير، وهو عمّ الفتاة، فقد تستّر على علاقة إبلار، الأستاذ الجامعي المرموق، بابنة أخيه، التلميذة الشابة. ثم على زواجهما سرّاً. ثمّ أقدم وأفرادٌ آخرون من الأسرة على الانتقام منه بأن بتروا أعضاءه. وانتهت القصة بترهّب الفتاة واعتكاف «إبلار» في أحد الأديرة وأدائه يمين الرهبنة.

تماثيل العام الماضي ولا صقلها، ولم تصلح ما كُسر منها، ولم تعلّق ملاك البشارة بخيطه المذهّب، تحت النجمة الفضيّة المغروسة في كبد السماء. ففي ذلك العام الغريب، صعدت نحو العاصمة غابة، شبيهة بتلك التي زحفت على دانسينين[310]، قادمة من موانئ الأطلسيّ: آلاف من أشجار التنّوب، المحمولة من كندا ومن الولايات المتحدة، تشيع عطراً غريباً في المدينة وتمتزج، في الأحياء الراقية، بزينةٍ من الكريّات الكريستاليّة والشراشيب المذهّبة والكرزات المزيّفة، والشموع الملتوية، والأجراس الورقيّة، والثلج القطني. ظهرت غزلان غريبة، بقرون متشابكة، لم يُرَ مثلها في البلد، يسمّونها «غزلان الرنّة»، تجرّ زلّاقات مليئة بالعلب. عند أبواب محلّات اللعب يقف رجال طاعنون في السن، ملتحون، يرتدون الأحمر، يدعونهم «سانتا كلوز» - أو سانتيكلوزيز، كما يقول الناس. أعياد الميلاد التقليديّة، أعياد الحارة، أعياد الأمس، الأعياد التي عشناها دائماً، أزاحتها فجأة أعياد الميلاد الشمالية. في تلك السنة لم تخرج إلى الشارع جوقات الدف وأغاني الميلاد الصاخبة، ليطوفوا على البيوت على وقع «تُن-تُن... ؟ من يطرق الباب؟ طالبو سلام»، بينما يتمايل منشدوها في الشوارع من كثرة ما عبّوا من شراب الفصح والتشاراندا والثاموريّو، مكافأة لهم على إعلانهم المبارك عن أنّ عمانوئيل تجسّد بشراً من جديد، وجاء ليقيم معنا[311]. لذلك حلّت محلّ الغناء التقليدي، التراثي، في البيوت المحترمة، صناديقُ موسيقا تعزف أنغام ليلة ساكنة، ليلة مقدسة أو تلمع النجمة الصغيرة وتتلألأ. وحين استغرب القساوسة هذا الانقلاب

---

(310) تلة Dunsinane تقع بالقرب من مدينة بيرث الاسكتلندية وقد زحفت عليها غابة «بيرمام» التي تبعد عنها عشرين كيلومتراً. والإشارة مذكورة في مسرحية ماكبث (الفصل الرابع، المشهد الأول).

(311) يرمز عمانوئيل في التراث المسيحي إلى الربّ. في إشارة إلى ميلاد المسيح.

المفاجئ في أعياد الميلاد، وصفوا سانتا كلوز، في عظات قداس منتصف الليل التي لا يسمعها إلا القليلون، بأنّه بدعة وبأنّه تقليد سكسونيّ، لأنّ في تزيين شجرة الصنوبر نفخاً في روح وثنيّة الشعوب الجرمانية - وهو إرث قديم لديهم حين كانوا يسيرون في الغابات ببربريّة وبشعر كثّ، كما وصفهم يوليوس قيصر، يعتمرون خوذاً غير متناسبة القرنين، ويشربون ماء العسل ويعبدون أشجار البهشيّة وزهور الهدال، في وقت كنّا فيه نستمع إلى الترنيم الأمبروسي في أجواء القربان المقدس المهيبة. فضلاً عن أنّ أيّاً من سجلّات القديسين المسيحيين لا يشير إلى سانتا كلوز هذا، الذي كان يأتي ومعه لعب للأطفال قبل ثلاثة عشر يوماً من شروع الملوك المجوس، كما يحدث هنا، في مهمتهم[312]. واحتجّ أصحاب الحوانيت الإسبان على تلك المنافسة غير الشريفة في واجهات العرض: فدُماهم، المصنوعة في «لاغارتيرا» و«بلنسية» و«غاليثيا»، وأفرانهم مع أوانيها الفخاريّة ولعبهم من الخيول المتأرجحة لم تنزّل في «بويرتو أراغواتو»، بينما امتلأت حوانيت الآخرين، ومنذ 20 كانون الأول، بالأجهزة الميكانيكية وريشات هنود الكومانشي وألواح ممارسة الطقوس الروحانيّة -تصوّر!- وعدّة رعاة البقر - قبعة تكساس ونجمة الشريف والنطاق المسمّر ومسدسان محشوران في قراب من الشراشيب. يقول البعض إنّ سانتيكلو هو سان نيكولاس. لكنّ العارفين بسِيَر القديسين يؤكّدون أنّ سان نيكولاس دي ميرا، شفيع روسيا، وسان نيكولاس الكبير، أوّلَ بابا حمل هذا الاسم، لم يكونا في يوم من الأيام على صلة بتجارة الألعاب. ثمّ تساءل أحدهم ساخراً، في مقالٍ لم تتنبه إليه الرقابة، إن لم يكن سانتيكلو هذا، صاحب

(312) يشير إلى الفارق الزمني بين ظهور بابا نويل في الغرب، ليلة 24-25 كانون الأول، وخروج الملوك المجوس الثلاثة المحمّلين بالهدايا للأطفال في العالم الكاثوليكي ليلة 6-7 من كانون الثاني.

الطاقيّة الفريجيّة[313]، الذي يرتدي الأحمر من قمّة رأسه حتّى أخمص قدميه، باستثناء جبهته البيضاء، أحمر بالمعنى الخطير للكلمة. ولقي الصحفي ما لقي بسبب نكتته المقصودة، بل لقد ظلَّ محبوساً، حتّى مع حلول الأسبوع المقدس، في العنبر 13 من سجن «موديلو»، مع القوّادين واللوطيين. وإذا كانت أعياد الميلاد الأخيرة قد اتسمت بالغرابة، فقد كان الأسبوع المقدس ذاك أعجب وأغرب. فبدلاً من الاحتفال بيوم الصليب، عيد سانتا كروث، شهد الناس، على امتداد التراب الوطني، يوم اختراع الإضراب.

بدأ الحدث يوم أربعاء الرماد، حين امتنع عمّال مصنع أميركا للسكّر عن العمل، في تصرّف غير مسبوق، ورفضوا تسلّم أجرهم اليومي في إيصالات يقايضونها ببضاعة. وسرعان ما امتدت الحركة إلى بقيّة معامل السكر. وأُعلنت التعبئة بين الحرس الريفي والخيّالة وحاميات المحافظات؛ لكنّ هذه القوات لم تستطع فعل شيء، فالعمّال لم يتظاهروا، ولم يطلقوا شعارات، و«لم يعكّروا صفو الأمن العام»، بل اكتفوا بالوقوف، هادئين ساكنين عند أبواب بيوتهم، رافضين العمل، ينشدون، على ألحان العود أو الكواترو أو الغيتار:

أنا لا أقطع القصب
فلتقطعْه الريحُ
أو فلتقطعْه النساءُ
بحركاتهنّ

---

(313) طاقيّة من اللباد أو الصوف مخروطيّة الشكل مع تاج صغير في قمتها استعملها سكّان إقليم فريجيا في آسيا الوسطى قديماً. لبسها في روما العبيد المحررون. وقد استخدمت إبّان الثورة الفرنسيّة في رمز للحريّة.

وكسب العمّال الجولة. وبدأ عمّال المناجم في قرطبة الجديدة، في سبت النور، إضراباً آخر، احتجاجاً على عمليات تسريح تعسفيّة، وتبعهم عمالُ الشحن والتفريغ في «پويرتو أراغواتو» والعتّالون في «پويرتو نيغرو»... وكما تصبغ بقع الأمراض الاستوائيّة المتنقّلة بالحمرة تلك الكتف قبل أن تنتقل إلى الفخذ اليمنى أو الورك الأيسر، قبلَ الصعود إلى الصدر، ليجول طفحها في مناطق الجسم البشري التي تستقرّ فيها مقاعدُ النور والنصر والحبّ والعدالة والتأسيس في عالم آدم الأوّل عند القباليين، كانت تظهر على خريطة الجمهورية بداياتُ الحمرة فجأة، من دون سابق إنذار، هنا وهناك، في الشمال، في الجنوب، حيث تنتفخ فاكهة الكاكاو، أو تدخّن تلال الفحم، أو تنمو أشجار الموز، أو يورّق التبغ أو تُزحزح الصخور بالديناميت وتُفتت. ما كان من شيء يوقف ذلك الوباء؛ ما كان لبيانات السلطات المهدِّدة ولا لبلاغاتها المتوعّدة من أثر. وما كان من جدوى للإعلانات ولا لسيوف القوات ولا لحرابها: لقد أدرك الناس أن للشلل وللأذرع الساكنة وللمقاومة الصامتة قوة كبيرة، حتّى إذا حُملوا إلى مزارعهم كرهاً وإلى مصانعهم غصباً وضرباً، انصاعوا وهم يبيّتون التهاون في الزرع والتقاعس في العمل والتقليل في الإنتاج واللجوء إلى كلّ ما من شأنه تعطيل المكائن وتخريب الرافعات وقطع حلقات السلسلة، فضلاً عن الرمي بالرمل في محاور دولاب من الدواليب الرئيسة أو في ماسورة أحد المكابس. يقال إنّ الطالب –ذلك «الطالب» الذي صار اسمه يتردّد كثيراً–، النشيط، وإن لم يكن مرئيّاً، الطائر الموجود في كلّ مكان، المتخفي والظاهر مع ذلك، متنقّلاً من السهل إلى الجبل، من موانئ الصيّادين إلى ورشات النشر في الأراضي الساخنة، هو المحرّض والمسؤول عن كلّ ذلك. وقد بات واضحاً أنّه لا يفعل ما يفعل وحده؛ بل هو واحد من كثيرين، لا يمكن تصوّر عددهم، يتبنّون تكتيكاته ويستخدمون أساليبه ويطبّقون

مناهجه. «يعملون في خلايا células»، قال الدكتور پيرلاتا، محاولاً تفسير ما يجري من خلال مصطلح وجد المستشار الأوّل صعوبة في فهمه: «ولهذه الخلايا صُنعت الزنزانات، كتلك الموجودة في سجن موديلو -ردّ-: والتي ما عادت تكفي للمزيد من الناس»[314]. (حاول أن يضحك) «أصبحتُ صاحب أكبر فندق في الجمهوريّة». تصفّحَ على عجل مجلّدات «ضدّ دوهرنغ» و«العائلة المقدسة» و«نقد برنامج غوته» و«أرفورت»، التي ما زالت مكدّسة فوق المنضدة: «لا إشارة إلى كلمة خلايا». ولا في الإعلان. الشيء الوحيد الواضح هو ما يقال هنا، في الصفحة قبل الأخيرة: «الشيوعيون يدعمون أيّ حركة ثوريّة موجّهة إلى النظام الاجتماعي والسياسي القائم». في تلك الأيام جاء الدكتور پيرلاتا إلى الرئيس بمطبوع غريب وصل بالبريد الاعتيادي: صحيفة. لكنّها صحيفة فريدة لم يرَ مثلها في البلد: صحيفة مطبوعة على ورق شفاف بسبع صفحات من قطع 16، بحجم كتاب، خفيفة الوزن ولا يتجاوز حجمها حجم رسالة عاديّة. عنوان بسيط: ليبراثيون. أمّا بقية المحتويات فقد عُرضت عرضاً رائعاً: أربعة أعمدة في الصفحة، مصفوفة كالقاموس. إنّه العدد الأول من السنة الأولى، يبدأ بمقال افتتاحي يحمل على النظام بشدّة، ويصفه بأوصاف مباشرة، قاسية كالضرب بالسياط، كُتب بأسلوبٍ واضح سلس. «هذا شيء جديد»، همهم المستشار الأوّل، وهو يسمع بشتائم ثقيلة العيار، نابية الأوصاف، باللغة المحليّة، يوجهها أنصارُ لويس ليونثيو مارتينيث إلى شخصه مباشرة. ثمّ تظهر معلومات مفصّلة عن تجاوزات رجال الشرطة الأخيرة، مع ذكر أسماء الضحايا وأسماء العناصر المتورّطة. يتبعه تحليل للإضرابات الأخيرة ونقاط نجاحها وإخفاقها. أمّا في الصفحات الداخليّة، وكان هذا

(314) يلعب هنا بمفردة célula التي تعني خليّة (خليّة حزبية مثلاً) وتعني أيضاً زنزانة.

هو الأسوأ، فهناك قائمة -دقيقة في تفاصيلها وتواريخها وأرقامها، فكأنّها تتوفّر على وثائق عالية السريّة- لأكثر تعاملات الرئيس ووزرائه وجنرالاته والمقرّبين منه سريّة في الأشهر الأخيرة. «هناك خائن بيننا -صرخ المستشار الأوّل، مبدياً أشدّ علامات الغضب-: هناك من زوّدهم بهذه المعلومات». «ولكن.. من عساه يكون؟»، سأل الدكتور پيرلاتا، مضطرباً حائراً. «ما من داعٍ لهذا السؤال. اقرأ العبارة التي يُختم بها العدد: يا عمّال العالم اتحدوا!!». «اللعنة! وهذه هي العبارة التي ينتهي بها الإعلان!». «هذا يعني أنّ هذه الصحيفة التي لا تحمل توقيعاً تحملُ توقيعاً»... قبل العاشرة وصلت الأخبار عن أنّ آلافاً من سكّان العاصمة قد تلقّوا تلك الصحيفة مع بريد الصباح. واستنتج خبراء المطابع، الذين دعوا إلى مجلس الوزراء للنظر في الحالة، أنّ ذلك العمل لا يمكن أن يُنجَز إلا في الخارج، بالنظر إلى الحروف المستخدمة وطريقة التنضيد ومنشأ الورق التوراتي -ألماني في ما يبدو-، الذي لا يمكن الحصول عليه في الوقت الحاضر محليّاً. قد تكون طبعت في مدينة حدوديّة. فُرضت الرقابة على جميع المراسلات القادمة من البلدان المجاورة. لكنّ المستشار الأوّل وجد، يوم الثلاثاء التالي، بعد استيقاظه بقليل، العدد الثاني من ليبراثيون في صينية الفطور التي جلبتها له لامايورالا إلميرا. فُرضت عندئذٍ رقابة داخلية في دوائر توزيع البريد. لكنّ ذلك لم يمنع أن يظهر العدد الثالث، بعد أن اتبع طريقاً غير طريق البريد ليصل، مرزوماً ولكن من دون طوابع، إلى صناديق بريد الوزارات والدوائر العموميّة والشركات التجاريّة ودور السكن الخاصة، فضلاً عن النسخ التي صارت تنتقل من جيب إلى جيب، وتمرّ من دُرج إلى درج، أو تُدَسّ من تحت الأبواب، أو تلقى إلى الشرفات أو تترك في المداخل أو على الأفاريز بفعل أيادٍ غريبة غامضة. وُضعت جميع مطابع البلد تحت المراقبة العسكرية. ووقف مُخبِر وراء كلّ آلة طباعة دوّارة

أو آلة مستوية أو لينوتايب أو أسطوانة إعداد النسخ التجريبية. لكنّ ذلك كلّه لم يحُلْ دون أن يظهر العدد الرابع والخامس والسادس والسابع من ليبراثيون. المطبعة السريّة، المطبعة الشبح، غير المرئية، الصامتة، ما زالت تعمل بفاعلية ونشاط يبعثان على الإحباط. كانت من قبيل المختبر المركزي أو ورشة الأقزام، المزروعة هناك، في ذلك الحيّ ربّما، أو في الحيّ الآخر، لتصنع، بلا ضجيج ولا ضجّة، الصفحات الملعونة التي صارت تقضّ كلّ أسبوع مضجع المستشار الأوّل... عندئذٍ، وفي اجتماع للمجلس، تلفّظ وزير الداخليّة بعبارة جديدة كان لها وقع التعزيم والتهديد: «ذهبُ موسكو». «لا ذهب موسكو ولا هم يحزنون! -صرخ الرئيس-: البلشفيك لا يجدون ما يأكلون وتقول إنّهم ينفقون الذهبَ على...». (كان من عدد أخير من لالوستراسيو الباريسية). «انظروا.. انظروا هذه الصور! جثثٌ مكدّسة، على ضفاف الدنيبر والفولغا.. أطفالٌ لم يبقَ منهم غير العظام والعيون.. مجاعات العام 1000.. الكوليرا.. التيفوئيد.. دوقات يستجدين في الشوارع.. فقر لا نهاية له ولا رجاء في انتهائه». وردّ الوزير: «صحيح كلّ ما تفضّلت به. لكنّ البلشفيك باعوا كنز بوتِمكين[315] وكاتالينا العظمى، تاج الكرملين والمجوهرات التي صادروها من الأمراء والبوليار الأرستقراطيين الإقطاعيين وكوادر الصوامع والأديرة، لتمويل عملية تخريب عالميّة، الوحيدة القادرة على إنقاذ الشيوعيّة من كارثتها». «اقرؤوا، اقرؤوا ما ينشره كيرينسكي في الصحافة الأميركية!». ذهبُ موسكو ليس خيالاً. ذهبُ موسكو وحده هو القادر على تفسير وجود شيء مثل ليبراثيون في البلد (وصل إليه العدد الثامن للتو)، بورقه الغالي ومطابعه المخفيّة في مغارة ما، في أحد الدهاليز المجهولة التي -يؤكّد بعض المؤرّخين- بناها

(315) غريغوري بوتِمكين (1739-1791): قائد عسكري ونبيل روسي مقرّب من الملكة كاثرين العظمى التي حكمت بين 1762 و1796.

الفاتحون الإسبان تحت أرضٍ ما باتت الآن عاصمة الجمهوريّة، لتتواصل في ما بينها ثلاثة حدود باتت أطلالاً. وحين انفجرت، بعد عدة ليال، ومن جديد، مفرقعة أخرى في القصر -وإن لم تحدث أضراراً كبيرة لأنّها وُضعت في مخزن للأثاث مليء بالكراكيب- فرضتْ حقيقة ذهب موسكو نفسَها على تفكير المستشار الأوّل. لم تكن خيالاً بحتاً رسومُ الكاريكاتير التي كانت تنشرها جريدة لو رير، والتي يظهر فيها دبٌّ يرمي بقنابل أشعل فتيلها على خريطة أوروبا، ولا صورة الأخطبوط الأحمر الذي يمدّ أذرعه من قبب «سان باسيليو» نحو جميع أطراف العالم. وتُشاهد إحدى تلك الأذرع وقد استقرّت على بلدنا. «لا بدّ من إجراءات عاجلة»، همهم بيرلاتا. «وهل بقي شيء لم نفعله بعد؟»، ردّ الرئيس، وكأنّه تعب فجأة، وهو يتشوّق إلى قوس نصر، لو رُفع هنا، بدلاً من بركان عقيم، لحمله، تحت قبّته العالية، إلى السلام الممتع اللذيذ، السلام الذي له طعم النبيذ والحطب، طعم بوا-شاربون مسيو موزارد.. إنّه يحنّ، في أيام الاضطراب والعواصف هذه، إلى بلد الذكاء حيث يمكنك أن تقرأ وبالبحر الشعري نفسه بيتاً شعرياً جميلاً لراسين:

لن يستطيعَ القطارُ الانطلاقَ قبل أن تُغلق أبوابه...

وهو ما كان سيردّ عليه -كما قال ذات مرّة الأكاديمي البارز، الذي بات بعيداً- أخزيّا في أثاليا، ممثّلاً في شخصيّة مسؤول محطة «بيغال»، الذي يعطي إشارة الانطلاق، وهو في مكانه تحت الأرض حفره آباؤنا (المشهد الخامس)، لعربة مترو متجهة إلى ميدان إيتوال[316]:

حدث ذلك أمامي وأغلقتُ جميعَ الأبواب.

(316) البيتان الشعريان مأخوذان من آخر تراجيديات جان راسين: «أثاليا». أما أخزيّا فهو أحد شخصيات المسرحية المذكورة.

خمسة عشر

في ما يخصّ الخوف أو الهلع فإنّي لا أرى البتّة أنّه
يمكن أبداً أن يكون نافعاً ويستحقّ التقريظ...[317]
ديكارت

استيقظ الناس ذات صباح على خبر العثور على حصان ميّت، متفسّخ، مفتوح البطن، في مركز إسالة الماء في المدينة، ومعنى هذا أنّ كلّ من شرب من حنفيات البلدية -وكانت الساعة الحادية عشرة- مهدّد بالإصابة بالتيفوئيد. ولمّا ذهب وزير الصحة شخصياً لمعاينة المكان، وجد أنّ ما كان عائماً في مركز «تاثا دي ألمندرو»، فخر الصناعة المائية الوطنية، لم يكن سوى حصان من خشب -أسود، طُليت حوافره باللون الفضّي: نموذج معروف من عمل محلّات سراجة «المهر الأندلسي»- ألقى به نفرٌ مازح بائس هناك ليلاً. وبينما كان الجميع منشغلاً بتهدئة الخواطر والنفوس، شبَّ حريق هائل وارتفعت ألسنة لهب أحمر -شديدة الحمرة- في مخزن للتبغ يقع في الأطراف. وبعد استنفار ما توفّر من عربات الإطفاء، وجد الإطفائيون أنفسهم أمام نار أُضرمت عن عمد هناك بعد حفلة ألعاب ناريّة

(317) «انفعالات النفس» Les passions de l'ame. المقالة 176، ص107.

صاخبة. في اليوم التالي، نشرت العديد من الصحف، وسط دهشة الجميع، نعياً مزيّناً بعبارة «ارقد في سلام» لمسؤولين كانوا يتمتّعون بكامل صحتهم. وهكذا بدأت مرحلة من البلبلة والتندّر الثقيل والإشاعات، كان الهدف منها خلق أجواء من الغموض والقلق والشك في أنحاء البلد. صارت تصل رسومٌ لجماجم بالبريد؛ وأكاليل موتى إلى حيث لم يمت أحد؛ يدقّ جرس التلفون منتصف الليل ليبلغ عن أنّ ربّ البيت مات بالسكتة القلبية في الماخور. رسائل مجهولة وخطابات مكتوبة بحروف قُصَّت من الجرائد، تحمل تهديدات بالخطف والاعتداء، إشارات -دائماً تقريباً صحيحة- إلى مثليّة جنسيّة أو وقائع زنا، أخبار كاذبة عن انتفاضات في المحافظات، انشقاقات في قيادة الجيش، إفلاس وشيك، غلق شركات تأمين، تقنين وشيك للمواد الغذائية الأساسيّة. وأُعلن عن صفقات مربحة في محلّات الموسرين أو في مركز أميركي للتسوّق، فتح مؤخراً: طناجر مستعملة مقابل ماكينات خياطة، عدّة شغل مقابل ساعات سويسريّة، عجلات مقابل دراجات هوائية، والقصد هو إحداث زحمة وطوابير واحتجاجات ومناوشات مع الشرطة. إعلان يطلب عمّالاً بمرتبات عالية في مصانع أغلقت أبوابها منذ وقت طويل. وآخر وزّع وقت الضحى يقول: «لا تتناول لحوم أغنام مصابة بالحمّى القلاعيّة». وثالث ظهر وقت المغرب: «البنك الوطني يعلّق عملياته المصرفيّة»، لكي يتجمهر الناس في صباح اليوم التالي أمام شباك ذلك البنك. اضطرب الوضعُ في المدينة، بعد أن اختلطت الأمور وتضاربت الاتجاهات، وتقاطعت الخطوط والأسلاك، فصار تلفون المشرحة يدقّ -كيف يحدث ذلك؟- في مكتب المستشار الأوّل، ويوقظ اتصالٌ من بيت للدعارة القاصد الرسولي فجراً من نومته. أمّا من طلب بيانو شتينواي من نيويورك فقد وجد في داخل الصندوق حماراً مقطوع الرأس؛ وسمع من اشترى أسطوانة لتيتو شيبا، مغني الأوبرا المحبوب

لأنّه يغني بالإسبانية، أسطوانة من الشتائم في حق الحكومة بمجرّد أن قرّب الإبرة من الطبق الذي يحمل، مع ذلك، شعار «صوت سيده». فضلاً عن أمورٍ أكبر وحقائقَ جديدةٍ أخطر: فقد ظهر نشطاء أكثر جرأة، زادوا من حالة الفزع، إذ فجّروا المفرقعات في دور السينما وزحزحوا خطوط الترام وقطعوا خطوط الكهرباء - ليتركوا مناطق كثيرة من المدينة من دون كهرباء، وليرجموا واجهات المحلّات الزجاجيّة، بلا رقيب ولا حسيب. وهكذا بدأ جيش سريّ كاملٌ، خفيفُ الحركة، ذكيٌّ، مسلّحٌ بالخطط وبالدهاء، يتحرّك في جميع الأنحاء، ليخرّب كلّ مُنظّم وليفكّك آلية الإدارة وليبقيَ على السلطات في استنفار دائم، وعلى الأجواء في توتّر متصاعد. ما عاد أحدٌ يصدّق أحداً ولا أحدٌ يثق بأحدٍ. أمّا الشرطة، فقد وقفت عاجزة، على الرغم من رفدها بالمزيد من العناصر الأمنيّة والمحققين والمخبرين والجواسيس والواشين والمراقبين السريين، تضرب، ولكن ليس في المكان الصحيح، وتصل، ولكن ليس إلى الفاعلين الحقيقيين. انفجرت قنبلتان أخريان في القصر، على الرغم من إخضاع الزوّار للتفتيش الدقيق عند مداخله، وفحص كلّ طرد يرسل إليه. كان ضرورياً البحث عن متّهم في وقتٍ عجز فيه الجميع عن الاعتراف بتخبّطهم، لذلك راحوا يبحثون عن دوافع يستندون إليها ليصلوا إلى أنّ المحرّك لكلّ ذلك، والصانع لكلّ تلك الأعمال الجهنميّة، والساحر الذي يقف وراء كلّ تلك الأفاعيل الخفيّة هو «الطالب». لكنّ مقالات ليبرائيون الافتتاحية -الخالية من التوقيع- كانت تؤكّد أنّ تلك الحوادث الغريبة، التي تثير قلق المواطنين، ليست من عمل الشيوعيين: «ليس المزاحُ ولا المراوغة من وسائلنا في النضال». ثمّ تضيف، بلغة شعبيّة بسيطة: «الثوريون الحقيقيون ليسوا رجالَ هيصة ودوشة، ولا ناس تطبيل وتزمير». ثمّ تحشر، بالطبع، مفرداتهم الماركسية المعتادة، بين أقواس: «الإنسانية لا تطرح إلا مشاكل تستطيع

حلّها، لأنّ المشكلة، في الواقع، لا تظهر إلا حيث توجد الظروف الماديّة لحلّها» (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي). «بدأتُ أؤمن -قال الرئيس مشدوهاً-: بأنّ هذا التيس صادق في ما يقول. إنّه يرمي إلى أهداف أخرى. صحيح أنّه حالم، لكنّه صادق. ولن يضيّع الوقت بالتلفون ليقول إنني متُّ البارحة مثل فيليكس فور[219]». «لكن القنابل»، قال پيرلاتا. «نعم، القنابل -قال المستشار الأوّل، متردداً مرّة أخرى-: الشيوعيون، حالهم حال الفوضويين، يضعون قنابل حيث يستطيعون. حسبنا أن نرى الرسوم التي تظهر في الصحافة العالميّة. ومع ذلك...». «المشكلة هي أنّ الشعب ينسب إلى "الطالب" كلّ ما يحدث هنا -قال السكرتير-: ولهذا السبب يتحوّل إلى بطل: شخص من قبيل روبن هود يمتلك خاتم غيغس[318]، وناسنا البسطاء مفتونون بتلك القصص». وكان السكرتير على حقّ، فقد شاعت وراجت روايات پونسون دو تِرّايل[319] -والبؤساء أيضاً- في أنحاء البلاد، بشخصياتها التي تغيّر ألقابها وأعمارها وشكلها، لتخدع ملاحقيها وتزوغ من مطارديها. كان غاستون ليرو[320] قد عرض في كتابه لغز الغرفة الصفراء، الذي ترجم إلى عدة لغات وقرأه الكثيرون، قدرات التنكّر والتقليد التي يمتلكها المجرم. وبدأ الناس، في مجالسهم وجلسات سمرهم، يستحضرون صورة «الطالب»، مع خلفيّة من أجواء متمرّدين كلاسيكيين، ومجرمين تاريخيين، هاربين من وجه العدالة عادلين، وصار اسمه يُذكَر في أغانيهم التي يردّدونها بأصوات خفيضة وهم في النواحي الخلفيّة من حوانيت الضيعة -وإن لم يكن سهلاً عليهم بعدُ فهم موضوع الشيوعيّة- بوصفه مصلحاً مقاتلاً، نصيراً للفقراء، عدوّاً للأغنياء، سوطاً

(318) راعي غنم اكتشف خاتماً سحرياً قتل به سيده وحاز إعجاب زوجته.

(319) Ponson du Terrail (1829-1871): كاتب فرنسي.

(320) Gaston Leroux (1868-1927): صحفي ومؤلّف روايات بوليسيّة فرنسي.

يلهب ظهور الفاسدين، وطنياً يبثّ في الناس الوطنية التي ضحّت بها الرأسمالية، يسير على خطا زعماء شعبيين قادوا حروب الاستقلال وما زالوا، بما قدّموا من مآثر وأرسوا من مبادئ العدل والمساواة، يعيشون في ذاكرة الناس. وراحت هالته، الحاضرة في كلّ مكان، تكبر يوماً بعد يوم: عفريتٌ يظهر في طرق غير متوقعة ولا محسوبة، يفلتُ من نقاط المراقبة وحرّاس الطريق، قافزاً من مناجم الشمال إلى أحواض السفن في «لا بيرونيكا»، من أرض الحطّابين إلى مروج زهرة الشمس. وتنمو أسطورة «الطالب» وتكبر، بالتمجيد وبالخبر وبالشعر الشعبي، منتقلةً من فمٍ إلى فم: يتسلّل من كوّة هي من الضيق أنّ مروره عبرها ضربٌ من المعجزة؛ ويجري من فوق الأسطح، ينطّ من سطح إلى سطح، يتنكّر في زيّ راعٍ بروتستانتي، أو كبوتشي فرانسيسكاني، أعمى يوماً وشرطي يوماً آخر -فلّاح، عامل منجم، حوذيّ، طبيب يحمل حقيبة، سائح إنكليزي، عازف آرب جوّال، حمّال أقفاص- وبينما ينهمك رجال أمن الدولة بالبحث وتضجّ درّاجاتهم النارية ويحاصرون أحياء كاملة، يكون المطلوب، ربّما، مستلقياً على دكّة من دكّات المتنزّه المركزي، ينعم بالراحة والهدوء، يلبس باروكة رجل عجوز، على وجهه لحية بيضاء وعلى عينيه نظّارة سوداء، وقد حشر وجهه في جريدة ذاك اليوم، بينما جمعٌ من أنصاره -لا يُعرَف ما إن كانوا من أنصاره فعلاً- يُنشدون، هناك بعيداً، في أقاليم الصبّار والتونة، في أجواء الطحالب وشِباك الصيد، أجواء حقول القمح وقمم الجبال والبيادر بين الثلج، أغنية اشتهرت في المكسيك قبل سنوات:

يقولون إنّنا -يقصدون الفلّاحين-

جمعٌ من اللصوص
لأننا نرفض أن نكون
ثيراناً لأصحاب الأرض

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لا أريد أبطالاً -قال المستشار الأوّل، وهو يتأمّل تلك الحقيقة المتنامية، حقيقة الطالب الذي تمرّ صورته المفترضة -المجهولة- كلّ صباح بين نافذة مكتبه العريضة وبركان توتيلار-: لا أريد أبطالاً. فلا بضاعة رائجة في هذه القارة كالرموز والأبطال». «صدقت. صحيح جداً -قال بروفسور المعهد الذي في داخل پيرلاتا-: موكتيزوما أسقطته أسطورة مسيحيّة أزتيكيّة هي أسطورة رجل-ذي-بشرة-فاتحة-يأتي-من-الشرق[321]. سكّان الأنديز عرفوا أسطورة فارقليط الإنكا، المتجسّد في توباك أمارو، الذي شنّ على الإسبان حرباً شعواء. لدينا أسطورة قيامة الآلهة القدامى التي أنتجت لنا مدينة أشباح في غابات «يوكاتان»، حين كانت باريس تحتفل بمناسبة قرن العلم وتقدّم فروض الطاعة إلى الساحرة الكهرباء. أسطورة أوغست كونت[322] على الطريقة البرازيليّة، في عرس زهدي بين إيقاع الباتوكادا والفلسفة الوضعيّة. أسطورة الغاوتشو الذين لا يؤثّر فيهم الرصاص. أسطورة الهاييتي ماكاندال، أظنّ هذا هو اسمه، القادر على أن يتحوّل إلى فراشة أو سحليّة أو حصان أو حمامة. أسطورة إميليو ثاپاتا، وهو يصعد إلى السماء، بعد موته، على حصان أسود تنبعث ألسنة اللهب من أنفاسه». «وفي المكسيك -قال الرئيس-: أطاحوا أيضاً بصديقنا پورفيريو دياث بأسطورة "الانتخاب الفعلي، وليس إعادة الانتخاب" واستيقاظ النسر والحيّة، اللذين كانا، من حسن حظ البلد، يغطّان في نوم عميق، منذ أكثر من ثلاثين سنة. وها هم الآن يصنعون لنا هنا أسطورة الطالب، الاسبارتاكوسي المجدّد والنقي والحاضر في كلّ زمان

(321) أحد ملوك الأزتيك في المكسيك. حكم بين 1505 و1520. تصدّى للإسبان وقُتل في معركة معهم.

(322) Auguste Comte (1798-1857): عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي. أبو الفلسفة الوضعيّة.

ومكان. يجب أن تفرّغ أسطورة الطالب من هوائها.. وشرطتنا، هذه التي تلقت تدريبها في الولايات المتحدة، ألا تجيد غير ضرب رجال مربوطين والقرع بالعصيّ وإغراق الناس في البانيوهات؟!». وبينما كان پيرلاتا يفتح حقيبة الهيرميس لتعديل مزاج سيده، وصل خبر مفاجئ عظيم: اعتُقل الطالبُ في مكان لم يكن أحد يتوقعه، من دون مقاومة ولا بطولات، في نقطة تفتيش في الجنوب، حين استغرب حارسان ساذجان -ليسا ساذجين جداً- أن يسافر حاصد قصب، لا تبدو على يديه تشقّقات ولا بثور، في عربة لنقل المحصول. صورة الشخص المعتقل تتوافق مع صورة عثرت عليها الشرطة في إحدى إضابير الجامعة ودرستها جيداً. ويبدو أنّ الشخص ينفي، منذ أن اعتقل قبل ساعتين، أنّه هو الشخص المطلوب، وهو موجود في الـ célula (زنزانة) -ألم يكن يبحث عن célula؟- من زنزانات سجن «موديلو». «رجاءً، أبلغوهم ألا يؤذوه! -صاح المستشار الأوّل-: ليقدّموا له فطوراً جيداً، خبز الذرة والزبدة والجبنة والفاصولياء السوداء والبيض المقلي، بل ليقدّموا له جرعة طويلة -على طريقة أهل الريف- إن شاء شراباً. ثمّ ليأتوا لي به إلى مكتبي. سأتكلّم معه كلامَ رجلٍ لرجل. وسأعطيه كلمتي بأنّي لن أستخدم سلطاتي معه. هكذا ستكون المقاومة أقلّ».

أعدّ المستشار الأوّل المسرح بعناية. ارتدى بدلة رسميّة موشّاة بالحرير -رباط عنق رمادياً-وردياً، نيشاناً في العروة- جلس مديراً ظهرَه إلى النافذة العريضة ذات الزجاج الأبيض المطلّة على باحة القصر المركزية، خلف منضدة المكتب، ليسقط الضوء مباشرة على وجه الزائر. وسط المنضدة وضع النشّاف الكلاسيكي الرمادي مؤطّراً بفرو منقوش؛ محبرة النسر النابليوني على قاعدة من الرخام الأخضر؛ العلبة الأسطوانيّة الجلديّة التقليديّة، مليئة بأقلام بُريت بدقة؛ ثقّالة ورق مع ذكرى واترلو؛ فتّاحة

رسائل ذهبيّة، نُقش شعار الجمهورية على مقبضها؛ ورزم، رزم كثيرة، مكدّسة، غير منظّمة، منثورة الأوراق، هنا وهناك، وكأنّه يوشك على فحص وثائق. وهناك، على يمين النشّاف، ويا للعجب، نسخة، بغلاف أصفر، من كتيّب تربية دجاج الرود - آيلاند ريد. أدخل الدكتور بيرلاتا «الطالب»، بتهذيبٍ بالغ، بينما واصل المستشار الأول التظاهر بأنّه يعمل في أرقام مؤشّر عليها بقلم الحبر. رفع يده المشغولة مشيراً للزائر بالجلوس. وبعد أن جمع عدداً من الأوراق، سلّمها إلى سكرتيره: «في موازنة الجسر هناك خطأ مقداره ثلاثمئة وعشرون بيزو. هذا شيء غير مقبول. ليعلم هؤلاء السادة أنّهم يستطيعون طلب أجهزة يسمّونها "حاسبات" من الولايات المتحدة!». خرج بيرلاتا وخيّم صمتٌ طويل. راح المستشار الأوّل، ذو الجسم العظيم، المثقل بالأكتاف، الذي استطال وتضخّم بفعل المقعد الرئاسي الفخم، يتأمّل خصمه بشيء من الدهشة. كان ينتظر أن يرى فتى رياضيَّ الجسم مفتولَ العضلات من كثرة ما مارس رياضة كرة اليد في الجامعة، شابّاً متجهّم الوجه، متحدّياً، مستعدّاً لنزال، لكنّه وجد أمامه شخصاً نحيفاً نحيلاً، في منتصف المسافة بين المراهقة والبلوغ، أشعثَ الشعر شاحبَ الوجه، ينظر إليه مباشرة، نعم، تقريباً من دون أن يرمش، بعينين فاتحتين، خضراوين رماديتين، ربّما، أو ربّما، خضراوين زرقاوين، تعكسان، على الرغم من رقّةٍ أنثويّة تقريباً، حدّةً في الطبع وتصميمَ من يستطيع أن يتحرّك، حين الضرورة، بصلابة المؤمنين الصادقين. تأمّل أحدُهما الآخر، السيّد.. صاحب السلطة، الراسخ. والضعيف، المتخفّي، المثالي، من على شفا جيلين. إنّهما يريان أحدهما الآخر لأوّل مرّة. وكانا، وهما يتأملان كلٌّ منهما الآخر، يثيران الشفقة. كان «الأعلى» في نظر «الأسفل» نموذجاً، نسخة من عيّنة تاريخيّة، صورة جامعة لصور هي نتاج

فلكلور حديث. صورة ثلاثة في جسم واحد: القوي والرأسمالي والسيّد. صورةٌ لها في حدقات العيون ثباتُ صورة الدكتور «بولونييس» أو «تورلوپينو» أو «الماتاموروس» وديمومتها في الكوميديا المرتجلة الإيطاليّة[323]. ها هو ذا، بطل القصص الثوريّة -فكّر الطالب في بعض رسوم الألماني جورج غروز ونقوش ماسيريل على الخشب[324]-، ذلك الشخص الواقف أمامه، بسترته وبنطاله المقلّم، والدرّة في ربطة العنق، والذي ينبعث منه العطر الثمين، ولا ينقصه إلا القبعة التقليديّة وسيجار الهابانو المغروس بين الأنياب الفتّاكة، لكي يجسّد -وهو جالس على أكياس الدولارات، الموجودة فعليّاً، وإن كان في أقبية بنك سويسري- روح البرجوازيّة. وكان «الأسفل» في عين «الأعلى» شخصيّة فولكلوريّة أيضاً، فراح يقيسها ويزينها ويجزّئها، مستغرباً حرصه على صرف جزء من اهتمامه وعنايته إلى شخصيّة تافهة لا ثقل لها ولا وزن. ذلك الذي أمامه هو نسختنا من الطالب الكلاسيكي الذي يظهر في الروايات الروسيّة، حالماً ومؤدلجاً، أقربَ إلى العدميّ منه إلى السياسي، بروليتارياً بالضرورة، ساكن السطوح، رديء التغذية، رثّ الهندام، ينام بين الكتب، ويسكن الحقد قلبه من كثرة ما عانى من إحباط ولّدتْه حياة الفقر والبؤس التي يحياها. فحالهما من بعضها. كلاهما صَدرَعن الشيء نفسه، سوى أنّ الذي في «الأعلى»، البراغماتي على طريقته والفاهم للوسط، تسلّق، بسرعة المتلهّف، الطريق الذي بات مزيّناً بتماثيله النصفيّة والكاملة؛ بينما سقط الذي في «الأسفل» في أفخاخ مسيحانيّة من نوع جديد، تحمل حالمي القارة كلّها إلى سيبيريا

(323) Commedia dell'arte: شكل مسرحي إيطالي ازدهر بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. والأسماء المذكورة تعود إلى شخصيات من ذلك المسرح.
(324) Georg Grosz (1893-1959): رسّام وأستاذ جامعي أميركي من أصل ألماني. Frans Masereel (1889-1972): رسّام بلجيكي.

المدار، إلى المجد القليل الذي أصابته اختبارات برتيلون[325] أو إلى خاتمة -موضوع لمقالات صحفيي المستقبل- من التلاشي-الذي-لا- يترك- أثراً، حتّى يضطر أهل المتلاشي، المختفي، المتبخّر، إلى الذهاب، في ذكرى مزعومة، في تواريخ تذكاريّة مزعومة، لوضع الزهور على قبور خاوية، كُتب على شاهدها اسم ولقب حُفرا في الحزن، الحزن الذي هو أسوأ من حزن التابوت أو من حزن القبر الخاوي. وفي صمت لا يقطعه إلا صفيرُ طير يمرحُ بين أشجار الباحة، نشأ تقابلٌ من أصوات ما كانت تخرج من الشفاه. نظر أحدهما إلى الآخر: لا تعرف كم تتقن أداء دورك | تبدو أقرب إلى شاعر مبتدئ منك إلى أيّ شيء آخر | «أنت في دورك المناسب» تماماً | من أولئك الذين يمنحونهم الجوائز في مسابقات الشعراء | ملابس زاهية رائعة | بدلة من «ذي كواليتي شوپ» | وجه مؤخرة | خدود طفلة | في الصور يظهر أكثر بياضاً: مع السنين يعود إلى أصوله | منفوش الشعر، ربطة عنق منحرفة عن مركزها، ليتميّز | رائحته رائحة عاهرة، كولونيا أكثر من اللازم | يعوزه حجم، قوة، لكي يكون شيئاً | هنا شيء منفّر في ملامحه | يرى في نفسه ماسانيللو[326] | كنتُ أظنّه أكبر سناً | أتساءل ما إن كانت نظرته نظرة كره أم نظرة خوف | يداه ترتجفان: الكحول | يداه يدا عازف بيانو، لكن عليه أن يقلّم أظافره | الطاغية الكلاسيكي | الملاك الذي كنّاه جميعاً | رجل رذائل وقذارات: يظهر ذلك على وجهه | وجه فتى لم

---

(325) يشير إلى Alphonse Bertillon (1853–1914) وهو طبيب وعالم أنتروبولوجيا، تعاون مع الشرطة للكشف عن المجرمين وفق قياسات وعلامات فارقة ومزاجية. صادفت معاييره نجاحاً في البداية، لكنّها أثبتت فشلها حين انطبقت على شخصين يشتركان بالصفات والقياسات ذاتها. وكان ذلك سبباً في التخلي عنها والاستعاضة عنه بأسلوب بصمات الأصابع.

(326) Masaniello (1620–1647): صيّاد من نابولي، قاد ثورة على الولاة الإسبان، فأفسح الطريق أمام قيام جمهورية عرفت بالجمهورية النابوليّة (1647–1648).

يضاجع الكثيرات: مثقف مولع بالاستمناء | لا يبلغ مرتبة الوحش المسخ، بل هو وكيل إقطاعي وقح | هؤلاء الضعفاء هم الأسوأ | كلّ ما يظهر هنا تمثيل في تمثيل: استقبالي، الضوء في وجهي، ذاك الكتاب الذي على المنضدة | قادر على فعل كلّ شيء: لا شيء يخسره | لا تنظر إليّ هكذا، فلن أخفض عينيّ | على الرغم من جرأته وشجاعته، لن يتحمّل التعذيب | أتساءل ما إن كنتُ سأتحمّل التعذيب: هناك من لا يتحمّل | أتصوّر أنّه خائف | ... التعذيب... | إن ضغطوا عليه قليلاً | سيحاولون أن يحصلوا منّي على أسماء | ولماذا الانتظار؟ فلأُخِفْه قليلاً قبل البدء | يقرّب يده من الجرس: سيستدعي أحداً | لا: لقد أعطيته كلمتي | لا أدري ما إن كنتُ سأستطيع المقاومة | أكلّمه أولاً | من الفظيع التفكير في ذلك، في ذلك، في ذلك... | ليس من المناسب أن تصنع من هؤلاء شهداء: أو تجنّبْ أن تصنع منهم شهداء قدر الإمكان | لقد أعطاني كلمته؛ لكنّ كلمته لا تعني شيئاً | الكل يعلم أنّه هنا، وأنّي أعطيتُ كلمتي | سيستدعي أحداً: ها أنا ذا أرى نفسي مقيّداً بالحديد | آخرون، أقوى من هذا وأصلب، استسلموا وانهاروا | متى يقرر الكلام؟ | نطلق سراحه ثمّ يتبعونه: لا بدّ أن يذهب إلى مكان ما | لماذا لا يكلّمني؟ كلّمْني! لماذا لا يفتح فمه؟ | إنّه يتصبّب عرقاً | وهذا العرق الذي يتصبّب منّي ولا أحمل منديلاً، ليس عندي منديل؛ ولا في هذا الجيب | إنّه خائف | يبتسم | يريد أن يقترح عليّ شيئاً: قذارة | سأعرض عليه جرعة | أكيد سيعرض عليّ جرعة | لن يقبلها، ليتظاهر بالنقاء | ليته يعرض عليّ جرعة: سأشعر بالراحة | لا أريد أن أعرّض نفسي لرفضه | لا، هيّا، هذا، تجرّأ؛ ستكون زجاجة من الحقيبة تلك؛ يعلم الجميع ما تحوي تلك الحقيبة | مع ذلك، نعم؛ أقول له.. أعيد القولَ عليه.. ولكن لا يبدو أنّه فهمني: تلك الشاحنة | أظنّ أنّه قال لي شيئاً عن شرب شيء؛ لكنّي لم أسمع جيداً: تلك الشاحنة | الترام، الآن |

الترام/ لا أفهم إيماءته / أرى أنّه لم يفهم إيماءتي / لقد نظرنا كلٌّ منا إلى الآخر ما يكفي؛ الكتاب، الآن، لكي يرى أنّ.. تناول المستشار الأوّل كتيّب تربية دجاج رود - آيلاند ريد. فتحه، ولبس النظّارات، وبدأ يقرأ بسخرية واضحة: «شبح يطوف أرجاء أوروبا: شبح الشيوعيّة»، وربط الآخر بسخرية أشدّ: «قوى أوروبا العجوز اتحدت جميعها في حلفٍ مقدّس لملاحقة ذلك الشبح: البابا وويلسون وكليمونصو ولويد جورج». «... مترنيش وغيزو» صحّح الآخر. «أرى أنّ حضرتك تعرف الكلاسيكيين»، قال الطالب. «بالأحرى أعرف تربية الدجاج. لا تنسَ أنّي ابن قرية.. وربّما بسبب ذلك...» وسكت، وهو محتار حول الأسلوب الذي يجب أن يتبعه في ذلك الحوار: عدم اللجوء إلى أسلوب مزوّق، أسلوب صلاة على المقبرة[40]، الذي سيجده شابٌّ من الجيل الجديد مثيراً للضحك، ولكن من دون أن يسقط -الطرف المقابل- في المفردات السوقيّة وغير المناسبة التي تحطّ من مكانته وقدره، وإن اعتاد استخدامها مازحاً في أحاديثه الخاصة مع الدكتور بيرلاتا ولامايورالا إلميرا. اختار الكلام، إذاً، بالنبرة المؤدّبة المتأنّية، التي تتجنّب التخاطب الحميم بيننا، والتي تخلق، لاختلافها عن صخب عالمنا وألفته، تباعداً سريعاً، هو أكبر من المنضدة التي تفصل بينهما. سأل الفتى الذي كان أمامه، بإيماءات ممثّل متمكّن من عمله، مهمهماً -على طريقة لوسيان غيتري[327]-، وكأنّه من شخصيات تراجيديا تضيّق عليه أحكام القدر الغامضة: «لماذا تكرهني حضرتك كثيراً؟!». أدرك الطالب معنى «حضرتك» في استراتيجيّة الآخر / يكلّمني بأسلوب فولتير، حين يحكي لنا عن أنّه «تشرّف بالحديث» مع هندية عن السروال الداخلي/ فردّ عليه بأهدأ نبرة خطرت على حنجرته المرتعبة: «أنا لا أكره حضرتك، سيدي!». «ولكن "الحبّ بالأفعال" -قال القويّ المقتدر،

(327) Lucien Germain Guitry (1860-1925): ممثّل فرنسي.

من دون أن يرفع مقام صوته-: القنابل لم يُلقَ بها هنا على غارسونات القصر. ثمّ إنّ صدركَ مليء بالكراهية والحقد». «لا شيء ضدّ حضرتك، سيّدي!». «... وهذه القنابل؟!». «لم أضعها أنا، سيدي. أنا لا أفهم شيئاً في المتفجّرات»- «طيّب، أنتَ [استدركَ]، حضرتك، لا. فمَن وضعها إذاً هم أتباعك، أصدقاؤك، جماعتك / بدت له كلمة «جماعتك» كلمة عاميّة تناسب لغة تقارير الشرطة/ ، محازبوك، معاونوك، رفقاؤك / حذارِ: لقد عدتُ إلى السقوط في اللغة المزوّقة/ ». «نحن لا نضع قنابل، سيدي» بدأ صبر المستشار الأوّل ينفد. فما يجري هنا شبيه بتمثيليّة الذئب والحمل: «من وضعها إذاً؟ مَن؟ هل لحضرتك أن تنوّرني؟!». «آخرون غيرنا. نحن نؤمن بأنّ الاعتداءات لا تغيّر شيئاً. نرى أنّ تضحية رافاتشول وكاسيريو[173] عبثية كما هي أدبيّات باكونين وكروپوتكين[88]». «لا تجرّني إلى نقاش بيزنطي، إلى حجج مجلس نيس الكنسي / وخرجت منّي واحدة أخرى من تعابيري!/ ، وهي في النتيجة واحدة.. لنفترض أنّكم لم تكونوا الفاعلين، لكنّكم حين تنفجر المفرقعات في حمّامي تصفّقون». «على العكس تماماً، سيدي. أسوأ ما يمكن أن يحدث لنا الآن هو أن يقتلوا حضرتك. أحد أصدقائي المناضلين، وهو كاثوليكي ومتديّن طبعاً، يصلّي ويقدّم النذور للراعية الإلهيّة لكي تحمي وجودك الضروري». نهض المستشار الأوّل، بين مندهش وغاضب: «وجودي الضروري؟ ها أنتَ تظهر أنّك تمتلك كليتين! وأقول كليتين من باب تلطيف الكلام»[328].../ ها قد بدأ يخاطبني بأنتَ/ «نحن نحتاج إلى حضرتك، سيدي!». انفجر الآخر، القويّ الضخم، ضاحكاً: «هذا كلام كبير: فأنا الآن إذاً ماركسي، وشيوعيّ، ومنشفيك، وثوريّ، ولا أدري ماذا! كلّ هذا واحد متشابه، والكلّ يطمحون إلى شيء واحد: الوصول إلى الكرملين، أو الإقامة في الإليزيه، أو السكن في

(328) لأنّهم في العادة يقولون لمن يبدي جرأة وشجاعة إنّه يمتلك «خصيتين».

بكنغهام، أو الجلوس على هذا الكرسي [وضرب على مسند الكرسي الرئاسي]، ليتحكّموا برقاب الآخرين وليتمتعوا بالحياة وليملؤوا جيوبهم بالمال! حكى لي سفير القيصر، الذي بقي عندنا، بانتظار سقوط ذلك وانهياره، أنّ زوجة لينين كانت تتزيّن بجواهر الإمبراطورة ألكساندرا وعقودها وتيجانها!». «من الرائع أن تفكّر حضرتك بهذه الطريقة وتصدّق تلك الحكايات، سيدي! خيرٌ لنا ألّا يفهمونا من أن يفهمونا على النصف. فالذين يفهموننا على النصف يحاربوننا أفضل من أولئك الذين يرون فينا حالمين». «ولكن، المهمّ: إن متُّ غداً...». «سيكون أمراً مؤسفاً بالنسبة إلينا، سيدي.. لأنّ مجلساً عسكرياً سيتولّى السلطة وسيستمر كلّ شيء على حاله، أو أسوأ، تحت حكم أيّ واحد مثل والتر هوڤمان، تولّاه الربّ في رحمته المباركة!». «فماذا تريدون إذاً؟!». قال الآخر، بصوت أعلى نبرة، ولكن بلا عجلة: «أن تسقط حضرتك عن طريق ثو-رة شعـبـيـّة». «لتأتيَ أنتَ وتجلس في مكاني! أليس كذلك؟!». «لم أكن يوماً ما راغباً في ذلك». «لديكم مرشّحٌ، إذاً!». «كلمة مرشّح لا وجود لها في قاموسنا، سيدي». هزّ المستشار الأولّ كتفيه: «كلام فارغ! في النهاية، لا بدّ من أن يتولّى أحدٌ ما، أحدٌ ما، السلطة. لا بدّ من رجل، دائماً رجل، على رأس الحكومة. انظر لينين، في روسيا.. آآآه! لويس ليونثيو مارتينيث، أستاذك في الجامعة...». «إنّه رجلٌ أحمق. ليذهبْ إلى الجحيم مع قصائده البورانا الهندية القديمة وكاميل فلاماريون[329] وليون تولستوي [يضحك]. العودة إلى الأرض! أرض مَن؟ أرض يونايتد فروت؟!». ضاق المستشار الأوّل ذرعاً بهذا الحديث لأنّه خرج عن مساره: «إذاً، حضراتكم تطمحون إلى إقامة الاشتراكية هنا؟». «إنّنا نبحث عن الطريقة». «الطريقة الروسية؟». «ربّما ليست نفسها. هنا الأمر مختلف. الاشتراكية هنا أسهلُ وأصعبُ».

---

(329) Camille Flammarion (1842–1925): مؤلّف خيال علمي وعالم فلك فرنسي.

بدأ الرئيس يذرع المكتب طولاً وعرضاً، ويدمدم، فكأنّه يكلّم نفسه: «آآآي، أطفال، أطفال، أطفال! إن أقمتم الاشتراكية هنا، ستجدون المارينز الأميركان في "بويرتو أرغاواتو" بعد ثمانٍ وأربعين ساعة!». «هذا هو الاحتمال الأكبر، سيدي». «إذاً؟ [نبرة ناصحة ولطيفة]. أنا أغبطك. في سنّك كنتُ أفكّر مثلك. ولكن.. والآن؟ اسمعْ: لقد أحرقوا جان دارك حيّة وهي في التاسعة عشرة، ولو أنّها بلغت الثلاثين لضاجعت ملكَ فرنسا، ولحصلت على مثل ما حصلت عليه بالتفاوض مع الإنكليز، من دون أن تموت في المحرقة.. أنت لديك من ترى فيهم قدوتك وتتخذ منهم أسوتك. طيّب. أنا أحترمهم. ولكن لا تنسَ أنّ الغرينغو هم رومان أميركا. وما من أحد يقدر على روما. وخصوصاً الناس البسطاء.. [نبرة حميمة، الآن].. يمكنك أن تتكلّم معي بكلّ ثقة، كما تتكلّم مع أخ كبير. أنا عندي تجربة في السياسة لا تمتلكونها أنتم. يمكنني أن أشرح لك لماذا تبدو بعض الأشياء ممكنة وبعضها الآخر غير ممكنة. كلّ ما أبتغيه هو أن أفهم.. أن نفهم كلٌّ منّا الآخر.. ضع ثقتك فيّ! قل لي!». «مستحيل!»، ردّ الآخر، في ضحكة مفاجئة، وبدأ يتحرّك في المكتب، في الاتجاه المعاكس لاتجاه محاوره، حتّى إذا اتكأ أحدهما على موقد الحطب المزيّف، كان الآخر مستنداً على الطنف بمرآته الموضوعة بين بابين، التي تكبّر أبعاد الصالة. وفجأة أبدى الرئيس إيماءةً تدلّ على الإحباط. حركة مفتعلة: «لم تتلقّوا دروساً في هذه الحياة. وأنا أسمعكَ تتكلّم، أحسّ بأنّي سجين الأمّة الأوّل. نعم، لا تبتسم! أعيش هنا محاطاً بوزراء وموظّفين وجنرالات ودكاترة، جميعهم خبراء في النفاق والتطبيل، لا يفعلون غير إخفاء الحقيقة عنّي. لا يحدّثونني إلا عن عالم من المظاهر. أعيش في كهف أفلاطون.. هل سمعتَ بكهف أفلاطون؟ طبعاً! من الغباء أن أطرح عليك هذا السؤال! وفجأة تظهر لي أنت، مليئاً بالإيمان، بالعنفوان، بالحماس، بالدم الجديد،

فتتجسّد أمامي عبارة الشاعر الفرنسي: "أتعلّم من صديق شابّ أكثر ممّا أتعلّمه من معلّم عجوز!". آآه، لو أنّي حظيتُ بصراحة رجلٍ مثلك! لقلّتْ أخطائي! وأكثر من هذا: لرأيتني مستعدّاً لإقامة حوار في أجواء جديدة. مثلاً، اسمع: أفهم أنّنا كنّا -لنقل:- صارمين، في ما يتصل بالمشاكل الجامعيّة. هل تريد أن نتناقش في ذلك الآن، وجهاً لوجه، وأن تخرج من هنا، بعد ساعة، ومعك حلّ يمكن أن يرضي جماعتك؟ الأمر متروك لك: تكلّم!». قال الآخر وهو يتحرّك من الموقد إلى المرآة: «ممثّل كوميدي». تحركّ الرئيس، في خطوات طويلة غاضبة، من المرآة إلى الموقد، وقد فقد تماسكه الأولي: «اسمع! إذا كنتَ أنتَ قرأت ألفريد دي ڤيني[330] فقد قرأتُه أنا أيضاً. فلا تأتِني بما فعله بيوس السابع مع نابليون![331]. لأنّك ستسمع، قبل أن تتلفّظ بعبارة "ممثّل تراجيدي!" صوتَ هذا!». وأخرج من جيب سترته الأيسر مسدس «براوننغ» ووضعه على المنضدة وفوهته موجّهة صوب محاوره: «فالحرب مستمرّة، إذاً؟!». «ستستمرّ، معي.. ومن دوني». «أما تزال مصرّاً على أحلامك الطوباويّة، اشتراكيّتك، التي أخفقت في كلّ الأنحاء؟!». «هذا شأن يخصّني.. ويخصّ آخرين كثيرين». «الثورة المكسيكيّة فشلت فشلاً ذريعاً». «لكنّها علّمتنا الكثير!». «والثورة الروسية فشلت». «لم يثبت ذلك إلى الآن». راح المستشار الأوّل يلعب بالمسدس، يحشر مشط الطلقات ويخرجه بطريقة استعراضيّة. «اقتلني وانتهِ!»، قال الطالب. «لا! -قال الرئيس، وأعاد إخفاء السلاح-: هنا في القصر، لا. لا أريد أن تتسخ السجادة!». خيّم الصمت. عادت الحساسين تزقزق في

(330) Alfred de Vigny (1797-1863): شاعر رومانسي فرنسي.

(331) مات البابا بيوس السادس عام 1799 في المنفى بعد أن احتلّ نابليون روما. وحاول خليفته بيوس السابع إصلاح العلاقة مع بونابرت، لكنّه انتهى معتقلاً ومنفيّاً عام 1809.

الباحة. نظراتهما تفرّ إلى الحيطان تجنّباً للقاء. (إلى متى سيستمرّ هذا الوضع ؟ يجب تعديل ذلك المشهد، الوضع المستعصي). وتكلّم الرئيس، في ما بدا مجهوداً أخيراً من طرفه: «طيّب، بما أنّكَ لا تريد أن تتفاهم معي، سأمنحك ثلاثة أيام لتغادر البلد. اطلبْ من پيرلاتا ما تحتاج! يمكنك أن ترحل إلى حيث تريد. باريس، مثلاً. سأعطي التوجيهات ليصرفوا لك سرّاً مرتباً شهرياً أكثر من مقبول. ليس عليك أن تراجع سفارتنا. لن يفاجأ أصدقاؤك برحيلك، بعد أن علموا أنّك احترقت هنا... لا! انتظر! لا تعمل لي حركات تمثيليّة! لا أحاول أن أشتريك: أنا أعرض عليكَ شيئاً بسيطاً.. -حدث تغيُّر في النبرة-: أنا لا أعرض عليك باريس الفتيات ومطعم "ماكسيم"، كما اعتدتُ أن أفعل مع حديثي النعمة عندنا. أعرض عليك باريس السوربون، باريس برغسون، باريس پول ريڤه[332] الذي يعرف الكثير عن أشيائنا، حتّى إنّه نشر مؤخراً دراسة رائعة عن مومياء أهديتُها، قبل سنوات، إلى متحف "تروكاديرو". أمّا البقية فلك أن تقرّرها أنت. في مقبرة سان-أتيان-دو-مون ستنقل تحياتي إلى راسين؛ وفي البانثيون، إلى ڤولتير وروسو. ويمكنك، إن شئت، أن تردّد "صلاتك على المقبرة" على طريقة البلشفيك، فلديك، في مقبرة "پيرلاشيز" حائط شهداء الكومونا[333]. مقابر تلبّي جميع الأذواق والرغبات.. والخيار متروك لك!». (وكرّر مرّاتٍ عدّة «والخيار متروك لك» بنغمة بدت، في كلّ مرّة، أشدّ غموضاً). «ليس لديّ ما أفعله في باريس»، قال الطالب، بعد توقّف واضح. «أتركك لرغبتك. ابقَ هنا! لكنّي سأصدرُ الأمر بقتلك، من دون تردّد، أينما وجدوك، اعتباراً من بعد غد الثلاثاء». «سيكون موتي أسوأ دعاية لحضرتك». «يا بنيّ: قانون

---

(332) Henri Bergson (1859-1941): فيلسوف وأديب فرنسي. حاز جائزة نوبل للآداب عام 1926. Paul Rivet (1876-1958): عالم اجتماع فرنسي.

(333) يشير إلى ثوّار كومونا باريس من فوضويين وشيوعيين وأعضاء المناصرة الذاتية.

الهروب كذبة يفهمها الجميع. كما هو انتحار من يهرب، أو من ينتحر في زنزانته لأنّهم نسوا أن يصادروا أربطة حذائه. وهذا يحدث في أكثر البلدان تحضّراً، حتى تلك التي لديها أفضل جمعيات حقوق الإنسان وخير المؤسسات المعنيّة بحماية حرية الفرد وكرامته.. آآآه، وأحذرك: سيسقط معك كلّ من يوفّر لكَ الملجأ، هو وعائلته. هل صار معلوماً؟!». «هل يمكنني الانصراف؟». «في ستّين داهية! وجهّز شاهد قبرك: هنا يرقد من قتلته حماقتُه!». نهض الطالب. أدى المستشار الأوّل إيماءة توديع، إذ لم يشأ أن يغامر بمصافحته خوفاً من أن يقابله الآخر بالرفض: «لا تدري كم أنا متأسف. شاب رائع مثلك. والأسوأ من ذلك أنّي أغبطك: لو كنتُ في سنّك لكنتُ في جماعتك. لكنك لا تدري ما معنى حكم هذه البلدان. لا تعرف ماذا يعني أن تحرث بين بشر...». وفجأة تلاشت صورة المستشار الأوّل بين طوفان من زجاج محطّم. المرآة التي كانت تلك الصورة، الرفوف، اللوحات، الموقد، انهارت في أكوام من الكلس والألواح والأخشاب والأعواد والورق. كان دويّاً صمّ الآذان وتردّد عصفه وصداه في الصدر والبطن. تأمّل الرئيس الدمار، شاحب الوجه، وراح يزيح أتربة الكلس التي صبغت بدلته ببياض صدرية الخباز. أمّا الطالب فقد سقط على الأرض، ثمّ راح يتحسّس جسمه ووجهه، خصوصاً وجهه، فقد كان مهتمّاً بالنساء كثيراً. «لا شيء.. اليوم كُتبتْ لنا حياة جديدة!»، قال الرئيس. «أما زلت تعتقد حضرتك أنّ الغباء يبلغ بي حدّ أن أفجّر قنبلة في نفسي؟»، قال الآخر وهو ينهض. «أنا أصدّقك. لكنّ ما حدث لا يغيّر شيئاً. ليس عندي غير ما قلتُ، ولا شيء آخر أضيفه». ضجّ المكان بالناس: خدم وموظّفون وحرس ولامايورالا وسكرتيرات. «اخرج من هنا!» قال المستشار الأوّل، وهو يقود الطالب إلى صالة صغيرة مجاورة، ورديّة كلّها،

مزيّنة بالنقوش، فيها أريكة عريضة فوقها وسائد كثيرة، تؤدّي إلى الخارج عن طريق درج ضيق حلزوني طالما تكلّم الناس عنه: «من هنا يصعدون إليك بالفتيات، أليس كذلك؟». «ما زلتُ أتمتّع بقوّتي. وها أنت تنتبه إلى ذلك!». ربت على كتفه: «لا بدّ أنّك ترى أنّ فيّ شيئاً من كاليغولا[334]... أليس كذلك؟». «من حصان كاليغولا»، ردّ الآخر، بوقاحة غريبة، قبل أن ينزل الدرجات بسرعة السنجاب. بدا المستشار الأوّل مذهولاً إلى درجة أنّه، حين ظهر الدكتور بيرلاتا، لم يقل سوى: «افتح له.. وليدعوه ينصرف حرّاً طليقاً!». «ها قد أحضروا صيدلية الإسعافات الأوليّة، سيدي!». «لا أظنّ أنّ هناك حاجة إليها.. لم أُصَب بأذى.. لا شيء.. لا شيء!». تحسّس بدنه، من صدره إلى ركبتيه، لكنّه لم يجد ألماً في جسمه، ولا لزوجة بين أصابعه.

(334) بلغ من طغيان كاليغولا Calígula (القرن الأوّل الميلادي) أنّه عيّن حصانه عضواً في مجلس الشيوخ مكان العضو الذي احتجّ على دخول الإمبراطور المجلس وهو على ظهره، ثمّ حرّض الشيوخ الآخرين على الثورة ثأراً لكرامتهم حين أمرهم الإمبراطور أن يأكلوا مما يأكل الحصان.

ستة عشر

... إنّ هناك أمناً أكثر وشرفاً أكبر في المِقاومة ممّا هناك في الهروب[335].

ديكارت

في آذار من ذلك العام بات ضرورياً تمديد العمل بقرار تأجيل الدفع، ولو لم تُمدّد الفترة بقرار رسمي، لمدّدها وطوّلها كلّ من اعتاد المماطلة والتسويف إلى أقصى ما يتحمّله التقويم. لقد اعتصم كلّ النصب والخبث والخداع والغشّ الذي يرافق الإفلاس بكلمة تأجيل الدفع السحريّة الشافية - الدفينة. لا أحد يدفع شيئاً. وصار سكّان البيوت والعمارات يستقبلون الجباة بالحجارة والعصيّ، ويطلقون عليهم الكلاب أحياناً. وصارت ربّات البيوت يَصِمن بالفوضويين التجارَ الكناريين والباعة الشاميّين وأولئك الذين يبيعون بالدَّين، ويلمّحن لهم، حين يلحّ هؤلاء في المطالبة بدَينٍ عن قطع من الدانتيل أو البياضات باعوها لهنّ، بأنهنّ سيستدعين شرطة المنطقة. أشياء تُشترى بالتقسيط ثمّ تُرهن في الحال، تُخرج من هنا لتُدفن هناك، عن طريق مرابين ومقرضين، في تلاعب بالمستندات

(335) «انفعالات النفس» Les passions de l'âme. المقالة 211، ص124.

وبالتواقيع، في عمليات نصب تصل إلى حدّ الدعاوى، وباستخدام أضابير ومعجزات، يانصيب وربا، يتداولون صكوكاً من دون رصيد يُلزمون حتى الذين ما زالوا يحظون بسمعة الأغنياء، بأن يسدّدوها نقداً. المدينة الجديدة بدأت تتلاشى -نعم، هذه هي الكلمة: تتلاشى- بالسرعة التي نمت فيها ونهضت. راح يتقزّم كلّ ما هو كبير، ينفرش، يتكرمش، وكأنّه يرجع إلى حالة صلصال الإخصاب. راحت المدينة تنضح فقراً، ناطحات سحاب المدينة الطموح -باتت أقرب إلى ناطحات ضباب منها إلى ناطحات سحاب-، تبدو أصغر حين غادرها ساكنو الطوابق العلويّة، غادرتها الشركات التي أفلست - شقق كئيبة، أفقدتها بقع الرطوبة رونقها، وكسا الحزنُ زجاجَها المعفّر بالغبار والوسخ، وباتت تماثيلها وحيدة بعد أن أصيبت، من أسابيع مضت، بالجذام. المباني، التي بهتت ألوانها وعلتها أمارات الإهمال، صارت خردة مدنيّة تمحو جمالَ ما كان في يوم من الأيام حديثاً، وتشوّهه وتشيخه وتغطيه بقدم ما كان قديماً أصلاً بداية القرن. وتحوّلت البورصة، الخاملة والمهجورة تقريباً، إلى سوق للطيور والببغاوات والسلاحف، وضعت فيها أكشاك تقدّم فيها الذرة المطبوخة والسلطات، وأقيمت فيها حوانيت الإسكافيين وشحاذي السكاكين وباعة التعويذات والصلوات وعيادات أطباء الأعشاب الجبليّة. («لحضرتك، لعلاج سكّر الدم، مغلي البقلة البنفسجيّة؛ لك، لعلاج الربو، سجائر مزدوجة الجرس؛ لك، لعلاج السائل الذي يخرج من العضو، ماء جوز الهند مع شراب الجن الهولندي؛ ولحضرتك، صديقتي، لعلاج تأخر الدورة، شاي القرع المرّ، مع أوراق المصطكاء، ضعيها هناك، هناك، بين ساقيك...»). «تجّار الهيكل»، تنهّد المستشار الأوّل بنبرة توراتيّة[336]. «على

(336) يشير إلى تطهير السيد المسيح للهيكل من التجّار والباعة والصيارفة (إنجيل مرقس، الإصحاح 11).

الرغم من معاهدة فيرساي، فإنّ حال أوروبا سيّئة -قال الدكتور بيرلاتا، مواسياً، وهو يمنّي نفسه بحربٍ أخرى، طويلة وجيدة وممتعة، ربّما أقرب مما يُظنّ-: ويلسون، بنقاطه الأربع عشرة، ألحق الأذى بالعالم كلّه!».
ألفُ إعلانٍ عن تنزيلات وتصفيات تقرأ صلاة الميت على روح المحلّات. بنايات تخلّى عنها مقاولوها ولمّا تظهرْ أسنانُها اللبنيّة -جدرانٌ في أوّلها لم يبلغ ارتفاعها قامة رجل- باتت، في كلّ الأنحاء، أطلالَ مخطط لم يولد، كيانَ فكرة لم تبلغ درجة الضيرورة، خاطرةَ مشروع لم يُشرع به -صالونات من دون سقوف، سلالم من دون تشطيب، أعمدة تذكّر بأطلال بومبي- بينما غزت أعشابٌ نازلة من الجبل المجمّعات السكنيّة والأحياء والضواحي: أعشاب تعود إلى العاصمة يحميها زهرُ الجُرَيْس والقنزعات الاحتفاليّة؛ وخلف تلك الحشائش الشجيراتُ، وخلف الشجيرات الأعوادُ وشجيراتُ السرخس والمخلوقاتُ النباتيّة سريعة الزحف، سريعة النموّ، لتظلل الصخورَ الصغيرة التي إليها تعود الأفاعي المنفيّة لوضع بيوضها في الأجواء النقيّة المنعشة. في تلك الأثناء، امتلأت الروابي المحيطة بالمدينة بأكواخ الصفيح، بالقماش المقطرن، بألواح التغليف، بالجرائد المقواة بالصمغ والغراء، وقد قُوّي ذلك كلّه بمساند عمودية أو دعائم متشعّبة الرأس، على سفح جبل، في توازن حرج تطيح به أمطار الربيع المبكرة، فتهدّ البيوت وتجرف عوائل كاملة إلى الوهاد. كانت تجمّعات بيّا ميسريا [= مدينة الفقر] وآمبري سو لا [= الجوع وحده] وفابيلاس [= الأكواخ]، التي راح سكّانها من أعاليها يتطلّعون كلّ ليلة، وبعيون متفرّج يحجز مقعداً في الجنّة، إلى منظر المدينة المضاءة - بيوت الفضة والزجاج المنقوش، بيوت هواة الطوابع النادرة وأقبية الخمور المعتّقة، حيث يسكن أولئك الذين ما زالوا يفكّرون في يانصيب لصيانة الكنائس الكولونياليّة، أو في تنظيم مسابقة لانتخاب ملكة جمال (من الكريول، ولكن ليست شديدة

«التحميص») لتمثّلنا في مسابقات «كورال غيبلز» العالمية، التي منها يأتينا ڤالس أون ميامي شور، الذي يُسمع في كلّ مكان. في تلك السنة أوقفتْ مصانع السكّر طواحينها قبل موعد توقفها، وتُركت أشجارُ المطاط لتواجه مصيرها وتغلق جراحها في غابات الجنوب المتشابكة. حدثت إضراباتٌ جديدة في الشمال، وحركاتُ عصيان في ورش النجارة في «ثيوداد أورّوتيا»، ومصادماتٌ دموية بين عمّال الموانئ والجيش في قرطبة الجديدة. وتحرّكت مجموعاتٌ مسلحة عديدة، يقودها أشخاصٌ كانوا حتّى الأمس مجهولين، عبر سلاسل الجبال في الجنوب، فأحرقت المزارع ونهبت المخازن وهاجمت الثكنات العسكرية - سيطرتْ، ليومين أو ثلاثة، على عدد من البلدات، وأجبروا رؤساء بلدياتها والتجّار والأعيان فيها على الرقص، بينما راحوا يطلقون النار على الأرض لتسريع حركة أقدامهم. لم تستطع السلطات في بعض المحافظات فعل شيء مع ناس ناقمين -وهي حالة مشخّصة في تاريخ البلد- يصحون من سبات وخنوع عمره ثلاثون سنة، وينتقلون فجأة وبسرعة إلى عنف استغربه علماءُ الاجتماع، لما عرفوه من الطيبة الأصليّة الوراثيّة التي يتصف بها المزاج الوطني. بات المزارعون المسكونون بالملاريا والبلهارزيا، بصنادل القماش التي ينتعلونها، وعيونهم المريضة الغائرة، يهاجمون -راكبين على خيول هزيلة مبقّعة موبوءة بالقراد، مقرّحة متورّمة- خيل كنتاكي الفخمة التي يمتطيها الحرس الريفي. كانت معارك بنادق الحشوة مقابل بنادق الماوزر، السكاكين ومناخس الفلّاحين مقابل الفؤوس المسنونة. في البلدات الكبيرة، تواجه القرميدةُ والطابوقة والحجارة، والديناميت أحياناً، الرصاصَ... وفي كلّ ذلك ما كان يُبقي على المستشار الأوّل محاصراً في جزيرة، جزيرة من أبراج مراقبة ونقاط حراسة وقضبان حديد وسعف نخيل متناظر، جزيرة اسمها القصرُ الجمهوري - جزيرة تصل إليها أخبارٌ، هي

من الاختلاط والتناقض، من الكذب أو الصدق، من التفاؤل أو التشاؤم، يستحيل معها تكوين صورة واضحة وعامة ومتسلسلة زمنياً عمّا يحدث فعلاً. لذلك يعمد من أراد التقليل من حجم هزيمته إلى التقليل من شأن الحدث، فيتكلّم عن مناوشات مع خارجين على القانون ولصوص، هم في الحقيقة قوة شعبيّة حقيقية؛ أمّا من يريد تبرير عجزه، فيعمد إلى المبالغة في تقدير قوّة المقابل؛ بينما يعمد من يريد أن يغطّي على غياب المعلومات لديه إلى ليّ الحقيقة أو تجاوزها. «حضراتكم تحملونني -قال المستشار الأوّل، محتدّاً-: على التفكير في أولئك الجنرالات الأوروبيين الذين يتكلّمون، حين يخسرون معركة، عن إعادة انتشار وإعادة تموضع ورسم خطوط، وهي طريقة لبقة للاعتراف بأنّهم تلقّوا صفعة قويّة». سقط حكّام مقاطعات. وسقط قادة حاميات. وسقط آخرون ببدلات أو بقبعات، في لعبة متواصلة من عزل وإعادة تعيين وإقالات وتجريد من المناصب وإعادة إلى المناصب وتكليف من اختار البقاء بمهام غير مرغوبة، وتنازلات بالبرقية، ومكالمات هاتفية مع معاونين سابقين طُردوا ذات يوم، وخطابات وطنية، ودعوات إلى توافق وطني. وتتسع رقعة الجزيرة، يوماً بعد يوم، وتكبر بانضمام عدد أكبر وأكبر من خدم الحكومة الذين يشعرون، بين جدران أجاد المستعمرون الإسبان بناءها، بأنّهم في حرزٍ وأمان من القوى المضادة التي تهزّ مراقبهم وجحورَهم ومتاريسَهم، حيث يلمع طوال الوقت معدنُ الأسلحة الطويلة الرمادي، وكأنّه موجٌ تدفعه أعاصيرُ بعيدة، لا يُعرف له مدى ولا وجهة. نشروا أكياس الرمل -لا احتياط يفيض عن الحاجة- على أسطح البناء. في الأجواء رائحة أعمال تخريبيّة. لذلك كان أيّ باب يتحرّك بعنف من ضربة ريح، وأيّ دراجة ناريّة تنطلق انطلاقاً مدوّياً، وأيّ صاعقة تسقط من دون إنذار بمطر -كما يحدث عادة في تلك الشهور- كفيلاً بإشاعة الفزع بينهم، حتّى عادت عبارة لامايورالا إلميرا

المكرّرة: «لا تكونوا جبناء رعاديد!» تتردّدُ في الأروقة والممرّات، التي فُرضت عليها حماية مشدّدة، ترددَ إحدى لازمات فاغنر. «مزيداً من الضغط، سيادة الرئيس، مزيداً من الضغط! عليك أن تشدّد الضغط!»، يقول پيرلاتا، حين يعرض عارضٌ يزعج المستشار الأوّل ويعكّر مسارَ يومه من بدايته. لكنّ الخطورة تكمن في أنّه لا يستطيع الضغط حين يكون الضغط متوقعاً، فبالقرب من جزيرة القصر، ولدت جزيرة أخرى في المدينة -جزيرة قريبة، لا يمكن التقرّب منها-: جزيرة صفراء، تزخر بالزينة والنقوش -طراز قوطي وسيط في قالب كاليفورنياني حديث- وتكبر، حيث تمتد، من الطرف إلى الطرف، أفياء كليفيللاند الظليلة، والغروسري، الذي منه تضوع رائحة شراب القيقب، وكليرنغ هاوس الغافي، وبار سلوپي جوز، والعديد من محلّات بيع التحف والهدايا، حيث تباع، في غياب الصناعات التقليدية -شعبنا يميل إلى الموسيقا، لكنّه لا يتوفّر إلا على القليل من الحسّ التشكيلي-، خشخيشات من هافانا وشالات من واهاكا ورؤوس مقلّصة على طريقة قبائل الشاوار، وبراغيث لُفَّت بملابس، للأعراس أو للعزاء، من قشور الجوز، ومجموعة أزرار وأشياء أخرى لم ينتج البلد مثلها، جنباً إلى جنب مع آثار مزوّرة مغشوشة. كانت تلك الجزيرة تتمحور حول أميركان كلوب، حيث تدور أحاديث جديّة -تصل تفاصيلها عن طريق مخبرين موثوقين- بين البوكر واجتماعات بنات الثورة وجلسات الماسونيين، الذين يرتدون الطربوش التركي، واحتفالات يوم الاستقلال وعيد الشكر والرابع من تموز والهالوين -أعلام ذوات النجوم وأطفال يضعون أقنعة اليقطين-، عن أزمة البلد واضطراب الأمن والإفلاس، وصولاً إلى استنتاج غريب ومثيرة للدهشة مفاده أنّ رجل العناية الإلهية -المسمار المتوهّج، كما نقول-، إلى حين العثور على من هو أفضل، ربّما يكون لويس ليونثيو مارتينيث، مهزوم قرطبة الجديدة، الذي صار، بقدرة

قادر، مطابقاً لمقاييس وزارة الخارجية الأميركية. «ومع أنّ الأمر تمّ بتكتّم شديد، فإنّ آرييل يعلم أنّه كان في واشنطن لعدّة أيام -قال پيرلاتا-: ممّا يبرهن على أنّ السياسة لا تعترف بعدو ميت». فكّر المستشار الأوّل بصوت عال: «هؤلاء، هؤلاء، الذين دافعتُ عن مصالحهم خيرَ دفاع؛ هؤلاء، الذين حصلوا منّي على كلّ ما أرادوا، يجعلونني الآن مسؤولاً عن كلّ ما يشهده البلدُ من مساوئ، ولا يريدون أن يقرّوا بأنّنا لسنا الوحيدين في هذه الحال، لأنّ الأزمة تصيب الجميع. إنّها أزمة عالميّة. لينظروا إلى أوروبا، حيث أتوا فعلتهم الكبرى التي تغيّرت بسببها الخرائط وانهارت العملات ونشأت القوميّات وزُوِّرت الجنسيات؛ فوضى عارمة، ذلك ما فعلوه، وذلك ما أقوله لك: فوضى. وهنا يحاولون إصلاح ما يجري بالاعتماد على الأستاذ الأبله!». «يظنّون أنّ التغيير سيقوّم الاعوجاج -أسطورة التغيير الأبديّة-... ربّما يظنّون أنّنا بتنا مجذومين معثوثين، أصبحنا طرازاً قديماً»، قال پيرلاتا شاكياً، بينما عاد الرئيس إلى فكرة ثابتة تقضّ منذ أيام مضجعه: «لقد أخطأتُ إذ لم أقتل الطالب حين كان أمامي، هنا، كما أراك الآن، والبراوننغ فوق المنضدة. أمّا الناس، فكنّا سنقول لهم إنّه حاول الاعتداء عليّ فدافعتُ عن نفسي. رصاصة من لامايورالا إلميرا على كتافية سترتي اليمنى، وهي معلّقة على الشمّاعة، ثمّ ألبسها بعد ذلك. وصورة له وهو ممدّد على السجادة، ضحية بائسة لغريزة الدفاع عن النفس، المبرّرة شرعاً. كلّ شيء واضح. كلّ شيء موثّق. ويعلو أوّل تصفيق في الأمير كان كلوب». «ما كنّا سنُصلِح شيئاً بهذا». «لكنّ الطالب ما زال في البلد: لم يغادر. شرطتنا، اليوم كما الأمس، عاجزة عن الإمساك به. وهو ما زال يوزّع منشوراته مطبوعة في ورقه التوراتي». «جريدة يقرؤها، على نحو خاص، روّاد أمير كان كلوب. لأنّ الجمهور الآخر يكاد لا يعرف القراءة. أفكارها معقّدة بالنسبة إلى ناسنا، ناس الصندل والأوڤيرول». «لن يفهموا جيداً

أفكار الفتى، لكنّهم مؤمنون به». «أبداً! صورته في نظرهم مجردة. هو شخص ما-جاء-ليصلح-شيئاً. أسطورة التغيير من جديد! ولكن ينقصه اللحم، تنقصه الصورة، ينقصه الوضوح. لـسان إكسپيديتو حضور أكبر من حضوره عند فلّاحينا، وإن لم يرد اسمه في سجل القديسين. فهم، على الأقل، يلجؤون إليه حين يريدون أمراً مستعجلاً، ويصلّون أمام صورة -المطبوعة في باريس، بالمناسبة- يظهر فيها صاحب المعجزات، الذي تتجاهله الكنيسة، ملوّحاً بسيف كُتبت على فولاذه كلمة H o d i e hoy- [= اليوم]، ويقرؤها الناس: J o d e»[337]. «وهل تعتقد أنّ ليونثيو يحظى بقبول شعبي أكبر من ذاك الذي يحظى به الطالب؟». «إنّه لا يحظى بأيّ قبول. الأميركان يخشون الطالب، ويخافون الأفكار التي يمثّلها، ولذلك يؤيّدون رجل قرطبة الجديدة. الشخص لا يهمّهم. لكنّه يمثّل الديمقراطية التي يدعون إليها كلّما أرادوا أن يغيّروا شيئاً في أميركا اللاتينيّة». «مسألة مصطلحات». «لكلّ مصطلحاته: هم يتكلّمون عن الدفاع عن الديمقراطية؛ ونحن نتكلّم عن الدفاع عن النظام القائم». عاد المستشار الأوّل إلى التفكير بصوت عال: «ربّما نستطيع أن نحرّك وتر الكرامة الوطنية: التدخّل غير المقبول من طرف اليانكي في الشؤون الداخلية للبلد.. شعبنا يكره الغرينغو». «شعبنا، نعم؛ لكنّ الطبقة البرجوازية عندنا كانت وما زالت على وفاق معهم. كلمة الغرينغو ترتبط في أذهان أغنيائنا بالنظام، بالتقنيّة، بالتقدّم. أبناء العوائل الذين لا يدرسون مع يسوعيي "بيلين"، موجودون في "الكورنيل" أو في "تروي"، هذا إن لم يكونوا في "ويست پوينت". لقد غزانا -وحضرتك تعلم بهذا- المنهجيون والمعمدانيون وشهود يهوه والكريستيان ساينس. صارت الكتب المقدسة الأميركية تشكّل جزءاً من أثاث بيوت

---

(337) من الفعل Joder الذي يشير إلى فعل الجِماع.

أغنيائنا، كما هي صورة ماري بيكفورد[338]، الموضوعة في إطار من فضّة، وعليها ختم بعبارتها المعروفة: صديقتك المخلصة». «إنّنا نفقد طباعنا: ما أكثر ما ابتعدنا عن أمّنا إسبانيا!». «لن ينفعنا البكاء على ما ضاع. أنتَ لا تنقصك الشجاعة، وقد واجهتَ مواقفَ أسوأ من هذه وتجاوزتَها. هل نسيتَ ما فعله أتاولفو غالبان ووالتر هوڤمان، اللذان استمالا قسماً من الجيش إلى صفّهما؟! على الأقل، ليس لدينا انقلاب منظور!». «نعم، هذا صحيح: أحظى بتأييد الجيش. بلا شكّ!». «واليانكي يعرفون ذلك، سيادة الرئيس؛ هم يعرفون ذلك». في تلك اللحظة علت موسيقا وتريّة، بطيئة، هادئة، من آلات بدا أنّ أوتارها رُبطت إلى أقواسها ربطاً شديداً، من خلف أشجار البونسيانا في المتنزّه المركزي. «ها قد بدؤوا! -صاح المستشار الأوّل-: إلميرا تقول إنّها تجلب سوء الحظ.. أغلق تلك النافذة، پيرلاتا!». فأغلقها. ودخل السكرتير فجأة في عالم تجارة الموت اليوميّة، التجارة الوحيدة المزدهرة في أوقات الأزمة تلك. التجارة التي يتكفّل بها رجالٌ بارعون، عارفون بنفسيّة زبائن مضمونين، محكومين بخوف موروث، خوف من السكون، من الخمود، خوف من فكرة النوم-الذي-لا-تعقبه -صحوة. كانت طقوس الموت معقّدة وصعبة وطويلة، في البلد كلّه، ففي تقاليده يمتزج ما أصله من إكستريمادورا -فاتحنا الأوّل كان من «كاثرس»، مثل پياثارّو- بما أصله هندي. فحين يموت شخص في قرية ما، يغزو الجيران بيته ليحيلوا السهر على جثمانه إلى حفل جماعي صاخب، رجال مؤتلفون عند الباب والباحة والأرصفة، مع خلفية درامية من نساء يبكين ويولولن ويغمى عليهنّ، فضلاً عن القهوة السوداء والشوكولا والنبيذ العادي والعرق القوي، الذي يدور على المعزّين، طوالَ الليل، في مشهد

(338) Mary Pickford (1892–1979): أميركية من أصل كندي. من ممثّلات السينما الصامتة الشهيرات.

كبير من العناق المؤثّر والصلوات والأسى حول التابوت - ومصالحات شاقة بين عوائل عاودت اللقاء، وكانت، حتى الأمس القريب، متخاصمة متقاطعة طوال سنوات. ثمّ يأتي الحداد. نصف حداد. ربع حداد. حداد لا ينتهي. حداد يلازم الأرملة الجميلة إلى حين زواجها من جديد. وهذا ما زال سارياً في عاصمتنا المهمة، وإن تغيّرت مشاهده. ما عادت التحضيرات للدفن تتمّ في البيوت، بل صار الجثمان يسجّى ويُسهر عليه في أماكن مخصصة لهذا الغرض، تزداد عدداً يوماً بعد يوم -كلّما زاد عدد السكّان، زاد عدد الموتى- وتتنافس في تقديم كلّ فخم وفاخر وجديد. ثمّ تضاعف عددها في مركز المدينة، فضيّقت الطوق المشؤوم حول القصر الرئاسي - توابيت تُنزّل وتُحمّل، وأكاليلُ زهور تنقل، وحركة ملائكة وصلبان، وخيولٌ مجلّلة بالسواد، وعربات بغطاء زجاجي، وجثثٌ تصل ليلاً، ملفوفة فى ملاءات خضر... على أنّ أعجب مؤسسات الدفن تلك وأغربها هي تلك التي فتحت في مكان قريب جداً، إلى جوار وزارة الداخليّة، مع مصبغة ملحقة بها، على غرار خدمة حِداد على مدى أربعٍ وعشرين ساعة الموجودة في باريس، خلف المادلين، في تقاطع شارع «ترونشيه». في مؤسسة لا إيترنيداد [= الخلود]، في مقدور العوائل أن تختار، في ما يتصل بتلقّي التعازي بالقرب من النعش، طرازَ الأثاث والديكور والأجواء. هناك صالة من العهد الكولونياليّ، وأخرى من الحقبة الإمبراطوريّة، وصالة من عصر النهضة الإسباني، وصالة لويس الخامس عشر، وصالة الأسكوريال، والصالة القوطيّة، والصالة البيزنطيّة، والصالة المصريّة، والصالة الريفيّة، والصالة الماسونيّة، والصالة الروحانيّة، وصالة الصليب الوردي، بالكراسي والشعارات والزينة والرموز، مناسبة لطقوس النعش المسجّى وأجوائه. وقد ترافق المشهد، إن رغب أهل المتوفى في ذلك، صرعةً جاؤوا بها من

الولايات المتحدة: موسيقا راقية هادئة اللحن، بلا شدّة في اللحن ولا سرعة في الإيقاع -وإن لم تكن موسيقا جنائزية مئة بالمئة- يؤديها رباعيٌ أو مجموعة وترية صغيرة مع هارموني، معطّرة برائحة البخور، تختبئ وراء مشبكات من زهر الخلود أو سياج من التيجان المركّبة على مساند خشبيّة، ويتركّز برنامجها في تأمّل تايس وبجعة سان صانز[46] ومرثية ماسينيه والصلاة المريمية لشوبرت، والأخرى لغونو، مقطوعات تُعزف ويعاد عزفها، بلا انقطاع، منذ وصول التابوت حتى خروجهم به نحو المقبرة. حين تتسلل تلك الألحان إلى القصر ساعات الفجر، كان المستشار الأوّل يأمر، حين يستبدّ به المللُ من سماعها معادة مئات المرات مكررة -وبصوت أعلى حين تنقطع حركة مرور في المتنزّه المركزي- بغلق النوافذ، وإن لاحقته الألحان، في داخله، وظلّت ترنّ في جمجمته. وما كان يفلح في إغماض عينيه إلا باللجوء إلى «سانتا إينيس» في حقيبة-هيرميس، الموضوعة دائماً عند رأس شبكة نومه. وأحسّ ذات صباح بثقل في سمعه، ربّما بسبب ذاك الذي ذكرنا. لكنّه كان صمماً أخرس. فتحت لامايورالا النوافذ فجراً، ودخلت النسمة إلى غرفته خفيفة، وهي ما تزال محمّلة برائحة خضرة الفجر، لا تحمل مرثيّة ولا بجعة ولا تأمّلاً ولا صلوات مريميّة. «أمر غريب يحدث»، قال لنفسه. فعلاً، أمرٌ غريب، وغريبٌ جداً: ما لم تره عين ولا تحمل ذاكرة له ذكرى - حتى الشيوخ الطاعنون في السن، وهم خير من يتذكّر. بدأت العاصمة نهارها -ذلك اليوم- بصمت، صمت ليس هو صمت محلّات دفن الموتى، بل هو صمت أزمنة أخرى، صمت صباحات بعيدة، صمت أيام كان الماعز فيها يرعى في شوارع المدينة، صمت لا يكسره إلا نهيقٌ بعيد، أو سعال مريض، أو صراخ طفل. ما من باصات تمرّ ولا من ترام يسير. ما من سيارات لتوزيع الحليب. أمّا الأغرب

الأعجب فهو أنّ الأفران والمقاهي ودكاكين الساعات الأولى من الصبح لم تفتح أبوابها، بينما أسدلت الحوانيت ستائرها المعدنيّة. الصمت الإعلاني التام -لا چورّو حارّاً وطيباً، ولا تمرَ هندياً للكبد، ولا محارَ چيچي ريفيچي طازجاً، ولا تامالَ جيدَ العجن، ولا بوقَ بائعِ شرائح الفواكه...- ينذر بأحداث بالغة الخطورة. إنّه انكماش الأشياء، والترقّب المشوب بالخوف، البادي وغير المحدد، الذي يسبق -وإن كان تحذيراً غير مفهوم- الهزّات الأرضية العظمى أو الانفجارات البركانية المدمّرة. (لقد خافت أشجار منطقة «پاريكوتين»، فانحشرت في رهبتها الصامتة، قبل أن تزحف نحوهم، قبل ذلك بأسابيع، حممٌ بركانيّة صامتة، تغلي تحت الجذور، بطيئة حتمية). «لكن.. ماذا يحدث؟ ما هذا؟!»، سأل المستشار الأوّل، وتبعه الوزراء والعسكريون، الذين كسروا البروتوكول بعد أن انتهكوا فجأة خلوته: «إضراب عام، سيادة الرئيس!». «إضراب عام؟ إضراب عام؟!»، سأل (تساءل) كالمشدوه. لم يفهم الآخرون، بل لم يفهم هو نفسه. «إضراب عام. أو، إن أردت: تعطيل عام. كلّ شيء مغلق. لم يذهب أحد إلى عمله». «والموظّفون؟». «لا توجد باصات ولا ترامات ولا قطارات». «وما من بشر في الشارع»، قالت لامايورالا، وهي تفسح طريقها بين بدلات وستر عسكريّة. أطلّ المستشار الأوّل من الشرفة. عريف من الحرس يقف مع كلاب القصر، وهي تبول قريباً من نافورة الحديقة. لكنّ الكلاب ليس لها روح. الكلاب ليست أرواحاً. ومؤسسة الدفن تلك، من دون موسيقا... نظر إلى الحاضرين بوجه لم يروا نظيره عبوساً وتجهّماً: «إضراب عام، أليس كذلك؟ وحضراتكم غافلون؟!». بدأ الآخرون خليطاً من الكلام المتعجّل بين شرح وتوضيح ونأي بالنفس -«تذكّر سيادتكَ أنّي قلتُ»، «لقد حذّرتُ»، «تذكّر أنّني في المجلس الأخير...»- ولم يفلحوا في الوصول إلى حجّة مقنعة. حتى الآن، لم

تحدث إضرابات حقيقية إلا في مناطق الداخل - في قرطبة الجديدة، في الموانئ؛ أمّا هنا، فلم يكن للدعوة إلى الإضراب أصداء كبيرة؛ وُزّعت هذه الأيام، بالمناسبة، منشورات وعُلّقت ملصقات؛ ثمّ إنّ «الطالب» دعا عمّال البناء وعمّال الشحن والسائقين وغيرهم إلى الإضراب، ونعلم أنّ التجّار والعاملين في المحلّات وأبناء الطبقة الوسطى أعاروا أذناً صمّاء لدعوات «الطالب» وشعاراته؛ لأنّ الناس الذين اعتادوا النظام والعمل غير معنيين بمسألة بروليتارية العالم، لأنّهم لا يشعرون بأنّهم بروليتاريون؛ وأنا كنتُ غائباً عن العاصمة، وكان عليّ أن أصحب العائلة إلى «بيّامار»، وأنا لم أستطع أن أتصوّر نفسي، مع ذلك، فقد حكت لي ابنتي... (وماذا يهمّنا ما حكته لكَ ابنتك؟!)؛ ثمّ إنّ تاريخ القارّة لم يشهد قطّ إضراباً ينظّمه أشخاصٌ أنيقون يرتدون ياقة وربطة عنق؛ فالقلاقل هي من شأن لصوص وأشرار، ولن نعير بالاً لكلّ ما يقال ويشاع؛ حكت لي ابنتي أنّ راهبات «تاربيس»... (لا تفلقنا بابنتك!)؛ قلتُ دائماً إنّ حملة الإشاعات تلك، الأوبئة الملفّقة والحصان الخشبي في مركز إسالة الماء والتهديدات بالموت وصور الجماجم المرسلة بالبريد، المهم، طالما قلتُ... «بمناسبة الحديث عن الموت -قال پيرلاتا، ليضع حدّاً لصخب الأصوات الذي راح يتعالى-: أغرب شيء هو ما حكته لي لامايورالا عن أنّ جميع العاملين في مؤسسات الدفن انضمّوا إلى الحركة. ولا أقصد موسيقيي لا إترنيداد وحسب، بل سائقي المواكب والحفّارين والدفّانين ومجهّزي النعوش.. على العوائل أن تسهر في البيت على من مات البارحة، لأنّ أحداً لن يأتي لحمله». «على الأقل، الذين ماتوا الليلة البارحة لم ينضمّوا إلى الإضراب -قال المستشار الأوّل، وقد هدأ فجأة-: للسبب نفسه، ولكي لا يضجروا في عالمهم الآخر، فسنوفّر لهم رفقة. إنّهم يستحقّون أن نكافئهم -حلَّ صمت مشوب بترقّب-: لنتكلّم بالمختصر المفيد!»، وطلب من إلميرا أن تأتي بالقهوة.

عند العاشرة تقريباً انطلقت إلى الشوارع سيّارات سريعة، عجلات إطفاء، دراجات ناريّة، تحمل عناصر من الشرطة، راحوا ينادون، بمكبّرات من تلك التي تستعمل في السباقات الرياضيّة، على أصحاب المتاجر وعلى كلّ سامع، يطلبون منهم أن يفتحوا حوانيتهم في ظرف ساعتين، بالعاملين فيها أو من دونهم - وإلّا فستصادَر إجازاتهم وسيعاقبون بالغرامة والحبس؛ أمّا الأجانب، وبضمنهم الذين يحملون الجنسيّة منذ وقت طويل، فستُسحَب منهم الجنسيّة، وسيُطرَدون من البلد. وتكرّرت بلاغات التهديد وأعادوا تكرارها حتّى قرعت أجراس الكاتدرائية معلنةً الثانية عشرة. «من حسن الحظ أنّ أجراس الكنيسة ليست مضربة!»، قال الرئيس. «لأنّها تعمل بالكهرباء»، بيّن پيرلاتا، الذي لم يلبث أن شعر بالندم على أن قال ما يمكن أن يفسّر على أنّه تندّر. «لننتظر!». جاءت لامايورالا بالكونياك والجن الهولنديّ، في أوانٍ فخاريّة، مع سيجار الهابانو روميو وجولييت والسجائر المضلّعة من نوع «هنري كلاي». كان المستشار الأوّل يخرج ساعته، كلّ نصف ساعة تقريباً، ليرى ما إن كانت مرّت الساعة. الواحدة. الثانية. خرج من لاإترنيداد تابوت، محمولاً على أكتاف أشخاص يرتدون السواد، من عائلة المتوفى بالتأكيد، ساروا راجلين باتجاه المقبرة. في الساعة الثالثة كان الصمت نفسه يخيّم على العاصمة. لم يفتح إلا بعض التجّار الصينيين، الذين يبيعون المراوح اليدويّة والحواجز الساترة والعاج، خوفاً من أن يعاد بهم إلى بلدهم، الذي يحكمه كو-منغ-تانغ وأمراء الحرب. وفجأة، توجّه الرئيس، بعد انتظار طويل، بالكلام إلى قائد الجيش ليقول له بحزم: «أمطِروا المحلّات المغلقة بالرصاص!». وضع يده على قبعته وبدأ يضرب بكعب حذائه. وبعد ربع ساعة دوّت رشقات الرصاص على الستائر المعدنيّة والحديد والأعلام والواجهات والڤترينات. ما كان أسهلَ تلك الحرب! وكم استمتع رجال المشاة بميدان الرمي المتجوّل

ذاك، فقد كان رصاصهم يجد هدفه حتى من دون أن يكلّفوا أنفسهم حتّى عناء التصويب - يا لها من معركة رائعة، بلا مجازفة ولا خوف من رصاصة قد تأتيهم من عدو! كانت مذبحة في حقّ أشخاص من الشمع -عرائس من الشمع عليهنّ أزهار من الشمع؛ رجال يرتدون الفراك وقد وضعت باروكات على رؤوسهم المصنوعة من الشمع؛ نساء فرسات ولاعبو غولف وتنس، من شمع صافٍ فاتح؛ غارسونة، من شمع أقلّ وضوحاً، ترتدي ملابسها على الطريقة الفرنسيّة؛ مستخدمٌ، شبيه بسلفستري الذي نعرفه، سلفستري باريس، ولكن من شمع أغمق لوناً من شمع الغارسونة؛ صبيّ قدّاس، حامل صولجان، فارس خيّال، وقد أُلبس كلّ ما يناسب عمله...-، فضلاً عن العذراوات والقديسين الذين جُلبوا من حيّ «سان سوپليس» بباريس، وعُرضوا مدثّرين بعباءات الجبصين الملوّنة، ومحاطين بالهالات والشارات، في محلّات الكتب المقدسة ومستلزمات العبادة. كان الرصاصُ ينطلق من رشاشات «ونشيستر» من طراز 30/ 30، ومن «الماوزر»، بل من بنادق «ليبيل» قديمة، أُخرجت من ترسانة السلاح. في المعركة الكبرى هذه-ضد-الأشياء، تهشّم الزجاج وطارت صحون هدايا الأعراس، وانكسرت قارورات العطر والجِرار والخزفيات، أكانت من «ساكسونيا» أم من «مورانو»، وتناثرت طناجرُ الفخار والأوعية والأباريق، بل لقد فار النبيذ بفعل الطاقة المتحررة المتفجّرة ففجّرَ الزجاجات التي كانت إلى جواره. واستمرّ الهجومُ على محلّات الألعاب، وإطلاقُ النار على قناني الرضاعة، وإعدامُ «باستر براون» و«مات آند جيف»[339]، وإبادة الدمى، ومجزرة ساعات الوقواقيات السويسريّة، وتدنيس المحارات، وقطع رأس سان دونيس للمرة الثانية، سان دونيس الذي رأى رأسه، وكان

(339) Buster Brown و Mutt and Jeff: عنوانان لمجلّتين من مجلّات القصص المصوّرة التي كانت تُنشر في الولايات المتحدة بدايات القرن الماضي.

يحمله بين يديه، يسقط إلى الأرض بعد أن أصابته في منتصف خدّه رصاصةٌ من العيار الثقيل[340]. مع ذلك، وعلى الرغم من كلّ ما جرى، فقد خيّم على المدينة ليلٌ حالك، غابت فيه إنارة الشوارع، وغرقت الحدائق في الظلام، من دون أضوية إعلانات، بل من دون قدّاحات موقدة -ما زالت هناك بعض قدّاحات الغاز، من تلك التي يحملها الحرس والعسس ليلاً، في الأحياء الفقيرة-، بل من دون قمر، فقد كان القمر في المحاق وكانت السماء ملبدة بالغيوم. كانت تلك الليلة ليلاء، طويلة، جثمت على صدر مدينة هامدة، صامتة، باتت شبه مهجورة تحت نيران -ما زالت الرشقات المتقطعة تُسمع هنا وهناك- غريبة عنها وعليها. شاع تحذير، في ساعات الترقّب تلك، من-أنّ-لا-أحد-يدري-بماذا-سيأتي-الغد، لأنّ بعض الصمت، الصمت الذي يسبق كلّ صوت، وكلّ حرف، أشدُّ بلاغة من صرخة أيّ نبيّ، أو من هذيان أيّ ملهم. (مع ذلك، فثمّة مشهدٌ واحد مكرّر، يحدث في بيوت كثيرة، بيوت خرساء، أُغلقت شبابيكُها، وأُسدلت ستائرُها، بيوتُ وزراء وجنرالات وأصحاب سلطة وسطوة، مشهد يجري في أقبية تحت الأرض، وحجرات فوق السطح، وغرف في الخلف، ليلاً... على ضوء قناديل قديمة ومصابيح يدويّة وشموع متراقصة، مشهد أشياء تُخفى، ومجوهرات تُخرج، وصناديق تُغلق وحقائب يُزال عنها الغبار، وأوراق نقدية -دولارات على وجه الخصوص- تُحشر في بطانات الملابس وطيّات المعاطف وحاشيات العباءات ويُغلق عليها بالخيط والإبرة، توقعاً لهروب وشيك واستعداداً لنزوحٍ محتّم... غداً، سيرسل بالأطفال إلى شواطئ الأطلسي [إنّهم مصابون بفقر الدم؛ وصفة طبيّة]؛

---

(340) عاش في القرن الثالث. يظهر في اللوحات والتماثيل التي تصوّره وهو يحمل رأسه بعد أن قطعه الجلّاد. يوصف بأنّه شفيع جميع القديسين ويُتضرّع إليه طلباً للشفاء من آلام الرأس.

ستتوزّع عوائل كثيرة بين المحافظات ومدن الداخل [جدة مريضة؛ جدّ أتمّ السادسة والتسعين]، عائدة إلى بيتها القديم، بيتها الأصلي [أختي عانت من ولادة صعبة؛ الأخرى مجنونة]، بانتظار ما قد يحدث. في تلك الأثناء، وفي المطابخ، من دون ضوء غير بصيص جمرة السيجارة التي ترسم وجهاً مع كلّ شفطة، كان مقدار تورّط الرجال ينعكس على مقدار ما يدخّنون من سجائر. وراح هؤلاء يتجادلون حول الوضع، وقد اجتمعوا حول زجاجات الرون والويسكي، التي يصبّون منها، على غير هدى، في كؤوس وجدوها بعد أن تلمّسوا طريقهم إليها تلمّساً. خوف صامت، ينتقل بالعدوى، يجترّونه بألف طريقة وطريقة، ليملؤوا الظلام به، بينما عرق الخوف يتصبّب على الأصداغ ويسيل على القفا...). تلاشت مجرّات الدببة وأبراج النجوم في فجر رمادي، والعاصمة ما زالت غارقة في الصمت. البلد كلّه غارقٌ في الصمت. لم تنفع الرشاشات. لم ينفع الرصاص. راحت الشمس تتسلل بطيئة إلى الشوارع، تعكس لمعاناً وبريقاً من الزجاج المهشّم الذي يغطّي الأرصفة. واكتشف رئيس الشرطة أنّ رجاله مفزوعون، وما كان لهم أن يكونوا كذلك لو أنّهم دخلوا في قتال شوارع أو هاجموا متاريس أو اصطدموا بمشاة وخيّالة، وما كان لهم أن يكونوا كذلك لو أنّهم هجموا كتفاً لكتف على حشدٍ مسلّح بالعصيّ أو ألواح الخشب أو قضبان الحديد، أو حتى بسلاح ناري -مسدسات قديمة، عموماً؛ بنادقَ صيد، بنادق من أزمنة غابرة-. هم كانوا مفزوعين من الصمت، من الوحدة التي كانوا يغرقون فيها، من خلوّ شوارع تؤدي إلى سفوح جبال محيطة بها، شوارع مقفرة لا يُرى فيها على مدى البصر مستطرقٌ واحد. وليس لحشد هائج منفلت أن يخيف قدرَ ما تخيف طلقة وحيدة معزولة. رصاصة منفردة وحيدة تُطلَق عن سابق ترصّد، بعد تصويب طويل وتسديد دقيق، قد تخرج من سقف أو من سطح، لتترك رجلاً ملقى على الإسفلت بعد أن تركت ثقباً

نظيفاً محفوراً في صدغه أو بين حاجبيه، فكأنّه حُفر بمثقب سرّاج. احتشدت القوّات، وأمضى المشاة ليلتهم في العراء، وراح الحرس يدخّنون في نقاط حراستهم. لا شيء. صمتٌ مطبق. صمتٌ يكسره، بين حين وآخر، دويّ دراجة نارية مسرعة -جميعها كانت من نوع إنديان- يخشى سائقها أن تكون الرسالة التي يطير بها إلى القصر تحمل إلى القيادة أخباراً مزعجة وموجزة وسريّة. هناك اجتمع كبار رجال الدولة ومسؤولو البلد، بين مستلقٍ على كرسي أو على أريكة، يقاوم بعضهم النعاس بالشراب، بينما يقاومه آخر بالتدخين والقهوة حين يكون الشراب مضرّاً بمعدته. بدوا جميعهم شاحبي الوجوه، وقد اتسخت ياقات قمصانهم، وخلعوا سترهم، وفكّوا حمّالات سراويلهم. أمّا المستشار الأوّل، فكان ينتظر، مشدوداً، مسمّراً، عابساً، متجهّماً، وسط انهيار الآخرين: ينتظر لامايورالا، التي ذهبت، متدثّرة بشالها، تبحث عن أخبار مباشرة، خرجت من القصر لتسير في الشوارع، لتلصق أذنها بالأبواب، لتحشر عينيها في شباك موارب، لتستنطق مستطرقاً لا تنتظر أن تعثر به: فتاة ثملة أو نشّالاً بسيطاً، أو مدمناً يرتجف بدنه طلباً للشراب. لكنّها عادت، بعد تجوال طويل، بخفّي حنين. أو بالأحرى، عادت بمعلومة واحدة: فآلاف الأيدي المجهولة، كتبت بطباشير فاتحة الألوان -أبيض وأزرق ووردي-، وعلى جميع جدران المدينة وأسوارها وأسيجتها، عبارة واحدة، واحدة لا تتغيّر: «ارحلْ! ارحلْ!»... توقّف قصير ثمّ ضرب الرئيس على جرس، وكأنه في جلسة برلمانية. نهض الجميع من حيث كانوا راقدين، يرتّبون من هيئاتهم، بين أربطة عنق يعدّلونها، وأزرار جاكيتات يزرّرونها، وشعور بأيديهم يصفّفونها. «السروال، عفواً!»، قالت إلميرا لوزير الاتصالات، وهي تنبّهه إلى أنّ فتحة بنطاله مفتوحة. «أيّها السادة!»، قال المستشار الأوّل... خطبة جيدة، دراميّة، وإن كانت من دون لمسات عاطفية أو بلاغيّة، مجرد تعليق

على مشاهدات لامايورالا. إن كان مواطنوه يرون رحيله ضرورياً؛ إن كان معاونوه المقرّبون (وقد رجاهم أن يردّوا عليه بوضوح وصراحة وموضوعيّة) يتبنّون ذلك الرأي، فإنّه مستعدّ لتسليم السلطة، حالاً، إلى من يرونه أقدر منه على تحمّلها وأجدر. «أنتظر ردّكم، أيّها السادة!». لكن الخوف فرض نفسه. الخوف العظيم - الخوف الأزرق، الخوف الذي لا يمكن قهره، خوف الحكايات الشعبيّة. بعد دقائق من الذهول ومن مراجعة مؤلمة للحقائق والوقائع. وسرعان ما فكّر الجميع، وهم ينظرون إلى بعضهم، أنّ بقاء المسؤوليّات، حضورها، صرامتها، والقبول التام بها، والإقرار التام بالذنب، من طرف من ينتظر الآن صوتاً من الأصوات على أحرّ من الجمر، هو الشيء الوحيد القادر على إنقاذهم مما بات يتحرّك بالقرب من بيوتهم. إن غضب الشعب، إن اندفعت الجماهير إلى الشارع، فستبحث عن مركز الدُمّلة، عن شيء تنهال عليه بمطارقها، عن كبش فداء، عن رأس كبير تشكّه بطرف المنخس، وسيجدون هم، في هذه الأثناء، الوقت الكافي للهرب بطريقة ما، وفي اتجاهات مختلفة. وإلا فإنّ الهياج سيصل إليهم جميعاً، وسينتهي الأمر بجثثهم، في غياب الجثّة التي تقف أمامهم، وقد سُحلت وقطعت، في بلاليع المدينة، مطموسة الملامح مشوّهة المعالم - هذا إذا لم تُعلّق على عمود التلغراف وعلى صدورهم لافتات الخزي والعار. وأخيراً تكلّم رئيس مجلس الشيوخ، فنطق بما كان يدور في خلد الجميع: بعد كلّ التضحيات في سبيل مصلحة البلد (عدّد بعضها)، في أوقات تعرّضت فيها هويتنا ووجودنا لتهديد قوى مخربة (هنا صبَّ اللعنات على الاشتراكيين والشيوعيين والبدو العالميين [؟]، على الطالب وجريدته، على أستاذ قرطبة الجديدة وحزبه الذي أنشأه أمس تحت مسمّى ألفا-أوميغا الغريب - «وهذا هو أكثر ما يثير الأعصاب»، علّق بيرلاتا، فأسكته الرئيس على الفور بإشارة منه)، في هذه اللحظات

الحرجة، نلتمس من المستشار الأوّل أن يتكرّم ببادرة تضحية ونكران ذات، إلخ، إلخ، لأنّه إن تخلّى عنّا في هذه المرحلة المفصليّة الخطيرة وحرمنا من نباهته وفطنته السياسية (ساق هنا فضائل ومزايا أخرى)، فإنّ الوطن، وقد بات هشّاً ضعيفاً مهزوز الأركان، سيشكو كما شكا الربّ وهو يئنّ على الصليب: «إلهي، إلهي، لمَ تركتني؟!»[341]. فتح الرئيس ذراعيه، وكان يستمع إلى ذلك الكلام مطأطئ الرأس، حتّى لامس بحنكه طيّة صدر سترته، وقال، بعد أن عدّل من قامته في حركة نشيطة: «أيّها السادة، إلى العمل! أعلنُ عن بدء أعمال المجلس!». دوّى تصفيق حادٌّ وطويل واحتلّ كلّ واحدٍ من الحاضرين مكانه حول المنضدة الطويلة التي تتوسّط صالة مجاورة كسا سجاد الغوبلان الفاخر جدرانها.

في ذلك اليوم، عند الثالثة عصراً تقريباً، رنّ الجرس في الكثير من التلفونات. بعضها، في البداية، متقطعة ومتناثرة. ثمّ تعدّدت وعلا رنينها، وبدت أكثر استعجالاً لإيصال صراخها. حشد من التلفونات. جوقة كبيرة من التلفونات.عالم من التلفونات. مكالمات من باحة إلى باحة. أصوات تنتقل من فوق الشرفات والسطوح، تعبر من سياج إلى سياج، وتطير من ناصية إلى ناصية. نوافذ تشرع. أبواب تفتح. ويطلّ أحدهم، وهو يومئ بيديه. ويطلّ عشرات. ويتدافع الناس إلى الشوارع؛ يتعانقون، يضحكون، يركضون، ثمّ يجتمعون، يتكدّسون، يتشكّلون، يؤلّفون موكباً، وموكباً، ومواكب أخرى تظهر في رؤوس الشوارع، تنزل من التلال، تصعد من بطون الوادي، تمتزج في كتلة، في كتلة كبيرة تهتف: «حريّة! حريّة!». ويتعلّم الجميع الهتاف ويكرّرونه: لقد مات المستشار الأوّل! مات بالسكتة القلبيّة، يقول البعض. لا؛ بل قتله متآمرون. بل عريف ينتمي إلى

---

(341) إنجيل متّى 46:27.

الألفا-أوميغا. ولا العريف: إنّ من قتله هو «الطالب»، قتله بالمسدس نفسه الذي كان يضعه على المنضدة دائماً. أفرغ فيه رصاصات المشط كلّها -قال البعض إنّ المشط يتسع لست رصاصات، وقال آخرون، لثمان- في جسمه. غارسون يعمل في القصر، شاهد الحادث كلّه، قال... لكنّه مات. مات. هذا هو المهم، هذه هي البشرى، الفرحة، الاحتفال الكبير. ويبدو أنّهم يسحلون جثته -جثته العظيمة- في الشوارع. شاهده سكّان حيّ «سان خوسيه» تجرّه شاحنة، ورأوا جمجمته ترتطم بحجارة الطريق. وانطلق الجميع نحو مركز المدينة، مرددين النشيد الوطني، نشيد المحررين، لامارسييز، ومقطعاً من الأمميّة، الذي صدحت به الحناجر، على غير انتظار ولا توقّع، وفي وضح النهار. وفجأةً، ظهرت عربات الفرقة الرابعة المؤللة، فتحت النار على الحشود، وفتحت حامية القصر النار أيضاً، بعد أن تمترس رجالها خلف درابزين الشرفة العلويّة وأكياس الرمل التي وُضعت من أيام سابقة. أُلقيت قنابل يدويّة من برج الاتصالات، ففتحت ثغرات علا من بينها صراخ الجماهير التي كانت تتجمّع تحته. فوهات عشرات المدافع الرشاشة تُصوَّب من النواصي. وحضر رجال الشرطة والجنود في صفوف متراصة، بعد أن أغلقوا الجادات، وراحوا يتقدّمون ببطء، ويتوقفون كلّ ثلاث خطوات ليطلقوا النار ثمّ يتقدّمون. راح الناسُ يركضون، يهربون، مفزوعين، تاركين أجساداً، الكثير من الأجساد، ملقاة على الإسفلت، وملقين بالرايات واللافتات، ومحاولين الدخولَ في البيوت، كسرَ الأبواب المغلقة، القفزَ إلى الباحات الداخلية، رفعَ أغطية المجاري. وتتقدّم القواتُ ببطء، ببطء شديد، تطلق النار، تدوس على الجرحى المتناثرين على الأرض، أو تُجهز بعقب البندقية أو بالحربة على من يمسك منهم بطماق الجندي أو بجزمته. وأخيراً، وبعد انحسار

صخب الصاخبين وتفرّقهم، عادت الشوارع إلى سابق حالها من الصمت والخواء. ظهرت عربات الإطفاء لمعالجة بعض الحرائق. علت صفارات سيارات الإسعاف هنا وهناك، مدوية متواصلة مضيئة. مع حلول المساء، نزل الجيش في دوريّات جابت الشوارع. وهنا أدرك الجميع -جميع من رفع عقيرته بالأناشيد وبالـ يعيش هذا أو ذاك- الواقع المرير. لقد قتلَ المستشارُ الأوّل نفسه، أشاع خبرَ موته لكي تخرج الجماهير إلى الشارع، ثمّ لتُمطَر بالرصاص في حفلة قنص كبرى... وها هو ذا الآن، يجلس على كرسيّه الرئاسي، محاطاً بأعوانه وناسه، يحتفل بالنصر: «سترون كيف ستفتح المحلّات غداً، وتنتهي أعمال القوادة واللواطة!». واستمر عزف الصفّارات في الخارج. «هاتي لنا الشمبانيا، إلميرا، من النوع الجيد؛ من تلك التي في الخزانة التي تعرفينها!». وراح يعلو، بين الحين والحين، صوت إطلاقة بندقية معزولة بعيدة، صوتٌ لا يجاري صوتَ نيران الأسلحة النظاميّة. «ما زال هناك أحد الحمقى -يقول الرئيس-: لقد كسبنا المعركة من جديد، أيّها السادة!». كان من كثرة أحداث النهار، ومن خواء المباني الحكومية، أنّ أحداً لم يلاحظ شيئاً غريباً: لقد اختفت -سُرقت- ماسة الكابيتول؛ نعم، اختفت تلك الماسة الكبيرة التي حُشرت في قلب نجمة، لتؤشّر، من مكانها في أسفل تمثال الجمهورية العملاق، نقطة الصفر: نقطة انطلاق طرق البلد ونقطة التقائها.

الفصل السادس

... إذا كانت المعركةُ غيرَ متكافئة فمن الأفضل القيام بانسحاب مُشرّف أو التوقّف عن القتال بدلَ التعرّض مباشرة لموت أكيد[342].

ديكارت

(342) «انفعالات النفس» Les passions de l'âme، المقالة 211، ص124. يروي هذا القسم مشاهد الإطاحة بالدكتاتور وهروبه.

سبعة عشر

حين أتذكّرُ ما جرى يومذاك، أشعرُ وكأنّي عشتُ، في ساعاتٍ من أحداث تعدل سنوات طويلة، كرنفالاً لا يُصدَّق - اضطراب في المشهد، نزول إلى الجحيم، صخب، صراخ بلا وجهة، دوران في الأشكال، أقنعة، تحوّل، تغيّر، دويّ، تبدّل في المظاهر، الأعلى أسفل، الأسفل أعلى، بوم في رابعة النهار، ضباب شمس، ظهور هاربيز: طيور بوجوه نساء دميمات، أو نساء دميمات بجسم طائر، حَمْل يعضّ، وديع يزأر، مستضعف يغضب؛ صراخ كان حتى الأمس همساً؛ وتلك الوجوه التي توقفت عن النظر، وتلك الظهور التي راحت تبتعد، وتلك الديكورات التي بدّلها فجأة مهندسو تراجيديات نبتت سرّاً، ونمت في الظلّ، تراجيديات وُلدت حولي، فما عدت أسمع، وقد صمّت جوقات أخرى سمعي، صوتَ الجوقات الحقيقية - القليلة في عدد منشديها، لكنّها، في الواقع، جوقات الأصوات الصادحة.. هكذا، إذاً، انفتحت مصارينك -كما يقال هنا- مع نخب النصر، في تلك الليلة؛ عند الفجر، حين انصرف الناس، أضفتَ زجاجة أرمانياك، هكذا، وحدك، وأنت ترى كيف تعلو الزرقة، عند الفجر، قممَ بركان «توتيلار»؛ يجب أن نبني، هناك فوق، ما يشبه الشاموني، مع مسار للتزلّج على الجليد -التزلّج تمرين رائع- وللصعود، تلفريك مثل ذاك

الموجود في سويسرا؛ هزّتان في شبكة النوم، والساعة هي الثالثة عصراً؛ وهكذا، أيّها المراهق، هكذا، فتحتَ عينيكَ في صالة العمليات، بعد أن تخلّصتَ من الزائدة الدوديّة المليئة بالبذور - قالوا، حينئذ، إنّ سبب التهاب الزائدة هي الجوّافة، التي تجمّعت بذورها في ذلك العضو غير النافع، الذي هو من بقيّة عصور ما قبل التاريخ، حين كان الرجال، الذين يرتدون جلود الحيوانات [بالفرنسيّة]، كالذين يظهرون في لوحات كورمون[343]، يتغذّون من جذور النباتات ونوى الفاكهة؛ هكذا صحوتَ من تأثير الكلوروفورم، مع هذا الممرض الذي يرتدي قلنسوة بيضاء ويعلّق السماعة على رقبته وينحني فوقك: هل استأصلوها؟ ولكنّ الممرض هو پيرلاتا، پيرلاتا في زيّ ممرض -لماذا؟-؛ ومن خلفه -أحسستُ بالخوف- مستر إينوك كراودر[344]، بنظّاراته الذهبيّة ووجهه الصارم العجوز، ولكن، من دون بدلته الرسميّة -يرتدي ملابس لاعبي التنس. هنا، في القصر؟-، بسروال من الفانيلا المخططة، وأحرف حمر (YALE)[345] في السترة، وفي يده مضرب التنس؛ سفير الولايات المتحدة الأميركيّة، وهكذا، في غرفتك، من دون طلب مقابلة، من دون قبعة، من دون ياقة منشّاة؛ لا تثيروا لي أعصابي، تبّاً، ألا ترون أنّي ما زلتُ مخموراً ثملاً؟ نصف استدارة، هزّة واحدة على شبكة النوم، ودعوني أنم؛ لكنّي أسمع كلماتٍ، كالقادمة من بعيد، تنتفخ، تكبر مع اقترابها، تحدثني عن سفينة حربية؛ مينيسوتا، موجودة بالقرب من «پويرتو آراغواتو»؛ سفينة كبيرة ضخمة، لها برجٌ محلزن معدني، ومدافع تدور وتصوّب بتوجيه كهربائي، تبحر، يا للمصادفة! على مسافة ستة أميال من سواحلنا، منذ عدّة أسابيع؛ يقولون لي (يزداد إدراكي

(343) Fernand Cormon (1845–1925): رسّام فرنسي.
(344) Enoch Herbert Crowder (1859–1932): دبلوماسي وعسكري أميركي.
(345) شعار جامعة «ييل»، وهي جامعة أميركية خاصة تأسّست عام 1701.

شيئاً فشيئاً) إنّ المارينز سينزلون على الشاطئ، إنّهم ينزلون؛ قهوة، سماء، قهوة! أين لا مايور الا؟؛ المارينز، هنا: كما فعلوا في «بيراكروث»، إذاً؛ كما في هايتي، يصطادون الزنوج؛ كما في نيكاراغوا، كما في نواحٍ أخرى، بالحِراب مع زامبو ولاتينيين؛ تدخّل، ربّما، كالذي في كوبا، على يد الجنرال وود[346]، اللص الكبير؛ إنزال بحري، تدخّل، حملة «تأديبيّة» يقودها الجنرال پيرشنغ[249]، رجل أوڤر ذير، رجل الراية الموشّاة بالنجوم[246] في أوروبا 1917 المنهكة، وإن استغفله محاربون يحملون أحزمة الرصاص على صدورهم، وأذاقوه الأمرّين، هناك في «سونورا»؛ أضحكُ، ولكن ليس مزحاً، لا؛ مستر أينوك كراودر جاء هكذا، في ملابس التنس، وفي يده مضرب، وبكامل عدّته، لأنّه منذ يومين وهو لا يخرج من «كاونتري كلوب»، بين أحاديث ونقاشات مع قوى المصارف والتجارة والصناعة الحيّة. أبناء القحبة هؤلاء هم من طلب أن تأتي منيسوتا، بجنود المارينز القذرين؛ لكنّ جيشنا لن يسمح بإهانة كهذه توجّه إلى شرفنا الوطني. لكنّ جيشنا مستاء؛ والجنود فرّوا من أماكنهم؛ تركوا مواقعهم ومرابض رشاشاتهم، قالوا إنّهم ليسوا مسؤولين عمّا وقع أمس؛ ولئن أطلقوا النار، فلأنّهم كانوا يمتثلون لأوامر الرقباء والملازمين؛ وانتفض الرقباء والملازمون على العقداء والجنرالات، المتخندقين في فندق «والدورف» العالي، ينتقّلون من البار إلى السطح، ومن السطح إلى البار، بانتظار أن يصل المارينز ويكسروا حصار المحتشدين، الذين يحيطون بالبناية، مطالبين برؤوسهم؛ حامية القصر تبخّرت؛ لم يبقَ حاجبٌ ولا خادم ولا غارسون؛ ولا تسأل عن وزرائك؛ لا يعلم إلا الله بمكان وزرائك؛ التلفون: التلفونات لا تعمل؛ لا تطلب قهوة: خذ جرعة من العرق، أفضل! قال

---

(346) Leonard Wood (1860–1927): جنرال أميركي والحاكم العسكري لكوبا.

بيرلاتا (ولكن.. لماذا تنكّر بزيّ ممرّض وعلّق سماعة على رقبته ووضع ترمومتراً في جيب قميصه؟)؛ لا تطلب قهوة، لامايورالا مشغولة بأمور أخرى؛ لكنّي أرى الآن، نعم، بعد التفكير، أرى ما يراه العقداء والجنرالات؛ لينزل المارينز، لينزلوا: سنرتب ذلك في ما بعد -سنتفاوض، سنتكلّم-، ولكن ما يهمّ الآن هو النظام، النظام. «أنتَ في مأزق.. أنتَ في أزمة! -قال الممرض:- مايريده هؤلاء، مسؤولو المصارف والتجارة، والسيد الحاضر هنا أيضاً، هو أن تذهب إلى الجحيم؛ يكفي؛ عشرون سنة وأنتَ تمتحن صبرهم؛ ما عادوا يريدونك؛ ما عاد أحدٌ يريدك؛ ولئن كنتَ ما زلتَ حيّاً، فلأنّ الجميع يظنّون أنّك مع الآخرين في فندق "ولدورف"؛ لأنّهم لا يستطيعون أن يتصوّروا أنّك موجود هنا، وحدك، كالأبله، من دون حماية ولا حراسة؛ لا يخطر ذلك على بال أحد، ولكن حين يبلغ ذلك علمهم.. لا أريد أن أتصوّر ذلك! فلنغادر.. الآن!». بدأتُ أفهم. عدّلتُ هيئتي. بحثتُ عن الخفّين: «لكنّي لم أتنحَّ. أنا الرئيس!». «وماذا تظنّ ما يحدث؟! -قال الممرض-: لويس ليونثيو موجود الآن في قرطبة الجديدة. خرج موكب من السيارات للمجيء به». «بهذا الأحمق، مع حزبه ألفا-أوميغا؟». «إنّه الوحيد الذي يستطيع أن يتدبّر الأمر»، قال لاعب التنس. «ولكن...». «إنّه يحظى الآن بدعمنا». «وتتركونني أسقط؟!». «وزارة خارجيتنا تعرف ماذا تفعل». «كيف يمكنهم أن يصدقوا قصّة هذا البروفسور، الذي...؟». أبدى لاعب التنس نفاد صبره: «لم أحضر هنا لكي أناقش، بل جئتُ لأضع حضرتك في الصورة. الدكتور لويس ليونثيو يحظى بمساندة القوى الحيّة في البلد. تبعه الكثير من الشبّان من حملة الأفكار النبيلة والديمقراطيّة». «هذا ما أرى: مدرسة بيلين، مدارس المنهجيين وتمثال الحريّة». «لا تُضِع الوقت، تبّاً: ارتدِ ملابسك!». «الدكتور ليونثيو لديه أفكار، لديه خطّة»، قال

لاعب التنس. «والطالب أيضاً لديه خطّة»، قلتُ أنا. «لكنّ الأمور هنا مختلفة جداً»، قال لاعب التنس وهو ينقل المضرب من يد إلى يد. «عليك أن تعلم أنّ الطالب هو من أطاح بك في الواقع -قال الممرض-: القنابل، المزاح الثقيل، الإشاعات، كانت من عمل ألفا-أوميغا. أمّا الإضراب العام فكان من عمل الطالب. عمل رائع، بالمناسبة. لم أكن أظنّ أنّه قادر على فعل ذلك». «ستقول لي إنّ أصحاب الحوانيت الذين لم يفتحوا أبواب دكاكينهم هم بلشفيك كلّهم؟». «لم يفتحوا محلّاتهم بالذات خوفاً من البلشفيك. وقد انضمّوا إلى الإضراب للدفاع عن بضائعهم. والآن سيضعونها عند قدمي قائد قرطبة الجديدة، حامي النظام والازدهار، الذي سيحاول احتواء الطالب وترويضه -لا أدري! ربّما!- بأن يمنح حزبه بعض الشرعيّة. فالنظام الجديد سيسمح بإنشاء الأحزاب السياسيّة». «لقد استعملوا أصحاب المحلّات بذكاء -قال لاعب التنس-: رجال حكماء [بالإنكليزيّة]». بعد أن توضّحت الصورة أمامي وعاد إليّ صفاء فكري، قلت، فجأة، لكنّ أمامنا ما يكفي من الوقت لفعل شيء: توقيع معاهدة السلام مع هنغاريا -التي باتت لديها حكومة مستقرة-، إعادة الضمانات الدستورية، إنشاء وزارة للعمل، رفع الرقابة على الصحف، إقامة حكومة ائتلافية، بانتظار انتخابات قادمة تحت إشراف لجنة مشتركة، إن كان ذلك مناسباً. «لا تتفوّه بالمزيد من الحماقات -قال الممرض-: لقد انتهت ورقة التغشيش. إن لم ننصرف سريعاً، فسيأتي الغوغاء، ولك أن تتصوّر كم يتحرّقون رغبة للظفر بك!». في تلك اللحظة ظهرت في الممرّ المؤدي إلى الباحة صورة غريبة: إنّها العمّة جيميا، جدّة والتر هوفمان، كانت تتجه بهدوء نحو سلّم الشرف، وهي تحمل على رأسها، وكأنّها تحمل تابوتاً، ساعة غرفة الطعام، ساعة الـ«ويست منيستر»: «منذ سنوات وأنا أتمنّاها»،

قالت، وهي تمرّ. وظهر وراءها سربٌ من الصعاليك -أحفاد أحفادها، بالتأكيد- يحملون صواني الفضّة والصحون وزينة المائدة، بعد أن أخرجوها من خزاناتها. ورأيتُ في ذلك إخطاراً نهائياً: «ألجأ إلى سفارة الولايات المتحدة». «مستحيل! -قال لاعب التنس-: من المؤكّد أنّ الحشود تقف أمام البناية. مظاهرات. فوضى. حالة لا يمكن القبول بها. الشيء الوحيد الذي يمكنني عمله هو أن أمنحك لجوءاً في قنصليتنا في "بويرتو أراغواتو". هناك ستكون حضرتك في حماية رجالنا من المارينز. وقد حصلتُ على موافقة حكومتي». «ستحملني حضرتك في سيارتك...». «متأسف: لا أستطيع أن أعرّض نفسي لإطلاق النار في الطريق. حطّابو "موريخون" لا يفهمون في اللوحات الدبلوماسيّة. يقال إنّ هناك جماعات مسلحة في "الباخيوّ"». «أقول ذلك لأنّ القطارات لا تعمل.. الإضراب...»، أقول، بصوت بدأ يتقطع بسبب تشنجات تصعّب عليّ بلع اللعاب. «ليس الذنب ذنبي»، قال لاعب التنس. كشف لي بيرلاتا عن بدلته وبرنيطته وسماعته: «عندي سيارة إسعاف تحت. في طريق ضاحية أولميدو لا توجد نقاط تفتيش. والألمان هؤلاء لا تهمّهم سياستنا». «حظاً سعيداً، سيّدي الرئيس!»، قال لاعب التنس. «يا لك من ابن القحبة! [بالإنكليزية]»، قلتُ، همساً، لكنّ الآخر فهم، وقال لي، بين مازح وواعظ: «صحيح أنّ راحاب، امرأة أريحا، كانت قحبة. لكنّنا اليوم نحسبها بين جدّات الربّ. أنصحك، سيّدي، أن تقرأ شيئاً من الكتاب المقدس وأنتَ في الطريق، ففيه عزاء كبير ومعارف جمّة. فيه الكثير من الكلام عن العروش التي سقطت!»[347]. وتناول مضربه، من تلك المضارب -يتذكّره- التي تأتي مؤطّرة بإطار

(347) يشير إلى راحاب، التي عُرفت بزانية أريحا. أنقذت جاسوسين عبرانيين من الموت فحموها وأهلَ بيتها حين دخل العبرانيون المدينة. تزوّجها سلمون فصارت في آل داود، وبالتالي في سلسلة نسب يسوع المسيح.

خشبي، شبه منحرف، بأربعة أوتاد لتثبيت الطوق، وانصرف بلا إضافات («إلى اللقاء»[بالانكليزية]، أظنّ أنّه قال لي)، بخفّة من يعود إلى مكانه في الأميركان كلوب، إلى كراسيه الغائرة، لاحتساء البوربون، إلى الأخبار البرقية القصيرة، إلى دفء أعدائي. «ابن القحبة!»، قلتُ، وأكرّر القول، لأني لا أجد شتيمة أكبر في قائمة مفرداتي الإنكليزية المحدودة. أنظر الآن نحو قمة البركان «توتيلار» البرّاقة المتلألئة، التي ما عادت بيضاء بعد أن شابها لون الغروب الوشيك، البرتقالي الخفيف. يعلو الحزنُ ابتسامتي، على الرغم منّي، مع شعور بوداع سوداويّ. تصل لامايورالا، وهي ترتدي ملابس غريبة، ملابس القيّم على نذور الناصري: عباءة بنفسجيّة، حزاماً أصفر وصندلاً وقلنسوة بلون العباءة - تحمل حزمة من الملابس. «هي ستأتي معنا»، قال پيرلاتا. وتوفيراً للكلام وكسباً للوقت، أوضحت، مستخدمة مهارتها المميزة في استعمال الإشارات والأصوات، قائلة: «الكلّ يعلم أنّني حين كنتُ.. (حركة تدل على وقت بروز نهديها، وتكوّر وركيها).. أنتَ قمتَ بـ...(صفير خفيف، وقاطعتْ سبّابة بسبابة).. ومع أنّي ما عدتُ تلك الـ... (سوّت بيديها وجهاً بات فظّاً بعض الشيء).. ثمّ بقينا أنا وأنتَ.. (ربطت السبابتين ودعكتهما الواحدة بالأخرى).. ومع الكراهية التي يكنّها لي الناس هنا، فهم إن ظفروا بي.. (صفّرت وضربت على صدغها، ثمّ سقط رأسها، وقد فتحت فمها، على كتفها اليسرى). فقد قررتُ.. (صفير قوي، وقلّدت بذراعيها حركات مَن يركض)». «فكرة عباءة الناصري فكرة رائعة»، قال پيرلاتا. وفجأة، وبعد أن أصبحتُ في الصورة، تذكّرتُ ما هو أهمّ: «النقود، كلّميني عن النقود!»، تريني لامايورالا رزمة ملابس: «الواشنطُنات موجودات هنا!». أفتحُ، لأتأكّد. فعلاً. فبين القمصان الداخلية والبلوزات وضعت المئتي ألف دولار، وهي الاحتياطي الذي أحتفظ به لنفسي، في أربع رزم من ذوات الخمسين ورقة،

التي تحمل صورة جورج واشنطن.. وبدا الآن وكأنّ كلّ شيء يسير على عجل. ركض پيرلاتا؛ ركضت لامايورالا. ظهرت حقيبة. ومن دون تفكير في ما أفعل، رحتُ أحشر الأشياء. أشياء كثيرة. ورق المكتب النشّاف، عدداً من الميداليات والنياشين، المجلّد الذي يضمّ دساتيرنا الأحد عشر، صورة لأوفيليا مع غابرييل دانونزيو[20]، لعبة أهدتني إيّاها أمّي، طبعة رائعة من النساء الحكيمات، مع أشعار ترد على بالي، ويا للغرابة، في هذه العجلة، بعد أن أيقظتها كأس من الرون: «أسمال وخرق، لكنّها عزيزة عليّ» [بالفرنسيّة]. «لا تحشر المزيد من الزبالة في الحقيبة!»، صاحت لامايورالا. «قميصان وبنطال، وكفى»، صرخ پيرلاتا. «رباطا عنق وثلاث فانيلات»، صاحت لامايورالا. «والآن، تلقي بغطاء القماش هذا فوق. كما المرضى الفقراء الذين تحملونهم إلى المستشفى»، قال پيرلاتا. «ولكن بسرعة، تبّاً، بسرعة!»، صرخت لامايورالا، وتردد أصداء صراخها المتصاعدة في أرجاء القصر المهجور. وغطّوا رأسي بضمادات وشريط لاصق. قليل من الكاتشب لكي أبدو وكأنّي مصاب بجرح. وتحت الدرج. لأوّل مرّة، في أكثر من عشرين عاماً، لم يُسمع صوت «استعدّ!»، ولم يُرفَع السلاح. يأتي پالومو، كلبُ حارس البوّابة، ليلعق يديّ المتعرقتين. تريدُ أن تأخذه معكَ. «مستحيل. هل رأيتَ مريضاً يصطحب كلباً في سيارة إسعاف؟». وترقدُ على سرير الطوارئ، تحت رائحة المشمّع، متنكّراً بزيّ الجريح -ويستمر الكرنڤال، الكرنڤال الفظيع، انقلاب المظاهر الجهنمي- وتعيشُ، بسبب متطلبات الدور، مغامرات الطريق. خروج من بوابة القصر الخلفيّة - وكانت في ما مضى مدخل عربات الخيل. انحرفت سيارة الإسعاف يميناً. انطلقت على الإسفلت. شارع «بلتران»: مسافة قصيرة من الرصف الحجري. پيرلاتا، الممرض، وهو من يقود السيارة - سائق مزيّف

يعمل في خدمات الطوارئ، يطلق صفارة الإسعاف. أشعرُ بالرعب، لأنّي رأيتُ أنّنا هكذا نلفت الانتباه: ولكن، لا؛ بالذات لا. لا أحد ينظر إلى وجه من يقود سيارة إسعاف تعوي. ينظرون إلى الصفارة؛ بل أكثر: فكلّ من تستطيع أن يقدّم المساعدة يحاول أن يخلي الطريق. يميناً: يستمر الإسفلت: بوليفار البرازيل، بمقاهيه -باريس وتورتوني وديلمونكو...- المغلقة بسبب الإضراب بكلّ تأكيد. بعد ذلك، تدرج الإسعاف وتدرج: يبدو أنّ الطرق خالية من المرور. لا يتوقف بيرلاتا في التقاطعات. حفرة كبيرة هناك، عند ناصية «الغايّو»، الذي سرق وزير الأشغال العامة من أجل ردمها وإصلاح المجاري -التي لم تصلح قطّ- ستين ألف بيزو. أعرفُ أين وصلنا، وبسبب ذلك، بسبب ذلك بالذات، أشعر بالخوف، بخوف فظيع. يلتصق لحمي بعظامي، ترتجف ساقاي؛ يضطرب وقع أنفاسي. لأننا خفّفنا السرعة. أنا أعرف لماذا. يفرمل ممرضُ السماعة والزجاج المظلّل – وقد ثبّت القلنسوة البيضاء حتى حاجبيه. يخيّم صمتٌ يوسّع مثانتي – لا أستطيع لذلك علاجاً. «معذرة: أحملُ جريحاً، حالته خطيرة!». صمتٌ آخر، أسوأ من الأوّل. صوت لامايورالا: «معذرة، ريّس، لأجل والدتك، لا تؤخّرنا! إنّه أخي.. طلقة، أمام القصر!». صوت الجندي: «هل قتلوا ابن القحبة ذاك؟!». «ألقوا به.. (صفير).. طُبّ! من البلكون.. الآن.. (صفير طويل، نحو الأسفل، مثير للقشعريرة).. إنّهم يسحلونه.. تفتّتَ دماغه قطعاً قطعاً.. (صفقة قوية).. في كلّ ناحية!». الجندي: «حمداً للربّ، عظيم!». بيرلاتا: «هل في مقدورنا أن ننطلق، ريّس ؟!». «واصِل طريقك!». الشوارع الآن ترابيّة معبّدة. أشعر في جسمي بعجلات الإسعاف تنحرف، تسقط، تصعد، تعرج، بين حفر مليئة بالماء تصعد رائحته العفنة حتى زنزانتي الدارجة، على الرغم من رائحة غرف العمليات المخيّمة على أجوائها. «كان عليّ أن

أحسب حساباً لهذا!». على بعد خطوتين من الفيلّات الإيطاليّة، ومن قباب العاج، ومن قرون الخصب، أشجار البقس والعرائش-حدائق «أرانخويث» المصغّرة ونموذج قصر «شانتيلي»-، تقع أحياء «ثيرّوس» و«ياغواس» و«فابيلاس»؛ قرى الكارتون، الروث، البرميل المقصوص، جدران الورق، علب الصفيح الصدئة، المفتوحة بالمقصّ، لرقم السقوف - مساكن، هذا إذا كان ممكناً تسميتها بالمساكن، تهدمها الأمطار وتجرفها وتذيبها كلّ سنة، فتترك الأطفال يسبحون كالخنازير في برك الماء والوحل. «ليتني فكّرت في هذا! في مشروع سكني للعوائل الفقيرة! كنتُ سأجد الوقت اللازم لذلك». صوت لامايورالا: «الطريق سالك». وتبدأ سيارة الإسعاف بالصعود، تصرّ وتطبطب وتنطّ وتنحرف وتدور لكنّها تصعد دائماً. أعرف منعطفات الطريق.أعلم أنّنا نوشك على بلوغ «كونوكو دل رنغو»، من رائحة الحلفاء المحروقة في الأرض المستصلحة، وهو فعل ممنوع قانوناً؛ نصل الآن إلى «كاستيّيتوس إسبانيوليس»، فهناك تصرّ قنطرة الألواح الخشبيّة. بدأت منطقة أشجار الصنوبر. على جانبي الطريق أشجار توت من تلك التي تجذب ظلالُها الأفاعي السامة.. كم كان عظيماً خوفي! حتى أنّي من كثرة ما جاهدته نمتُ.. وأفتح عيني. مررنا من أمام كنيسة الألمان اللوثريّة. خلعتُ الضماد والشريط الجراحي. فتحتُ أبواب سيارة الإسعاف ونزلتُ في الساحة بوقارٍ وهدوء. رأيتُ عدداً من الأشخاص، ولكن لا أحدَ ينظر إليّ. «بوغلينده» أو «بيلغونده» أو «فلوسيلده» ما زلن مشغولات بالحلب. تسدلُ ستائرُ كثيرة على النوافذ. أنتظر ابتسامات من الرجال، فلا أجد غير سيورٍ مشدودة على الظهور ومؤخّرات عريضة تحت سراويل من الجلد. يتكلّم پيرلاتا مع الراعي. «الميكانيكيون مضربون. في إمكانكم أن تفعلوا ما بدا لكم. نحن لا نتدخّل في شيء». اتجهنا، تتبعُنا

لامايورالا، التي ربطت حقيبتي التي لم يُحسنوا غلقها بحزامها. وصلنا إلى المحطة الصغيرة المشيّدة من الطوب، التي علا سطحَها ديكُ دوّارة الرياح وعشٌّ لقلقٍ رخاميّ يرفع ساقه الحمراء. القطار مركون في مرآبه الصغير. في عربة الوقود ما يكفي من الفحم. وسرعان ما بدأت القاطرة تنفث دخانها، إنّها قاطرة لمّاعة مطليّة بالورنيش، مثل حذاء أُخرج للتوّ من محلّ لبيع الأحذية الراقية. أرى أنّها نشيطة، سريعة، تهتزّ فأشعرُ باهتزازها في المقابض التي أمسكُ بها. جميع بيوت ضاحية «أولميدو» أغلقت أبوابها في مساء يريد أن يتجاهلني. شغّلتُ البخار؛ بدأتِ الأذرع بالسباحة. دخل قطار الألمان في انعطافاته واستداراته المحفورة في الجبل. بعد أن اجتاز أشجار الصنوبر -خلّف رائحتَه وراءه- نزلنا إلى مدرّجات الصبّار الوعرة، حيث ترفع شجيرات البرواق مطارقها المزهرة مثل خلايا نحل طريّة اقشعرّ بدنها بفعل نسمة تصعد عليها من البحر؛ ثمّ ظهر القصبُ والخيزران، من صغيره إلى كبيره، من فلقه إلى قنازعه، يظلّل أشجار الموز الهجين، بلونه الأحمر ومذاقه الذي هو مذاق الفقر؛ ثمّ، ظهرت تربة التعرية البنيّة -لا أراها، لكنّي أتخيّلها لأني أعرفُ أخاديدَها الكبيرة جيداً- قبل بلوغ السهول الرمليّة، حيث سرنا في خط مستقيم، وبأقصى سرعة ممكنة، هكذا، من دون علامات ولا إشارات ضوئيّة ولا أضوية ولا مراقبة حواجز حتّى توقفنا في محطة «بويرتو أراغواتو» الصغيرة إثر اصطدام قوي نتج عن فرملة متأخرة. عدد من المارينز -قبعاتٌ بيض وقمصان متعَرّقة وعيون عبّت الرون عبّاً- يقفون على رصيفي المحطة. علمتُ أنّهم احتلّوا محطة توليد الكهرباء، والنقاط الحيويّة في المدينة، والبارات والمواخير، بعد أن تبوّلوا على نصب أبطال الاستقلال. جاءني القنصل الأميركي، يرتدي بنطلوناً مكرمشاً وقميص كاوبوي، من تلك التي فيها مسامات قليلة في منطقة

الإبطين. «بسرعة، السيارة تنتظر هناك!» وحملنا في ڀاث فايندر تطقطق إلى البناية التي تقع فيها ممثليته الدبلوماسيّة: بيت خشبي، بأعمدة وواجهة من طراز عهد جيفرسون، في بلكونه نسرٌ أميركي يحمل درعاً في الصدر. «يا للمصيبة التي ألقوها علينا! -قال القنصل، وهو يقودنا إلى المطبخ-: لديّ تعليمات بإخراجكم في باخرة من بواخرنا تصل غداً وتحملكم إلى "ناساو".. إن كنتم جائعين، فلدينا هنا علب من الكورن فلكس وحساء كامبيل وعلب من لحم الخنزير والبازلاء. هناك ويسكي في تلك الخزانة. تصرّف على راحتك، مستر پريسيدنت، فنحن نعرف أنّ من الصعب أن يُمنع عنك الشراب هكذا فجأة!». «قليلاً من الاحترام، رجاءً!»، قلتُ بنبرة حادّة. «هنا الجميع يعرفون بعضهم»، قال الآخر، واتجه إلى مكتبه المليء بالفواتير والأوراق. «الحقيبة، پيرلاتا: أفضّل شرابنا!». كانت جدران المطبخ مزيّنة بقصاصات مأخوذة من الشادو لاند وَالموشن بكتشرز: ثيدا بارا، في كليوباترا؛ نازيموڤا، في سالومي؛ ديمبسي، وهو يُسقِط جورج كاربنتيير[348]؛ مشهد من ذكر وأنثى مع توماس ميغهام وغلوريا سوانسون؛ بيب روث[349] وهو يغلق دورة كاملة نالت استحسان الحكم الذي يرتدي الأزرق الغامق.. أكلنا شيئاً، ونحن الآن مجتمعون في غرفة الاستقبال-صالون-الانتظار-غرفة-المعيشة في البيت، پيرلاتا وإلميرا وأنا. بعد توتّر الأيام الأخيرة، بعد قلق الساعات الأخيرة، أشعر بأني أفضل حالاً. استرخت عضلاتي. بدأت أحرّك الهواء من حولي بمروحة يدويّة مصنوعة من جريد السعف. أهوّي لنفسي وأنا جالس على كرسي هزّاز، من تلك

(348) Dempsey وCarpentier: ملاكمان أميركيان. بقيّة الأسماء تشير إلى ممثّلين وممثّلات وأفلام.

(349) Babe Ruth (1895-1948): لاعب بيسبول أميركي شهير. كان يُعرف بملك الضربات العنيفة.

التي يسمّيها الغرينغو: روكنغ-چير، ونحن نسمّيها، لا أدري لماذا، «كراسي ڤيينا» - لم أسمع يوماً بأنّ في ڤيينا أثاثاً من هذا النوع. نظرتُ إلى سكرتيري: «لقد نجونا، مبدئياً، بجلودنا. خرقة من القماش، إن شئت، لكنّها خرقة عزيزة عليّ [بالفرنسيّة].. الآن، البحر. البرمودا. ومن ثمّ، باريس. وأخيراً سنرتاح قليلاً!». «نعم»، أجاب پيرلاتا. «جولات الصباح، بوا-شاربون مسيو موزارد. أو چلاس، شارع سان أپولين، الشابانيه». «نعم»، أجاب پيرلاتا. «أرى أنّ الفرحة تشيع»، قلتُ. «نعم»، أجاب پيرلاتا، مع إيماءة امتعاض وملل. «حين يكون الواحد سيّئ المزاج يتصوّر أنّ الكلاب، حتّى الكلاب، تتبوّل عليه!»، قالت لامايورالا، بفلسفتها المعهودة الزاخرة بالأقوال المأثورة والأمثال. واستلقت لتنام على أريكة معمولة من سعف النخيل. بالقرب من بوق الغرامافون، فوق طاولة مثلثة ركنيّة قديم، إنجيل قديم - لجأ إليه الموظّف القنصلي كثيراً حين أضاع الأوراق، وهو سكران، لكي يؤدي البحّار الذي يريد إثبات أنّه ولد في «بلتيمور» أو «تشارلستون» اليمين عليها. ونظراً لمعرفتي بطقوس الكثيرين من أعضاء الجمعيّات الدينية الأميركية في اللحظات الصعبة، فقد أغمضت عيني وفتحتُ الكتاب المقدس لا على التعيين، وبعد أن دوّرتُ سبابة يدي اليمنى ثلاث مرّات أسقطتها على صفحة: «نَجِّنِي مِنَ الطِّينِ فَلاَ أَغْرَقَ. نَجِّنِي مِنْ مُبْغِضِيَّ وَمِنْ أَعْمَاقِ الْمِيَاهِ. لاَ يَغْمُرَنِّي سَيْلُ الْمِيَاهِ، وَلاَ يَبْتَلِعَنِّي الْعُمْقُ، وَلاَ تُطْبِقِ الْهَاوِيَةُ عَلَيَّ فَاهَا». (سفر المزامير 69). كرّرتُ العملية: «لاَ تَرْفُضْنِي فِي زَمَنِ الشَّيْخُوخَةِ. لاَ تَتْرُكْنِي عِنْدَ فَنَاءِ قُوَّتِي. أَنَّ أَعْدَائِي تَقَاوَلُوا عَلَيَّ، وَالَّذِينَ يَرْصُدُونَ نَفْسِي تَآمَرُوا مَعًا» (المزامير 71). مرّة ثالثة (سفر إرميا 12) «قَدْ تَرَكْتُ بَيْتِي. رَفَضْتُ مِيرَاثِي». «يا له من كتاب مقرف!»، هتفتُ، وأغلقتُ الكتاب فخرجتْ منه رائحة الغبار الذي فيه. وجلستُ ثانية على كرسي

«ڤيينا»، المزيّن بشريط أزرق مُرِّر في خلال الخيرزان، فسقطتُ في غفوة قريبة من النوم. صخبٌ غامض. حقيقة تنطمس وتتحوّل إلى صور غير مترابطة. غفوت.. لكن يبدو أنّي لم أنم طويلاً لأنّ يداً ما -أظنّ- سرعان ما هزّت الكرسي بعنف قصد إيقاظي. «پيرلاتا -قلتُ-: پيرلاتا!»... «لا تنادِ عليه! -قال لي الموظّف القنصلي-: لقد انصرف للتو». «كما قلتُ لكَ»، قالت لامايورالا. وعلمتُ، وبي من الدهشة أنّي لم أفهم تماماً كلّ ما شرحته له، أنّ عشرات من السيارات تجوب المدينة وهي تحمل أعلاماً بيضاً-خضراً ألفا-أوميغا، وأنّ إحداها -يبدو أنّها من نوع شوفرليت رمادية- جاءت في طلب سكرتيري». «سيقتلونه!»، صرختُ. «لا أظنّ ذلك». «ولكن.. هذا تصرّفٌ غير حكيم! ألم يحاول المقاومة؟ كان مسلّحاً!». نظر إليّ الموظّف باستهزاء: «كانوا شبّاناً لطيفين، يضعون على أذرعهم شريطاً أبيض-أخضر وشارة الألفا من معدن فضي - في طية السترة. لقد عانقوا الدكتور پيرلاتا، وبدا هو سعيداً جداً بلقائهم، بل كانوا يضحكون ويتمازحون، واتجهوا نحو العاصمة». «ألم يقل پيرلاتا شيئاً؟ ألم يترك لي رسالة؟!». «بلى: طلب أن نقول لك إنّه يأسف، لأنّ الوطن فوق كلّ شيء». «كما سمعتَ!»، صرخت الآن لامايورالا في وجهي المشدوه، فكأنّي كنتُ أحتاج إلى أن تصرخ في وجهي لكي أفهم ما يحدث. «حتّى أنتَ يا بروتس!». «بلا حتى أنتَ.. بلا بطيخ -قال الغرينغو-: كان يخونك. هذا كلّ ما في الأمر. لا يحتاج الأمر إلى عبارات لاتينيّة لنرى الأمور بوضوح. هذه أشياء تحدث في السياسة، وتجدها في كلّ مكان». «كنتُ أشكّ في أنّ السافل كان خائناً -تأفأفتْ لامايورالا-: خالتي كانديلاريا، وهي تعرف الكثير، رأته كثيراً في المحارات وفي النفخ في صحن الطحين[350]. وها أنا ذا الآن أرى بوضوح أنّه هو من حمل تلك

(350) تشير إلى ممارستين من ممارسات السحر والعرافة.

القنابل التي انفجرت في القصر، ولا بدّ أنّه حملها في حقيبة القارورات الفرنسية. كان الوحيد الذي لا يفتشه أحد عند الدخول!». هناك كانت الحقيبة-هيرميس، مفتوحة، وفي داخلها عشر زجاجات مصفوفة في خطين من خمس زجاجات في كلّ صف. أخرجنا القارورات الملفوفة بجلد الخنزير. من تلك الحقيبة كانت تنبعث -يبدو لي، لستُ متأكّداً- رائحة لوز مرّ: الرائحة نفسها التي خلفتها تلك الانفجارات. «ربّما نعم، وربّما لا -قال الوكيل القنصلي-: إنّها تقريباً رائحة جلد قديم أريق عليه الكثير من الرون». «المحارات لا تكذب»، دمدمت لامايورالا. «ربّما نعم، وربّما لا [بالإنكليزية]»، كرّر اليانكي... عانقتُ إلميرا وبي حزن عظيم، حزن أبٍ بصق عليه أبناؤه، حزن قوّاد ضربوه ضرباً مبرحاً، حزن الملك لير بعد أن طردته بناته: «أنتِ كلّ ما بقي لي!». «هذا أفضل، تطلّعْ إلى الشارع -قال الموظّف القنصلي-: ولكن حذارِ أن يراكَ أحد!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثمانية عشر

... قد يحصل بعد سماعنا قولاً فهمنا معناه فهماً بالغ الجودة ألا يكون بمقدورنا القول بأيّ لغة تد أُلقي[351].

ديكارت

في الخارج، ومن وراء الحراسة التي تكفّل بها ثمانية من المارينز الذين يحملون بنادق تقطع صدورهم بين الورك والكتف، استعرض الناسُ، ببطء وصمت، وعيونهم تتطلّع إلى البيت. إنّهم يعرفون أنّني هنا، يسيرون ويدورون وكأنّهم في حفلة ليلية، بانتظار أن أطلّ من نافذة، من باب موارب، أو أن أعلن عن نفسي بطريقة من الطرق. «في العاصمة، بدأ الناس ينهبون بيوت وزرائه، ويطاردون الشرطة والمخبرين، ويسحلون الوشاة، ويحرقون الأرشيف السرّي. فتح الشعبُ أبوابَ السجون، وحرّرَ السجناءَ السياسيين». «إنّها نهاية العالم»، قالت لامايورالا مفزوعة. «لا أظنّهم قادرين على القفز من فوق الحاجز -قال اليانكي-: لن يفعلوا ذلك لأنّ

(351) «العالم أو كتاب النور» Traité du monde et de la lumière. ترجمة: إميل خوري. الفصل الأوّل، ص49.

الطالب -هذا الذي دعا إلى الإضراب- وجّه إعلاناً ذكيّاً إلى الشعب. اقرأ!». لكنّ يديّ بدأتا ترتعشان وكانت نظّارتي متسخة: «اقرأ لي أنتَ، أفضل!». «بالاختصار: إنّه يطلب ألّا يستفزّوا جنودنا (ولا يرموا بالحجارة ولا بالقناني، بل ألّا يكال إليهم السباب)؛ يجب ألّا تُهاجم ممثلياتنا الدبلوماسيّة، ولا يُعتدى على مواطنينا؛ المهم، ألّا يقوموا بأيّ فعل يبرّر تدخّلاً عسكرياً من طرفنا. حتّى الآن، لا يوجد تدخّل، مجرد إنزال. مسألة تتصل بالمنظور.. بالمصطلحات - مسألة مقاربة، كما قد يقال بالفرنسيّة. الطالب يمتلك حسّ التمييز بين المصطلحات. يقول إنّ متعة رؤيتك معلّقاً على عمود التلغراف لا تستأهل المغامرة بتدخّل، قد ينقلب إلى احتلال». «كما حدث في هاييتي»، قلتُ. «بالضبط. وهذا ما لا يريده الطالب. ما أذكاه من فتى!». فكّرتُ في تبادل الأدوار السريع الذي عرفه، في ساعات قليلة، مشهد المحتشدين. فها هو ذا الطالب يحمي فجأة وجودي المهدّد. إنّه متخفٍّ -لا يردّ على مكالمات القائمين على ألفا-أوميغا، الذين قدّموا له كلّ الضمانات، ودعوه إلى المشاركة في حكومة الائتلاف الوطني، التي كان لويس ليونثيو مارتينيث يشكّلها في القصر، بمشورة من إينوك كراودر، ومساعدة من قادة عسكريين لم يتورّطوا في عمليات إطلاق النار التي جرت أمس الأوّل، وبعض العرفاء الذين رقّوا إلى مرتبة عقيد-، ومنصرف إلى مهمة الرجل غير المنظور السريّة، وعلى لسانه كلمة قادرة على التحكّم بأولئك الذين تجمّعوا أمام نسر يحمل درعاً على صدره، وبدؤوا -بعد أن عدّوا: واحد، اثنان، ثلاثة!- بالصياح في جوقة من الشتائم. «المهم ألّا يتجاوز الأمر حدّ الصراخ»، قال الموظّف القنصلي. لكنّي بدأت أخشى أن يتجاوزه. وفجأة رأيتُ وجهي في مرآة أسقط الذباب عليها وَنِيمَه. كانت على عارضة عرجاء تغطّي أحد جدران المكتب: ما أسوأ ما أبدو عليه! فما

أشدّ اتساخ الروب الذي خرجتُ به من القصر! وقميص هالبورو اللندني الذي استُهلك من كثرة الحركة وذاب نشاء ياقته من كثرة التعرّق! ورباط العنق الرمادي الرئاسي، الذي لطّخته بقعه الرُّوال الذي سال من فمي أثناء نومي الأخير! ونزل البنطلون المقلّم فجأة من كرشي، الذي ذاب في ساعات وصار ينزل حتّى وركيّ، فيمنحني منظر رجل غريب في قاعة موسيقا إنكليزيّة. وهؤلاء الناس الذين في الخارج، والذين يومئون للامايورالا -من دون أن يشاهدوها، بالطبع- بإيماءات بذيئة، في عرض لقائمة طويلة من الشتائم الفاحشة. وفجأة. إنّه الرعب: «لماذا لا تنقلوني إلى ظهر منيسوتا؟!»، توسلتُ. «هذا كلام خطير -قال لي اليانكي، وقد تبنّى فجأة نبرة مازحة لا تتناسب وصفته الدبلوماسيّة-: أنا هنا مجرد موظّف قنصلي وفّر لكَ الحماية، ظنّاً منه أنّه يفعل الواجب. إن بدا غداً للمسؤولين أنّي أخطأتُ التقدير، فسأقبل بحكمهم وسأصرّح للصحافة أنّني أخطأتُ، سأقول إنّي نادم على أنّي أخطأتُ، وسيرسلون بي إلى مكان آخر وسيظلّ كلّ شيء بين أهل البيت. أمّا على ظهر منيسوتا، فستحظى حضرتك بحماية رسميّة توفّرها لك ديمقراطيتنا الأميركيّة العظيمة [أدّى تحيّة عسكريّة مضحكة]، وهي ديمقراطيّة لا يمكنها أن تظهر في هذه اللحظات على أنّها عرّابة «جزّار قرطبة الجديدة» الذي عاود الظهور، في صور مسيو غارسان، من أقصى الساحل إلى أقصاه، في شبكة صحف راندولف هيرست[307] وقد آذاك ذلك ما آذاك، حين ظهرت الصور في باريس. ثمّ إنّنا لا نعرف كم من الوقت ستبقى منيسوتا في هذه المياه. ربّما ثمانية أيام؛ ربّما شهراً؛ ربّما أعواماً: انظر هاييتي، حيث دام ذلك ودام ودام، من الإنزال إلى التدخّل ومن التدخّل إلى الاحتلال -مصطلحات، مصطلحات| مصطلحات، دائماً[بالفرنسيّة]- لا تقلق! غداً سأنقلك إلى

مكان آمن. ثمّ إنّي لا أستطيع أن أتصرّف على هواي: أنا أنفّذ التعليمات». في تلك اللحظة أدركتُ بأني خُدعت: «وأنا الذي كنتُ دائماً على علاقة جيدة بكم.. وما أكثر ما قدّمتُ لكم من خدمات!». ابتسم الآخر، من وراء نظّاراته، وقال: «ومن دوننا.. كيف كنتَ ستظلّ كلّ هذا الوقت في الحكم؟ أمّا الخدمات فسيقدّمها لنا الأستاذ الثيوصوفي!»، «ولماذا ليس الطالب؟!»، قلتُ، لأعيّره. «سيكون من الصعب الحصول عليها منه. إنّه رجل من عرق جديد داخل عرقه. مثل هؤلاء بات يولد كثيرون في القارة، وإن أصرّ جنرالاتُكم ودكاترتُكم على تجاهلهم». «إنّهم أناس تمقتونهم». «هذا شيء لا بدّ منه: هناك شرخٌ لا يمكن إصلاحه بين كتبنا المقدسة ورأس مالهم». الهتافات تتصاعد في الخارج. تضاعف لامايورالا إيماءاتها وحركاتها ردّاً على من يشتمونني. لن يصعب عليهم كسر طوق الحراسة الذي يفرضه رجال المارينز إن هم أرادوا كسره؛ لن يصعب عليهم القفز من فوق الحاجز إن هم أرادوا القفز. «على أيّ حال، سأكون أكثر اطمئناناً على ظهر مينيسوتا»، كررتُ. «لا أظنّ ذلك –قال اليانكي. وأضاف، وهو يجاهد للإمساك بنفسه عن الضحك-: نسيتَ حضرتك التعديل الثامن عشر على الدستور الأميركي. منذ عام 1919 –ردّدتُ من حافظتي- «تُمنع صناعة أيّ شراب كحولي واستهلاكه (قلتُ: الاستهلاك) على كامل تراب الولايات المتحدة». ومنيسوتا جزء من تراب الولايات المتحدة، قانوناً وعسكرياً. وعليه فإذا كنتَ حضرتك رجلَ جنجر زنجبيل وكوكا كولا، وإذا لم ترتعش يداك عند الاستيقاظ من تناول تلك المشروبات». «لكنّنا هنا لسنا على أراضٍ أميركيّة؟»، قلتُ، وأنا أشير إلى الحقيبة التي تركها بيرلاتا، عند خريطة لمواقع الذهب والمياه في البلد. «أنا لا أستطيع أن أمنع مريضاً من أن يجلب معه دواءه. ولمّا كنتُ، في ذلك كلّه، مخطئاً، ففي

إمكاني أن أصدّق أيضاً أنّ هذا شرابٌ للصدر، مستحلب سكوت أو نقيع غريمو. أمّا في مينسوتا فسيلقون بهذا في البحر، تطبيقاً للتعديل الثامن عشر لدستورنا - وإن عبّ الربّان، حين يكون وحده، ما شاء أن يعبّ من الشراب». «يبدو أنّهم ينصرفون»، قالت لامايورالا، وهي تلصق أنفها في أباجور النافذة. تطلعتُ إلى الشارع: إنّهم ينصرفون نحو بناية الجمارك، كأنّ حدثاً ما يحرّكهم. هناك حركة شاحنات وزوارق شحن. «انتهى الإضراب -قلتُ، وقد ضخّمتُ صوتي، من دون أن ألاحظ ذلك-: الوضع يعود إلى طبيعته». «النظام يسود في البلد -قال الآخر، وهو يقلّدني بطريقة كوميدية. وبالعودة إلى مزاجه الرائق، قال لي-: تعال معي إلى قمرة الكابتن نيمو. هناك أفضل». وأخذني، بعد أن أخرجني من البيت عبر ممرّ خلفي، إلى سقيفة طويلة لها باب معلّقة من الأسكفة، محميّة من مياه الخليج التي تصل إلينا، مسقوفة، حتّى نهاية أرضيّة من ألواح خشبية لها رائحة خضرة البرنوق، أو محارات في الظلّ، أو قناديل بحر مطمورة، أو أعشاب عفنة: تلك الرائحة النفاثة، رائحة خمائر وعصير حصرم، رائحة جنس وطحالب، وقشور هامدة، وصمغ راتينج، وخشب منقوع بالماء، رائحة البحر التالف - رائحة شبيهة برائحة مخمرة خلف معصرة، في ما بقي من مذاقات العصير الليلية الرديئة. ذلك هو الهانغر حيث كانوا، حتّى وقت ليس بالبعيد، يخفون فيه قواربهم، الصغيرة الخفيفة الرشيقة، زوارق نادٍ لليخوت أفلس بعد انهيار عملتي. لقد اختفت القوارب من تلك السقيفة، أمّا ما كان هناك -نبّهتني كلمات الموظّف القنصلي- فهو في الواقع شيء ذكّرني، بلا أدري ما هو، بشيء من طراز فيكتوري، منقوش في النحاس، سينما لوميير وحانوت أنتيكات، رسومات عشرون ألف فرسخ تحت الماء[352]. طبعة

(352) Vingt mille lieues sous les mers: من روايات الفرنسي جول ڤيرن. نشرت عام 1869.

هيتزيل، مع عنوان مذهّب على غلاف أحمر بلون العلّيق. مقاعد قديمة، لكنّها فخمة المساند؛ أثاث يحيي أجواء مذكّرات پيكويك[353]، بخراطيم حيوانات تزيّن الجدران؛ صور محفورة غزتها الفطريات والأملاح فما عاد موضوعها غير الفطريات والأملاح. وبالتطلّع إلى الأشياء الغريبة التي تملأ ذلك المكان -شيء استقرّ في داخلي، هدأ، بعد انصراف الناس على نحو غير متوقع، بعد أن كانوا، حتى قبل لحظات، يشتمونني؛ وبعد أن خفّ ارتعاش ساقيّ بالكؤوس التي شربتها-، دهشتُ من الشجاعة التي غمرتني فجأة بسبب عناصر معيّنة تحيط بي، بسبب المعنى الجديد الذي اكتسته الأشياء، الاستطالة والامتداد الذي يفرضه على الوقت خطرُ موت وشيك. وسرعان ما صارت الساعة تدوم اثنتي عشرة ساعة؛ كلّ حركة تترتّب عليها حركة أخرى، في نقلات متلاحقة، كما يحدث في تمرين عسكري؛ الشمس تتحرّك ببطء أكثر أو سرعة أكبر؛ يمتد فراغ كبير بين العاشرة والحادية عشرة؛ يبتعد الليل حتى يتأخر دهراً في الوصول؛ ويكتسب مرور حشرة فوق غلاف ذلك الكتاب أهمية عظمى؛ يتسع نسيج العنكبوت في ما يشبه كنيسة سيستينا؛ طائشاً يبدو لي عبث النوارس، وطائشة لامبالاتها، إذ تنشغل بصيدها المعتاد، في يوم كهذا؛ وقحاً يبدو لي الناقوس الذي عاود القرع في دير الجبل؛ وتصيبني قطرات الماء النازلة من الصنبور بالصمم، تسبّب لي هوساً يردّد: كفى-كفى-كفى! [بالإنكليزيّة]. ثمّ تلك القدرة العجيبة على إصغاء متواصل مُلحّ مفرط لأشياء تظهر، تكشف عن نفسها، تكبر من دون أن تغيّر شكلها، وكأنّ تأملها يعادل التشبث بشيء، وكأنّه يعادل قولنا: «أنا أرى، فأنا موجود». وبما أنّي أرى فسأكون موجوداً كلّما رأيتُ أكثر، مقيماً داخل نفسي وخارجها. يعرض الموظّف القنصلي عليّ

---

(353) The Posthumous Papers of the Pickwick Club: لتشارلز ديكنز. نشرت عام 1836.

مجموعة غريبة من جذور-منحوتات، منحوتات-جذور، جذور-أشكال، جذور-أشياء - جذور باروكيّة مزخرفة أو مغرقة في بساطتها؛ معقّدة، متشابكة، هندسية؛ راقصة تارة، وثابتة تارة أخرى، طوطميّة أو جنسيّة، بين حيوان ونظريّة، لعبة عقد، لعبة لامتماثلات، إمّا حيّة أو متحجّرة - يقول اليانكي إنّه جمعها في تجواله الكثير في شواطئ القارة. جذور مجتثة من أراضيها البعيدة، جرفها مدّ الأنهار، رفعها، نقلها؛ جذور تعامل الماء معها، قلبها، وأعاد تقليبها، صقلها، زحزحها، فضّضها، أزال تفضيضها، جذور من كثرة ما تسافر وتنطّ وتصطدم بالصخور وتتصارع مع أعشاب وأخشاب أخرى متنقّلة، ينتهي بها الأمر أن تفقد تركيبتها النباتيّة، بعد أن تنفصل عن الشجرة-الأم، شجرة العائلة، لتكتسب تكوّر النهدين، حواف مجسّم متعدد السطوح، رؤوس خنازير بريّة أو وجوه آلهة، أسنان، خطّافات، مجسّات، أعضاء ذكريّة وتيجان، أو تتزاوج في تشابكات فاحشة، قبل أن تستقر، عند انتهاء رحلة أمدها قرون، في شاطئ نسيته الخرائط. الماندراكورا[354] تلك، بأشواكها المتحفّزة، وجدها الموظّف القنصلي في مصبّات نهر «بيو-بيو»، بالقرب من صخرة «كون-كون» الصلدة، الغافية التي تهدهدها مياه سود. أمّا هذه الأخرى، الملتوية الغريبة، بقبعتها العالية وعينيها الجاحظتين، الشبيهة بـ«جذر الحياة» الذي تضعه بعض الشعوب الآسيويّة في قوارير الشراب، فقد وجدها بالقرب من «توكوپيتا»، في خليج نهر «أورينوكو». وجاء بسواها من جزيرة «نرفيس» أو من «أروبا» أو من صخور شبيهة بشواهد البازلت، التي ترتفع بالقرب من «بالبارائيسو»، في هدير الوديان البحرية. ويكفيه أن يذكر لجامع تلك الجذور اسم ميناء من

(354) ماندراكورا أو بيض الجن، هي نبتة قديمة وغريبة ونادرة، إذ تبدو جذورها على شكل جسم إنسان. اكتُشفت منذ آلاف السنين، وارتبطت بالعديد من القصص والخرافات.

الموانئ، لكي ينتقل بفعله من الجذر المعروض إلى النداء، إلى الاستذكار، إلى تقديم الصور التي تتكوّن من جمع مقاطع اسم ذلك المكان، في عمليّة تتكاثر بموجبها الحروف، قال إنّ القبالا العبرية تكلّمت عنها وتوقعتها. بمجرد لفظ كلمة بالبارائيسو، تظهر طاولات الساوريلا موضوعة على أعشاب بحرية، فواكه معروضة في باحة كنيسة، فِترينات مطاعم صغيرة تعرض، وهي تملأ المكان كلّه، سرطانات «أرض النار» الجهنميّة؛ وتظهر محلّات الشارع الطويل التي تقدّم البيرة الألمانية، والتي تتطلّع نقانقها الحمر السود بعشر عيون من النقانق، قريباً من السترودل الدافئ المرشوش بالسكّر؛ تظهر المصاعد العامة الكبيرة، المتوازية، التي لا تعرف التعب، مع جوقات من العميان وهم يعزفون موسيقا رقصات «الپولكا» في أنفاق المدخل؛ وتظهر محلّات الرهن، بالحزام ذي الإبزيم العريض، ومخزن المحارات، والمشرط المثلوم وتماثيل المواي الصخرية السود في جزيرة الفصح[355]، والصنادل المطرزة ريكو (الصندل الأيسر) وإردو (الصندل الأيمن) التي وُضعت في مواجهة المارّة لتبيّن بوضوح مثير للدهشة مفارقة المرآة التي يشير إليها إيمانويل كانط... بهذا الجذر الآخر -واسمه هوپ فروغ- الذي يبدو مثل ليمور يركض، من دون حركة، وهو في أشدّ حالات الفزع، إنها ريو دي جانيرو: حيّ «إيتاماراتي»، حيث تقوم، بين مبانٍ بلديّة مسكونة بتماثيل ضخمة الأطراف (لأنّها دائماً بحجم ونصف أو حجمين وثلاثة أرباع بالقياس إلى الصورة الحقيقية للشخص أو البطل الذي يراد تخليده) دكاكين تُعرض فيها حيوانات محنّطة: أفاعٍ تنظر من خلال زجاج الدحل، مدرعات، فهود، طيور مالك الحزين، قرود، وحتى خيول، تبدو، متربة ومسرجة، وكأنّها تنتظر، وهي مركّزة على قواعد من الخشب

(355) في جزيرة الفصح أو القيامة البركانية Isla de Pascua في تشيلي يوجد عدد كبير من التماثيل الصخرية التي نُحتت في الحجر البركاني يُطلق عليها اسم المواي.

الأخضر، فارساً لن يصل - ربّما ميت، وراقد، منذ وقت طويل، تحت بانثيون من طراز الواجهات القوطيّة البرتغاليّة. وهذا الجذر الآخر، الذي يشبه قزماً مكرشاً -رأس متأرجح دوّار على أرجل ضعيفة- اسمه همپتي دمپتي- هو من «پورت-أو-برنس»، حيث ترى السوداوات العاريات، في حي لا فرونتيير، بين حانات «تاسو» و«آنييخو الدون-دون»، راقدات في شبكات النوم المنسوجة، ينتظرن الزائر صاحب الرفعة السامية، مطرقات شاردات، يضعن يدهن المفتوحة فوق شعر عاناتهنّ الكثيف الخشن المدوّر في حلقات، ويقلّدن، من حيث لا يعلمن، حركة أوليمبيا في لوحة مانيه[356]. يقدّمني الموظف القنصلي الآن إلى إراسموس الروتردامي[357]، جذر من «بيراكروث»، له أسلوب هولباين[358]، الذي يبدو بالفعل متأمّلاً من أتباع التيّار الإنساني؛ پيتشورتشول وميرديل[359]، جذور مرتزقة عدوانية من خيزران مزروع بالمسامير؛ كوكيسيغرو، ذو المنقار الطويل والعرف المقرنص؛ كيكيمورا، المنفوشة المكفوشة، وتلك البراعم الثلاثة المنبثقة من الجذع ذاته، وهي پيديس-نيكليس (التي أعرفها جيداً -وهو ما يعرفه الناس-، فقد كنتُ طوال سنين مشتركاً في مجلة لوپاتان الباريسيّة)، وإلى الخلف قليلاً، مسخ روماني له شكل منغروف ساحلي كوبيّ، هو الزنديق بريسثيليانو[360]، إلى جنب الراقصة آنا باولوفا، والفيلسوف سايكلوپ،

---

(356) Édouard Manet (1832–1883): من روّاد المدرسة الانطباعية الفرنسية.

(357) Desiderius Erasmus Roterodamus (1466–1536): فيلسوف هولندي من أتباع الحركة الإنسانية.

(358) Hans Holbein the Younger (1497–1543): من رسّامي عصر النهضة الألمان، ومن أكبر رسّامي اللوحات الشخصيّة.

(359) شخصيتان من شخصيات رواية «غارغانتوا» للفرنسي فرانسوا رابليه François Rabelais (1483–1553).

(360) عاش في القرن الرابع الميلادي واتهم بالسحر والهرطقة بعد أن كان أسقفاً على غاليثيا.

الذي يبدو، بالعين الحمراء التي تتوسّط جبهته، وكأنّه يحرس عالماً مضطرباً، مركّباً على أطناف وأفاريز، حيث يظهر كورنيجيدويل وأفعى العدار وساحرة راكام، التي تركب على مكنسة نفسها، و الصامتة العظيمة، التي تبدو وكأنّها محفورة في بازلت نباتي، والتي يبلغ طولها، من دون إشارة مباشرة إلى شكل امرأة، ستة أشبار، في قوام يوروبي[361]، هندسة انحناءات ونتوءات، تكويرات متراكبة، نتواءات وتجاويف، تضع ذكريات لا تقبل الشكّ في اليدين المرفوعتين لتلمسها. الحقيقة هي أنّ الموظف القنصلي، مع غرابة ثقافته، وتمكّنه من اللغات -أمر مستغرب في أميركي من الولايات المتحدة- راح ينضمّ مثل عنصر من عناصر حلم ليلي إلى الكابوس النهاري، الحقيقي، ذي عينين أكثر من مفتوحة، في حاضر مَعيش - نزلتُ منحدرات الرعب بمعونة الكحول لأنّني ما إن خرجتُ من أبخرة بعض الكؤوس، حتّى صعد عرق الضيق عندي حتى قفاي، حتى جبهتي، حتى شعراتي البيض، فوق دقّ وطرق من نبض طري، قادم من داخلي، قويّ له تردّد وصدى، شعرتُ به في الكرسي الذي أجلس عليه. ها هو ذا اليانكي يجلس أمام هارموني مركون، شريط من ثلاثة مستويات، يضغط على الدوّاسة ويبدأ يعزف شيئاً شبيهاً بالموسيقا التي تغزو بلدي منذ سنوات كثيرة، وإن كان أكثر تعرّجاً، وأكثر تقابلاً، وأكثر تركيزاً، بالطبع، من الهمسات ومن الساعة الثالثة صباحاً[362]، التي شبعنا من سماعها، مؤخراً، في العاصمة. لم يمنح أصابعه راحة، وضبط الإيقاع برأسه، وأدّى النوتات بعفويّة موسيقي شعبي مرتاح البال: أنا جنوبي. من نيو أورليانز. فيّ من البياض ما يسمح لي أن أدّعي البياض، على الرغم من أنّ الشعر، حسناً، الشعر، لولا المراهم والدهون، لجعّدته (سي بيمول، تبّاً لك!). لقد

(361) نسبة إلى مجموعات اليوروبا العرقية التي تعيش في نيجيريا.

(362) عنوانا موسيقا ورقصات ڤالس اشتهرتا في عشرينيات القرن الماضي.

«اجتزتُ الخط»، كما نقول هناك، وإن كنتُ لا أتدبّر أمري في موضوع العواطف -نقول- إلا مع ما هو غامق. في هذا أنا أشبه أخا جدّي غوتشالك[363]، وهو واحد -حضرتك لا تعرفه، بالتأكيد- فضّله تيوفل غوتيه[364] على شوپان، وعبدته حوريات لامارتين الموسيقيّة، اللائي كنّ ينمن مع فرانز ليست[365]، عظّموه في أوروبا، ومنحوه الأوسمة، وقرّبه الملوك، وكان صديقاً لملكة إسبانيا. أخو جدي هذا تخلّى عن كلّ شيء -الجمهور والقصور والسيارات والخدم والحشم- لكي يستجيب لنداء قاهر لا يقبل التأجيل، نداء صادر من سوداوات وخلاسيات كنّ ينتظرنه في التروپيكو، لكي يستردن حقوقهنّ التي تضمنها لهنّ قوانين الغزو القديم. ركض وراءهنّ في كوبا وپويرتوريكو والأنتيل، بعد أن تجدّد شبابه، مغامراً، متحرّراً من المراسم ومن المظاهر، يسرح ويمرح، ليعود إلى أيام طفولته، ونزوات مراهقته، وليموت من بعدُ في البرازيل، حيث تكثر أيضاً -وكم هي كثيرة!- أماكن حجّه المقدسة - «خادمات أمّك، وهنّ فتيات فارعات الطول حسناوات، كنّ يحرّكن سيقانهنّ بالقرب منك وكنتَ ترتجف.. ولأفواههنّ طعم التفاحة الورديّة في النهر قبل منتصف النهار [بالفرنسيّة]...»[366] (أجهل لمن عساه يكون ما انتهيت للتو من إنشاده، لكنّي أذكر ما يتصل بالبقيّة، نعم، أذكر أنّ ابنتي أوفيليا، حين كانت تدرس بيانو، كانت تعزف رقصات كريولية جميلة لهذا المورو غوتشالك الذي أطلق العنان مرّة في هافانا، كما حكوا لي، لعاصفة من الطبول

---

(363) Louis Moreau Gottschalk (1829–1869): ملحّن وعازف بيانو أميركي.

(364) Théophile Gautier (1811–1872): شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي.

(365) Franz Listz (1811–1886): مؤلّف موسيقي وعازف بيانو مجري.

(366) من قصيدة للشاعر الفرنسي سان جون بيرس Saint-John Perse (1887–1975)، الحاصل على نوبل للأدب 1960.

الإفريقية في إحدى سيمفونياته). وأضاف الآخر: «كان صديقاً، صديقاً حميماً للرائع كريستوفر هاندي[367]، مؤلّف ممفيس بلوز التي أعزفها الآن لحضراتكم». وينتقل الآن إلى مقطوعة عنوانها سان لويس بلوز، لهاندي نفسه، الذي يمتلك قدرة على إثارة لامايورالا، فيرقّصها - ربّما جيداً، لأنّ خطواتها وحركاتها تتوافق تماماً مع إيقاعات موسيقا تجهلها. «ذلك لأنّ الموسيقا تجري في دمهم»، يقول الجنوبي. أتطلّع إلى يده التي تنساب فوق مفاتيح البيانو: إنّه نوع من الحوار -الصراع أحياناً-، معارضة وتوافق، بين يد أنثى -اليمنى- ويد فحل -اليسرى-، تتوالفان وتكمّل إحداهما الأخرى وتردّ إحداهما على الأخرى، ولكن في تناغم يقع، في الوقت نفسه، داخل الإيقاع وخارجه. جلست لامايورالا فجأة على مقعد الهارموني، كالمسحورة بجديد دخل في سمع جلدها، تتغنّج وتهزّ كتفيها، متكوّرة متأنقة، وقد بقي أحد ردفيها معلّقاً في الهواء، بعد أن لم يستوعب المكان الذي أفسحه الموظّف القنصلي ردفيها كليهما. نسي هذا مفاتيح البيانو وقرّب وجهه من عنق إلميرا، فقابلته بضحكات الدغدغة التي أحسّت بها، وسمحتْ له بشمّها فكان من قبيل تلذّذ النصراني الذي دخل في أجواء المبخرة. أنشد الآخر لها: «يقودني عطرُكِ إلى عوالم فاتنة/ أرى ميناءً مليئاً بالزوارق والساريات». «لا تفلقني ببودلير!»، صرختُ، وقد شعرتُ بالغيرة بعد أن تجاوز هذا على أرضي، التي استصلحتها وحرثتها لأوّل مرة قبل أكثر من عشرين سنة، والتي امتثلتْ على الدوام لأمري وانساقتْ لإرادتي، حتّى صارت، بعد أن فقدتُ كلّ شيء، كلّ ما بقي لي، آخرَ قطعة أرض أملكها، من بلدٍ كان بالأمس ملكي، من الشمال إلى الجنوب، ومن المحيط إلى المحيط، حتّى ضاع ولم يبقَ لي منه غير سقيفة

(367) Christopher Handy (1873–1953): مؤلّف موسيقي أميركي. يعدّ أبا موسيقا البلوز.

من خشب عفن، تقطنه جذور ميتة، عصا شحاذ، أقبع فيه بانتظار مركب يأتيني غداً -وما أبعد الغد وما أصعب بلوغه!- لإخراجي من هنا، كالبضاعة المهرّبة، فكأنني تابوت ميت في مستشفى للأثرياء، وأنا الذي كنتُ سيّد مصائر ورجال ومالكَ عقارات وأموال. جذبتُ لامايورالا من إحدى ذراعيها وأقمتها من حيث كانت تؤدي حركات تتجاوز حدود المقبول، ودفعتها دفعة واحدة إلى مقعدٍ منزوٍ. «هكذا أحسن -قال الغرينغو، وهو يضحك- لأنّ هذا هو ما أساء إلى سمعتي في السلك». (مصطلح السلك -الدبلوماسي بالطبع- في فم الآخر، وهو يرى من هو وأين هو، يرتبط في ذاكرتي بوصف «التفاهة الكبرى» الذي يطلقه دون كيشوت على قصيدة شعبيّة من قصائد الفروسيّة أساؤوا تقديمها في مسرح الدمى. حين يسمع أيّ مواطن أميركي لاتيني من جيلي كلمة سلك، فإنّه يتخيّل وظيفة قليلة المجهود كثيرة المتعة، سفارات بمنظر الأوبرا كبيرة، بين المرمر الإيطالي وأضواء فرساي، وكمانات في المنصة وڤالسات من أجراس إنذار وفتحات صدور، مساعدون مهيبون، حُجّابٌ يرتدون البناطيل القصيرة، دسائسُ، حفلات ليليّة، قصص حب، مغامرات حجرات، رواية، مجاملات على طريقة الماركيز دي برادومين[368] وجمل على طريقة تاليران[369]، عجائب في اللياقة والأتيكيت، هي، في أحيان كثيرة، غريبة عن مفاهيم ناسنا، الذين لا يمكنهم استيعاب قواعد البروتوكول، والذين يقعون في أخطاء جسيمة، ، لأنّهم لا يسألون ولا يستشيرون. أخطاء من مثل -حدث في قصري- الأمر بعزف المارش

(368) شخصيّة تظهر في مسرحيات الإسباني الشهير رامون دل بايّه إنكلان Ramón María del Valle-Inclán (1866-1936) لتمثّل أناه الأخرى.

(369) Charles Maurice de Talleyrand (1754-1838): قائد عسكري وسياسي ودبلوماسي فرنسي. خدم في عهد لويس السادس عشر.

التركي[370] أثناء تقديم أوراق اعتماد سفير السلطان عبد الحميد، أو عزف نشيد رييغو[371]، في حفل استقبال أحد وزراء ألفونسو الثالث عشر). «كلّ شيء جرى معي جيداً -واصل الجنوبي-: إلى أن انتبهوا، في باريس ، إلى أنّي أتردد بكثرة على مرقص "مارتينيكي" في شارع "بلوميت". ومنذ ذلك الحين ما عدتُ أتسلّم مناصب رفيعة في الدبلوماسية الأميركية. قنصل في "أراكاخو". في "أنتيغوا". في "غوانتا"، في "مويندو". في "خاكميل"، وحتى في "مانتا"، التي تظهر أسماك القرش أمام شاطئها الساعة الثانية عشرة من كلّ نهار بدِقّة لا تضاهيها إلا دِقّة الحواريين في كاتدرائية "ستراسبورغ". وها أنا ذا الآن هنا، فكأنّي في بيت الكنيف. وذلك لأنّهم يعلمون أنّي.. [نظر إلى لامايورالا]... حسناً، أنتِ تفهمينني -عزف قطعة أربيجيو-: لو أنّ مسقط رأسي يظهرني كما أنا، فسأنتهي قتيلاً على يد أعضاء كو كلوس كلان[372]، البيض، أولئك، في الروح والملبس، ببياضهم الخاص، بياضنا، بياض بنيامين فرانكلين، الذي كان الأسود في رأيه "الحيوان الأكثر أكلاً والأقلّ إنتاجاً"؛ بياض ماونت-ڤيرنون[287]، حيث يتفلسف سيد يتحكّم برقاب عبيد عن المساواة بين الناس أمام الربّ: بياض بنائنا الكابيتول، المعبد الذي ينشد فيه نشيد خطبة غيتيسبيرغ[287] -"حكومة من الشعب وإلى الشعب ومن أجل الشعب"- بجوقة قوامها السود الكنّاسون وصبّاغو الأحذية ومنظّفو نفّاضات السجائر وحرّاس المراحيض؛ بياض بيتنا الأبيض الفخم، البيت الأبيض حيث يلفّ كاروسيل الملابس الرسمية والبدلات والقبعات الجديدة، كاروسيل يلفّ ويدور ويدور، في أميركا

(370) Rodnó alla turca من قطع موزارت الموسيقية.

(371) لأنّه كان نشيد المعارضين للملكيّة في إسبانيا بداية القرن التاسع عشر.

(372) Ku Klux Klan إخوانية دينية أميركية تؤمن بتفوّق العنصر الأبيض وتعادي السامية والكاثوليكية. مكتبة سُر مَن قرأ

اللاتينية هذه، حاملاً، في كلّ لفة ودورة، لصوصَها وأبناء القحبة فيها، "ولا أستثني الموجودين"، كما يقول الإسبان»[373].. يلفت نظر الموظّف القنصلي إلى أنّه من غير المناسب أن يتلفّظ بتعبير «ابن القحبة» أمام من كان حتى ثمانٍ وأربعين ساعة مضت المستشار الأوّل لأمّة حرة وذات سيادة، لها أولياتها البطولية، ورجالها العظام، وتاريخها، إلخ، إلخ، «زلّة لسان نتجت عن "سانتا إينيس" -قال الموظّف القنصلي وهو يملأ الكأس-: لم أكن أقصد التجاوز. ثمّ...». «انظروا.. انظروا!»، قالت لامايورالا، بنبرة من يتوقّع شرّاً، وهي تدعونا، بالإشارة، إلى أن نقترب من النافذة ذات الزجاج المكسور المطلّة على الخليج. «نعم -قال الغرينغو-: في رصيف الميناء يحدث شيء». فتح البوابة السفلية لمخرج زوارق السباق - لم تعد موجودة. هناك، في أقصى رصيف تحميل بواخر السكّر، كان يحدث أمرٌ غريب. حشد يحيط بشاحنات -هي نفسها التي كانت واقفة منذ وقت- تحمل أشياء كبيرة، متعامدة أو ساقطة، في بازار من الأشكال المكدسة المضطربة، التي... «تفضَّل، الناظور!»، قال لي الموظّف القنصلي. نظرتُ. الناس، يغنّون ويرقصون، وقد صعدت في رؤوسهم حميّا الشراب، بالتأكيد، يُنزلون الأشكال الكبيرة من الشاحنات ويلقون بها في البحر، بين قهقهات وصراخ. إنّها تماثيل نصفيّة ورؤوس، تماثيل لي، كانت، من سنوات، وبأمر رسمي، تحتل مكاناً بارزاً في المدارس والمعاهد والبلديات والدوائر الحكومية وساحات البلدات والضياع والقرى، حيث تجاور إحدى مغارات عذراء لورد، أو كوّة قديمة، مليئة بالشموع المشتعلة دائماً، مسكن سيدتنا، راعيتنا الإلهيّة. أشكال من المرمر، أعمال لنحّاتين محليين وعالميين من مدرسة الفنون الجميلة؛ تماثيل نصفيّة من البرونز، صُهرت

(373) يشير إلى تعبير يُستعمل حين يراد استثناء السامعين من حكم سالب فيقال Mejorando lo presente «حاشا السامعين».

في إيطاليا، في المصاهر ذاتها التي وُلدت فيها جمهوريّة ألدو نارديني العملاقة؛ تماثيل واقفة -بجسم كامل-، وتماثيل ترتدي الفراك مع صلبان ووشاح، وتمثال جنرال الجنرالات، وقائد الجيوش (مع قبعة معقدة يقول أعدائي إنّ لها «حافة للتقدّم وأخرى للتراجع»)، تمثال الدكتور الفخري من جامعة سان لوكاس (كان ذلك في عام 1909) مع قبعة تدلّت منها كرة الصوف ساقطة على الكتف اليسرى، تمثال محامي الشعب، تمثال النبيل الروماني-مع-ذراع-تشير-إلى-شيء (شيء من وحي غامبيتا باريس)، تمثال ربّ عائلة المتأمّل، تمثال الناصح الصارم، تمثال القائد الروماني سينسيناتوس، متوّجاً بالغار - الآن أفقيّة، محمولة على ألواح، وعلى عجلات، وفي عربات تجرّها ثيران، محمولة، مسحوبة، مسحولة، ليرمى بها في الماء، الواحد بعد الآخر، على يد رجال ونساء، يدفعون بها على إيقاع: «واحد.. اثنان.. ثلاااااااثة!». في النهاية، ظهر تمثالي وأنا على ظهر حصان -التمثال الذي كنتُ أتأمّله يومياً من شرفات القصر- ملقى على عربة قطار مسطحة، ولكن من دون فارس، فقد فُصل الفارس عنه ليلة هربي، ولم يبقَ غير الحصان البرونزي. ونهض الحصان لحظة، بعد أن حرّكته رافعة، في احتجاج بطولي، إذ حُرم ممّن كان، وهو على ظهره، يمسك بلجامه القوي، قبل أن يئزّ في لجّة من الزبد. «تذكّر أيّها الإنسان!»، قلتُ، من دون أتمّ العبارة، فقد حلّت ذكرى نكتة قاسية فعلها بي الطالب، محل العبارة الكلاسيكية فجأة. «ليس في مقدورك أن تغنّي قطعة من التانغو بكلمات صلاة جنائزيّة -قال الموظّف القنصلي-: تماثيل حضرتك تلك ستستقرّ في أعماق البحر؛ سيصبغها الملح بالخضرة، وسيحيط بها المرجان، وتغطيها الرمال. وسيعثر عليها، في عام 2500 أو 3000 رفشُ كاسحة، ليعيدها إلى الأضواء. وسيتساءل الناس وقتئذٍ، بنبرة سونيتو

أرڤير[374]: ومن كان ذلك الرجل؟». وقد لا يجدون من يردّ على سؤالهم. هذا ما حدث للمنحوتات الرومانية الكثيرة التي يمكن أن تشاهدها في الكثير من المتاحف: لا يُعرف عنّها إلا أنّها صور لمجالد أو خطيب أو قائد. أمّا الأسماء فقد ضاعت. أمّا في حالة حضرتك فسيقولون: "تمثال نصفي. تمثال دكتاتور. وما أكثر من مرَّ منهم على نصف الكرة الجنوبي هذا، وما أكثر من سيمرّ، حتى لا تعود الأسماء تهمّ في شيء!"». (تناول كتاباً موضوعاً على منضدة). «هل يظهر اسم حضرتك في قاموس لاروس المصغّر؟ لا؟ فأنتَ ضائع إذاً!». في تلك الليلة بكيتُ. بكيتُ فوق قاموس - «أبذُرُ في كلّ ريح»[375]- الذي لا يعرفني.

(374) Félix Arvers (1806-1850): شاعر ومسرحي فرنسي.

(375) Je sême à tout vent هذه العبارة هي الشعار الذي يحمله قاموس لاروس الصغير وكل منشورات دار الكتب الفرنسية العريقة هذه.

الفصل السابع

وصمّمتُ على ألّا ألتمسَ عِلماً إلا ما اشتملتْ عليه نفسي[376].

ديكارت

(376) «مقال عن المنهج» Discours de la méthode، ترجمة: الخضيري، ص118.
الإشارة إلى انكفاء الدكتاتور، وهو لاجئ في باريس، على نفسه وثقافته وتقاليده. إقباله على أطباق الطعام التي تعدّها لامايورالا، التي تمثّل الشعب، هو خير دليلٍ على ذلك. [Ortiz, 41].

تسعة عشر

ورحّب به بيته الكائن في شارع «تيلسيت» - المنيف المتجانس، المزروع في المجمّعات العمرانيّة المحيطة بساحة النصر، كحصنٍ يدرأ عن نفسه أيّ عدوان، بصدأ يعلوه ويزداد كثافة وتجهّماً عاماً بعد عام، وزخارفَ غابت ونقوشٍ انمحت. وتلقّته باحتُه المحميّة بالسياج الأسود العالي، كما تتلقّى مغارةٌ جبليّة متسلّقاً دقّ على بابها بعد أن تاه طويلاً بين ودیانٍ ووهاد. عند الخامسة فجراً، فتح المستشار الأوّل الباب بمفتاحه الذي عنده، لكيلا يوقظ سلفستري. دخل إلى الممرّ وأشعل الضوء. وسارت لامايورالا خلفه، وهي ترتجف وتسعل من بردٍ داهمها منذ أن خرجا من محطة «سان لازار»، على الرغم من معطفها المتآكل المبطّن بالقطن الذي كانت اشترته من «بيرمودا». كانت تشكو أيضاً من اختلاجاتٍ وضيق نفس وآلام في العظام، مما يستدعي روناً ونوماً وشيئاً من شراب التولو. «أعطِها كأساً من "سانتا إينيس" ممّا بقي عندي واحملها إلى إحدى الغرف!»، قال الإكس[377] (صار يسمي نفسه الإكس، بسخرية مريرة) للتشولو مندوثا، الذي صعد بالحقائب. عندئذٍ فقط نظر إلى ما حوله، فلاحظ أنّ تغييراتٍ طرأت على الديكور وعلى الأثاث. ظنّ أنّه سيجد

---

(377) السابقة اللاتينية -Ex تدلّ على كلّ ما هو سابق: رئيس سابق، زوجة سابقة...

طاولة الكاوبا وعليها الجرار الصينيّة، وزهرةَ العاج التي في كأسها بطاقات الزيارة، وحوريةَ البحر الملتفّة بشعرها، والموضوعة على الدوام بالقرب من المخمل القرمزي الذي صُفّت عليه مجموعة السيوف والحراب. لكنّه لم يجد غير جدرانٍ عارية، مطليّة باللون الفاتح، خالية من كلّ زينة غير زخارف من جبصين، تشبه، إذا ما نظر إليها جيداً، منظر موجٍ هائج. أمّا الأثاث، فلم يرَ منه غير أريكة طويلة عليها وسائد لونُها هو ممّا يدعونه «لون التانغو». حوامل ضيّقة عليها أشكال لها جسم كرة وموشور ومعيّن، في داخلها مصابيح كهربائيّة. «ليس هذا قبيحاً، لكنّه كان من قبلُ أرقى؛ فيه روحٌ أكثر»، فكّر الإكس. صعد إلى الطابق الأوّل، يشمشم باستمتاع رائحة ورنيش الجوز الذي طُليت به درجات السلّم، رائحة ألغتْ بديمومتها زمناً طويلاً مضى وانقضى. بزغ الفجرُ بلونٍ أصفرَ شاحبٍ من وراء ستائر الصالون. توجّه الرئيس إلى إحدى النوافذ، وأزاح ستارة الدانتيل لينظر إلى الساحة. فرأى قوس النصر، الرائع الفخم، قائماً فوق إرثٍ لا نظير له، حيث فتاة مارسيليا التي فغرت فاها، والشاعر الصادح الذي يشهر سلاحه، والمحارب الذي يعتمر خوذة، والطفل-البطل الذي بدا عضوه وبدت خصيتاه[378]. هناك تظهر أيضاً، مخلّدة، عبقرية فرنسا الديكارتيّة، وهي الوحيدة القادرة على إنجاب عالم الديكارتية المضاد، العالم الذي تخيّله وحرّكه ورفعه وحطّمه كورسيكيٌّ فذّ، غريبٌ عجيب، سحرت خلاسيّة مارتينيكية فتحة بنطلونه، فذهب ليضيع قبعته في حريق موسكو، بعد أن هزم محاربو الراهب مرينو وأتباع خوان مارتين «المقدام» قواته، وكانت خليطاً من البولنديين والمماليك[379]. ولكن، وراءَ من كان يتأمّل النصب،

(378) وصفٌ للتماثيل التي تظهر على قوس النصر.

(379) إشارات عديدة إلى نابليون بونابرت وهزيمته في روسيا وفي حرب الاستقلال الإسبانيّة.

لوحاتٌ ربّما تمثّل، بشمولية أكبر، روحَ فرنسا الديكارتيّة. التفتَ إليها، أشعلَ الضوء. وكان ما وقع نظره عليه من الغرابة أنّه فوجئ وسقط على كرسيّه، متجمّداً، يحاول أن يفهم ما يرى.. فقد حلّت محلّ لوحة جان-پول لورانس[13]، سانتا راديغوندا الميروفينيّة، التي يظهر فيها حجيج بيت المقدس، ثلاثُ شخصيات ليس فيهم من الشخصيّة إلا القليل، شخصياتٌ مموّهة، مجزّأة في خطوط هندسيّة، وجوه - يفترض أنّها وجوه، مغطّاة بأقنعة. أحدُها، يلبس قلنسوة، كالراهب، ويحمل نوتة موسيقيّة؛ أمّا الذي في الوسط، فعلى رأسه طاقيّة مهرّج، ينفخ في شيء يشبه الكلارينيت؛ أمّا مربّعات الشطرنج، فهو مهرج الأفعى الرقشاء، يحمل مندوليناً أو غيتاراً أو عوداً أو الله أعلم بما يحمل، وقد بدا مقطوعاً من وسطه. والشخصيات الثلاثة -هذا إذا كانت شخصيات- تقف هناك، بلا حركة، فظّة، مثل أبطال يظهرون في كابوس، تنظر -هذا إذا كانت تنظر- بمظهر من يضايقه حضور غريب مندسّ. «ماذا تفعل حضرتك هنا؟ -بدا وكأنّها تقول له-: ماذا تفعل حضرتك هنا؟!». لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء: في طرف آخر، وُضع، بدلاً من مشهد «ألستير» البحري الرقيق، شيء لا يمكن تعريفه: تقاطع بين خطوط أفقيّة، عموديّة، مواربة، بألوان الأرض والرمل، ألصقت عليها قطعة من ورق الجرائد -لو ماتان- حاول الإكس أن ينزعها، من دون طائل، بظفر إبهامه، بعد أن صعب عليه نزع الورنيش. في الواجهة، حيث كانت لوحة عشاء الكرادلة لدومون[17]، رأى شيئاً آخر، مجرّداً من كلّ معنى، يبدو أنّه عيّنة من أصباغ «ريبولان»، فهو عرضٌ لمستطيلاتٍ ودوائر، بِيضٍ، حمر، خضر، تحدّها خطوطٌ كثيفة سود(380). إلى جانبها، حلَّ محلّ لوحة شكران-مورو منظّف المداخن الصغير، شيءٌ يشبه برج إيڤل،

(380) يخمّن [RGC] أنّه وصف لوحة «أسلاك» للفرنسي الطليعي فرانسيس بيكابيا Francis Picabia (1879–1953).

محدّب، منحنٍ، ملتوٍ، أعوجُ، أفلجُ، وكأنّه مكسور في بنيته المركزيّة، في عموده الفقري، بعد سقوط مطرقة هائلة من السماء عليه[381]. هناك، بين البابين، نساء -نساء؟- بدا وكأنّ سيقانهنّ وأذرعهنّ صُنعت من أنابيب منظومات التدفئة[382]. حيث كنتُ قد وضعتُ لوحة حفلة استقبال روتينيّة لبيرو، مع زينتها من الدانتيل وفتحات الصدور والشفاف، رأيتُ شخابيط لا توصف كُتب عليها، ويا للغرابة، بحروف واضحة جميلة: عيون الكوكوديليك[383]. وهناك، فوق قاعدة دوّارة من رخام أخضر، يقوم جسمٌ رخاميّ، جسم غير متناسق، بلا معنى ولا هدف محدد، له كرتان -اثنتان- في الجزء السفلي، وشيء ما طويل فوق -واعذروني عن الإيحاء الفاحش- لا يمكن إلا أن تكونا تشكيلة غير واقعيّة ومبالغ في قياساتها -غير محتشمة، بالطبع- لما يحمله كلّ ذكر نشيط في المكان الذي يجب أن يحمله فيه. «ولكن.. ما كلّ هذا؟!». «إنّه الفنُّ الحديث، سيادة الرئيس!»، همس بهدوء التشولو مندوثا، الذي كان قد عاد للتوّ من الطابق العلوي، بعد أن ترك لامايورالا ملفوفة في بطانيات، مستسلمةً ساكنة تحت لحاف من الريش. راح الإكس ينتقل من غرفة إلى غرفة، فوجد فيها التغييرات نفسها، الكوارثَ ذاتها: لوحاتٍ مجنونةً، غريبة، مغلقة، من دون استحضار تاريخي أو أسطوري، من دون موضوع، ولا رسالة، أواني فواكه ما هي بأواني فواكه، بيوتاً تبدو أسطحاً هندسية، وجوهاً تحمل مثلثاً بدل الأنف، نساء عافت أثداؤهن مكانها -ثدي فوق وآخر تحت-، أو حدقة عين فوق

---

(381) يخمّن [RGC] أنّه يشير إلى لوحة «برج إيڤل» للفرنسي التكعيبي روبرت ديلوناي Robert Delaunay (1885-1941).

(382) اللوحة المعنيّة هي لوحة «ثلاث نساء» للرسّام الفرنسي فرناند ليجيه Fernand Léger (1881-1955). [RGC].

(383) هي لوحة L'Oeil cacodylate الموجودة في متحف الفن الحديث بباريس. وهي من عمل الفرنسي فرانسيس بيكابيا. [RGC, 82].

الصدغ، وهناك، يظهر جسمان مكسّران، متشربكان بخطوطهما، ملتفّان، متشابكان، فكأنّهما يتجامعان، وإن كان رسم شخصين في هذه الوضعيّة (لديه مجموعة جيدة من الصور الإباحية أغلق عليها بالمفتاح) يتطلب تمكّناً من الرسم وتحكّماً بالمنظورات والزوايا وظرفاً في تركيب الأعضاء، وهو ما لا يمتلكه طبعاً أولئك الفنّانون الخائبون الذين يسمّون بالـ«حديثين»، لأنّهم عاجزون عن أن يرسموا بدقّة لوحة عارية، عن أن يضعوا شابّاً من أسبرطة على مسرح الثيرموبيل[384]، عن إجبار حصان حصاناً على الركض، عن تزيين -لنقل ذلك بصراحة- سقوف دار الأوبرا بباريس، أو عن حمل رؤية عن معركة بحماس تفصيل ملحمي. «سآمر بإنزال كلّ هذه التفاهات!» صرخ ربّ البيت، وقد عاد إلى داره ودَوْره، وهو يمسك بلوحة عيون الكوكوديليك. «من تظنّ نفسك!»، قال، وخلفه أوفيليا، التي وصلت للتو، وقد ارتدت طقماً: تنورةً وجاكيتَ سهرة نيليّاً، منفوشة الشعر، ووجهها ملطّخ بمكياجها، وبدا عليها كلّ ما يدلّ على أنّها ثملة. «يا بنتي! -قال المستشار الأوّل، وهو يحضنها بحنان مفاجئ تلجلج له صوته-: يا بنتي! يا قطعة من كبدي!». «أبي الحبيب!»، قالت، وهي تبكي أيضاً. «ما أجملكِ وما أظرفكِ!». «وأنت، ما أشدّكَ وما أقواكَ!». «تعالي: اجلسي إلى جانبي.. لديّ الكثير لأقصّه عليك.. لديّ الكثير الكثير لأحكيه لكِ». «حدِّث!». من فوق كتف أوفيليا، حيث ذبلت زهرة أوركيد تنبعث منها رائحة التبغ، رأى الإكس، وكأنّه يتطلّع إلى كرنڤال فلاندر، وجوهاً شعثاء مشوّهة مؤرقة - سكرى، بالتأكيد. «هؤلاء أصدقائي.. لقد أغلقوا المرقص حيث تعشّينا.. وجئنا لنواصل الحفلة!». ناس. ومزيد من الناس؛ ناسٌ أزرارهم مفتوحة، بلا أناقة، بلا تهذيب؛ ناسٌ وقحون، أفظاظ، قليلو

(384) إشارة إلى مأثرة حفنة من شباب إسبرطة تحت إمرة ملكهم الشاب ليونيداس، في مقاومة جيش الفرس الجرّار طوال ثلاثة أيام.

الحياء، يتصرّفون وكأنهم في بيوتهم -بل أكثر: وكأنّهم في ماخور- جلسوا على الأرض، وجاؤوا بزجاجات من مخزن المؤونة، وطووا السجادة ليرقصوا فوق خشب الأرضيّة المطلي بالشمع، من دون أن يلتفتوا إليه أو يعبؤوا به. نساء يرتدين تنّورات تصل إلى ركبهن، شعورهنّ مصففة مع غرّة مرتفعة، وكانت وقتئذٍ ما يميّز شعور العاهرات؛ شباب متأمرك يرتدي قمصاناً مربّعة تبدو معمولة من صدريات الطباخات. والغرامافون، الآن: أغنية «نعم، ليس لدينا موز [بالإنكليزية]» (هذا الرعب، الذي عانيناه في الباخرة، أثناء رحلة عبور الأطلسي). «ليس لدينا موز اليوم». تضحك أوفيليا مع أصدقائها، تروح وتجيء وتخرج أسطوانات من الدرج وتأتي بشراب، بالمزيد من الشراب، تملأ الكؤوس، تدوّر الغرامافون، وتؤسس بينها وبين الإكس، الذي جلس على الأريكة خانعاً مستسلماً، حواراً من جمل مبتورة، منسولة، لا تنتظر جواباً، أخباراً لا تكتمل، بين دورة ودورة في الصالون: لم تذهب إلى محطة «سان لازار» لأنّ برنامج مواعيد وصول الطائرات لم يظهر أمس إلا متأخراً، وكانت حينئذٍ في أحد المعارض الفنيّة؛ ومن هناك خرجوا للاحتفال ولم تبلغها خادمتها إلا الآن، حين استيقظت: «سنكون الآن سعداء حقاً؛ فلن تضطر للعودة إلى بلد المتوحّشين ذاك!» (علا صوت أغنية سان لويس بلوز بالذكريات الكئيبة: إنّه نفسه الذي كان الموظّف القنصلي قد عزفه تلك الأمسية). «اسمعي: أحضرتُ معي لامايورالا»/ «وأين هي؟»/ «نائمة، في الطابق العلوي»/ «بصراحة، لو كنتُ مكانك لما أتيتُ بها»/ «إنّها الشخص الوحيد الذي لم يخنّي هناك.. حتّى پيرلاتا خانني!»/ «كان لديّ دائماً إحساس بأنّه ابن قحبة!»/ «بل أسوأ من ذلك: إنّه ميكافيلي بجيوب»/ «ولا ذلك: بل هو، جيب ميكافيلي»/ (مرة ثانية: «نعم، ليس لدينا موز [بالإنكليزية]»)/

«لوكنتُ مكانك ما أحضرتُ لامايورالا؛ لا أستطيع تصوّر وجودها في باريس؛ إنّها حملٌ إضافيّ ألقيناه على ظهورنا»/ «علينا أن نتكلّم عن هذا الموضوع، علينا أن نتكلّم كثيراً عن هذا الموضوع»/ «غداً، غداً، غداً!»/ «لكنّنا الآن غداً، ها قد أصبح الصبح»/ (مرة أخرى سان لويس بلوز)/ «آي، لا تكُن متخلّفاً! عزيزي العجوز: ذلك هو فن اليوم؛ ستتعوّد»/ «وماذا عن لوحاتي لجان پول لورانس؟ وماذا عن ذئب غوبيو؟ وماذا عن مجموعته البحريّة؟»/ «بعتها إلى فندق دروو: بالمناسبة، لم يعطوني لقاء المجموعة كاملةً إلا قروشاً: ما عاد أحدٌ يهتمّ بهذه الأشياء»/ «تبّاً! ولكن كان يمكنك أن تأخذي رأيي!»/ «وكيف لي أن آخذ رأيك والصحف كانت تشيع أنّهم قتلوك؟ جاءني الخبر في مهرجان إشبيلية»/ (مرة أخرى: «نعم، ليس لدينا موز [بالإنكليزية]»/ «وهل بكيتِ حين أخبروك بذلك؟!»/ «كثيراً، كثيراً، كثيراً»...)/ «ولبست شالاً أسود»/ «انتظر، انتظر، سأدوّر الغرامافون!»... (ترفع صوت «نعم، ليس لدينا...» الذي كان قد انخفض إلى درجة القرار)/ «اسمعي.. وهل سيظلّ هؤلاء طويلاً هنا؟!»/ «إن أرادوا البقاء فلن أطردهم»/ «لكنّ علينا أن نتكلّم عن أشياء كثيرة»/ «غداً، غداً، غداً!»/ «لكنّ غداً حلّ...»/ «إن كنتَ متعباً فاذهبْ للنوم!»...// (أسطوانة جديدة: «أبحث عن تينتين، تينتين، تينتين، أوه يا تينتين تينتيني!»: هوس آخر على ظهر السفينة). أرادت أوفيليا أن ترقص، فتركته وحده على الكنبة، وبدأت ترقص، كالممسوسة، مع إنكليزي مجعّد الشعر قدّمته إليّ، حين مرّا بالقرب منّي، وهي ملتصقة به، على أنّه لورد.. لا أعرف ماذا، كانت قد تعرّفت عليه في «كاپري»، وقد أخبرني تشولو مندوثا، الذي كان يجلس بقربي، إنّه دخل في مشاكل مع الشرطة الفرنسية لأنّه أشرك طلبة من ليسيه جانسون دو سيلي في تمثيليّة «رعوية» لفيرجيل، نعم، تلك التي يظهر فيها

الراعي الصغير أليكيس؛ أعرفها، أعرفها. نظر \الإكس إلى ابنته وإلى الآخرين بغضب: تينك اللتين ترقصان، بنتاً مع بنت، متلاصقتَي الوجهين. وذينك اللذين كلٌّ منهما يمسك الآخر من خصره. وتلك الأخرى، صاحبة الشعر القصير، التي تتبادل القبلات مع الشقراء النحيفة صاحبة الشال الأصفر. وتلك الأصباغ الغبيّة، غير المفهومة، على الجدران. وذلك التمثال الأبيض، الفاحش، وقد بدا عضوه الرخامي، بين زجاجات الويسكي التي رُسم على بطاقتها حصان، حصان أبيض أيضاً، ذو شكل طبيعي، لحسن الحظ. وفجأة احمرّ وجه \الإكس في نوبة أخرى من الغضب -مندوثا كان يعرف أعراضه-، فاجتاز الصالون، ورفع إبرة الغرامافون، ورمى بالأسطوانات على الأرض، ثمّ كسرها تكسيراً. «اطرد من هنا كلّ هذه المسخرة!»، صرخ. وانضمّت أوفيليا -وكأنّها زعيم قبيلة يقدّر قوة العدو ويحسبها قبل الهجوم عليه- إلى الآخرين، الذين كانوا ينتظرون، مشدوهين، وراحت تنظر إلى أبيها وقد تملّكها الغضب. راح «الأب الجميل» يكبر في عينيها فجأة؛ يكبر، ينتفخ، يتعملّق، يحطّم الجدران بيده، يرفع السقف بكتفيه. إن هو استردّ سلطة أيام غابرة، إن هو استطاع أن يرتقي العرش ثانية، ليكون له الحكم والقرار في بيتٍ تحرّر من وجوده طوال سنوات؛ إن لم تضع حدّاً لعجرفته، وإن لم تكبح اندفاعه، فسينتهي به الأمر طاغيةً هنا، كما كان هناك - لأنّه اعتاد أن يكون طاغية. «إن لم يعجبك أصدقائي -قالت، وقد عادت إلى نبرتها تلك، الجافة الباردة، التي خشيها الآخر ذات مرّة-: إن لم يعجبك أصدقائي، فاحمل حقائبكَ واذهب إلى "الكريلون" أو إلى "الريتز"! هناك لديهم غرف فاخرة. رووم سيرڤيس وأجواء ممتازة!». «سدوم وعمورة!»[385]، صرخ المستشار الأوّل. «لذلك

(385) مجموعة القرى التي عاقبها الله لفساد أهلها. وقد ذُكروا في القرآن الكريم باسم قوم لوط.

أسقطوك: لأنّك تتفوّه بترّهات!»، قالت أوفيليا. «من هذا؟»، سأل الجميع. «أبي. الرئيس! [بالفرنسيّة]»، قالت أوفيليا، بنبرة مهيبة مفاجئة، وكأنّها تبتغي تلطيف حدّة ما تفوّهت به. «عاش الرئيس! يحيا الرئيس!»، هتف الجميع، بينما راح واحد منهم عزف لامارسييّز، وهو يقلّد عزف مهرّج. «اذهب للنوم، أبي!». بدت ستائر الصالون مشمسة، على الرغم من أضواء الداخل. «هيا بنا إلى بوا-شاربون»، قال الإكس مخاطباً التشولو مندوثا. «باي-باي!»، قالت أوفيليا. وبينما كان السادة ينزلون من درج الشرف الكبير، راح الآخرون، وهم في الأعلى، ينشدون المامبرو[125]، وقد أطلّوا من الدرابزين، بوجوه غطّتها أقنعة التنكّر:

العجوز الأحمق ذاهب إلى الحرب
انظر إليه، انظر، انظر
العجوز الأحمق ذاهب إلى الحرب
ولن يعودا! [بالفرنسيّة]

«فقد أصابتنا مصيبة، يا سيّدي الطيّب! [بالفرنسيّة]»، قال موزارد، الذي صار يشبه المحارب ذا الشارب في قوس النصر، حين رآهما. (كان واضحاً أنّه رأى صورتي في إحدى الجرائد). «أوووه! تعلم حضرتك.. إنّها الثورات! [بالفرنسية]»، قلتُ. «الثورات عواقبها وخيمة دائماً -قال رجل النبيذ، وهو يُخرج زجاجة-: تأمّل ما حدث في فرنسا للويس السادس عشر [بالفرنسية]». (تذكّرتُ غلاف لا كونفْسيون ميشيليه[386]، طبعة نلسون، حيث يظهر المواطن كابيتيون[387] وهو يقف على منصة الإعدام، أبيّاً شامخاً، وقد فتح ياقة قميصه، فكأنّه في عيادة لطبيب الأنف والأذن والحنجرة). «سيكون ذلك في المرة القادمة [بالفرنسيّة]»، قلتُ،

(386) Jules Michelet (1798-1874): مؤرّخ فرنسي.
(387) يقصد به الملك لويس السادس عشر لأنّه من سلالة كابيتيون.

وأنا أضعُ يدي على عنقي. حاول مسيو موزارد إصلاح الوضع، ويبدو أنّه انتبه، ولو متأخراً، إلى أنّه أخطأ المقال والمقام حين ذكر لويس السادس عشر أمامي: «الثورات، كما تعلم.. يبدو أنّنا كنّا تحت النظام القديم أفضل حالاً بكثير، وكان ملوكنا الأربعون هم من صنعوا عظمة فرنسا». «هذا ما قرأتْه الحركة الفرنسيّة»[388]، قال التشولو مندوثا. «يبدو أنّه من أنصار مذهب بارّيه[42]»، قلتُ. «ها هو ذا البوجوليه نوڤو -قال مسيو موزارد وهو يصبّ من ذلك النبيذ الفاخر ثلاث كؤوس-: في هذا المقهى تجد المتعة». شربتُ كأسي باستمتاع. من نهاية المقهى الصغير تصلنا رائحة الحطب المضمّخة بالراتنجين، حطبٌ من ذاك الذي يبيعونه هنا في حزم صغيرة مربوطة لإشعال الفحم. هناك تقبع زجاجات سوز والبيكون والرافائيل والدوبونيه، ثابتة في أشكالها وفي علاماتها، فكأنّ الزمن لم يمضِ عليها. «وممّ ستعيش؟ -سألتُ التشولو-: فقد كنتَ سفيراً وما عدتَ سفيراً». «الرجل المحترس يعادل رجلين. لديّ من المال ما يكفي ويفيض!». «ومن أين أتيتَ بالمال؟». «بفضلي زاد عدد سكّان البلد ثلاثين ألف نسمة. مواطنون لا يظهرون في إحصاء ولا في تعداد. لا مكان لهم على خريطتنا. عملتُ لهم جوازات سفر وبطاقات هوية.. بؤساء فقدوا وطنهم. ضحايا حرب. روسٌ بيض. مواطنو بدون. عديمو الجنسيّة. عديمو الوطن. مشرّدون. عمل متقن.. إضافةً إلى التجارة التي تأتيك من الحقيبة الدبلوماسيّة.. ولم أكن الوحيد في ذلك. أنا لستُ قديساً. الآخرون يفعلون ما فعلتُ من أجل ما هو أسوأ!» [أدّى حركة من يتناول نشوقاً من أنفه]. «فالإغراء قوي، والطلب شديد، لأنّ ذلك يعود بالكثير، لكنّ تجارته خطيرة.. أمّا جوازات السفر.. فلديّ نسخ من أختام السفارة. وهكذا فإنّ

(388) L'Action française: حركة سياسية يمينية ملكيّة. نشأت في النصف الأول من القرن العشرين.

دكّاني ما زال مفتوحاً.. بسرّيّة، طبعاً». «جيّد: مواطنونا لا يستحقّون شيئاً آخر!» [تنهّد] «آي، يا أخي! كم هي صعبة خدمة الوطن!». عدنا إلى شارع «تيلسيت». اعترضني بوّاب جديد، معوّق حرب، بلا شك، لأنّ كمّ قميصه الأيسر شُكّ بدبّوس في كتف سترته الزرقاء، وكان يضع نيشاناً في طيّة سترته. اضطررتُ إلى أن أشرح له أنّني صاحب البيت لكي يسمح لي بالمرور، بعد حجج مسرحية ومرتبكة. كانت ستائر الصالون ما زالت مسدلة. على الأريكة وعلى المقاعد، وعلى وسائد منثورة فوق السجادة، كان ينام العديد من صعاليك الليلة الماضية. وصلتُ، بعد أن قفزت من فوق تلك الأجساد -كان بعضهم متشابكاً، في عناقيد- إلى غرفتي، أخيراً. أخرجتُ شبكة نومي من الخزانة، وعلّقتها في الحلقتين المعدّتين لهذا الغرض. في قوس النصر، كانت لامارسييّز تغنّي، كما كانت تفعل أمس، وكما تفعل دائماً.

لكن إذا كان نصب لامارسييّز[75] ما زال هناك، ببطله الهاتف الداعي وطفله - البطل المحشور بين السيوف والدروع، فإنّ باريس، بالنسبة إليّ، كانت خالية من ناسها. تنبّهتُ إلى ذلك، تلك الأمسية، حين حاولتُ، بعد المنام الطويل، أن أسترجع ما يمكنني استرجاعه من هذه المدينة. تلفون رينالدو هان[47] لا يردّ عليّ. ربّما يسكن في الأطراف. «المشترك لا يردّ [بالفرنسية]»، يقول لي صوت عاملة البدالة. أمّا الأكاديمي البارز، المتفهّم دائماً، والذي كنتُ أريد أن أستودعه أحزاني ويأسي، وأن أطلب مشورته ونصحه لكي أكتب -ربّما- بعض «المذكّرات»، فتبيّن أنّه مات قبل أشهر في شقّته في «كاي فولتير»، من مرض عضال أصابه بعد أن دخل في حالة تصوّف شاع الحديث عنها في الأوساط الكاثوليكيّة، أجبرَته على أن يمضي أياماً بأكملها في الصلاة في كنيسة «سان روش»، التي ترتبط في ذاكرتي برواية لبلزاك كنتُ قرأتها وأنا مراهق في مرفأ «لا بيرونيكا». (لا

أدري لماذا لا تثير فيّ كنائس بوسويه وفنلون[389] -أشير هنا إلى الطراز- مثل كنيسة «سان روش» أو كنيسة «سان سوبليس» أو مصلّى «فرساي»، أيّ حميّة دينيّة. لكي أحسّ بأنّ الكنيسة كاثوليكيّة، فأنا أحتاج إلى أن أراها معتمة، غامرة، مليئة بالبقايا المقدسة والعجائب، بصور قديسين مقطوعي الرأس، بدماء، بجروح، بقروح، بدموع، بعرق، بغابات من الشموع، بسيقان من فضّة، بأحشاء من ذهب في مذبح النذور). علمتُ أنّ غابرييل دانونزيو[20]، بعد أن اشترك في موضوع فيومي[390] اعتكف -يقولون- بعد أن صار دوقاً -يقولون-، في بيته الإيطالي، ومن بيته، الذي كان يلاصق جداراً صخرياً، صار يمكنه رؤية مقدمة بارجة نُقلت إلى هناك في ذكرى لا أدري أيّ مأثرة. علمتُ من أوفيليا -وكانت في هذا صادقة- أنّ لوحة «إلستير» فقدت الكثير من قيمتها: بدأت مجموعة لوحاته البحرية الرائعة تظهر في معارض متواضعة، مخلوطة بسواها الكثير مما يتصل، في نظر الأثرياء الجدد الذين ولدتهم الحرب، بالأمواج والزوارق الشراعية والرمال والزبد. واعتكف، وهو يشعر بالمرارة من تراجع قِيَم سنداته، في شقّته الصغيرة في «بالبيك»، محاولاً أن يبلغ «حداثة» تمثّلت في بحثٍ مضطرب لم يرُق لمعجبيه القدامى ولا للمحدثين، بعد أن شوّه أسلوبه من دون أن يضيف إليه جديداً. في الموسيقا حدث شيء مشابه: ما عاد أحد يعزف فينتويل[391] -وأقلّ من ذلك السوناتا-، غير الفتيات الشابات، من تلميذات المعاهد الموسيقية، اللائي يتركنها، بعد عودتهنّ من دروس البيانو، في

---

(389) إشارة إلى Jacques-Bénigne Bossuet (1627-1704): رجل دين وخطيب فرنسي. و François Fénelon (1651-1715): رجل دين وشاعر وكاتب فرنسي.

(390) فيومي (أو ريكا) وهي دولة أعلن عن قيامها في كرواتيا بين عامي 1920 و1924 وقد كانت محل نزاع بين إيطاليا والمجر بعد الحرب العالمية الأولى.

(391) هي الموسيقا المفترضة المرافقة لبعض فصول رواية مارسيل بروست «البحث عن الزمن المفقود».

أحد الدروج ليستسلمن إلى غرائب الكاتدرائية الغارقة أو رقصة بافان من أجل ابنة ميتة[392]، هذا إذا لم يبلغن في فساد الذوق حدّ سماع قطّ-على-مفاتيح-البيانو من تأليف زيز كونفري[393]. والشباب، الـ«الفاهمون» -في ماذا؟-، أصحاب الصرعات، فتنوا بموسيقا روسيّة أتى بها دياغيليف[394]، بعد أن تبرّؤوا من المايسترو النبيل خوان كريستوبال وصاروا ينادونه بـ«اللحية العجوز [بالفرنسيّة]»، كما تبرّؤوا من ذهب الراين. وحدث ما هو أسوأ، شيء لا يمكن فهمه ولا القبول به: أناتول فرانس، الذي كان في مقدوره البقاء في عالم تاييس وجيرونيمو كوينراد[395]، خرج علينا بأحدث الأفكار الاشتراكية، داعياً إلى «ثورة عالميّة» تشمل أميركا -هكذا، مرّة واحدة!- وقدّم مبالغ طائلة لصحيفة لومانيتيه المقيتة. بينما عانى آخرون الأمرّين، مثلما حدث للكونت دي آرجنكور، القائم بالأعمال البلجيكي، الذي كان في ما مضى رجل أتكيت وبروتوكول، رشيقاً، أنيقاً، دبلوماسياً من الطراز الأوّل، إذ رآه التشولو مندوثا، قبل أيام، أمام مسرح العرائس في الإليزيه، محطّماً وعليه أسمال، وقد ارتسمت على وجهه علامات المتسوّل المبتسم - سريع في مدّ يده لتلقي الصدقات.. لم أكن أجرؤ في تلك الأيام على الاتصال بمدام فيردوران - التي أصبحت أميرة بعد أن تزوّجت بأمير. خشيتُ أن تأنف، وهي أميرة -أو بالترفّع الذي يمليه هذا

---

(392) عملان موسيقيان الأول من تأليف كلود ديبوسي، والثاني لموريس رافيل. وكلاهما فرنسي.

(393) Ziz Confrey (1895–1971): موسيقي أميركي مجدد. والقطعة هي Kitten-on-the-keys

(394) سيرغي دياغيليف (1872–1929): رجل أعمال روسي أسس فرقة الباليه الروسية الشهيرة.

(395) Anatole France (1844–1924): كاتب وشاعر فرنسي. أما تاييس، وجيرونيمو كوينراد فهما شخصيتان في روايتين له.

اللقب- ممن لم يكن، في نهاية الأمر، غير رئيس أميركي لاتينيّ مطرود من قصره. تذكّرتُ بمرارة نهاية إسترادا كابريرا المؤسفة؛ وتذكّرتُ الزعماء الكثيرين الذين سُحلوا في شوارع عواصمهم؛ من نُفي منهم ومن أُذلّ وأُهين: پورفيريو دياث؛ فكّرتُ في القابعين في هذا البلد؛ بعد أن حكموا طويلاً، من مثل غوثمان بلانكو؛ وروساس، في الأرجنتين، روساس الذي تخلّت عنه ابنته حين مالت شمسه إلى المغيب، بعد أن تعبت من تمثيل دور العذراء المتفانية والشفيعة المحسنة إزاء فظائع الرهيب، وكشفت لنا فجأة عن حقيقتها العميقة، وتركته يموت في حزنه ووحدته، في أجواء «ساوثهامپتون» الرمادية - وهو الذي كان صاحب ترفٍ عريض، وأنهار من المال، وأقمار لا ترى إلا هناك، وشموس تعلو وتوضع كلّ يوم على الآفاق التي يتحكّم بها وفق هواه، وهو يرى رؤوس أعدائه تمرّ محمولة في عربات شرطته، يُنادى عليها كما ينادى على البطيخ، «حلو ورخيص!». ومرّت الأيام، ولم أرَ أوفيليا إلا قليلاً، فهي مشغولة دائماً بين لعب ومشاكل. لامايورالا ترقد متشرنقة، منكمشة تحت لحاف الريش، ترفض أن يعاينها طبيب فرنسي، تعاني من حمّى مرتفعة بسبب التهاب رئوي، وترفض أيّ علاج غير الرون والتولو - فهنا لا توجد هناك تلك الأعشاب التي لنقيعها فعلُ المعجزات. رحتُ أستعيد مع التشولو مندوثا ذكرياتي في باريس، متنقّلاً من «نوتردام دي لوريت» إلى «شوپ دانتون»، من إحدى جادات «البوسك»، التي ما عادت هي هي، إلى بوا-شاربون المسيو موزارد. ما عدنا نحسّ ذلك النبض الحضري، ذلك الهواء، تلك الأجواء، التي يبحث عنها شمّي فلا يجدها، وتستحضرها ذاكرتي فلا تحضر. لقد حلّت رائحة البنزين محلّ رائحة روث الحصان - كانت من قبل عالمية لا تحدّها حدود، سواء في العاصمة أم في الضيعة. ما عدتَ تسمع في الصباح الباكر صيحات بائع الملابس القديمة ولا باعة الجرجير والدخن، ولا صوتَ

صفّارة شحّاذ المقصّات. وما عاد يظهر، في ساحة «دي تارن»، بعد المسير الطويل، بائعو الجرار والفخار، وهم يقودون حميرهم المزيّنة على طريقة منطقة «إكستريمادورا». لم يثبت في مكانه غير «أو ﭼلاس»، الكائن في الرقم 25 من شارع «سان-آﭘولين»، حيث كانت تنتظرني -في جوّ من ديكورات وطاولات موزاييك وكريستال مطليّ ورسوم مزهرة ملصقة على ظهر مقاعد جلدية وصخب بيانو آلي وغلامين يرتديان صدرية بيضاء وزجاجات في صينيّة، كالمرسومة على بطاقة زجاجة الرفائيل- امرأتان تعيدانني -بعد كلّ السنين التي تقضّت، والأجيال التي تعاقبت، والبراعم التي تجددت، والتسريحات التي تغيّرت، وكلّها موجّه نحو نحافة ورشاقة باتت مفضّلة على ضخامة الحقب الماضية- إلى فصول أوليّة من سيرتي وتاريخي، إلى متع الماضي، إلى ذكريات متجددة، إلى حوادث باتت بعيدة عن كلّ ما حُرف عن مساره ونُقل من مكانه وأُفسد في طبيعته، بعد تغيّر مفاجئ طرأ على إيقاع الحياة، تغيّرٍ عرفتْه بلدان أخرى في القارة. ثمّ اختلطت اللغات، وانحطّت القيم، وغاب الاحترام بين المراهقين، وشُتم الكبار، ودُنّست القصور، وطُرد العادلون.. هنا -في «أو ﭼلاس»- أجد نفسي مع الشيء الوحيد الثابت الذي كان على الدوام -ربّما زاد عددُ الصدور وربّما قلّ-، هنا وهناك، حضوراً ووحدانيّة، جدليّة بين أشكال لا يمكن تعويضها، لغة مشتركة لها معنى عالمي. في زمن اللحم الذي لا رجعة فيه، يمكن أن يحدث، بحسب العصور، من أسلوب بوغيرو[396] إلى أسلوب أيڤا مديڤال، من تقويرة بولديني إلى تقويرة تينتوريتو[397]، أو بالعكس، من الأرداف والكرش عند روبنس[398] إلى رقّة حورية بوڤيس

(396) William-Adolphe Bouguereau (1825–1905): رسّام واقعي فرنسي.
(397) Boldini (1842–1931). Tintoretto (1518–1594): رسّامان إيطاليان.
(398) Rubens (1577–1640): رسّام فلامنكي.

دو شافان وغموضها[399]؛ مضت تقليعات الجمال، الفترينات، تذبذبات الأذواق التي ضعّفت أجساماً ولعبت بقياسات وطوّلت أو عرّضت، لكنّها لم تفلح قطّ -بينما الأساليب، في أشياء أخرى، كانت تعاني تغييرات دائمة- في تغيير حقيقة العري الجوهريّة. هنا وأنا أنظر إلى ما أنظر إليه، أجد نفسي في توقّف الساعات العظيم، خارج العصر، ربّما في أيام الساعات الشمسيّة أو الساعات الرملية، ولذلك، أجدني متحرراً من كلّ ما يربطني بتواريخ تاريخي، أشعر بأنّي سقطتُ مراتٍ أقلّ من على صهوة حصاني البرونزيّ، ترجّلتُ مرّات أقلّ من قواعد تماثيلي الرخامية، خلعتُ مرّاتٍ أقلّ من عرشي، فقدت قدراً أقلّ من شعبية الممثّل، أشعر بأنّي أكثر تماهياً في نفسي، وأكثر قرباً من أناي العميقة، ما زلت أمتلك عينين أنظر بهما، نبضاً يأتيني من أعماق حيويّة ما زالت في حالة تحفّز لذيذ أمام شيء يستحق أن يُنظر إليه - ثروة أفضّلها (أحسّ، فأنا موجود) على حياة زائفة في الوجود الكلي الأحمق في مئة تمثال جامد في متنزّهات عامة وساحات بلديّة... حين تأتي تلك الأفكار لتجعل منّي رجلاً جادّاً في الوقت غير المناسب، حين أنتبه إلى التناقض بين التفكير والمكان، أنفجر ضاحكاً، وأنطقُ بعبارة كانت تعجب التشولو مندوثا: «كلّ شيء جائز إلا الكلام عن أن تكون أو لا تكون في بيت الدعارة!». «هذا هو السؤال»، يردُّ عليّ الآخر، الذي يتباهى أيضاً بأنّه كثير المطالعة، مشيراً إلى واحدة ممتلئة، راحت، وهي واثقة متيقنة من أنّ الاختيار وقع عليها، تنتظر من دون استعجال، وتشرب عند طاولة قريبة - وعينا من لم يقل لها شيئاً مسلّطة عليها. إنّ من الخير لها الانتظار، فالأجانب ساخنون وكرماء ويقدّرون المهنة حقّ قدرها.

---

(399) Pierre Cécile Puvis de Chavannes (1824-1898): رسّام فرنسي من أتباع الرمزيّة.

عشرون

نطّت لامايورالا من تحت لحاف الريش، وقد بدا فجأة أنّها تعافت من الحمّى وزايلتها الآلام. وراحت تسأل عن كنيسة، حيث يمكنها أن تفي بنذورها في الصلاة وتوقد الشموع لوجه العذراء. «كنيسة، كنيسة!»، صرخت في وجه البوّابة، التي تحجّرت أمام من جاءتها وعليها ثلاث تنّورات، الواحدة فوق الأخرى، خوفاً من رطوبة شمسٍ صيفيّة أبكرت في قدومها. «كنيسة، كنيسة!»، كرّرتْ، وهو ترسم علامة الصليب وتضمّ يدَيها واحدةً إلى الثانية في إيماءة صلاة، وتحمل مسبحة من حبّات فضيّة. أمّا الأخرى، التي بدا وكأنّها فهمت مرادها، فقد أشارت إليها أن تتجه إلى هناك، ثمّ تنحرف يساراً ثمّ يميناً، وتسير قليلاً. وسارت لامايورالا، وقد عادت الحيوية والحياة إلى ساقيها، حتى وجدت نفسها في معبد كبير -لا بدّ أنّه معبد، وإن لم يكن ينتهي بصليب، ففيه تماثيل ومنحوتات دينيّة بدت وكأنّها من عمل پيدرو إستاتوا في أعلى الواجهة المعمّدة- من حيث كان يصدر صوت أرغن وهمس صلوات وصوت راهب يتلفّظ بكلمات لم تفهمها. ثمّ رأت أشياء تعرفها، لأنّ المذبح هنا كالمذبح هناك، الصور المقدّسة لها نكهة عائليّة، ورائحة البخور لا تدع مجالاً للشك. بعد أن أوفت بنذرها وأتمّت صلواتها واشترت الشموع بنقود فرنسيّة كان

المستشار الأوّل قد أعطاها إيّاها حين وصلت إلى «شيربورغ» («فقد تضيعين وأنت ذاهبة للتبوّل!»)، نزلت من على سلّم، وتوقفت عند سوق لبيع الزهور، جميل جداً -وإن كان القرنقل هنا بلا رائحة كما هو هناك-، وتوقفت بعد ذلك أمام حانوت كانت ثمرة المانجا فيه معروضة في فترينة، وحيدة ورائعة، فوق سرير من القطن الناعم. أصابتها الدهشة، ثمار المانجا هناك تُباع في عربات مزيّنة بسعف النخل، وينادى عليها «خمسة بنصف بيزو»، بينما تُعرض هنا في علبة، كما تعرض محلّاتُ بيع الذهب الفرنسية المجوهراتِ في بلدها. وجازفت لامايورالا بالدخول إلى ذلك المحل. وتنقّلت دهشتها معها من منضدة إلى أخرى، ومن بضاعة إلى بضاعة: فكانت أذرع البَفرة البنيّة تمتدّ نحوها وكأنّها تناديها؛ وتخضرّ أمام عينيها خضرة الموز الأخضر، وتتكوّر قشرة القلقاس المكرمشة، وتصطبغ حمرة البطاطا ببقع فاتحة، أقرب إلى لون المرجان منها إلى لون ثمرة مطمورة. وترى هناك سواد الفاصولياء السوداء الدامس، وبياض القشطة النقيّ والجوّافة بلون تفاح الورد اللحمي. وتمكّنت، بلغتها، لغة الإيماءات والأصوات، بالإشارة تارة وبتحريك أصابعها تارة أخرى، بالتعجّب مرّة وبالهمهمة مرة أخرى، بهزّ رأسها موافقةً أو هزّه نافية، من الحصول على خمسة من هذه وثلاثة من تلك، عشرة من هنا وثمانية من الكيس هناك وخمسة عشر من الصندوق ذاك، ووضعت ذلك كلّه في واحدة من سلة عريضة، حملتها على رأسها، أمام استغراب المحاسبة: «أتريدين تاكسي مادموزيل؟ [بالفرنسية]». لم تفهم شيئاً. خرجت من الحانوت ورسمت مخطّط طريقها. تأتي إلى هذه الناحية فتجد الشمس في مواجهتها. لم تكن الشمس تعامدت بعد، وكانت هي ما زالت لا تشعر بالجوع: سآكل لاحقاً، لا بدّ أنّ الساعة كانت العاشرة أو العاشرة والنصف. عليها إذاً أن

تسير والظلّ أمامها، لتعود أدراجها. المشكلة هي أنّ هذه الشوارع الملعونة تنحرف وتلتوي وتغيّر اتجاهها، بينما الظلّ، الذي راح يتضاءل، يتنقّل عن يمينها ويسارها، فلا يستقرّ على حال ولا اتجاه. أمّا ما كان يجذب انتباهها ويشتّت ذهنها، فهو ذلك المقهى الذي يغصّ بالأميركان -يُعرفون مهما كانت ملابسهم- في التّراس؛ محل ألعاب القزم الأزرق؛ العمود الضخم وعليه رجل قصير -أحد المحررين بالتأكيد-؛ حديقة مسيّجة مليئة بالتماثيل. هناك، ومع الأشجار المصفوفة على اليسار، عاد الظلّ إلى مكانه الطبيعي. ومشت. ومشت، حتى وصلت إلى ساحة عريضة، حيث ينتصب حجرٌ كبير، كذاك الذي يزيّن بعض المقابر هناك، لكنّه أكبر بكثير - وكيف استطاعوا أن يقيموا هذا؟ والآن، جادة، وفيها ماعز يجرّ عربات. أكشاك حلويات وسكاكر. وبدأت تشعر بثقل السلة حين بدا لها من بعيد، وفجأةً -وقد أوشكت الشمس أن تتعامد على رأسها- ذلك النصب الكبير الثقيل التافه الذي يسمّى قوس النصر أو ما أدراني ما اسمه. حثّت الخطا. ها قد وصلت إلى البيت، متلهّفة للشروع في الطبخ، ولكن سرعان ما شعرت بوخزة باردة وقاسية في ظهرها. فكأنّ الحمّى عاودتها. تركت السلّة في ركن من أركان الغرفة، تناولت كأساً من الرون الممزوج بالتولو، وانحشرت من جديد تحت اللحاف، وهي تلعن هذه البلاد الباردة الكفيلة، بطقسها، بأن تكسر ظهر أيّ واحد.

في حدود الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي، استيقظت أوفيليا على صوت ضجيج غريب. دخلت الخادمة ضاجّة مضطربة: «مادموزيل، مادموزيل، معذرة، ولكن! [بالفرنسية]». كانت الطبّاخة تريد مقابلتها؛ مقابلتها حالاً؛ أصرّت. إنّها هناك، محتدّة. ودخلت الطبّاخة، شعثاء -محتدةّ فعلاً- لتقول لمن كانت تحاول، والنوم ما يزال يغشاها، أن

تفهم، إنّ ما حدث ضربٌ من المستحيل، لا يمكن السماح به أو السكوت عليه، إنّها لن تواصل العمل يوماً واحداً في البيت، إنّها تعيد لهم الصدرية. وفعلاً، نزعت الصدرية وسلّمتها، بحركة عصبيّة، مثل معلّم موقّر ماسونيّ تخلّى، بعد غضب عظيم، عن إزاره. شيء لا يُستحمل: من الطابق العلوي كانت قد نزلت إليها، قبل وقت، امرأة تلبس ثلاث تنّورات، تومئ بيديها ولها بشرة غامقة - «بشرة كلون السجق، مادموزيل!»- لقد استولت على عالمها، عالم القدور والطناجر والمقالي، وراحت تطبخ أشياء غريبة - «أشياء متوحّشين، مادموزيل!»-، لقد وسّخت كلّ شيء، سكبت الزيت، وألقت بعرانيس الذرة في الأرجاء، ولطّخت الطناجر بمزيج من الفلفل والكاكاو، واستعملت فرشاة النجارة لقطع شرائح الموز الأخضر، وسحقت المقالي، بالضرب، في ورق الأكياس. وبعد أن حضّرت تلك القذارات التي لا يمكن وصفها، وتركت المطبخ بدخان زيتي دبق وروائح قلي نتنة، حملت الصواني وأواني الحساء إلى الجناح الصغير الذي كان يسكنه سلفستري، والذي لم يدخله أحد، وظلّ، احتراماً لذكراه، كما تركه ذلك الخادم المثالي، قبل أن يسقط بشرف في هضبة كراون[400]، ليزيّن صدره صليب الحرب وتتصدّر صورته لالوستراسيو، اعترافاً بحسن بلائه في مواجهة العدو. أعادت أوفيليا، وقد فهمت الوضع واستوعبت ما حدث، الصدريّة إلى الطباخة، وصعدت، ملتفّة بروب المنزل، إلى الطابق العلوي. كان المستشار الأوّل والتشولو مندوثا، بصدرين عاريين وشعر أشعث ووجهين غير حليقين، ثملين في الظاهر، جالسين بالقرب من منضدة طويلة، كانت، في الواقع، باباً نُزع من مكانه ووضع فوق كرسيَّين. كانا وكأنّهما يستعدّان للأكل في مطعم استوائي فاخر: صوانٍ

(400) تشير إلى معارك دارت أثناء الحرب العالمية الأولى في تلك المنطقة الفرنسية وقُتل فيها من قتل.

أُعدّت وصحونٌ صُفّتْ: خضرة صلصة الأفوكادو وحمرة الفلفل الأحمر والصلصة بلون الشوكولا، صدور الديك الرومي وأجنحته، ملوّثة بالبصل المبشور. كانت هناك، مصفوفة فوق خشبة للتقطيع، عجّة الذرة والأخرى المخلوطة بالشطّة، إلى جنب صفرة التامال الملفوف بأوراق ساخنة ورطبة، تنبعث منها أبخرة حياة الريف الرغيدة. موز مقلي، من الناضج، المنقّط -الذي سُحق بالضرب-، المقطّع في شرائح صغيرة بفرشاة النجارة. ومقلي البطاطا، وزوارق جوز الهند المحمّرة في الفرن، وآنية تحضير البانش حيث تطفو قشور الأناناس والليمون الأخضر وأوراق النعناع وزهر البرتقال في مزيج التكيلا والسيدرا الإسبانية، من تلك التي يشربونها هناك في أعراس الريف. «تفضّلي معنا!»، دعاها التشولو مندوثا. «ومن عمل كلّ هذا؟!»، سألت أوفيليا، وهي بعد مشوّشة محتدّة بسبب استيقاظها فزعة على صراخ الطبّاخة. «إلميرا، خدّامة الربّ وخدّامتك!»، ردّ الأب وهو يؤدي إشارة احترام بثني ساقيه، كما تفعل الفتيات المهذّبات في مدارس الراهبات الدومنيكيات الفرنسيات. همّت أوفيليا أن تركل الطاولة الزائفة وتفسد عليهم حفلتهم. لكنّ لفافة من تامال الذرة، مرفوعة بالشوكة، راحت تقترب من عينيها ثمّ تنزل نحو فمها. وحين أوقفها على مستوى أنفها، طرّى شعورٌ مفاجئ، صادر من داخلها، من أعماق داخلها، من نبض قلبها، وساقيها، وشلَّ ركبتيها وأجلسها على الكرسي. قضمت تلك اللفافة، فخفّ بدنها وعاد القهقرى ثلاثين عاماً. رأت نفسها ترتدي الجوارب البيض وتلفّ شعرها بورق شفاف، تجلس في باحة رحى الطحن والتمرهندي، فيتدلّى أمامها لُباب الشجرة البنّي، مصفوفاً في علبه الجلدية المقرمشة بلون القرفة، ليحمل إليها طعم الحصرم الحامض الحلو الذي يستدرّ من تحت لسانها لعاباً نسيته. وتذكّرت رائحة الجوّافة المتخمّرة الراجعة -عصير السفرجل والتوت المزيّف ذاك- المنبعثة من وراء السور،

حيث كان خنزير الخونغولوخونغو، ذو الشعيرات والخرطوم الطويل، يوزّع همهماته ويحرّك ألواح القرميد المكسورة ويدحرج علب صفيح قديمة صدئة. وتذكّرت الأبخرة التي تخرج من المطبخ الزاخر بالأواني والجرار والفخار والسيراميك الأسود، حيث يعلو صخب المضغ والعلك واللوك، بما يشبه صوت حذاء يضرب في أرض مبلّلة، جرّة تسقط، رقّاص ساعة يقرع، فوق عجينة الذرة البيضاء العطرة المزبدة. وبقرة «زهرة أيّار»، التي وضعت مؤخراً، وهي تحثّ عجلها على أن يسرّع جريان الحليب في ضرعها، والمنادي على العسل، هناك، في الشارع؛ وناقوس الدير، المزروع بين أشجار الأكي دنيا والكرز الأسود؛ وهذه الذرة، هنا -عمري سبع سنوات، وكلّ صباح أنظر إلى نفسي في المرآة لأرى إن نهدَ صدري أثناء الليل-، تتغلغل في مسامات جلدي. عندي سبع سنوات:

أيّتها القديسة ماريّا،
نجّينا من كلّ شرّ؛
احمينا، سيدتنا،
من هذا الحيوان المرعب!

وينشد الجميع الآن:

أخذت العذراء فأساً
لتحاول قتل الشيطان
لكنّ الشيطان، ذا القوائم الأربعة،
انحشر بين الأحراج

«أكل وحوش!»، هتفت الطبّاخة، وهي عند الباب، وقد وضعت يديها على خصرها. «إلى داهية، برلا سافاران!»[401]، صرخت أوفيليا، وقد توهّج

(401) Brillar Savarin (1755-1826): سياسي فرنسي. ومؤلّف أوّل كتاب في الطبخ (1825).

خدّاها من شراب التفاح الممزوج بالتكيلا و«الغاراپينيا» و«لانيوثا»، وراحت تجرّب هذا وتتذوّق ذاك، وتغمس الغرافة في «الغواكامولي»، وتنقع فخذ ديك رومي في صلصة التشيللي. وفجأة جلست، مدفوعةً بعاطفة غير منتظرة. جلست على ركبتي أبيها، قبّلته من خدّيه فعاودت شمّ رائحة تبغ وخمر ولوشن فرنسي، بشيء من النعناع وعرق السوس ومساحيق «ميني پنسون» -كلّ شيء أقلّ سنّاً، أكثر رجولة، شاب تقريباً- في عودة لقاء جميل مع الماضي. للمرة الأولى منذ أيام هضبة كراون ارتفع صوت الغرامافون، الذي بقي صامتاً بعد موت سلفستري البطولي. وها هي ذي الآن، تصدح منه، بصوت ينخفض ويحتضر حين يفقد خيط التدوير قوته، ألحان أسطوانات حصل عليه تشولو مندوثا: طائر الدرّاج، مقطوعة ليردو دي تيخادا[24] وروح ريفيّة والطبل وزهور سود ولآلئ فمك، وميلونغيتو، (يا زهرة الفخامة والمتعة، كم أساء الرجالُ إليك! وها أنتِ اليوم مستعدة لأن تهبي أيّ شيء لتلبسي ثياب البركال!)؛ و(اسمع القصّة التي حكاها لي ذات يوم دفّان ناحيتنا العجوز: قصّة عاشق سلبه الموت حبيبته)؛ و(وداعاً، أيّها الفتية، يا رفاق عمري)؛ و(كان يذهب ليلاً إلى المقبرة، ليرى هيكل حبيبته، يزيّن جمجمتها بالأزهار، ويملأ فمها الرهيب بالقبلات)؛ و(وداعاً، أيّها الفتية، يا رفاق عمري، يا متعتي العزيزة، متعة ذلك الوقت)؛ و(يوم تحبّينني، سيكون أكثر إشراقاً من يوم حزيراني، مع موسيقا بيتهوفن، يغنّي مع كلّ زهرة)؛ و(مرة أخرى، ومرة أخرى، وأخرى، المتعة الحبيبة، متعة تلك الأيام، ووداعاً وداعاً، نجمة ليلي، يغني الجندي، عند أسفل نافذة)[402]. الآن، إلميريتا وأوفيليا، متعانقتين، تغنّيان في ثنائيّ -أولى وثانية- حريصتين على المسافة الثالثة والسادسة، على

(402) كلمات وعناوين أغاني تانغو متنوّعة ومتداخلة.

دندنة كان التشولو يؤدّيها شفوياً على غيتار وهميّ. وحين حلَّ الليل، بين شراب وغناء وأكل، قرر المستشار الأوّل أن يستقر نهائياً في شقة سلفستري، ليدخل ويخرج من سُلّم الخدمة: «هكذا سأحظى باستقلاليّة أكبر». ولتُقِمْ أوفيليا حفلاتها في الطابق الأرضي مع الشباب، ولتتعايش مع تلك الكوادر الفظيعة التي تفقده صبره - فضلاً عن أنّه لا يفهمهم ولن يفهمهم. أمّا لامايورالا فستبقى هنا، في الحجرة المجاورة، لترافقه ولتعتني بأموره. ووافقت البنت: إلميريتا بنت رائعة ومتفانية وطيبة - «أكثر حشمة وأمانة من كثيرات من صديقات تلك المدام، المدام التي ما عادت ترغب في رؤيتك منذ أن أصبحتْ أميرة». ولكن، يجب إلباس فتاة الزامبا على نحو آخر. وهرولت أوفيليا إلى خزاناتها لتجلب لها ملابس ما عادت تستعملها. أمّا لامايورالا فقد راحت تشيد بنوعية ما ترى، لكنّها كانت تنظر إلى ما يعرض عليها بشيء من الريبة: تقويرة الصدر هنا تبدو غير محتشمة؛ و فتحة التنورة هناك، تبدو فاضحة. قالت وهي ترى طيّات بدلة من تصميم «ردفيرن»: «أنا لا ألبس ما يلبس الرجال!». وأمام بدلة سوداء من تصميم «پاكين»: «هذا ينفع للمآتم». وأخيراً وافقت، وقد بدت عليها الفرحة فجأة، على موديل من تصميم «پول پواريه»، فكرته مأخوذة من تصاميم «ليون باكست» لسيمفونيّة شهرزاد، التي تذكِّر بتنّورات القرية وبلوزاتها المزهرة. وفي تلك الليلة، وفي فعل بدا فعلاً تكريسياً للمنزل الجديد، ثُبّتتْ حلقاتٌ في الجدران، وشُدّتْ حبال، وعُلّقت شبكة المستشار الأوّل - «عفواً: الإكس»، صحّح البطريرك، مستسلماً لمتعة الهدهدة الأولى.

وسرعان ما تعرّفت لامايورالا على موقعها ضمن محيط واسع مركزه قوس النصر وحدوده النهر - نهر لم تعبره قطّ، لأنّ الأشخاص الذين يكوون كثيراً ويطبخون كثيراً قد تصيبهم الدوخة حين يعبرون جسراً. وجدت كنيسة في ساحة انتصب فيها تمثال من البرونز، لفارس، قال لها

التشولو مندوثا، إنّه كان شاعراً بارزاً وصديقاً لإمبراطور البرازيل بيدرو، وبدا التمثال وكأنّه يتطلّع إلى ما لا نهاية. خلف كنيسة قديس يقال له سان أونورتو لا أدري كم رقمه، هناك مسمكة يباع فيها حبّار وجمبري وبطلينوس مشابه للذي يباع هناك، ومحار شبيه بالموجود في شاطئ «لا بيرونيكا»، تخرج من الرمل، وكأنّ حجر مغناطيس يجذبها، حين تنتبه إلى أنّ امرأة راغبة في رجل جلست عليها. كانت إحدى الدكاكين القريبة تبيع طناجر وقدوراً من الفخار. وصعد في رأسها أن تحوّل مدفأة العليّة إلى موقد بلدي، فراحت تسرق طابوقاً من موقع للبناء -تأتي كلّ يوم بالطابوق تحمله اثنين اثنين في الكيس المعدّ لحمل الليمون والثوم والبقدونس- وتغذّيه بحطبٍ تجلبه، في حزم صغيرة، من بو١-شاربون مسيو موزارد، الذي صارت تتردّد عليه كثيراً، فقد كانت مولعة بنبيذ الموسكاديه والغيلاك الحلو - وهما نوعان من النبيذ الذي «يقوّي بدنها»، كما تقول... وبدأت تسكن هناك، تحت سقف من الأردواز، في مساحة وضمن ساعات عاشتها في مكان آخر وفي زمن آخر. كان صباحها يضوع برائحة قهوة قويّة، صفّتها بجوارب من الصوف، وحلّتها بدبس القصب الذي كانت تحصل عليه من سوق في «مادلين»، إلى حيث صارت تذهب من دون أن تخشى أن تضيع، فقد تحققت من أنّها إن مرّت من تحت قوس النصر، في المركز، فسترى من بعيد حجراً منتصباً، تسير نحوه، ثمّ تنحرف يساراً لتجد البناية التي فيها أعمدة كثيرة والتي أمام مذبحها قدّمت نذر التُّساعيّة بمناسبة شفائها. ثمّ يأتي وقت انتظار على أرجوحتها الشبكية، تتناول أثناءه جرعة من العرق وتدخّن هابانو روميو وجوليت، إلى أن تسمع صوت «اقتربوا! تعالوا!»، فوق لوحتين عريضتين من خشب الجوز، موضوعة على مساند خشبيّة، صُفَّ عليها الفطور الريفي من بيض بصلصة الفلفل الحار والفاصولياء المقليّة وتورتيا الذرة وشرائح الخنزير الجبن الأبيض، معمولة بالمهراس

وموضوعة في أوراق أيّ شيء -شرط أن يكون أخضر- إن لم يتوفّر ورق الموز. ثمّ تحلّ ساعة قليلولة الضحى التي يقطعها في المنتصف، نحو الساعة الحادية عشرة، التشولو مندوثا حين يأتي بصحف الصباح. لكنّ تلك الصحف لم تكن صحف الصباح الباريسيّة، بل هي صحف أعالي البحار، التي تعبت من السفر والتنقّل، البعيدة عن أحداث آخر ساعة وعن تواريخ الحاضر. ما عادت لو فيغارو ولا لو جورنال ولا لو پتيت پاريسيان تصعد إلى ذلك الطابق، بل راحت تفسح للميركوريو [عطارد] والموندو [العالم] وأولتيماس نوتيثياس [آخر الأخبار] التي تصدر هناك، أو الفارو [المنارة] التي تصدر في قرطبة الجديدة أو الثنتينيلا [الحارس] التي تصدر في «پويرتو أراغواتو». بدأ المستشار الأوّل ينسى ألقاب رجال السياسة هنا، فما عاد يعنيه كثيراً ما يجري في أوروبا -وإن جدّد اغتيال ماتيوتي[403] مؤخراً إعجابه بالفاشية الإيطاليّة، وبموسوليني، الذي سيقضي على الشيوعية العالمية-، وما عاد يهتمّ إلا بما يمكن أن يحدث هناك (ارتقى لويس ليونثيو، وهو يتلقى التحية الواجبة لقائد التصحيح وحامي الحرية، ويدخل دخولَ المنتصر، على ظهر حصان أسود -وإن لم يلبس الجزمة ويرتدي بدلة الدريل الأبيض التي ارتداها دائماً في الجامعة- درج القصر الجمهوري، الذي كان يصفه بـ«إسطبل أوخياس»[404]، بخطو الحاكم وجلاله، متجهّم الوجه، قليل الإيماءات، ينظر ببرود -فيه شيء من تهديد مبطّن ينبعث من شبكية عينيه- نحو من يبالغون في تهنئته. ما أكثر ما يتأملون ممّن -بعد أن عدّل رواتب الموظّفين الحكوميين، بمعونة قرض أميركي

---

(403) Giacomo Matteotti (1885–1924): سياسي اشتركي إيطالي. اختطفه الفاشيون وقتلوه.

(404) كانت أغنام الملك أوخيّاس، ملك إيليا، لا تمرض، لذلك فقد جمع في إسطبلاته أكبر قطعان الماشية.

سريع- انصرف، برهبانيّة واعتدال ودأب، إلى معالجة المشاكل الوطنية. اعتكف أسابيع وأسابيع في مكتبه، صامتاً، جادّاً، شارداً، منكبّاً على دراسة الميزانيات والإحصائيات والوثائق الحكومية، مستعيناً بكتب متخصصة ودوائر معارف وتقارير ومذكّرات، بدلاً من استشارة المتخصصين، الميالين إلى تجزئة المسائل - إلى تقسيم المجموعة تقسيماً ديكارتياً يحرمنا، عند مضاعفته، من رؤيته رؤية شاملة في مجموعه. وكان الجميع ينتظرون، بترقّب ولهفة، نتائج عمله. كان الناس يتحرّكون في الحديقة المركزية، كلّ ليلة، بخطوات لطيفة وئيدة، يتكلّمون بصوت خفيض - يشيرون إلى النافذة التي تبدو الأنوار منها مضاءة حتى ساعات الفجر، النافذة التي يجري من ورائها أمرٌ جلل. كان الجميع بانتظار أن يتكلّم حكيم «قرطبة الجديدة». لن يلبث أن يتكلّم. وأخير تكلّم، أمام حشد كبير التأم في الملعب الأولمبي. كان خطابه شلالاً يتدفّق -بلا توقف ولا تنفّس-، قاموساً مفرّقاً ومتواصلاً، متناثرَ الأوراق، منثورَ الكلمات، ثورةً من المصطلحات، حشداً من المفاهيم والأفكار، تتابعاً سريعاً من الأرقام والصور والأفكار المجردة، سيلاً سريعاً من كلمات مرسلة إلى الجهات كافةً، من بنك مورغان إلى جمهورية أفلاطون، ومن اللوغو إلى الحمّى القلاعيّة، ومن جنرال موتورز إلى راماكريشنا، خلص بعد ذلك إلى القول -على الأقل، هكذا فهمه البعض- إن من الزواج الروحي بين النسر والكوندور، ومن تخصيب أرضنا المعطاء بالاستثمارات الأجنبيّة، في هذه الأميركا، المتطوّرة بالدفع القويّ الذي سيأتينا من الشمال [كنّا على أعتاب قرن كان له أن يكون قرن التكنولوجيا لقارة فتيّة]، على ضوء روحانية غريزيّة هي روحانيتنا، ستتحقق توليفة من الڤيدانتا ومن البوبول ڤو[405] مع

(405) Vedanta وPopol Vuh: كتابات مقدّسة هندوسيّة ومن حضارة الكيتشا في أميركا اللاتينيّة.

حكاية المسيح-الاشتراكي-الأوّل، الاشتراكي الحقيقي الوحيد، البعيد عن ذهب موسكو والتهديد الأحمر، بإزاء أوروبا محتضرة، منهكة، خالية من النسغ ومن النبوغ -وسيكون مناسباً أن نتحرّر من تعاليمها العقيمة- الذي أعلن الفيلسوف الألماني أوسفالد شپينغلر[406] عن انهيارها الحتمي قبل وقت ليس بالطويل. في بداية عصر جديد، عصر تقود فيه نظرية شمال-جنوب ونقيضتها، النظرية المضادة، بعد أن تكمّل إحداهما الأخرى، انتماءً وعلميّة، إلى بناء إنسانية جديدة، جاءت الألفا-أوميغا، حزب الأمل، ردّاً على أيام العاصفة والعنفوان[23]، وعلى الدوافع السياسيّة، للأجيال الجديدة، لتؤشر أفول الدكتاتوريات في هذه القارّة وتقيم ديمقراطية أصلية وحقيقية، حيث تتوفّر حرية العمل النقابي، ما دام لا يتقاطع مع الانسجام الضروري بين رأس المال والعمل؛ ويعترف بالحاجة إلى وجود معارضة، شرط أن تكون معارضة متعاونة [منتقدة نعم، ولكن دائماً نقداً بنّاءً]؛ ويكفل حق الإضراب، شرط ألّا تشلّ تلك الإضرابات الشركات الخاصة ولا المصالح العموميّة؛ ويجاز الحزب الشيوعي، لأنّه موجود فعلاً في بلدنا، شرط ألّا يعرقل عمل المؤسسات ولا يدعم صراع الطبقات.. وانتهى الخطيب من خطبته بـ«عاش الوطن!»، بعد أن أكثر فيها من «لكن» و«مع ذلك» و«على الرغم مما قلت» و«شرط أن»، حتّى أنّ المستمعين أحسّوا وكأنّ الزمن لم يتغيّر، وكأنّهم يعيشون في الماضي، في زمن متوقف، لا تتحرّك فيه الساعات. ونزل الدكتور المعتدل من المنبر تاركاً وراءه فراغاً ذهنياً تامّاً -دماغاً خاوياً، ذهولاً غير محدّد- في نفوس من استمعوا إليه. ومرّت الأشهر اللاحقة حيرة في حيرة وارتباكاً في ارتباك. ولم ينته الرئيس المؤقّت -ليس مؤقّتاً كثيراً- من اتخاذ قرار.

(406) Oswald Spengler (1880-1936): فيلسوف ألماني ومؤلّف «انحدار الغرب» الذي يعرض فيه نظريته حول سقوط الحضارات.

فكل مبادرة يطرحها عليه معاونوه كانت تبدو له «مبكرة»، وكلّ إجراء يقتضي تطبيقاً فورياً كان يبدو له «غير مناسب» أو «متعجّل» - فنحن «لسنا مستعدّين»، «لم يحِن الوقتُ بعد»، «جماهيرنا لم تنضج بعد»، إلخ. وبعد أشهر قليلة حلَّ الشكّ واللامبالاة والاستمتاع يوماً بيوم واللوتو والغيتار والخشخيشات، في قلوب من انتظروا طويلاً، بينما بدأ الكلام يدور عن استياء وتململ في صفوف الجيش: «انقلاب عسكري على الأعتاب -تنبأ المستشار الأوّل-: لن يكون بدعة. وكما يقول المثل الشعبيّ: "ما أقلّ ما يؤثّر إضافة خط على جلد نمر!"». «ولكن، يقولون الآن إنّ الانقلابيين هذه المرة هم من الضبّاط الشباب»، قال التشولو. «بدل الحربة، رشاشة -قال جبّار الأزمنة الخالية-: ولا فرق». ولكن كان هناك شيء جديد في الأجواء: صارت جريدة ليبراثيون [التحرير]، وهي الآن مجازة قانوناً، تصدر كلّ يوم في ثماني صفحات - على الرغم من أنّ مطبعتها تتعرّض، من حين إلى آخر، إلى مداهمات قوات شبه رسمية تابعة للألفا-أوميغا، خرّبت علب تنضيد الحروف وقلبت صفائح التجربة وضربت العمّال. ناس لا يشكّ في انتمائهم الشيوعي يشاركون الآن في مخططاتهم، ويوقّعون أسفل مقالاتهم. كانت دار النشر الباريسيّة فرانسيس لابيرت، المختصّة بالموسيقا، قد تلقّت ألف نسخة من نشيد الأمميّة الذي كان ينشد هناك، مترجماً إلى الإسبانية، وقد نُشر مؤخراً في المكسيك في إحدى المجلّات -الماچيتي [الساطور]- التي كان ينشرها دييغو ريبيرا...)[407]. ومرّت الشهور وهو يقرأ صحف شباط في نيسان وصحف تشرين في كانون، مستحضراً حوادث مضت ومستذكراً شخصيات اختفت: حضور أمس، أمس بعيد، مزروع في اليوم، متجسّداً في جسد يسكن بيننا، لكنّه جسد يتمزّق، فقد بات واضحاً أنّ

---

(407) Diego Rivera (1886-1957): مكسيكي من أعلام المدرسة الجدارية في الرسم. وهو زوج فريدا كاهلو.

صورة \الإكس، القويّ الشامخ، بدأت تتراجع مع مرور الوقت، المسرع في نظر من يعيشه، حتّى بات الوقت الممتد بين عيد ميلاد وميلاد، بين استعراض عسكري في 14 تموز واستعراض عسكري آخر في 14 تموز اللاحق، يتقلص، وصارت الراية الكبيرة التي ترفرف تحت قوس النصر، تبدو وكأنّها لم تبرح مكانها. تزهر أشجار الكستناء وتسقط أزهارها، وتعود لتزهر ملقيةً التواريخ في سلة المهملات، وصار على خيّاط السيد الرئيس أن يعود المرة تلو الأخرى إلى شارع «تيلسيت» ليكيّف ما فصّل ويعدّل ما خاط على جسم متهالك مستهلك يزداد هزالاً. باتت سلسلة الساعة تلتفّ فوق صدرية فقدت علوّها وانتفاخها، بينما الكتفان، وكانتا، من قبل تستقرّان ثابتتين راسختين، باتتا تنطويان على ترقوتين منفصلتين عن شحم الصدر، كما لاحظت لامايورالا، التي تدلّك، ساعة الحمّام، صدر مستشارها الأوّل بالإسفنجة وكيس الحمّام. ولأنّ ذلك الهزال المتنامي أثار قلقها، ولأنّها ما كانت تؤمن بأدوية القارورات تلك التي يبيعونها عن طريق رسالة تمليها -أو بالأحرى تتمتم بها- على التشولو مندوثا، فقد نجحت في أن ترسل صديقة لها من «پالمار دي سيكيري»، حيث لا توجد دائرة للبريد، طرداً من الأعشاب الطبيّة - هو نفسه الذي كانت لامايورالا ذاهبة اليوم لاستلامه من مكتب الطرود البريدية في شارع «أيتين مارسيل»، بعد أن سافر على ظهر حمار وبغل وحُمل في دراجة هوائية وأوتوبوس وفي عدد من القطارات وباخرتين وسكة حديد. رافقها رئيسها السابق وسفيرها السابق، فقد كان لزاماً تعبئة الكثير من الأوراق والتوقيع عليها، وذلك شأن لا يقدر عليه إلا من يعرف القراءة والكتابة - وبالفرنسية، وهذه هي المشكلة. لفّوا الطرد بشال وتدثّروا ثلاثتهم من البرد، على الرغم من أنّ السماء كانت صافية والشمس ساطعة. رأت إلميرا للمرّة الأولى أبراج

كنيسة نوتردام. وحين علمت أنّها كنيسة باريس الكبرى، أصرّت على زيارتها لتوقد شمعة للعذراء. توقفت مشدوهة قبالة البناء: «ما أقوله أنا: هذه هي الأشياء التي يجب أن نشيدها في بلداننا لنجذب السائح!». ذكّرتها الرسوم على القوصرة وعلى الأسكفات بمنحوتات بيدرو إستاتوا، مواطنها من قرطبة الجديدة. «ليست الزامبا بلهاء»، لاحظ الإكس، الذي لم يتنبّه، من قبلُ، إلى ذلك الشبه في الطراز بين هذا وذاك، ولا سيّما في وجوه الشياطين والحصان ذي القائمتين الأماميتين المرفوعتين والجنّ ذي القرون والحيوانات الجهنميّة ويوم الحساب. ثمّ دخلوا مندهشين في الجناح - جناح يتلألأ بالمزجّجات، وإن عكست صور الزائرين، القليلين منتصف عصر ربيعي مزيّف، على شكل أخيلة معتمة من الضوء المعاكس. جلسوا للاستراحة عند نافذتي التصالب، بين الصحن والجناح. في الطرف الآخر من صف الكراسي، جلس شابٌّ يرتدي معطفاً طويلاً وشالاً، يتأمل المشهد باهتمام وتعمّق. «متعبّد»، قالت لامايورالا. «هاوي فنّ»، قال التشولو مندوثا. «تلميذ فنون جميلة»، قال المستشار الأوّل. وبصوت خفيض، ولتسلية الزامبا، بدأ يحكي لها، كما تحكي الجدّة لحفيدتها، القصص الحقيقية التي جرت في ذلك المكان: قصّة رئيس الشمامسة الذي أُغرم بغجريّة كانت ترقّص ماعزة بيضاء على وقع دفّها (إلميرا، وهي طفلة، كانت قد رأت غجراً من هؤلاء، لكنّهم ما كانوا يرقّصون ماعزاً، بل دببة)؛ قصة الشاعر المتشرّد الذي حرّض جمعاً من المتسوّلين على مهاجمة الكنيسة («حين يحدث هياج فالمتضرّر دائماً هي الكنائس!»، قالت إلميرا، وقد تذكّرت حالة ما كان لها أن تتذكّرها)؛ قصّة قارع الأجراس الأحدب الذي كان يعشق الغجرية أيضاً («الغجر ذوو الحدبة عاشقون جداً، والنساء يلاحظن ذلك، لكنّهنّ لا يطمعن في أكثر من أن يمسسن حدبتهم، لأنّ ذلك

جالبٌ للسعد»)؛ وقصّة الهيكلين العظميين اللذين ظهرا متعانقين، وربما كانا هيكلي أزميرالدا وقارع الأجراس («شوهدت حالات، مثل تلك التي تشير إليها أغنية دفّان الناحية العجوز، التي لدينا أسطوانتها»). في تلك الأثناء علت أنغام الأرغن صاخبة. ما عادوا يسمعون بعضهم بعضاً. «هيّا بنا. لنخرج!»، قال الإكس وقد تذكّر نبيذ «ألساثيا» الممتاز الذي يقدّمونه في مقهى الناصية، هناك سيجدون دفئاً أكثر. وعلى كرسيّه ذي المسند، ظلَّ «المتعبّد» -كما وصفته إلميرا- مستسلماً لتأملاته العجيبة. كان ذلك لقاءه الأوّل بالطراز القوطي، الذي ارتفع أمامه من الناحيتين، في عقود وزجاج معشّق، واضحاً شامخاً، لا لبس فيه ولا غموض: إلى جانبه تنهض عمارة بدت بدائية وعاديّة، ملتصقة بالأرض، راسخة، متجذّرة، حتى في ما يتصل بقوانين القياسات والأبعاد وقواعدها الذهبيّة. كان ذلك البناء، المنطلق نحو الأعلى، ممجّداً السموّ ومعبّراً عن جنون الارتفاع، يصغّر في عينيه واجهات البارثينون، التي ما هي إلا نسخة مضخّمة معظّمة من جمالون الكوخ القديم، ذي العمود المضلّع الذي كان تحوّلاً على طريقة التناسب، من الرواق -أربعة جذوع، ستة جذوع، ثمانية جذوع- الذي يسند الأسكافات والعوارض المعمولة من خشب الأرز، بأبوابها الريفية القديمة. كانت القرابة الجينية تدوم في ما هو إغريقي وما هو روماني، في ما هو أرضي وما هو نباتي. من كوخ مربّي الخنازير أوميوس إلى معبد فيدياس، كان الطريق مفتوحاً سالكاً، في أسلوب من التنميطات المتتابعة. أمّا هنا، فالعمارة تصبح اختراعاً وإلهاماً وإبداعاً، في اقتصاد واضح للمواد، لا مثيل له: حجارة لا تمتثل لقانون الوزن والجاذبية، وعقود لا صلة لها ببنية الشجرة، مع شموس نوافذها النجميّة المدهشة: شمس الشمال وشمس الجنوب. وبين الشمسين يقف من يتأمّل التصالب، بين الصحن والجناح،

أسيراً، بين حُمرة غروب متوهّج وسمفونية الزجاج الشمالي الناسك الوقور. في جهة الشمال، الأمّ، تقيم بلاطاً مؤقتاً -بلاط الشفيعة- لأنبياء وملوك وقضاة وبطاركة. أمّا من ناحية الجنوب، فيقيم الابن -بدم العذاب-، ملك بلاط خالد، لرسل وحواريين وكهنة اعتراف وشهداء وعذراوات عاقلات وعذراوات مجنونات. كل سرّ الولادة والموت وبعث الحياة الأبدي، سرّ اختلاف الفصول، يوجد في الخط المستقيم، الموهوم، غير المرئي، الممتد بين دائرتي النجوم الواسعة المركزيتين، المفتوحتين في نشيد مريمي من تراكيب وبنى ساقطة من الأرضيّة، وكأنّها معلّقة، بلا وزن، من أجراسها وتماثيلها. ورفعت ماسورة أرغن، من مكمنها المعتم، فجأة، موسيقاها المنتصرة. ملحدٌ، لأنّ تساؤلاته الروحيّة لا تبحث عن أجوبة لها في مجال الدين؛ غير مؤمن، لأنّ هذه هي صفة جيله، المعدّ لذلك بسبب الروح العلمويّة التي ورثها من الجيل السابق له؛ معادٍ للسياسيين والتحالفات غير الشريفة التي طالما نقلت الكنائس، في عالمه، إلى حقل خصومه، وأبقت، باسم الدين، على نظام مزيّف مزوّر يأكل نفسه، مع ذلك، فقد كان متأمل شموس الكريستال مدركاً لديناميكية الأناجيل، فهو يقرّ بأنّ نصوصها كان لها، في وقتها، فضلُ الحدّ من أثر الطواطم والجنّ المتمرّد والكيانات الغامضة وتهديدات الشهب والنجوم وعقّافات العرّافين والخضوع لإديس مارس[408] وللآجال التي لا تقبل التأجيل. ولكن، إذا كانت صحوة ضمير جديدة -دراما الوجود موضوعة داخله وليس خارجه- قد حملت الرجل على أن يجري تحليلاً لنفسَه وفق قيم تسلبه من مخاوفه الرئيسة، فهو ما زال مارداً ضائعاً، محكوماً من قبل أولئك الذين أقاموا، وهم مثله، غير مخلصين لوعودهم الأوليّة، طواطم جديدة وعرّافين جدداً

(408) إديس مارس من أيام التقويم الروماني يوافق 15 آذار. كان الرومان يحتفلون به يوماً لتسوية الديون.

ومعابد من دون مذابح وعبادات من دون مقدّسات ومحرّمات، فكان ضرورياً الإطاحة بها. ربّما اقترب يوم النفخ في الصور معلناً قيام الساعة، ولكن، من سينفخ الصور هذه المرة لن يكون إسرافيل، بل من سيقفون في ذلك اليوم المشهود للحساب. إنّه زمن تحديد بروتوكولات المستقبل وإقامة محكمة للنظر في نظام توزيع جديد. نظر الشاب إلى ساعته. الرابعة. القطار. استغرق مرّة أخرى في الجمال التام الذي يحيط به، وإن حلّت ساعة انصرافه إلى شأنه. «حين يكون كلّ شيء في مكانه، أشعر بأنّي فائض عن الحاجة»، فكّر، وهو يخرج من نوتردام، من رواقها المركزيّ - رواق نشور الموتى. ما زال لديه وقت ليتناول نبيذ «ألساثيا» الممتاز، الذي يقدّمونه في المقهى الذي ترك فيه حقيبته في عهدة أحد غارسوناتها. عبر الشارع ودخل في الحانة، من دون أن يلاحظ أنّ ثلاثة أشخاص -امرأة ورجلين-، جالسين إلى طاولة في القاع، كانوا ينظرون إليه مندهشين. بعد أن دفع مشروبه، عاد «الطالب» إلى الشارع وأوقف سيارة أجرة. «إلى محطة الشمال، پليز!».. كان عنده موعد في المكتب، حيث اجتمع العديد من المندوبين إلى «المؤتمر العالمي الأوّل المناهض للسياسة الكولونيالية الإمبرياليّة» الذي ستبدأ أعماله غداً، العاشر من شباط، في بروكسل، تحت رئاسة بربوس[409]. كان حاضراً معهم الكوبي خوليو أنطونيو ميّا[410]، الذي كان قد تعرّف عليه قبل ساعات قليلة، برفقة جواهر لال نهرو، مندوب حزب المؤتمر الوطني الهندي. «ها قد دخل القطار في السكة»، قال أحد

---

(409) Henri Barbusse (1873-1935): كاتب وصحفي وناشط شيوعي فرنسي. ترأس المؤتمر الأوّل للمؤسسة اللاوطنية الدوليّة التي كانت تدعو، من بين ما تدعو إليه، إلى التخاطب بلغة الإسبرانتو الدولية.

(410) Julio Antonio Mella (1903-1929): زعيم طلابي وثوري شيوعي كوبي. اغتيل في المكسيك.

ما، وهو يشير إلى الرصيف رقم 8. حمل الثلاثة حقائبهم الوسخة وصعدوا إلى عربة من عربات الدرجة الثانية. انزوى الهندي قرب النافذة واستغرق في معاينة أوراقه، بينما انشغل ميّا بالوضع السياسي في بلدنا. «أسقطنا دكتاتوراً -قال الطالب-: لكنّ المعركة ما زالت قائمة، لأنّ الأعداء ما زالوا موجودين. أُسدلت الستارة على فصلٍ طويل. وها نحن الآن في الفصل الثاني، الذي، وإن تغيّر ديكوره وإضاءته، فهو يشبه الأوّل». «نحن نمرّ الآن بما مررتم أنتم به»، قال ميّا. وحدّثه عن الدكتاتور المناوب الجديد، دكتاتور كوبا، الذي هزمه -نعلم بذلك- في معركة خاضها وهو في السجن، عن طريق إضراب عنيد وطويل وذكي عن الطعام، حتّى أجبر عدوه على أن يعيد إليه حريته، ليرحل بعد ذلك إلى المكسيك، حيث يواصل نضاله. ثمّة شبه كبير بين خيراردو ماتشادو[411] ومستشارنا الأوّل، في الهيئة والسياسة والأساليب، لكنّه لم يكن مثقفاً، لذلك لم يُقِم معابد لمنيرڤا، كما فعل معاصره أسترادا كابريرا[412]، كما لم يكن متفرنساً، كما الكثيرين من دكتاتوريّي القارّة و«طغاتها البارزين». كان يرى أنّ الحكمة العليا موجودة في الشمال: «أنا إمبريالي -كان يقول، وهو ينظر، متحمّساً، شطر واشنطن-: صحيح أنّي لستُ مثقفاً، لكنّي وطنيّ». مع ذلك، فقد امتلكَ من الحسّ الفكاهي العفوي أنّه أبلغ، ذات مرّة، عن طريق صحفه، بأنّه «يدرس مسرحيات إسخيلوس التراجيدية». وبأنّه «مرشّح مناسب للانضمام إلى أسرة الأرتيديين»، قال الطالب. «وقد بات، مما نرى، ينتمي فعلاً إلى

(411) Gerardo Machado (1871–1939): عسكري كوبي شارك في حرب الاستقلال. وصل إلى الرئاسة عن طريق الانتخابات عام 1925، لكنّه حاول تعديل الدستور، وبطش ونكّل ليواصل الحكم، حتى أُجبر على الاستقالة عام 1939.

(412) Manuel José Estrada Cabrera (1857–1924): محام وسياسي من غواتيمالا. حكم بين عامي 1898 و1920. حدّث البلاد لكنّه حكمها بالحديد والنار. وقد أُقيل عن منصبه بعد أن عدّه برلمان بلاده غير مؤهّل عقلياً للحكم.

الأسرة»، قال ميّا. «لن يلبث أن يأمر بمصادرة الكتب الحمر»، قال الطالب. «لقد أمر بمصادرتها»، قال الكوبي. «يسقط واحد هنا وينهض آخر هناك»، قال الطالب. «منذ مئة سنة وهذا المشهد يتكرّر». «إلى أن يتعب الجمهور من مشاهدة العرض نفسه». «يجب انتظاره». فتحا حقيبتيهما الجلديّة -كلتاهما مكسيكيّة، مع تقويم أزتيكي منقوش على الغلاف- وتبادلا نصوص تقريريهما ومحاضرتيهما لقراءتها في الطريق. كان نهرو، في ركنه، مستغرقاً في عالمه الداخلي، وقد وضع بعض الأوراق على ركبتيه، متخفّياً وراء عينيه الواسعتين. خيّم صمت طويل. كان القطار يقترب من الحدود في ليل -ليل مضاعف- مناجم الفحم. «كول، كول»، قال نهرو، من دون أن يفهم الآخران إن كان يشير إلى الفحم أم إلى البرد -لخلطٍ مفهوم بين coal وcool- فقد كان البرد شديداً في عربة الدرجة الثانية تلك، برد يفوق قدرتهم على التحمّل، وهم القادمون من بلاد دافئة. وعاود الهندي نومه القلق المتقطّع، إلى أن وصل القطار إلى بروكسل.

واحد وعشرون

هؤلاء المخبولون الذين لا ينفكّون يؤكّدون أنّهم ملوك، في حين أنّهم فقراء جدّاً، وأنّهم يلبسون ثياباً موشّاة بالذهب والأرجوان، في حين أنّهم في غاية العري[413].

ديكارت

مكتبة
t.me/soramnqraa

«منفيّ».. «مُبعَد».. «متغرّب».. «هارب».. «فارّ».. «مُطارد».. «ما أعرفه هو أنّه كان في الكنيسة -قالت لامايورالا-: والشيوعيون لا يذهبون إلى الكنائس، ولا حتى في الأسبوع المقدس». عاودوا ضرب أخماس في أسداس: «منفيّ».. «متغرّب».. «فارّ».. «ربّما نادم».. «مرتدّ».. «أزمة روحانيّة».. «انقلب على جماعته».. ولم يكن لهم من حديث غير هذا طوال أيام في شارع «تلسيت»، بانتظار أن تصل الجرائد من هناك -جرائد شباط في نيسان- في سفنهم البطيئة والخاصة، سفن الشحن، في لفافات من ستة أعداد مضغوطة، وعليها طوابع تحمل صورة البركان «توتيلار». لأنّ الصحف هنا، بالطبع، لم تقل شيئاً عن الطالب، فهو هنا شخصيّة بلا

(413) «التأملات في الفلسفة الأولى» Méditations Métaphysiques، ترجمة: عثمان أمين، ص73.

وزن ولا خطر. وسمعنا أخيراً، من جريدة الفارو، التي تصدر في قرطبة الجديدة، وكنّا بلغنا شهر أيار، بخبر مؤتمر بروكسل العالمي، الذي حضرته «الرابطة الفلّاحية الوطنية المكسيكيّة» و«الرابطة الأميركية المناهضة للإمبرياليّة»، والتي بات لها فرع في بلدنا. «هكذا بات كلّ شيء واضحاً»، قال التشولو مندوثا. «تفاهات -همهم الإكس-: الإمبريالية الآن هي أقوى من أيّ وقت مضى. لذلك فإنّ رجل أوروبا القوي الآن هو موسوليني». وأزهرت أشجارُ الكستناء من جديد وعادت الأحاديث، في العلّيّة، إلى مواضيعها المعتادة. دار الحديث، تحت سقفها، عن «تلك الأيام». واكتست أبسط الحوادث، وقد وضعت في منظورها وبعدها، معاني أبرز وقيماً أعلى وتفرّداً أخصّ. وباتت عبارة «هل تتذكّر؟»، من مفاتيح الأسرار المقدّسة اليوميّة لاستحضار الأرواح والأشياء الميتة التي توضّح آليّة، غالباً ما تكون سرّيّة، لماضٍ متجدد، مأخوذ من سياق بعيد، والمجيء بها إلى هذه الأنحاء. وفجأة، وبعد أن انبعث النشاط في ذاكرته المزدحمة، كشف البطريرك حيثيات، كانت حتى تلك الساعة خفيّة، لبعض الأحداث الغريبة أو الحوادث الصغيرة، التي تزيح الحجاب عمّا كان من قبلُ مدعاةً لتكهّنات وتساؤلات تنفخ في روح الخفايا والأسرار. وكشف الإكس النقاب، كما يكشف الدرويش الساحر والحاوي المشعوذ عن حيلهما وتقنيات شعوذتهما ومعجزاتهما، بعد أن شاخا وعجزا ونزلا من خشبة المسرح، عن حادثة إصدار عملة من دون غطاء، بقصد إنعاش الاقتصاد الوطني؛ وتذكّر قضيّة نوادي القمار، التي أنشأتها الحكومة، حين أدخلت أوراق لعب «مضروبة» (كانت شركة أميركية تصنعها بخلفية عليها علامة لا يفهم دلالتها إلا الخبراء) في مراهنات تجري بالدولار الأميركيّ والجنيه الإسترلينيّ، بقصد سحب الأموال المكنوزة في البيوت، على هيئة أونصات

ذهب أو بيزوات فضّة. وتذكّر حادثة ماسة الكابيتول، تلك الماسة المثمّنة، التي ليس لبريقها نظير، والتي اقتُنيت بتكليفٍ رسمي لكي تؤشّر، بعد أن ثُبِّتت في رصف الأرضيّة، أسفل تمثال الجمهوريّة، النقطة صفر لجميع طرق الأمّة - سرقتْها ليلاً يدٌ خبيرة، كما ذكرت الصحف، تنتمي إلى عصابة دوليّة أو شرذمة من الفوضويين أو الشيوعيين، وهم ماهرون في هذا النوع من الأفعال. وتضحك إلميرا وهي تستمع إلى القصّة: «أرسلني هنا[وتشير إلى البطريرك]؛ كلّفتُ صاحبتي خوليانا بمشاغلة الحارس، وأنا [حركة] بإزميل من تلك التي يبيعونها في محلّات العُدد في «مونسرّات»، ومطرقة خبّأتها في صدري، بين ثدييّ، رفعتُ الماسة وحشرتها في فمي وحملتها إلى القصر. أقسم لكم إنّني لم أكن قادرة على التنفّس! وبعد ذلك انقلبت الدنيا. ولكن.. كم ضحكنا! كم ضحكنا!». وها هي ذي ضحكتها تجد صدىً لها في ضحكة المستشار الأوّل، الذي أشار إلى درج في الخزانة: «أحتفظ ُبها هنا، لأنّها تجلب لي الحظ. ثمّ إنّ هذا ضربٌ من المصادرة، كما يقول الفوضويون. أنا أيضاً لي الحقّ في بعض المصادرات!». «آه، يا لرئيسي!». «رئيسي السابق، ولدي، رئيسي السابق!». مرّت الشهور بين كستناءات وفريزات، وفريزات وكستناءات، أشجار مكسوّة، أشجار عارية، خضر وصدئة، بينما راح البطريرك، وقد قلّ اهتمامه بالحوادث الخارجية، يقلّص نشاطه ويحدّد حركته ويغلق محيطه. في ذلك العام احتفلوا بعيد الميلاد في العليّة، بين أغانيه المعتادة، أغاني الضرب على الطبل والنقر على الدفّ، التي أصدرتها شركة «فيكتور»، ووجبة الخنزير المشوي وسلطات الخسّ واللفت والنبيذ الأحمر وحلوى الهالاكا والتورّون الإسباني - حسب التقاليد هناك. وتكلّم المستشار الأوّل، والمائدة أمامه منصوبة جاهزة، عن نابليون، الذي كان يكبر في عينيه عاماً بعد عام، ولكن

ليس في ذكرى معاركه في «يينا» أو «أويرشتيد» أو «ڤاغرام»، بل لأنّه سُرَّ إذ علم، من كتاب قرأه، أنّ بونابرت وجوزفين كانا يأكلان في «المالميزون» -وهو من «كورسيكا»؛ وهي من «المارتينيك»؛ وكلاهما أجنبيّ غريب- على طريقتنا، وفق بروتوكول إلميرا: جميع الأطباق موضوعة، حاضرة مصفوفة، مخلوطة، ما برد منها وما ما زال ساخناً، في متناول شوكة كلّ واحد منهم وملعقته، من دون نقل ولا تنقّل، كما يحدث بالتأكيد في بيوت الأثرياء الجدد، حديثي النعمة، ممّن يقلّدون الأميرات اللائي تزوّجوا بهنّ طمعاً في أموالهنّ -وأنا أتكلّم عن معرفة وعلم!-، بين انتظار وتسويف إلى أن يسلبوك شهيّتك ويفسدوا عليك الطعام من كثرة ما يستعرضون ويتظاهرون. أمّا هنا فلك أن تمدّ يدك إلى الزجاجة وتصبّ لنفسك من دون أن يذكروا لك تاريخاً - فكأنّ التاريخ هو كلّ شيء، بينما ما تبحث عنه في النبيذ هو الفرح الذي لا صلة له بسنوات تقلّ أو تكثر. وحين يبلغ المستشار الأوّل هذا الفرح، ينظر نحو قوس النصر وينشد، بصوت عميق وقور، قول فلامبو في «النسر الصغير»: «نحن الذين نسير متعبين وجرحى وقذرين ومرضى»[414]، ليصل بتألّق إلى البيت الأخير -المقرف بالمناسبة- حيث يقدّم لنا رشفة من دم حصان نافق. ولكن، يلاحظ التشولو مندوثا أنّ طفرات متزايدة تظهر مع مرور الوقت في إنشاد الإكس: فلا يبقى من مقاطع الأبيات الإسكندريّة الأربعة عشر غير ثمانية؛ وتسقط إسبانيا والنمسا من الخريطة الشعريّة؛ وتسقط سيوف ومشاعل وعراجين موز وأغاني حرب وغربان مشويّة ورايات وأبواق، على جوانب الطريق الذي يستحضره جندي النخبة ويستلهمه، حتّى تتقلّص تلك النتف المقفاة، في ذاكرة المنشد، إلى الوصفة الصيدليّة الموزونة التالية: «لا نعالج السعال

(414) L'Aiglon: مسرحيّة من تأليف الفرنسي أدمون روستان Edmond Rostand (1868-1918) وهي عن حياة نابليون.

بالخرّوب، بل نحمّم أقدامنا في الدانوب»، وينتهي الأمر بالنشولو مندوثا إلى التصديق بأن هذه الأبيات الأخيرة إنّما علقت بذاكرة المستشار الأوّل، لأنّ «خرّوب» الصدر هو ابن عم أقراص عرق السوس التي كان مولعاً بها. وصار العنصر الاستذكاري ضرورياً، ربّما، فقد كان واضحاً أنّ الآليات الذهنيّة لرجل حاك ودبّر ونسج وحسب وولّف، على مدى مسيرة طويلة، بدأت تضطرب. فهو يصرّح مثلاً، في يوم ممطر، إنّه ليس بخارجٍ من البيت مهما كان السبب، ثمّ لا يلبث أن يقرر الخروج بحجة الذهاب إلى مكتبة بعيدة للحصول على أحد كتب فوستيل دو كولانج[415] أو على مجلّدات تاريخ قنصليات الإمبراطورية العشرين لتيير[167] - حتّى إنّه لا يقلبها حين يعود محمّلاً بها من مشواره المتعب، مزكوماً ومبلّلاً. وفجأة ترد على خاطره، وهو المولع بالمسرح الغنائي، أن يرتدي الفراك ويذهب ليحضر عرض مانون في الأوبرا كوميك، ثمّ يستغرب بعد ذلك من أنّه لم يرَ مفستوفيليس في فصل سان سوبليس. يختلط عنده ما تفعله كارمن مع ما يفعله الحلّاق، لأنهما كليهما حدثا في إشبيلية؛ وتخلط نهاية ترافياتا مع نهاية البوهيميّة[416]، لأنّ تلك المرأة تحتضر، في النهاية، هناك، في حضن عشيقها. وارتكب في كلامه العديد من الأخطاء، كأن يقول إنّ فلوطرخس كان مؤرّخاً لاتينياً أو إنّ ڤيروس الإنفلونزا الإسبانيّة اسمه «بيلوبونيز». ويبدأ فجأة بإملاء مقالة حول الحالة السياسية في البلد، قبل أن يتوقف فجأة، مذهولاً، في قمّة خطابه، بعد أن ينتبه إلى أنّه لن يجد من ينشر له ما أملى. يتكلّم لمجرد الكلام، يعيّن وزراء ويقيل وزراء، يقلّد أوسمة في الخيال، ويخطط لمشاريع أشغال وإعمار، وينتهي ضاحكاً من نفسه حين

---

(415) Fustel de Coulanges (1830–1889): مؤرّخ فرنسي.

(416) La Bohème: أوبرا للإيطالي روجيرو ليونكافالو Ruggero Leoncavallo (1857–1919).

يثوب إلى واقعه، أمام زجاجة من بوجوليه نوڤو مسيو موزارد. صار لديه ولعٌ عجيب بالمتاحف. يذهب إلى «الكارناڤاليه» ليكمل مجموعة لعبه من المقاصل. في اللوڤر، أمام لوحة «تتويج داوود» الكبيرة، يقيم مقارنة مضطربة بين مدام لتيثيا وآنت جميما، جدّة الكولونيل هوڤمان. يزور متحف «غريفان»، ربّما لكي يرى، الله أعلم، ما إن كانوا عملوا له تمثالاً من الشمع في إحدى قاعاته. بدأ التشولو مندوثا يقلق من تخريفات البطريرك حين استيقظ، ذات يوم، كان الخامس من أيّار، وقد ركبته فكرة -انمحت منتصف النهار، لحسن الحظ، إثر خبر وصله من الوطن- أن يرسل باقة ورد كبيرة إلى معاقي الحرب، فقد كانت الذكرى السنوية لوفاة نابليون في سانت هيلينا. ومع ذلك، فثمّة رصانة وقوّة كانتا تضفيان هيبة وأسلوباً على شخص الدكتاتور القديم. هيبة الطغاة وأسلوبهم، الطغاة البائدين؛ هيبة من فرضوا إرادتهم وصنعوا القانون، في مكان ما من العالم. كان يكفيه أن ينام على شبكته، لكي تتحوّل تلك الشبكة إلى عرش. حين كان يتأرجح على حبالها، ورجلاه خارجها -من هنا، هناك، بسحب حبل مخصص لذلك-، كان يتعملق، يكبر، في امتداد خالد تتجاهله موسوعة لاروس الصغيرة. ويتكلّم عندئذٍ عن الجيوش، جيوشه، وعن الجنرالات، جنرالاته، وعن الحملات العسكريّة، حملاته، كتلك -هل تذكر؟ ولكن لا؛ لم تكن أنتَ- في العاصفة، داخل مغارة المومياءات. واستيقظ ذات صباح وهو يعبّر عن رغبته في زيارة متحف «تروكاديرو». وذهب مع التشولو إلى ذلك القصر الكئيب الحزين، بين الطراز السرقسطي والعربي وطراز متحف «بارون هوسمان»، ذي الرواقات الباهتة، والمنارات المزيّفة، حيث يرقد، قبالة رأس كبير من تمثال جزيرة الفصح[355]، حارسٌ فتح أزرار سترته (يبدو أن فكر البطريرك لم يكن على ما يرام ذلك

الصباح، فقد سأل عن اسم النحّات، صاحب ذلك التمثال) وسارا في ممرّات ذلك القصر ودهاليزه، التي راحت تطول وتستطيل وتمتلئ بزوارق على اليابسة، طيور طوطميّة، آلهة تملأ المسامير أبدانها، أرباب موتى لأديان ميتة، رجال من الأسكيمو يكسوهم الغبار، خراطيم من التبت، طبول مكدّسة في الزوايا - طبول متهالكة، انفلتتْ حبالُها وتأرّضتْ جلودُها، وصمتت إلى الأبد، بعد أن كانت نجومَ حفلات ومستمطرات سحب ورسائل ثورات. وهكذا تنقّل المستشار الأوّل من عظم–فقمة–إبرة–خياطة إلى أقنعة الطقوس من «هيبريديس الجديدة»، من التعويذة إلى الصدر الذهبيّ، من جرس الساحر إلى الفأس الحجريّة، ليصل أخيراً إلى مبتغاه: الڤترينة تلك، وسط القاعة، المستطيلة، المنصوبة على قاعدة خشبيّة، حيث كانت تجلس، خالدةً، المومياء تلك -«التي طالما حدثتكَ عنها»- التي عثر عليها في المغارة، ذات ليلة عاصفة. عمارة بشريّة متهدمة، قوامها عظامٌ ملفوفة بأنسجة ممزقة، جلد يابس، مثقب، مأروض، يحمل جمجمة مربوطة بشريط مطرّز؛ جمجمة بتجويفين علاهما تعبير مرعب، وأنف محفور غاضب، على الرغم من غيابه، وفم كبير محشوّ بأسنان صفر، كأنّه مثبّتٌ في وضعيّة صراخ غير مسموع، فوق بؤس من سلاميّات سائبة وأضلاع نافرة وعظام متقاطعة، ما زال يتدلّى منها خفّان ألفيان - بدوَا، مع ذلك، جديدين، إذ ما زالت خيوطها الحمر والسود والصفر موجودة. وما زالت تلك الحاجة هناك جالسة -مثل هناك-، على بعد خطوتين من نصب لامارسييز لرود[75]، مثل جنين عملاق منزوع اللحم، مرَّ بجميع مراحل النمو والنضج والشيخوخة والموت، شيء هو تقريباً شيء، أطلال بدن تنظر من خلال تجويفين، تحت خصل غامقة من شعر مقرف، خصلات مغبّرة متهدّلة على خدّين ناشفين. وعاود ذلك المنبوش،

الملك أو القاضي أو الراهب أو القائد، النظر بسخط، من زمن قرونه السحيق وقرونه البعيدة، إلى أولئك الذين انتهكوا حرمة قبره. وبدا وكأنّه ينظر إليّ، إليّ وحسب، وبدا وكأننا أقمنا حواراً، حين قلتُ له: «لا تشتكِ، أيّها السافل، فلقد انتشلتكَ من وحلك كي أجعل منك آد...». انزعجتُ، دختُ، سقطتُ. أصوات. ناس يصلّون. ووجدتُ نفسي على شبكة نومي، بعد أن أرقدني التشولو والمايورالا. لكنّ ساقيّ لا تطاوعانني. أرى ساقيّ، هما هناك، حيث يجب أن تكونا، إنّهما ساقاي، مع ذلك فهما غريبتان عنّي، هامدتان، خامدتان، تأبيان الحركة. الطبيب هو الدكتور فورنييه، كم شاخ وكبر! فوج الشرف. فوجه. أذكره. أرفع السبابتين إلى أذنيّ لكي يعرف بأني أسمع وأفهم. «لا بأسَ عليك!»، يقول، ويخرج من حقيبته إبرة معقّمة. وتطلّ أوفيليا وإلميريتا بوجهيهما اللذين يلفّان ويلفّان، حول شبكة النوم، يتوافقان ويتكلّمان، وأغفو وأستيقظ. وأشعر بتحسّن. فكّرتُ في بوا- شاربون مسيو موزارد. لكنّهم رفضوا. ليس بعد. الوقتُ ما زال مبكراً. لكن يبدو أنّي لم أشفَ تماماً، وإن شعرتُ بتحسّن هنا، حين يهزّونني في الشبكة، لأنّ أوفيليا وإلميريتا ملأتا غرفتي بصور العذراوات. إنّهن هناك مصفوفات على الجدران، يحطن بي ويحرسن منامي، حاضراتٍ للعناية بي بمجرد أن أفتح عيني: عذراء غوادلوپه، وعذراء الكوبري، وعذراء لا تشيكينكيرا، وعذراء لا ريغلا، وعذراء كوروموتو، وعذراء البايّه، وعذراء ألتاغراثيا، وشفيعة البارغواي عذراء كاكوپي، والراعية الإلهيّة، في ثلاث صور أو أربع مختلفة، شفيعة بلادي، وعذراوات قائدات وعذراوات ماريشالات وعذراوات بيضاوات، وعذراوات هنديات، وعذراوات سوداوات، وكلهنّ شفيعاتنا وسيداتنا، فريدات شفيعات، سيدات نجدة في كلّ ضيق ومرض ووباء وعجز وشدّة، هنا، معي، في بريق من ذهب وفضة ودانتيل،

تحت رفيف أجنحة الحمام، وصفاء درب التبّانة وانسجام المدارات. «الربُّ معي، وأنا معه!» همهم، وهو يتذكّر صلاة الفلّاحين التي تعلّمها في طفولته.. نقاهة. جلبت لي إلميرا بعض الطعام، من أطباقنا: تاكو وتامال وپابوريتو وبيض بصفارين وكاستر بالقرفة، وهو الوحيد الذي أجد فيه بعض المذاق. بدأتُ بالمشي، وإن كان بمساعدة العصا. قال لي الطبيب إنّه سيسمح لي قريباً، ربّما غداً، بأن أعمل جولة قصيرة. بأن أجلس ربّما على مصطبة في جادة «بوا»، بالقرب من أحواض زهر الدلبوث. أتأمّل الكلاب، كلاب البيوتات الراقية، في لعبها ومرحها، تحت رقابة خدم ترسلهم معها تلك البيوتات. ثمّ سأذهب في التكسي، لأنّ البدن يأمرني بذلك، إلى بو١-شاربون. وأتذكّر فجأة أنّني منذ وقت، منذ وقت طويل، لم أمارس الحب. متّى كانت المرة الأخيرة؟ كانت مع إلميريتا. أمّا الآن، فكلّ ما أطلبه منها هو أن ترفع تنّورتها قليلاً، وهو ما تفعله ببراءة. يريحني أن أتأمّل، من حين إلى آخر، ذلك اللحم المتماسك المتدرّج في ظلّه، العميق المعطاء: ففيه طيبة تفصحُ عن نفسها. ما أقلّ ما تغيّر ذلك منذ أيام نضجي البهيّ، وأجدُ، وأنا أنظر إليه، براعم من معنويات تساعدني على مواصلة هذه الحياة السافلة. فأنا لم أُهزَم. لا. ها أنذا أقوم بجولتي اليوميّة. كلّ يوم في مكان أبعد قليلاً من البيت. وفكّرتُ ذات يوم، لا أدري لماذا، في الذهاب إلى مقبرة «مونپارناس»، حيث يرقد رفيقي پورفيريو ديات[3]. (من هنا، عبر النافذة، أشاهد بيت الوزير ليماتور). ذهبنا، إذاً، إلى المقبرة -حيث يرقد أيضاً موپاسان، صاحب القصتين الشهيرتين، المقروءتين والمقلّدتين كثيراً في بلدنا- أنا والتشولو وإلميرا. اشترينا زهوراً من محلّ قريب من ورشة الرخام «جوفان». وقادنا البوّاب، وكان يرتدي ثوباً أزرق بحريّاً، كما يلبس حارس «التروكاديرو»: «هذا القبر عليه إقبال كبير» [كذا].

ومررنا من أمام بودلير الذي دفنوه، ويا للغرابة، قريباً من الجنرال أوپيك. وها نحن نقف أمام ضريح دون پورفيريو. عند الضريح شيء شبيه بمصلّى قوطي -كنيسة صغيرة أو قفص كلاب عملاق، رمادي-مقوّس- حيث وُضعت، في مذبحٍ نُصب تحت مكان ظهور عذراء تيپيياك، حفنةٌ من تراب المكسيك محفوظة في صندوق من الرخام. وفوق ذلك الضريح الوسيط 1915، يقوم الحضور الأسطوري الدنيوي لنسر أناهواك وحيّتها... أفكّر في الموت. في بودلير، القريب جداً، لكنّي لا أقدر على تذكّر أبياته تلك -الذاكرة باتت تخونني- التي تتحدّث عن عظام نخرة وحفرة عميقة لبدن هو أكثر من ميت، هو ميت بين الأموات. أتمنّى أن أُدفن هنا، حين تحين ساعتي. حاولتُ أن أطلق نكتة مناسبة للمشهد، لكي أثبت للآخرين أنّي لا أهاب الموت. لكنّي لم أتذكّر أيّ نكتة. عدنا صامتين إلى شارع «تيسليت». وعانيت ذلك المساء من شلل جديد في الساقين. وتلك الذراع اليسرى المتصلّبة. وقطرات العرق الباردة، المفاجئة، التي تنساب على قفاي وعلى جبهتي. وهذا السيخ المؤلم الذي ينفذ إلى صدري، من حين إلى حين، فوق لحمي، في الخارج، لا تحته. يطلب منهم الدكتور فورنييه أن يضعوني على سرير. يقول لهم إنّ الشبكة ليست سريراً: هي شيء من الفولكلور، من تراث الهنود، رواية من روايات فينيمور كوپر[417]. يا لعجرفة هؤلاء البشر! يريدون أن يحشروني في حجرة لويس الثالث عشر، لكي أختنق تحت مظلّة، أو في سرير يشبه أسرّة «المالميزون». إنّي لأتساءل كيف كان نابليون يستطيع أن يحضن جوزفين على ذلك السرير الضيّق القصير. وأخيراً يقررون أن ينيموني في شبكة النوم العريضة، التي تتكيّف على ثقل جسمي - جسم أحسّه مليئاً بالخردق. أنام. وحين أستيقظ، يقول لي

---

(417) Fenimore Cooper (1789-1851): كاتب وروائي أميركي. تدور أحداث رواياته الرومانسية التاريخية عن حياة الهنود الحمر.

التشولو إنّ أوفيليا وإلميريتا ذهبتا لتوفيا بنذر نذرتاه إلى القلب الأقدس من أجل شفائي العاجل - و«الأكيد»، أضاف. لقد خرجتا فجراً وقد ارتدتا ثياب التائبين -ثياب «النذر»، كما يقولون هناك-، عباءة بنفسجيّة ونعالاً، بلا قبعة ولا شال، رغم المطر، وقد شدّتا الشريط البرتقالي على الخصر وصعدتا تلة «مونت مارتري» وجثتا على مقاعد القطار، قبل أن تذهبا، سيراً على الركبتين، تحملان شمعة، من درج مذبح الكنيسة الكبير. عدتُ إلى النوم. (هناك، في مونت مارتري، وعند الخروج من المعبد، أصرّت لامايورالا على أن تضع زهوراً عند قدمَيْ قديس يقع على جهة اليمين، وحيداً بلا حماية، ويبدو رحيماً صالحاً، لأنّهم وضعوه في مكان منعزل بارز مربوط إلى عمود، يعيش شهادته وتضحيته بروحه. جثت على الرصيف المبلّل. صلّت. لكنّ أوفيليا أنهضتها بعنف وأخرجتها من حالة الخشوع التي كانت غارقة فيها، بعد أن قرأت الكتابة التي نُقشت أسفل ذلك القديس: «إلى فارس البارّي، الذي عُذِّب وقُطع رأسه وأُحرق وهو ابن تسع عشرة، في الأول من تموز من عام 1766، لأنّه لم يرفع قبعته تحيّة لموكب». إن إلميرا لا تفهم كيف يمكن أن يقام نصب لكافر قريباً من الكنيسة. وترفض أوفيليا، غير المستعدّة لأن تتعب نفسها، الدخول في شرح لن تفهمه الزامبا على أيّ حال، لأنّها لا ترى في تعبير «المفكّر الحر» إلا مرادفاً للفوضويّة أو جمعيات السود السريّة أو السلطة أو شيء من هذا القبيل). أصحو. تطلّ أوفيليا عليّ، ببدلتها التي ذهبت بها لتأدية النذر، وإلميرا، التي ترتدي مثل تلك الملابس، وإن هزّت نهديها بحركة آليّة تميّزها، متناسية حرمة الملابس التي عليها. وتظهر الصورة الجديدة لراهبة من راهبات سان بيثنته دي پول -هذه المرة حقيقية- تَخزُني بإبرة في ذراعي اليمنى. قلنسوة منشّاة وياقة منشّاة وصدريّة منشّاة؛ لون القفطان الأزرق، زرقة النيل المغسول، تجعلني أفكّر في زرقة «بدلة العمل الزرقاء»

-الأوڤرول الأميركي الذي صار يرتديه العمّال في بلدي- والذي يسمّونه هناك أيضاً «علبة الشموع». الشموع التي أوقدوها أمام عذراوات حجرتي؛ شموع، أوقدت للتوّ، فبدأتْ تتصبّب دمعاً؛ شموع حمرٌ، مضيئة، من تلك التي تطفو على بركة من الزيت. تلك التي لن يلبثوا أن يوقدوها لي. أرى ذلك في وجوه انعكست عليها صفرة لهيب الشموع الكثيرة، وجوه تنحني على الشبكة التي أنام عليها، تنظر إليّ وعليها ابتسامة مصطنعة، في جوّ تشيع فيه رائحة الدواء. أنام. أستيقظ. أحياناً، حين أستيقظ، لا أدري ما إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً. أجاهد. على يميني صوت تيك-تاك. كم الوقت؟ السادسة والربع. ربّما لا. لعلها السابعة والربع. أقرب. الثامنة والربع. قد يكون هذا المنبّه أعجوبة من أعاجيب صناعة الساعات في سويسرا، لكنّي أكاد لا أرى عقاربه من فرط دِقّتها. التاسعة والربع. ولا التاسعة والربع. النظّارات. العاشرة والربع. نعم، أظنّ أنّها العاشرة والربع، لأنّ -أنتبه إلى ذلك الآن- النهار يبدو بلون الضحى من فوق الستائر التي وضعتها لامايورالا لتخفف من حدّة الضوء الذي يسقط هنا، في العليّة، من كوّة السقف. أفكّر في الموت، وهو ما يحدث لي كلّما استيقظت. لكنّي ما عدت أخاف الموت. سألقاه رابط الجأش، ثابتَ الجنان، وإن كنتُ أعلم، منذ وقت، أنّ الموت ليس معركة ولا مبارزة -كلام إنشاء- بل إلقاءٌ للسلاح، هزيمة مقبولة، تشوّقٌ إلى النوم تجنّباً لألمٍ ممكن دائماً، مهدّد دائماً، مع ما يرافقه من إبرٍ معقّمة، وعذاب سيباستيان[418] -بدن منتفخ ومتورّم-، روائح الدواء في الأنف، ولعاب من رمل وأنابيب الأوكسجين، وفيها كلّها إعلان عن قرب النهاية، حالها حال زيت المسحة الأخيرة. كلّ

(418) عُذّب سيباستيان بسبب إيمانه حتى ظنّوه ميتاً. وحين اكتشف أصدقاؤه أنّه ما زال حيّاً عالجوه ونصحوه بالهرب، لكنّه عاد إلى القائد الروماني ليبلغه بأنّه ما زال حيّاً، فعاود هذا تعذيبه حتى قضى عليه.

ما أتمناه هو أن أنام من دون آلام في بدني - وإن أقلقني التفكير في شلّة السفلة الذين سيفرحون هناك حين يبلغهم خبر موتي. على أيّ حال، عليّ أن أصوغ عبارة تخلّدني بعد أن أبلع الخازوق. عبارة. قرأتها على الصفحات الورديّة لموسوعة لاروس المصغّرة: «المشهد انتهى»[419].

«ماذا قال؟»، سأل التشولو مندوثا. «تكلّم عن حكاية»، قالت أوفيليا. «إيسوپ، لافونتين، سامانييغو؟»[420]. «تكلّم أيضاً عن شهادة». «بات الأمر واضحاً -قالت لامايورالا-: طلب ألّا يُدفن من دون شهادة وفاة. إنّه التخشّب (صحيح: وهو أخشى ما يخشاه الفلّاحون هناك). في قريتي حدث مرّة أنّهم دفنوا أحدهم بعد أن ظنّوه مات، لكنّه لم يكن مات، لذلك فقد صحا في التابوت، وتمكّن من فتح غطائه، لكنّه لم يتمكّن إلا من إخراج يده من بين التراب. ووقع حادث آخر، في "لا بيرونيكا"». كان اليوم يوم أحد. أغمضتْ أوفيليا عيني أبيها وغطّته بملاءة تدلّت على طرفي الشبكة، كما يتدلّى شرشف الطاولة، حتّى لامست الأرض. فتحت الدرج الذي حفظت فيه ماسة الكابيتول: «سأُبقيها عندي، من أجل ضمانة أكبر. حين يستقرّ الأمر ويستتبّ النظام في وطننا المبتلى ولا يعود في مقدور الغوغاء والشيوعيين أن يسرقوا هذه الجوهرة، سأذهب أنا بنفسي لأعيدها إلى مكانها الجدير بها والجديرة به، عند أسفل تمثال الجمهوريّة». وبانتظار ذلك الحدث، نزلت الماسة في حقيبة الأميرة، لتؤشّر، مبدئياً، وهي بين

(419) Acta est fabula: هذه العبارة اللاتينية تعني «المسرحية أو المأساة Acta انتهت fabula». لكنّ للكلمتين في الإسبانية معنى مختلفاً: Acta لها في الإسبانية معنى «محضر»، وfábula معناها في الإسبانية «الحكاية». ومن هنا الفرق في التفسير: هو قال «المسرحية انتهت»، وفسّرت لامايورالا، وهي أميّة، العبارة بأنّها «محضر وفاة» أو «شهادة وفاة».

(420) أسماء تشير إلى أشهر من كتب القصص والحكايات الخرافية.

علبة البودرة وقلم أحمر الشفاه، النقطة صفر لجميع الطرق الخارجية للوطن البعيد. أمّا الآن، فقد كانت أوفيليا في عجلة من أمرها: «ليتكفّل التشولو بموضوع الشهادة. أنا لا أفهم في هذه الأمور. ولا تعلنوا عن الوفاة إلا غداً. اليوم هو يوم الدراغ كوين[62]. عليّ أن أرتدي ملابسي». وسرعان ما حدث هرج ومرج. علا صخب حدوات خيول وعجلات عربات أمام بوابة الشرف. أطلّت إلميرا من إحدى النوافذ: رأت ما يشبه عربة بسقف ونوافذ صغيرة تجرّها أربعة أحصنة، وقد تسلّق سطحها ناسٌ، وكأنها ذاك الباص الذي تجرّه البغال، والذي كان، أيام طفولتها، يغطي الطريق بين قرطبة الجديدة والپالمار دي سيكيره. «يا لهم من متخلّفين!»، فكّرت الزامبا. ورأت أوفيليا تخرج، وهي ترتدي ثياباً فاتحة الألوان، وتصعد في العربة، بعد أن فتحت مظلّة بيضاء. فرقعت السياط وانطلقت الأحصنة تخبّ وسط ضجيج من ضحك وانبساط. شمعة، موضوعة في شمعدان من الفضّة، تضيء كلّ جانب من جوانب الشبكة التي سُجّي عليها جثمان المستشار الأوّل. راحت راهبة سان بيثنته دي پول تصلّي المسبحة الورديّة. في الخارج، كان الطفل-البطل، ذو الخصيتين المكشوفتين، يعرضهما للشمس كي تتحمّصا. «يا للفحش!»، قالت إلميرا، وهي تغلق النافذة لتبدأ بإلباس المتوفى، الذي سيسجّى تحت، في القاعة الكبرى. على ظهر كرسي من الكراسي كانت تنتظر آخر بدلة أمر المستشار الأوّل بخياطتها له عشيّة مرضه، كانت واسعة على جسمه الذي أصابه الهزال. لكن ذلك سيسهّل عمليه إلباسه بها - مع الوشاح الأحمر العريض الذي ظلّ، لسنوات طويلة، رمز منصبه وسلطته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

اللبلابُ ليس مستعدّاً لأن يرتفعَ إلى ما فوق الأشجارِ التي تسنده[421].

مقال عن المنهج

(421) «مقال عن المنهج» Discours de la méthode، ترجمة: الخضيري، ص198.
طبعاً فالدكتاتور، من دون داعميه وسانديه، يسقط. [Ortiz, 41].

1972

تمهّلوا قليلاً في تأمّل هذه الفوضى![422]

ديكارت

(422) «العالم أو كتاب النور» Traité du monde et de la lumière، ترجمة: إميل خوري، ص79. وفي هذا إشارة إلى الواقع وإلى ما ينتظر العالم. [CDC, 223].

اثنان وعشرون

يقع الضريحُ الصغير، بعموديه الدورسيين، في مقبرة «مونپارناس»، ليس بعيداً عن قبر الرئيس پورفيريو دياث، قريباً من قبر الشاعر بودلير والجنرال أوپيك. لقد بات لونه رمادياً من كثرة ما هطل عليه من مطر وسقط عليه من ثلج، فضلاً عن إهمالٍ عمرُه سنوات. من يتأمّل داخله، من خلال السور الأسود الذي يحرسه بابٌ زجاجي مؤطّر بمعدن مذهّب، يمكنه أن يرى مذبحاً بسيطاً فوقه صورة للراعية الإلهيّة - نسخة من صورتها الموجودة في كنيسة قرطبة الجديدة. أسفل الصورة، تحت إكليلٍ من الورود وملائكة الكاروبيم، هناك صندوق من المرمر، تحمله أربعة من نمور الجاغوار، وبداخله حفنة من تراب الوطن الطاهر.

لكنّ الكثيرين يجهلون أنّ أوفيليا، التي ترى أنّ الأرضَ واحدة، وأنّ ترابَ الأرض هو ترابُ الأرض في كلّ ناحية ومكان -تذكّر أيّها الإنسان أنّك تراب وإلى التراب تعود[423]- أخذتْ حفنة التراب المقدس الطاهر ذاك، الترابَ الذي تحرسه نمور الجاغوار الأسطوريّة الأربعة تلك، من أحد أحواض الزرع في حديقة «لوكسمبورغ» الباريسيّة.

---

(423) سفر التكوين 3:19. والعبارة باللاتينية في الرواية.

آلِخو كاربنتييه (1904-1980):

كاتب كوبي وُلد في سويسرا من أبٍ فرنسيّ وأمّ روسية، وتخرّج في جامعة هاڤانا مهندساً معمارياً. ثم تخلّى عن هذه المهنة ليعمل ناقداً فنياً. وسُجن عام 1927، ولمّا أُطلق سراحه رحل إلى أوروبا وعمل سنين طوالاً في فرنسا، كان فيها على اتصال بالفئات الطلائعية. وشارك بصفته ناقداً فنّياً في كثير من الصحف والمجلّات. وكتب أغاني وأوبريتات فُكاهيّة ونصوصاً للأوبرا. ثمّ أقام من عام 1945 حتى 1959 في كاراكاس عاصمة ڤنزويلا، وعاد إلى كوبا بعد انتصار الثورة الكوبية. توفي عام 1980.

من أعماله: عصر الأنوار، المطاردة، كونشرتو بارّوكي، مملكة هذا العالم، الوتر والظلّ. إضافة إلى كثير من المقالات والبحوث.

بسّام البزّاز:

مترجم عراقي من مواليد 1952. حائز على الإجازة في الأدب العربي، والدكتوراه في اللغة الإسبانية.

له العديد من البحوث في اللغة الإسبانية والأدب الإسباني.

عمل في جامعات بغداد ودمشق وفي معهد ثربانتس بدمشق وبيروت، ويعمل الآن أستاذاً في جامعة الجزائر الثانية.

ترجم عدداً من الأعمال الروائية عن اللغة الإسبانية، منها: «طائر الليل

البذيء» للتشيلي خوسيه دونوسو، «الرجل الذي كان يحب الكلاب» للكوبي ليوناردو بادورا، «الكوخ» للإسباني بيثنته بلاسكو إيبانيث، و«ثلاثة نمور حزينة» للكوبي غيّرمو كابريرا إنفانته.

صدرت بترجمته لدى داري «سرد» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: «الرأس الحليق» للكاتب الإسباني خيسوس فرنانديث سانتوس، «أسلوب المنهج» و«كونشرتو باروكيّ» للكاتب الكوبي آلخو كاربنتييه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

قصة ديكتاتور آخر من أميركا اللاتينية، إلا أنه في هذه الرواية ديكتاتور مثقف متنوّر، يصادق أكاديمياً وشاعراً وأديباً في باريس، ويحضر عروض الأوبرا، ويزيّن قصره باللوحات الفنية. لكنه على "علو ثقافته" فاسد مفسِد، يفعل كلّ شيء للبقاء في سدّة الحكم، فيحوك المؤامرات ويرسم المسرحيات، لأنه يعرف أنه من دون الكرسي لا يساوي شيئاً.

أراد "كاربنتييه" أن يكون عنوان روايته "أسلوب المنهج" متناظراً مع عنوان كتاب ديكارت: "خطاب المنهج". وبينما يضع الفيلسوف نظريته عن المنهج ويداه في الماء البارد، فإن تطبيقها يظهر هنا ساخناً ملتهباً مسوماً بالحديد والدم والنار، فيعالج الكاتب الكوبيّ شخصية الطاغية من الداخل، متأملاً نفسيته، داخلاً إلى تلافيف عقله، بكتابةٍ جريئة في تصوّراتها، غنيّة بتفاصيلها الخصبة، ومبتكرة في تقنيات سردها.

ISBN 978-9933-641-28-3
9 789933 641283

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع